

السيدجمال الدين الحسيني ـ الشيخ محمدعبده

العروة الوثقى

اعدادو تقديم :

سيدهادى خسروشاهى

بسم الله الرحمن الرحيم



السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني
الشيخ محمد عبده

العروة الوثقى

إعداد وتقديم
السيد هادي خسروشاهي

الآثار الكاملة
(١)





العروة الوثقى

السيد جمال الدين الحسيني (الافغاني)

الشيخ محمد عبده

اعداد و تقديم: سيدهادى خسروشاهى

(طبعة مزيدة بالفهارس)

الطبعة الثانية: ١٤٢١ هـ ـ العدد ـ ٢٠٠٠ نسخة

العنوان: ايران ـ طهران: مجمع جهاني تقريب مذاهب اسلامى، بزرگراه رسالت، مقابل ضلع شمالى مصلى مجتمع امام خمينى(ره) ساختمان شماره ١٢. تلفن: ٨١٥٣٢٦٣ ـ فاكس: ٨٨٤٨٩٧٤

الفهرست :

باب النتف والأخبار

جمال الدين الحسيني

حياته ونضاله

سيّد هادي خسرو شاهي

بسم الله الرحمٰن الرحيم

مقدمة

حين تغفو بعض الأمم لفترة من تاريخها يعبث بمصيرها أبالسة جهنم وزبانية سقر ولا تستفيق حتىٰ يمنّ الله عليها برجال يعرفون الحق ويتّبعون سواء السبيل حاملين في أعناقهم رسالة تدعو الىٰ الاصلاح والتوحيد للنهوض بهذه الأُمة من جديد، محاولين تخليصها من تسلّط العتاة وتحكّمهم وتجبّر المستكبرين واستعلائهم معيدين لهذه الشعوب تصورها الصحيح للعقيدة عبر صراع شديد وطويل مع الفئات الباغية، كي تستوي كلمة الحق وتعلو بعد ان تنهار الممالك والعروش التي قامت خلال هذه المدة من الزمن .

وكلما بعث الله مبشّراً ونذيراً قام له مناوئون وكلما جاء رجل صالح هبّت لمحاربته زبانية من عبدة الطاغوت حتى اذا اكتملت الصورة بدا الصراع بين الخير والشر واضحاً مجسداً برجل بسيط مؤمن قد هداه الله الصراط المستقيم وبين مؤسسات وأجهزة وسلطات وعروش لايهمها سوىٰ عَرَض الدنيا ولا تحسب للآخرة أي حساب.

ولقد جاء التاريخ بأمثلة كثيرة وأنبت رجالاًكثيرين وشهد صراعات مريرة لا تنتهي بين الخير والشر. لا تنتهي لأن الحملة المسعورة التي يشنها الفجّار تبقى مستمرة حتىٰ بعد موت الصالحين،ويبقى همّ المستكبرين تحطيم الصورة المثلىٰ للقدوة

الصالحة كي لا يكون له أدنىٰ تأثير علىٰ الأجيال التالية بعد موته لذلك تعمد الفئة الباغية دائماً علىٰ تفتيت الأرضية الصلبة التي خلّفتها الدعوة لله وذلك من خلال التشكيك بصاحبها من جهة والافتراء والتزوير في أعماله وأقواله من جهة أُخرىٰ.

من هؤلاء واحد تعرّضَ في حياته لما تعرّض ويتعرّض بعد موته وفي الخمس سنوات الأخيرة من أيامنا الىٰ حملة افتراء منظّمة، تحاول النيل من تاريخه الجهادي وتراثه الفكري ومنهجه الاسلامي بالاستناد الىٰ معلومات ملفّقة ووثائق مزوّرة من جهة، وبالتشكيك في سلوكه السياسي وعلاقاته المتنوعة من جهة اخرىٰ.

لقد امتدت يد الاثم مرة اخرىٰ الىٰ العالم المناضل السيد جمال الدين الافغاني فحاولت ان تنسب الىٰ اسمه وأصله ومكان ولادته تشويهات ما أنزل الله بها من سلطان الىٰ درجة اصدار كتاب عنه تحت عنوان «ايراني غامض في مصر» !!.

ونحن في هذه المقدمة لا يهمنا علىٰ الاطلاق ان يكون الأفغاني من مواليد ايران أو افغانستان، لأن الحكم علىٰ الرجل يأتي من خلال جهاده الطويل وفكره السليم ودعوته المستمرة لتحقيق وحدة المسلمين .

ولكن يهمنا ان نعلن وبصراحة اسلامية بأنّ هذه الاقلام المحسوبة علىٰ الاسلام والمعنة في نبش تاريخ اعلام الثورة الاسلامية ـ وخاصة جمال الدين ـ لاتريد الا ضرب الصحوة الاسلامية ـ قبل تبديلها بالثورة الاسلامية ـ وفي كل مكان، ولكن كيف وبأي وسيلة ؟

فالهجوم علىٰ شخصية السيد جمال الدين الحسيني وجهاده، تحت ستار «الدراسة الاكاديمية» ! ثم تعريب ونشر أكاذيب الكاتبتين : الاميركية «نيكي كديّ» والايرانية «هما ناطق» لا يأتي إلاّ لأجل تشويه سمعة السيد بين الشباب الثوري المسلم، فهم لايبغون إلا ان يقولوا لشباب مصر، جيل الشهيد سيد قطب وخالد الاسلامبولي، بأنّ الخط الجهادي ـ الاستشهادي ـ الذي تسيرون عليه ضد نظام الحكم ليس بأصيل بل انه يمتد الىٰ جذور «ماسونية» !!

وليقولوا للمسلمين في الباكستان والهند وافريقيا الشمالية، بأن اطروحة السيد، في الكفاح ضد المستعمر لا تمثل طموحاتكم في تحقيق العدالة الاجتماعية.

ويقولوا للمسلمين العرب والافغان بأن السيد كان شيعياً ايرانياً غامضاً! وعلىٰ من يريد انتهاج درب جمال الدين أن يفهم انه يرتبط بحركة اسلامية غير سنّية!

ويقولوا للايرانيين، بأنّ السيد كان افغانياً سنيّاً! فما بالكم بالاهتمام به وبافكاره ...؟! ولكن الاسئلة المتتالية، قد تبقى في ذهن الشباب، وفي كل مكان: اذا كان السيد ماسونياً فلماذا كانت تطرده الطواغيت ومن كل بلد؟ واذا كان طائفياً فكيف كان مع الشيعة في ايران والعراق، ومع السنّة في افغانستان والهند ومصر و...؟ واذا كان ايرانياً طائفياً! غامضاً، فلماذا كان يفكّر في وحدة المسلمين، واذا كان افغانياً سنيّاً فكيف يحرّض علماء الشيعة في ايران والعراق للقيام بالثورة ضد الطواغيت والاستعمار؟ واذا...

والشباب، شباب الثورة الاسلامية يجيبون علىٰ هذه الاسئلة وغيرها بأنفسهم، رغم ما يكتبه «كتّاب السلاطين»:

فالسيد الحسيني لم يكن ايرانياً ولا افغانياً ولا مصرياً ولا عراقياً ولا... ولا... بل كان عالماً مجاهداً، اسد آبادياً وكابولياً واسلامبولياً ـ كما جاء في تواقيعه المتعددة ـ لأنه وقف ضد الطغاة في كل مكان وطالب باقامة الحكم الاسلامي والوحدة الاسلامية ودعا لنصرة المسلمين في افغانستان والهند ومصر والسودان.. وكان مصرياً وسودانياً أيضاً حيث واجه الاحتلال البريطاني لمصر والسودان (راجع مقالاته في العروة الوثقىٰ)، وقبل وبعد هذا كله فهو كان حسينياً كربلائياً، لأنه رفع راية الرفض ورفرف علم الحرية وقد تسلّمها من جده الشهيد الامام الحسين (ع) وبذلك كان السيد الحسيني، اسلامياً يدافع عن كل العالم الاسلامي، ولأجل هذا فهو حيٌّ في ضمائر الشباب في كل من مصر والعراق وايران وافغانستان والهند وباكستان وتونس والمغرب... وفلسطين وفي كل خلية تنبض بالرفض لكل أنواع

التبعية والاستعمار.

أجل، ايها الاخوة !، سوف يبقى جمال الدين الحسيني الرمز الثائر بين الشباب، رغم الأقلام الفاسدة التي تريد اغتيال فكره وجهاده ـ بعد اغتياله جسدياً بواسطة عملاء الطاغوت ـ لتنتزعه من قلوب الشباب الثائر لأنه كان يرجو المسلمين بأن : «يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين» ولأنه كان يعلّم دائماً : «فلابد اذن من بعث القرآن وبث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت، من حيث يأخذ بهم الى مافيه سعادتهم دنيا وآخرة..».

... يريدون اغتياله نهائياً، لأنه قال: «خير لون لراية الاستقلال دماء المجاهدين الأبطال» وهذا ما يخشاه الطواغيت ! وتريد الاقلام المرتزقة نفيه على الاطلاق والى الأبد !..

.. واذا كان السيد الحسيني قد توفي دون تحقيق حلم الوحدة بين المسلمين، واقامة الحكم الاسلامي في البلاد، فإنّ الفكرة بقيت حيّة عند الضمائر الحيّة وكان لها الصدى في قلوب الامة، حتى نجحت الثورة الاسلامية الكبرى في ايران، بقيادة الامام الخميني، وكانت الضربة القاضية القاسية لعروش كل الطواغيت والسلاطين وعَبَدَتهم، من الكتّاب والوعّاظ الذين كانوا ـ ولا يزالون ! ـ يعيشون في عالم الاضغاث والاحلام !...

* * *

واليوم وبعد مرور الذكرى المئوية لصدور جريدة «العروة الوثقى» وهي المجلة الاسلامية العالمية الأولى التي أصدرها الافغاني بالتعاون مع تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده، وكرد على حملات التشويه والافتراء، نعيد طباعة المجموعة الكاملة (١٨ عدداً) مع نبذة صغيرة عن حياة العالم المناضل وأفكاره، وذلك كهدية للعالم الاسلامي ودفاعاً عن الحق والعدل وخدمة للتاريخ.

العدد الثالث عشر — السنة الأولى

مدير السياسة
جمال الدين الحسيني الأفغاني
Directeur Politique
DJEMAL-ED-DIN EL-AFGHANI

المحرر الأول
الشيخ محمد عبده
Rédacteur en Chef
CHEIKH MOHAMED ABDO

[illegible]
6, rue Martel, à Paris



جريدة سياسية أدبية
تصدر يوم الخميس



يوم الخميس في ١٧ رمضان سنة ١٣٠١ — ١٠ يوليو سنة ١٨٨٤

باريس في ١٠ يوليه

[illegible]

[illegible]

[illegible]

حياة الأفغاني ونضاله

في حياته كان مالئاً للدنيا وشاغلاً للناس، وبعدما يقرب من قرن علىٰ وفاته لم يزل بتوقّده وتوهجه مالئاً للدنيا وشاغلاً للناس. في حياته كان صديقاً للعامة، للفقراء، وكان قريباً من الحكّام والوجهاء والقادة، وبعد قرن علىٰ وفاته، لم يزل في صف الناس ـ عامة الناس ـ وان اختلف حوله القوم ومن يمثّلهم.

عاش حياته القصيرة محلّقاً كنسر شرقي، يطوف بالبلاد والحواضر، وطموحه يكاد يحيط بكل البلاد والحواضر، حمل هموم الأمة وكأنها عائلته الصغيرة، وعمل لمشروع نهضتها وصعودها في كل دقيقة من عمره وكأن ما يعمل له كان قاب قوسين أو أدنىٰ. ومات كأبطال الأساطير بعد ان اثقلته أحزان الاحباط والفشل والوحدة.

كان حراً شريفاً أبيّاً. ومما يثير الحزن انه مات متألماً وحيداً ولم يكن يدري ان مشروعه ما كان ينتهي بل كانت تلك بدايته فقط... أو لعلّه كان يدري.

ان الرجل الذي يدين له كل الاسلاميين اليوم من «ارخبيل الملايو» الىٰ «وادي الذهب» بأنه حامل بذرة البداية وحاضنها وناثرها في كل البلاد، انه السيد جمال الدين الأفغاني ـ الأسد آبادي.

■ الصقر المحلّق :

كان مولده في أسد آباد حوالي ١٨٣٨ م، وفي السنين الأولىٰ من عمره كان يجلس في النجف للدراسة وبعد خمس سنوات يعود الىٰ بلدته وفي نيته الذهاب للهند لإكمال دراسة العلوم والمعارف التي لم يستطع دراستها في العراق وقد سأله والده البقاء والاكتفاء بما تعلّم ولكن طموحه العظيم كان يدفع به الى قدره، قال : «انني كصقر محلّق، يرى فضاء هذا العالم الفسيح ضيّقاً لطيرانه ! وانني أتعجب منكم اذ تريدون ان تحبسوني في هذا القفص الضيّق الصغير».

كان القرن التاسع عشر قد بدأ في قطع سنوات نصفه الثاني حين بدأ جمال الدين رحلته الطويلة المرهقة، وكانت أوروبا قد سارت شوطاً هائلاً في مشروعها التصنيعي الداخلي ومشروعها الاستعماري الخارجي، لقد زحف الغرب الاستعماري على العالم فاحتل معظم اجزاء افريقيا والهند وشمال افريقيا الاسلامي ـ ما عدا ليبيا ـ وكان يطمح الىٰ ان يدمّر ما تبقىٰ من الوطن الاسلامي بتدمير الدولة العثمانية. وبالتالي بسط هيمنته علىٰ كل العالم القديم. وفي كلكتا حيث قضىٰ الافغاني حوالي العام في العلم والدراسة كان واقع الرحلة يحيط به من كل الجهات. وقد مضى من الهند الى جدة حاجّاً وهو في حوالي التاسعة عشرة من عمره ومنها الىٰ النجف وكربلاء ثم الىٰ بلدته اسد اباد والىٰ طهران ثم خراسان ومنها قرر التوجّه الىٰ افغانستان حيث استقر في كابول وبدأ حياته العامة هناك ـ كما يقول محمد عماره ـ ألف أول كتبه حول تاريخ افغانستان وقد كتبه بالعربية وسمّاه (تتمة البيان في تاريخ الافغان).

كانت افغانستان في ذلك الوقت ميداناً للدسائس الانكليزية، حيث كان الاستعمار البريطاني يأمل السيطرة عليها باذكاء الصراع بين امرائها وشحن أحدهم ضد الآخر، وقد دخل الافغاني الىٰ حمىٰ الصراع الذي كان طرفاه حينها الامير دوست محمد خان، وثيق الصلة بالاستعمار البريطاني، والامير محمد أعظم

خان الذي كان معادياً للانكليز، وقد انحاز الافغاني لجانب المعادي للانكليز وكان ذلك أول موقف سياسي له وأول خيار واع لازمه حتىٰ نهاية حياته.

استمرت حياة الافغاني في افغانستان حتىٰ ١٨٦٨ م، اثناءها تولىٰ منصب الوزير الأول ـ كما يقال ! ـ في حكومة الامير محمد أعظم خان وخاض حرب ١٨٦٢ م ضد دوست محمد خان وجماعته، وقد انتقل التأييد الانكليزي بعد وفاته، الىٰ شير علي خان الذي استطاع اخيراً ايقاع الهزيمة في معسكر محمد أعظم وكان ذلك مقدمة الشدّة علىٰ الافغاني الذي عزل من كل مناصبه وعاش محاصراً مراقباً في كابول الىٰ ان وافقت الحكومة علىٰ طلبه بمغادرة البلاد مشترطة عدم ذهابه الىٰ ايران حتىٰ لا يلتحق بمحمد أعظم الذي كان يعيش منفياً فيها.

ولم يكن امامه من طريق إلا الهند حيث كان الانكليز يحتلون البلاد ويحتفظون له بملف عدائه ومحاربته لنفوذهم في كابول. ورغم استقبال العلماء والوجهاء وقادة الرأي من المسلمين الهنود له ورغبتهم في لقائه والالتفاف حوله وهو الذي سبقته اخباره اليهم إلا ان حكومة الهند البريطانية لم تكن مطلقاً على استعداد لتحمّل بقائه، وبعد أشهر فقط من وصوله الى الهند كان الانكليز يركبونه احدىٰ سفنهم المسافرة الى مصر سراً حتىٰ لا يثار الناس.

وفي العام ١٨٦٩ م وصل السيد جمال الدين الافغاني الى القاهرة، وكانت تموج يومها بالأحداث والتيارات، مابين اوروبا الزاحفة ببريق مدنيتها وصعودها المادي والاستانة حيث الانتماء التاريخي السياسي وحلم بقاء الاسلام والمسلمين، وما بين امة تريد حقوقها في الحرية الحقيقية والعدالة وقصر الخديوي المتردد بين الخوف على السلطة وأحلام الامبراطورية التي غذتها جغرافيا مصر ومركزها العظيم.

وفي القاهرة التفّ حوله الناس، من طلاب الأزهر الىٰ كبار رجال الدولة والسياسة ولكن مشروعه كان يتبلور في ذهنه والصقر المحلّق الساكن، روحه يدفعه

الىٰ موقع آخر، كان جمال الدين الافغاني قد بدأ يدرك آفاق أزمة الامة وتخلّفها وتكالب دول الغرب عليها ووجد ان الأمل في الاصلاح، ان كان مايزال هناك وقت لذلك! لابد ان يبدأ من المركز من الاستانة.

وهكذا بعد أربعين يوماً فقط من الاقامة في القاهرة كان السيد جمال الدين يحمل كتبه التي رافقته الى كل محطات رحلته ويبحر الىٰ الآستانة عاصمة الدولة العثمانية، ولم يكن السلطان عبد الحميد قد تولّىٰ الحكم بعد.

وقد استقبلته الآستانة في البداية استقبالاً حاراً وعيّن هناك عضواً في «المجلس الاعلىٰ للمعارف» وبدأ نشاطه الواسع، ثقافياً بشكل أساسي وسياسياً بشكل ثانوي، وكان في محاضراته وندواته وأحاديثه يركّز علىٰ تحرير الاسلام من التواكل والفكر من الخرافة ويدعو الىٰ عقلانية الفكر الاسلامي وبرهانيته. ولكن الأمور لم تجرِ مجرىً حسناً، فقد بدأ الوهج الذي أحاط به يثير الحسد والغيرة في عاصمة كانت تعيش آخر مراحلها وقد تحوّلت من عاصة للقوة والفتح الىٰ مركز للتآمر والدسائس والاطماع من كل جهة.

وكانت محاضرته التي ألقاها في دار الفنون «مثل كلية للتكنولوجيا في وقتنا الحاضر» والتي تحدّث فيها عن «الصناعات» موضحاً أفكاره حول النهضة، كانت تلك المحاضرة بداية لعاصفة كبيرة كانت نذرها تتجمع حوله منذ زمن، وقد تطورت الأمور الىٰ ان انقسمت الآستانة الىٰ معسكرين، أحدهما مع الأفغاني والثاني مع شيخ الاسلام الذي كان يمثّل السلطة الرسمية الدينيةِ في الدولة التي تسيطر عليها المتصوفة والفكر الصوفي منذ زمن بعيد. ومع اشتداد الهجوم عليه طلب منه السلطان مغادرة الآستانة لفترة مؤقتة ريثما يهدأ الضجيج المثار حوله، فغادرها ليصل القاهرة مرة اخرىٰ في آذار (مارس) ١٨٧١ م.

■ مؤازرة محمد عبده :

يقول الشيخ محمد عبده صديق جمال الدين ورفيقه وتلميذه لفترة طويلة من الزمن واصفاً مصر في تلك الفترة ووصول الافغاني اليها : «ان اهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ ـ ١٨٧٧ م كانوا يرون شؤونهم العامة بل والخاصة ملكاً لحاكمهم الأعلىٰ، ومن يستنيبه عنه في تدبير أمورهم يتصرّف فيها حسب ارادته .. ولا يرىٰ أحدٌ منهم لنفسه رأياً يحقّ له ان يبديه في ادارة بلاده.. أو ارادة يتقدّم بها الىٰ عمل من الاعمال يرى فيه صلاحاً لأمته، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى انهم محكومون مصرفون فيما تكلّفهم الحكومة به وتضربهم عليه وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الامم الاخرىٰ سواء أكانت اسلامية أو اوروبية، ومع كثرة من ذهب منهم الىٰ اوروبا وتعلم فيها من عهد محمد علي الىٰ ذلك التاريخ الذي ذكرناه ١٨٧٧م لم يشعر الأهالي بشيء من ثمرات تلك الاسفار ولا فوائد تلك المعارف التي اكتسبها، ومع ان اسماعيل باشا أبدع «مجلس الشورى» في مصر سنة ١٢٨٣ هـ ـ ١٨٦٦ م وكان من حقه ان يعلم الاهالي ان لهم شأناً في مصالح بلادهم وان لهم رأياً يرجع اليه فيها، لم يحسّ أحدٌ منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن لهم ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية..

.. هل كان يمكن لأحد ان يعمل على خلاف ما يؤمر به ! هل كان يمكن لشخص ان يميل بفكره عن الطريق التي رسمت له، أو الوجهة التي يتوجّه اليها الحاكم! لو حدثه الفكر السليم بأن هناك وجهة خير من ذلك ؟ هل كان يمكنه ان ينطق بما حدّثه به فكره؟ كلا فانه كان، بجانب كل لفظ نفي عن الوطن، أو ازهاق للروح، أو تجريد من المال.

.. وبينما الناس علىٰ هذا، لا كاتب ينبههم ولا خطيب يعظهم، اذ عرض أمر

قلما يلتفت اليه، وان كان مما جرت به السنّة الالهية في كل زمان.

جاء الى هذه الديار في سنة ١٢٨٦ هـ رجل غريب بصير في الدين، عارف بأحوال الامم واسع الاطّلاع، جمّ المعارف جريء القلب، وهو المعروف بالسيد جمال الدين الافغاني، اشتغل بالتدريس لبعض العلوم العقلية.. وكان طلبة العلم يتنقلون بما يكتبونه من تلك المعارف الى بلادهم ايام البطالة، والزائرون يذهبون بما ينالونه الىٰ احيائهم، فاستيقظت مشاعر، وانتبهت عقول، وخف حجاب الغفلة».

■ أخصب السنوات :

في مصر أمضىٰ جمال الدين أخصب سنوات حياته وأكثرها انتاجاً واثراً، فقد اهتم بالاسلام علماً وتراثاً وكشف امام من التفوا حوله واستمعوا له قيمة ان يبعث تراث الامة في عصرنا المزدهر من جديد، وقيمة ان تتمثل الامة تاريخها وتراثها لتنهض في مواجهة الاستعمار الغربي، وقد أدرك ان حالة الهبوط والانحطاط قد أصابت كل ادوات الحضارة بما فيها اللغة واسلوب الخطاب. ومن حول الافغاني نشأت لغة جديدة وبلاغة جديدة، وفي فترة قصيرة أخذ أصدقاء وتلاميذ جمال الدين يصدرون الصحف والمجلات التي أثّرت تأثيراً كبيراً في الحياة الفكرية والسياسية في مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وقد بدأ العمل باصدار صحيفة «مصر» التي ترأس تحريرها أديب إسحاق ثم «التجارة» باسم إسحاق وسليم النقاش معاً، و «امرأة الشرق» التي أصدرها تلميذه ابراهيم اللقاني.

وكان الافغاني يدرك ان حسم قضية مصر لن يكون في نهاية الامر الا باستنهاض شعب مصر، وفي كل ندواته ومحاضراته كان يوجّه حديثه مباشرة

للمصريين، كل المصريين، لأن يقفوا من أجل حقوقهم ضد طبقة المترفين من الشراكسة وباقي المماليك وان يعوا اطماع المستعمر الاوروبي التي كان يراها تهدد كل مستقبل مصر. وبعد زمن قليل كان الافغاني يؤسس أول وأهم أحزاب مصر الحديثة، «الحزب الوطني» الذي ضم معظم وجوه الرأي والفكر وأحرار السياسة والجيش في مصر. وقد كان هذا الحزب هو الأب الشرعي لثورة عرابي عام ١٨٨١ م.

ولكن قنصلي الدولتين الاستعماريتين بريطانيا وفرنسا أدركا بعد زمن قصير أي عاصفة تلك التي تتجمع تحت عباءة السيد جمال الدين، وبدأت حملة من الدسّ والتحريض لدى الخديوي توفيق الذي لم يكن بحاجة الىٰ كثير من التحريض. فالرجل ـ الافغاني ـ كان خطراً علىٰ مصالح الاستعمار الاوروبي بالدرجة نفسها التي كان يشكّل فيها خطراً علىٰ أدوات الاستعمار، ولم تكن تجربته في افغانستان ببعيدة عن أذهان كل الأطراف.

وفي ليل حار من ليالي القاهرة في ٢٤ آب (اغسطس) ١٨٧٩ م اقتيد الافغاني وحيداً من امام منزله الى مركز الشرطة، ومع اول شعاع للفجر أخذ الىٰ قطار السويس، وفي ميناء المدينة أُركب أول سفينة مغادرة بر مصر. في القاهرة كان الخديوي ورجاله يغطون فعلتهم بسيل من الاتهامات والطعن في ظهر الرجل الذي كان قبلها بأيام قليلة فقط نجم مصر في الفكر والسياسة. كان ما حدث في ذلك الصيف القاهري الحار انقلاباً حقيقياً قامت به السفارات الاجنبية والقصر على قيادة الشعب المصري الجماهيرية لاجهاض حركته المتوقعة، ولكن الانقلاب لم يكن كاملاً، فبعد عامين فقط كان تلاميذ الافغاني يتصدّون لتوفيق ويضيئون تاريخ مصر الحديثة في ثورة عرابي.

وصلت سفينة الافغاني الى بومباي التي قضى فيها حوالي العامين عاملاً بجهد لا يوصف من أجل توثيق علاقاته بكل القوى والفعاليات السياسية في البلاد، وعندما بدأت الحركة العرابية في مصر ضيق عليه الانكليز الحصار خوفاً من ان تؤدي اتصالاته الى تصعيد في الحركة، وقد نقل من بومباي الى كلكتا وعندما وصلته اخبار فشل العرابيين في مصر واحتلال الانكليز لأرض الكنانة بدأ مشروع الافغاني الكبير في النضوج، والذي تمثل فيما بعد بتشكيل اسلامي عالمي تحت اسم «العروة الوثقى» ضم الكثير من قادة ورجال الامة الاسلامية في العالم.

■ الهجرة الىٰ باريس :

اختار الافغاني في تلك الفترة باريس مركزاً لنشاطاته السياسية بسبب عوائق وقفت في وجه نشاطه السياسي في غيرها. اذ كانت مصر البلد الاسلامي الوحيد الذي يحظى بحرية الصحافة وتتركز فيه النشاطات الثقافية والسياسية، فقد احتلها الانكليز ابان الثورة العرابية العام ١٨٨٢ م واعتقلوا المفكرين والثوار وسجنوا منهم بعضاً ونفوا البعض الآخر واغلقوا الجرائد والصحف وحجروا علىٰ الحريات العامة.

واما الهند فقد كانت مستعمرة بريطانية منذ العام ١٨٥٧ م وغير ملائمة لأي حركة موقظة. وفي طهران لم يستطع الشاه ان يحتمل آراء جمال الدين الثورية. واما اسطنبول وبالرغم من وجود اصدقاء ومريدين للافغاني كانت هنالك تيارات وشخصيات عديدة لم تسمح له بحرية العمل.

كما أن البلدان الأُخرىٰ فقد سقطت اما القسم الآخر فقد سقط تحت الحكم الاستبدادي، ولم يبق للافغاني خيار الا ان يسافر الى اوروبا لكي يستأنف من

هناك نشاطه وكان طبيعياً ان يختار الافغاني باريس، وليس لندن حيث كان كفاحه السياسي الرئيسي موجهاً ضد الانكليز واستبدادهم وجرائمهم في البلدان الاسلامية.

وصل الافغاني الى باريس بعد عام من فشل ثورة عرابي في مصر، والتحق به تلميذه وصديقه محمد عبده، الذي كان منفياً في بيروت. وفي غرفة صغيرة على سطوح احدى عمارات شارع «مارتل» اصدر الافغاني مع صديقه عبده الاعداد الاولى من الجريدة التي تركت بصماتها على كل ذلك الجيل والتي أخذت اسم الجمعية السرية (العروة الوثقى) التي سبق للافغاني ان أسسها واختار اعضاءها من صفوة المفكرين الملتزمين من مختلف البلدان الاسلامية ومن اصدقائه ومريديه.

وقد أخذ اسم الجمعية من الآية القرآنية الكريمة : (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) ويدلّ اسم الجمعية على أهدافها الوحدوية الاسلامية، وعلى تمسكها بالدين ونضالها ضد الطواغيت. وكان اهتمام الجمعية موجهاً للدفاع عن حقوق الشعوب المسلمة وبصورة خاصة عن المصريين بعد ان احتل الانكليز بلدهم. يقول الافغاني، «ان الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموماً. ان مصر تعتبر عندهم من الاراضي المقدسة ولها في قلوبهم منزلة لايحلها سواها نظراً لموقعها من الممالك الاسلامية ولأنها باب الحرمين الشريفين فان كان هذا الباب أميناً كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع». وحاولت الجمعية كذلك ان تتصل ببعض السياسيين الاوروبيين لحفظ حقوق المسلمين «ان الجمعية قد عقدت الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهل اوروبا». واما سرية الجمعية فقد كانت أمر فرضته عليها الظروف السياسية في الشرق حينذاك.

العروة الوثقىٰ

فجر الصحافة الاسلامية

وحصل ان اتفق أعضاء جمعية العروة الوثق علىٰ اصدار جريدة عربية كما تشير المقالة الافتتاحية للجريدة : «واختاروا ان يكون لهم في هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم وهو اللسان العربي وان تكون في مدينة حرّة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بثّ آرائهم وتوصيل أصواتهم الىٰ الأقطار القاصية تـنبيهاً للغافل وتذكيراً للذاهل».

وقد كُتب علىٰ غلافها : (بسم اللّه الرحمن الرحيم. العروة الوثقىٰ لا انفصام لها).

مدير السياسة جمال الدين الحسيني الافغاني.

المحرر الأول : الشيخ محمد عبده.

ترسل الجريدة الىٰ جميع الجهات الشرقية.

من شاء ان يبعث الينا بتحارير أو رسائل في أي موضوع كان، رغبة نشره في الجريدة أو التنبيه علىٰ أمر مهم فليرسلْها الىٰ ادارة الجريدة بهذا العنوان : 6RuemartelaParis.

■ مساهمات القادة السياسيين :

وتشير بعض المصادر الىٰ مساهمة سعد زغلول باشا (١٨٥٧ ـ ١٩٢٧) في العمل. كما انه توجد في بعض الوثائق الأُخرىٰ اشارة الىٰ مساهمة ابراهيم المويلحي (١٨٤٦ ـ ١٩٠٦). ومن المعروف ان الافغاني ترك حقيبة من الوثائق والأوراق عند صديقه الحاج محمد حسن أمين الضرب في احدىٰ رحلتيه الىٰ طهران. وقد نشرت جامعة طهران قسماً من هذه الوثائق قبل سنوات. وتوجد ما بين الوثائق مقالة بقلم الكاتب المصري ابراهيم المويلحي، حوالي العام ١٨٨٦ م حيث يشير فيها المويلحي الىٰ وصوله الىٰ الأربعين من العمر، ويتحدّث في مقاله الىٰ خلافه مع رياض باشا الذي أجبره علىٰ ترك مصر والاقامة في اوروبا. وفي العام ١٨٨٣ م كان يعيش في ايطاليا وهناك سمع خبر قدوم الافغاني الىٰ باريس . وكانت بينهما صداقة وطيدة في مصر. ويقول : «بعد ان سمعت ان الافغاني قد جاء الىٰ باريس من الهند كتبت اليه واتفقنا ان ننشر جريدة العروة الوثقىٰ».

والظاهر ان المويلحي كغيره من أصدقاء ومريدي الأفغاني كان عضواً في جمعية العروة الوثقىٰ، ولم تكن له مساهمة مباشرة مستمرة في المجلة. ولم تكن هيئة تحرير المجلة تضم إلا الأفغاني وعبده ومترجم، كما يشير الىٰ هذا محمد رشيد رضا في «تاريخ الاستاذ الامام» بقوله : «لم يكن محرر سواه إلا من كان يترجم بعض الأخبار من الجرائد الاوروبية ويلقيها الىٰ الشيخ ليصححها وينفخ فيها روح البشر».

■ توزيع الجريدة مجاناً :

كانت الجريدة ترسل الىٰ البلدان الاسلامية مجاناً، وقد كتب في الصفحة الأُولىٰ من كل عدد : «ترسل الجريدة الىٰ جميع الجهات الشرقية مجاناً. وقد عينت أُجرة البريد خمسة فرنكات في السنة لمن تسمح بها نفسه». وكذلك ذكر محرر

الجريدة في مقالته الافتتاحية في العدد الأول : «(ان المجلة) ترسل الىٰ الذين نعرف اسماءهم مجاناً بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير والغني والفقير ومن لم يصل الينا اسمه فما عليه إلا ان يكتب الىٰ ادارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل اقامته علىٰ النهج الذي يريده».

وكان المصدر المالي للمجلة يأتي من جمعية العروة الوثقىٰ. وقد تساءل بعض الباحثين عن احتمال ان يكون السلطان العثماني قد أرسل مساعدات للمجلة، لأن المويلحي يقول في ترجمته الذاتية «وأنشأ الأفغاني الجريدة في باريس ودافع عن حقوق الدين ودعا المسلمين للوحدة بأسم أمير المؤمنين (أي: الخليفة العثماني) وأبغض هذا الخديوي». والظاهر انه لم تكن هناك مساعدة مباشرة من الاستانة رغم ان السياسة الوحدوية الاسلامية للمجلة تصب لصالح السلطان. ومما يؤيد ذلك كثرة المشاكل المالية التي واجهت المجلة بعد ثمانية أشهر وأدّت الىٰ توقف نشرها.

■ مكانة «العروة» :

صدر العدد الأول من العروة الوثقىٰ في يوم الخميس ١٣ آذار (مارس) العام ١٨٨٤ م (١٥ جمادي الأولىٰ ١٣٠١ ها) واستمرت حوالي ثمانية أشهر حتىٰ توقفت بعد صدور العدد الثامن عشر والأخير منها في ١٧ تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٨٨٤.

برغم اعدادها القليلة وفترة حياتها القصيرة فقد احتلت العروة الوثقىٰ في تاريخ الحركة والصحافة الاسلامية الحديثة مكانة مرموقة لم تصل اليها أي جريدة حتىٰ الآن. فقد كانت الصحيفة الاسلامية الوحيدة التي حققت لنفسها عالمية الانتشار اذ كانت توزع في مختلف انحاء العالم من مصر والشام والعراق والجزيرة العربية وايران والىٰ افغانستان والهند. وبفضل انتشارها الواسع استطاعت العروة

الوثقىٰ ان تبلغ رسالتها الايقاظية الىٰ مختلف الشعوب المسلمة في أقاصي العالم وأدانيه. وكانت في عصرها أعظم صحيفة اسلامية وعربية وأعمق تأثيراً حيث تجاوز مدىٰ تأثيرها زمن نشرها القصير بل وقرنها كلّه. ولدرجة تأثير العروة الوثقىٰ علىٰ العقول يكفيك ان نشير الىٰ قصة محمد رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) منشىء مجلة «المنار» والتحوّل الذي أحدثته العروة الوثقىٰ في نفسه بحيث غيّرت مسيرة حياته. كان محمد رشيد رضا في مطلع شبابه متزهداً متصوفاً وفي العام ١٨٩٣ م وعمره ٢٨ سنة رأىٰ في مخطوطات والده بعض نسخ «العروة الوثقىٰ». ويصور هو نفسه ذلك الانقلاب الروحي الذي اعتلج في داخله بقوله: «فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء اتصل بي فأحدث في نفسي الهزّة والانفعال والحرارة والاشتعال ما قذف بي من طور الىٰ طور ومن حال الىٰ حال. وكان الأثر الأعظم لتلك المقالات الاصلاحية الاسلامية ويليه تأثير المقالات السياسية في المسألة المصرية». ويقول رشيد رضا «ان الاسلام ليس روحانياً اخروياً فقط بل هو دين روحاني جسماني أخروي دنيوي من مقاصده هداية الانسان الىٰ السيادة في الأرض بالحق ليكون خليفة الله في تقرير المحبة والعدل».

أُنشئت العروة الوثقىٰ لهدف ايقاظ الشعوب الشرقية عموماً والمسلمين خصوصاً والدفاع عن حقوقهم والتنبيه الىٰ خطط المستعمرين وتدخلاتهم في البلاد الاسلامية والدعوة الىٰ المقاومة. وتشير المقالة الافتتاحية للعروة الىٰ سياسة الجريدة قائلة: «ستأتي في خدمة الشرقيين علىٰ ما في الامكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آت.. وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين ولبست عليهم مسالك الرشد.. وان الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث انما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين واسلافهم وهي ما تمسك به أعزّ دولة أوروبية وأمنعها.. وتنبه علىٰ ان

التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية. وتهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم الباطلة التي يوجهها اليهم من لا خبرة له بحالهم ولا وقوف علىٰ حقائق أمورهم وابطال زعم الزاعمين ان المسلمين لا يتقدمون الىٰ المدنية ماداموا علىٰ أصولهم التي فاز بها آباؤهم الأولون.. وتراعي في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة في أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها».

انطلاقاً من هذه الأهداف، تناولت الجريدة خلال أعدادها موضوعات عدّة كان من أهمها :

١ ـ المقاومة ضد الاستعمار الأوروبي وخاصة البريطاني : تحكي الجريدة عن جرائم الاستعمار في الهند ومصر وتثير المسلمين ضده وتدعوهم الىٰ المقاومة والجهاد «ان السعي لاعلاء كلمة الحق وبسط الملك وعموم السيادة واجب المسلمين. فلا تجد آية من آيات القرآن الشريف إلا وهي داعية اليه جاهرة بمطالبة المسلمين بالجدّ فيه حاظرة عليهم ان يتوانوا في اداء المفروض منه » «يا ايها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو علىٰ زمام التصرف فيها غيلة واختلاساً..». والىٰ جانب ذلك كان هناك انتقادات عديدة للسياسيين ورجال الدين المصريين كالشيخ الميرغني الذين نادوا بوجوب طاعة الانكليز وبترك المقاومة. كما تنتقد الجريدة السياسيين العملاء وغير الوطنيين كتوفيق باشا ونوبار باشا. ويتحدّث الأفغاني عن حركة المهدي في السودان وجهاده ضد الانكليز ويؤيد مواقف المهدي وصموده ضد الاستعمار ويهاجم بلا تردد السياسة البريطانية والحاكم الانكليزي للسودان غوردون ويدعو الدولة العثمانية ألاّ تشارك بجيش مع الانكليز ضد المهدي، ومن المعروف ان بريطانيا عجزت عن أن تنال من ثورة الافغاني وهجومه الرهيب علىٰ الاستعمار والمستعمرين رغم نفوذها فلجأت الىٰ سلاح المال والملك وأرسلت الىٰ

الأفغاني تدعوه لزيارة لندن لتسأله رأيه في حركة المهدي ولتحصل منه علىٰ فتوىٰ شرعية تناهضه بها ثم عرضت عليه عرش السودان قائلة: «انها تعلم مقدرته، وتقدّر رأيه حق قدره، ولأنها تريد ان تسلك مع الحكومات الاسلامية مسلك المودة والولاء» وكان مما قاله له اللورد سالسبوري حسب الوقائع الرسمية: «لذلك تصورنا ان نرسلك الىٰ السودان بصفة سلطان عليه فتستأصل جذور فتنة المهدي وتمهّد لإصلاحات بريطانية فيه».

ورفض الأفغاني ان يقع في الفخ البريطاني وسخر من العقلية الانكليزية قائلاً: «ان السودان ليس ملكاً لبريطانيا حتىٰ تتصرف في عرشه». ويذكر الأفغاني في عدد آخر رضى السلطان العثماني عن حركة المهدي.

٢ ـ الوحدة الاسلامية: وكانت من أهم المسائل التي اهتمت بها العروة الوثق. وقد دعت العلماء والشعوب الىٰ الوحدة وترك التعصبات الطائفية. «من الواجب على العلماء بحق الوراثة التي شرفوا بها ان ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية». «ان أقوىٰ رابطة تربط بين المسلمين هي الرابطة الدينية.. وما توجهت عناية الأفرنج الىٰ بثّ الأفكار السابقة (أي: الأفكار الاباحية والالحادية) بين أرباب الديانة الاسلامية إلا لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزّقوها إرباً وشُعَباً». «الميل للوحدة والتطلّع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الاسلام كل هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين».

ويدعو الأفغاني المصريين الى الوحدة ضد عدوهم المستعمر ويدعو العثمانيين الى مساندة مسلمي الهند. كما انه يدعو الايرانيين والأفغانيين ان يتّحدوا ضد الانكليز. ان الوحدة الاسلامية عند الافغاني لم تكن قضية سياسية مرحلية فحسب، بل اعتبرها جزءاً من الأصول الاساسية التي يدعو اليها الاسلام وهي أمر ضروري سياسياً ودينياً وحضارياً: «هل آن الأوان ليصبح العالم الاسلامي من أدرنة الىٰ بشاور دولة إسلاميّة متصلة الأرض متحدة العقيدة يجمع أهلها القرآن..

أليس لكل واحد منهم ان ينظر الىٰ أخيه بما حكم الله من قوله: (انّما المؤمنون أخوة). فيقفون بالوحدة سداً يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب. لا التمس بقولي هذا ان يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً. فان هذا ربما كان عسيراً ولكن أرجو ان يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين.. ولكل ذي ملك علىٰ ملكه يسعىٰ بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فان حياته وبقاءه ببقائه».

٣ ـ أسباب تخلّف المسلمين : ناقشت العروة الوثقىٰ أسباب تخلف المسلمين وتحدثت عن بعضها، كتفرّق المسلمين وتشتّت قواهم وعقيدة بعضهم بالجبر وجهل الحكام وعدم المعرفة بحقائق الاسلام والتمسك بالأوهام وإهمال العلم. وانتقدت نظر الشرقيين الىٰ الغربيين : «ان نظر الشرقيين الىٰ الأوروبيين بغير الحقيقة جعلهم وهما وهم بهذا الظن يستسلمون لأعدائهم كرهاً ويجارونهم في أهوائهم نفاقاً». كذلك انتقدت بعض الأدباء المسلمين وشعرائهم لأنهم «يحصرون رواياتهم في حكايات مضحكة وقصص هزلية.. ورجاؤنا فيهم ان يسلكوا مسالك أدباء الأمم المتقدمة. وان يأخذوا في منشآتهم وأشعارهم طريقاً ينهضون فيه الهمم الخامدة ويحرّكون القلوب الجامدة ويحيون مكارم الشيم ويوردون الامة مورد سابقيها من الأمم».

وكما اعتقد الأفغاني وأصحابه ان الله جعل «بقاء الأمم ونماءها في التحلي بالفضائل وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها سنّة ثابتة لا تختلف باختلاف الامم ولا تتبدل بتبدل الأجيال والفضائل مثل الاستقامة في الرأي والصدق في القول والعدل والحمية علىٰ الحق والقيام بنصره والتعاون علىٰ حمايته..».

■ وتوقفت أخيراً :

ظهرت جريدة العروة الوثقىٰ في فترة حسّاسة كان الاستعمار فيها في ذروة كبريائه ومده، ونظراً الىٰ تأثيرها العميق الواسع علىٰ عقول المسلمين ومواقفها الاسلامية الصارمة ضد الاستعمار البريطاني فقد حاول الانكليز منذ البداية دفع

هذا الخطر الكبير. وحتىٰ قبل اصدارها بعد ان تبلورت فكرة نشر الجريدة أدرك الاستعمار عظمة الخطر. يحكي محرّر العروة الوثقىٰ : «عزمنا علىٰ انشاء جريدتنا هذه فعلم بذلك بعض محرري الجرائد الفرنسية فكتبوا عنها قبل صدورها غير متبينين لمشربها ولا كاشفين عن حقيقة مسيرها. فلما وقف علىٰ الخبر محرّرو الجرائد الانكليزية المهمة أخذتهم الحدّة واحتدمت فيهم نار الحمية وانذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة في سياسة الانكليز ونفوذها في البلاد الشرقية ولجوا في اغرائها وألحوا عليها ان تعدّ كل وسيلة لمنع الجريدة من الدخول الىٰ البلاد الهندية والبلاد المصرية بل تطرفوا فنصحوها ان تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها. كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا».

■ عقوبة شراء الجريدة :

وبعد ان انتشرت الجريدة واكتشف الاستعمار مدىٰ تأثيرها، بدأ يخلق مشاكل عدّة. إلا انه لم يستطع منع طبعها في باريس وحاول ان يجد طرقاً اخرىٰ، وذلك بتعقّب قرائها واضطهادهم وكذلك منع دخولها البلاد. فأصدرت الحكومة الهندية البريطانية قانوناً يعاقب بموجبه من يحوز عدداً من العروة الوثقىٰ بالحبس لمدة سنتين وبغرامة مقدارها ١٠٠ جنيه. وكذلك ألزم الانكليز مجلس الوزراء المصري بإصدار قرار يمنع العروة الوثقىٰ من دخولها في البلاد المصرية كما ان حيازة الجريدة حسبت جريمة «وكل من توجد عنده العروة الوثقىٰ يغرّم مبلغاً من ٥ جنيهات الىٰ ٢٥ جنيهاً». وهذه العقوبات التي فرضها الانكليز علىٰ قرّاء العروة الوثقىٰ أوجدت خوفاً في قلوب المصريين حيث امتنع كثير منهم من استلام اعداد الجريدة كما يشير اليه محررها : «اننا نأسف غاية الأسف مما بلغنا من بعض المصريين من انهم يمتنعون عن استلام ما يُرسل بأسمائهم من أعداد هذه الجريدة خوفاً ورهبة مع أنهم أحقّ الناس بالاقدام علىٰ أمور عظام في هذه الأوقات. فإنّ الآمال في

خلاصهم قوية والوسائل اليه قريبة فكيف يصل ببعضهم الخوف إلىٰ الامتناع عن استلام جريدة هم أولىٰ بها من غيرهم إذ أهمّ ما فيها الدفاع عنهم».

ونجح الانكليز في معركتهم ضد العروة الوثقىٰ وبعد ان مُنعت من الدخول الىٰ الهند ومصر، لم تستطع الجريدة أن تصل الىٰ قرائها المشتاقين وتبلّغ رسالتها. وفرضت هذه الظروف عليها التوقّف. فتوقفت نهائياً بعد صدور العدد الثامن عشر في ١٦ / ١٠ / ١٨٨٤ م / ٢٦ ذي الحجة ١٣٠١ هـ

ولكن المناضلين الأفغاني وعبده قالا : «لايعجزنا بثّ أفكارنا في البلاد الشرقية سواء كان بهذه الجريدة أو بأيّة وسيلة أُخرىٰ اذا دعا الحال فإنّ انصار الحقّ كثيرون».

يقول الأديب والعالم اللبناني الشيخ حسين الجسر (١٨٤٥ ـ ١٩٠٩) عن تأثير العروة الوثقىٰ : «إنه ما كان أحد ليشك في أنّ جريدة العروة الوثقىٰ ستحدث انقلاباً عظيماً في العالم الاسلامي لو طال عليها الزمان..» وكان الزعيم العراقي سليمان الگيلاني يقول كلما شاهد عدداً من أعدادها : «يوشك ان تقع ثورة من تأثير هذه الجريدة قبل ان يجيء العدد الذي بعد هذا!».

أفكار الأفغاني تعمّ الأمّة

في ١٨٨٦ غادر جمال الدين باريس الىٰ ايران ومنها الىٰ روسيا ثم ايران ثم لندن لحوالي العام.

وفي سنة ١٣٦٠ هـ / ١٨٩٢ م عاد ثانية الىٰ اسطنبول، فوجد حظوة كبرىٰ لدى السلطان عبد الحميد الذي كان قد تولّىٰ الحكم في سنة ١٨٧٦ م، وكان قلقاً مهموماً وهو يدرك خطر أوروبا علىٰ السلطنة التي صمدت وحمت حدود الوطن لأكثر من ثلاثة قرون وقد جاء الزمن الذي طغت فيه سلبيات تكوينها علىٰ ايجابياته فيا أوروبا في أوج قوّتها وصعودها وانظارها تكاد تلتهم الدولة العثمانية بما فيها. كان عبد الحميد يدرك ان انقاذه وانقاذ البلاد لن يأتي إلا اذا استطاع ان يعيد توحيد الامة والبلاد حوله، توحيداً حقيقياً نهضوياً أكثر منه توحيداً سياسياً. وكان عبد الحميد يعرف تاريخ الأفغاني ونضالاته واتصالاته الوثيقة بكل اجزاء الوطن الاسلامي من أقصىٰ الشرق الىٰ أقصىٰ الغرب، وهكذا بدأت العلاقة القصيرة المضطربة بينهما.

الأفغاني من جهته كان مناضلاً واقعياً يدرك ما في الدولة العثمانية من سلبيات وعوامل تدهور، وكان يعرف أثر الارث التاريخي لالتفاف الأُمّة حول سلطانها، وحتىٰ قبل ان تبدأ علاقته المباشرة بعبد الحميد، كان واضحاً في «العروة الوثقىٰ» وهو

يبدي تأييده للسلطان ويدعو للالتفاف حوله في الوقت الذي كان يوجّه فيه الانتقاد لسلبيات الحكم وانحرافاته.

وفي الآستانة بعد قليل من وصوله بدأت الأمور تتكشف أمامه، كان عبد الله النديم الصحفي والأديب والثائر المصري قد سبقه منفيّاً من مصر الىٰ الاستانة وكان واحداً من تلامذته في القاهرة، أوضح له منذ البداية ان الأمور لن تكون بالسهولة التي يتصوّرها وان حاشية السلطان لاتحمل من الاخلاص لا اسماً ولا جوهراً وان مشاريعه لإعادة تشكيل النظام السياسي للدولة وآراءه في عقلنة الفكر وطموحه في توحيد الامة لن تجد اذناً صاغية، وان وجدت فلن تجد ارادة فاعلة.

كان عبد الحميد «طيب القلب كثير الأخطاء» وكان يحمل علىٰ ظهره كل الخوف وسلبيات تراث التآمر في عاصمة دولته في الوقت الذي كان فيه مؤمناً واعياً للأخطار التي تهدد الدولة. كان يستمع لجهال الدين من جانب ومن الجانب الآخر يجد العشرات من الداسين عليه وعلىٰ رأسهم أبو الهدى الصيادي الشيخ الصوفي السياسي، الذي كان شيخ طريقة وقريباً من السلطان ومن أكبر أقطاب التآمر في عاصمة الدولة العثمانية.

وشيئاً فشيئاً ورغم الجهد الهائل الذي بذله الأفغاني في الآستانة وعبر اتصالاته في الهند وايران ومصر لتوحيد بلاد المسلمين، إلا ان آماله في انجاز شيء حقيقي بدأت في التلاشي، لم يكن حماسه ولا ايمانه ولا طاقته هي التي نفدت، ولكن تهاوي المرحلة كان أكبر من عزمه وايمانه.

وفي العام ١١١٥ هـ / ١٨٩٧ م مات الأفغاني عن ٥٩ عاماً بعد ان كان النسر المحلّق داخله قد ذوىٰ منهكاً تعباً. وقد أُثير الكثير من الجدل حول وفاته، وقال البعض انّه مات مسموماً ولكن ذلك لم يعد ذا أهمية كبيرة الآن، فكيفية موته كانت مسألة صغيرة.. صغيرة أمام قانون موته الذي أوضح الىٰ أي درجة والىٰ أي حدّ كان من الصعب ان يوقف الانهيار.

■ **تراثه الفكري :**

لم يترك الأفغاني الكثير من التراث المكتوب وتكاد مصادره المعروفة اليوم تقتصر علىٰ كتابه الأول : «تتمة البيان في تاريخ الأفغان» وكتابه الثاني : «الرد علىٰ الدهريين» ومذكراته التي أملاهَا علىٰ تلميذه محمد المخزومي والتي طبعت بعنوان «تأمّلات الأفغاني» ثم مقالاته في العروة الوثقىٰ. ولكن ماسجّله الآخرون ممّن كانوا قريبين منه كان كافياً لنتعرف علىٰ طبيعة تفكيره، وكان من أهم هؤلاء ماكتبه رشيد رضا مؤرخاً لمحمد عبده وناقلاً عنه معرفته للأفغاني في كتابه «تاريخ الاستاذ الامام» ولكن الدراسات والأبحاث حول الأفغاني لم تتوقف حتىٰ يومنا هذا وتكاد لا توجد وثيقة حول حياته باقية ولم يتم كشفها.

وفي الردّ علىٰ الدهريين صوّب الأفغاني نقداً قاسياً ضد اتباع الفلسفة الطبيعية الانتقائية التي أخذ بها أحمد خان في الهند وكان قد التقاه فيها سنة ١٨٨٩، ولكن انتقاده كان أوسع من أحمد خان فقد هاجم أيضاً ديمقريطس وداروين وأنكر عليهم انكارهم لوجود الله تصريحاً أو تلميحاً.

وقد عمد الىٰ التدليل علىٰ الدور العظيم الذي لعبه الدين في المدنية والرقي الانساني. وقال الأفغاني ان الدين علّم الانسان وأعطاه طبيعته الروحية التي جعلته أشرف المخلوقات، مما أوصله الىٰ الترفّع عن الانقياد لميوله البهيمية والىٰ العيش بسلام مع أقرانه، وقال إن الأمة الاسلامية قامت أصلاً علىٰ أُسس دينية وخُلقية راسخة إلاّ أنّ قيام الدهرية (الفلسفة الطبيعية) في مصر وبلاد الفرس في القرن العاشر تحت ستار الاسماعيلية لم تلبث أن قوّضت أُسس العقيدة، وزرعت بذور الشك في نفوس المسلمين. وأكّد علىٰ «أنّ فقدان الشكيمة الخلقية لدى المسلمين كان أهم الأسباب وراء الضعف الذي دبّ في نفوسهم فاستطاعت جماعة قزم الأفرنج ان تكتسح بلادهم وان يقيموا فيها».

وقد وجّه الأفغاني كذلك مآخذ حاسمة الىٰ اتجاهات الفلسفة الأوروبية في عصره ابتداء من العدمية الىٰ الاجتماعية والاشتراكية. وقال أنّ هؤلاء «بحجة مساعدة الفقراء والضعفاء أرادوا الغاء الامتيازات الانسانية كافة وإباحة كل الممتلكات».

■ حوار مع المستشرقين :

وفي الردّ علىٰ المستشرق الفرنسي ارنست رينان عالج الأفغاني النقطتين الرئيسيتين في محاضرة رينان العنصرية : الأولىٰ : ان الديانة الاسلامية كانت ـ بما لها من نشأة خاصة ـ تناهض العلم. والثانية : ان العرب امّة غير صالحة بطبيعتها لعلوم ماوراء الطبيعة، ولا للفلسفة.

قال الأفغاني في مقالته التي نشرتها صحيفة «ديبا» الفرنسية في ١٩ ايار (مايو) سنة ١٨٨٣ م : «فاما عن النقطة الأولىٰ فان المرء ليتساءل بعد ان يقرأ المحاضرة عن آخرها، أَصَدَرَ هذا الشر عن الديانة الاسلامية نفسها، أم كان منشؤه الصورة التي انتشرت بها الديانة الاسلامية في العالم، أم أنّ أخلاق الشعوب التي اعتنقت الاسلام، وعاداتها وملكاتها الطبيعية هي جميعاً مصدر ذلك؟ لا ريب ان قصر الوقت المخصّص للمسيو رينان قد حال دون جلائه هذه النقطة.. فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية المبجلون لم يلقوا اسلحتهم بعد، كما أعلم، وهم عاكفون علىٰ محاربة ما يسمونه بالتدليس والضلال (يعني العلم والفلسفة).

وقال عن النقطة الثانية : «صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به بيد ان هذه العلوم التي أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسّعوا نطاقها، ووضّحوها ونسّقوها تنسيقاً منطقياً، وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدلّ علىٰ سلامة الذوق، وتنطوي علىٰ التثبيت والدقة النادرين، وقد كان الفرنسيون والانكليز والألمان لا يبعدون عن رومه وبيزنطة بُعد العرب عنها، وكان

من السهل عليهم ان يستغلوا كنوز علوم تلك المدنيتين ولكنهم لم يفعلوا، حتىٰ جاء اليوم الذي ظهر فيه منار المدنية العربية علىٰ قة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه علىٰ الغرب فأحسن الأوروبيون اذ ذاك استقبال ارسطو بعد ان تـقمّص الصـورة العربية، ولم يكونوا يفكرون فيه وهو في ثوبه اليوناني علىٰ مقربة منهم».

■ العراك بين الشرق والغرب :

وفي حياة الأفغاني تصاعدت الاطـماع الاسـتعمارية الأوروبـية في الشرق الاسلامي، حيث أطلق علىٰ الدولة العثمانية لقب «الرجل المريض» وأصبح مصطلح «المسألة الشرقية» اشارة الىٰ التداول الدائر في العواصم الاستعمارية حول خططها واتفاقاتها ومشاريعها للهيمنة علىٰ المنطقة، ولكن الأفغاني كان يفهم المسألة الشرقية فهماً آخر، كتب يقول : «مختصر المسألة الشرقية، هي العراك بين الغـربي والشرقي، وقد لبس كل منهما لصاحبه درعاً من الدين..

إنّ فتح القسطنطينية، تلك العاصمة العصماء، من قِبل السلطان محمد الفاتح هي التي ولّدت الحقد في الملوك المسيحيين ضد المسلمين، وأخذت من ذلك الوقت تجمع كيدها وتحصر همها، لمناصبة الدولة العثمانية، وتـعمل عـلىٰ اذلالهـا وضـعضعتها، واخراجها من فتوحاتها الأوروبية بكل وسيلة، وفي كل سانحة وفرصة.

والأكثر في الحروب والتغلب، والانتصار فيها، انما يكون بالقوة والعلم، ولو انّ الدولة العثمانية راعت من يوم تأسست، أو من يوم ما استقلت بـه سـنة ٦٩٩، وراقبت حركات العالم الغربي، وجرت معه حيثما جرىٰ في مضمار المدنية والحضارة، وقرنت الىٰ فتوحاتها المادية، القوة العلمية، علىٰ نحو ما فعلت اليابان أقله، لما كان ثمة مسألة شرقية، أو لما ظهر ذلك التباين الذي لايثبت معه الحكم طويلاً، وهو تحكّم الجهل بالعلم، أو حكومات جهل تحكم حكومات علم، ولا يتسنىٰ اليوم للسـيف المجرّد ان يحكم بأمّة يدافع عنها مدافع العلم».

■ الاسلام والاستعمار :

وقال : «التزم الاتراك، والسلاطين العظام منهم جانب الدين، وكان علىٰ منصة المشيخة الاسلامية علماء أعلام، وفقهاء، وأجلاّء عالمون بحقيقة الاسلام وأحكامه، فعدلوا في الرعية، وامنوا من دخل في ذمّتهم، وسهّلوا لهم الصعاب، وحافظوا علىٰ جامعتهم من دين ولسان وعادة، فرضخ المستعمرون (بالفتح) من الطوائف النصرانية لقوة العثمانيين وعدلهم وعلمهم بالنسبة لجهل غيرهم في تلك الأعصر.

فظل النصارى في طاعة العثمانيين، وظلوا في كل المعاني رعية لهم مادامت تلك المؤهلات والصفات في الفريقين، القوة والعلم في الحاكم، والضعف والجهل في المحكوم. حتىٰ اذا انعكس الأمر وبان الجهل مصدر الضعف في الامة الحاكمة، وظهر العلم مصدر القوة في الأمم المحكومة، نهضت للتخلّص من ربقة الاستعباد لمن دونهم في العلم، واستبسلت في الرجوع لحكم ذاتها بذاتها. وقد سهّل عليهم كل صعب في هذا السبيل، اقرار الدولة لهم علىٰ جامعاتهم الكبرىٰ، من دين ولسان وتاريخ، تلك النعمة التي كانت وتكون علىٰ الدولة أكبر نقمة، ولا مناص لها من تحمّل أعباء ذلك، وهي سنّة الوجود».

وكان جمال الدين كبير الاهتمام بالتدهور والضعف العام الذي أصاب الدولة العثمانية وبلاد المسلمين وقد أشار الىٰ سببين رئيسيين أدّيا الىٰ ذلك الضعف: أولهما: «لو ان الدولة قبلت من يوم استقلالها، وعملت بالفكرة من عهد السلطان محمد الفاتح، أو السلطان سليم، بأن يتّخذ اللسان العربي وهو لسان الدين، لساناً رسمياً، وتسعىٰ بكل قوّتها وجهدها لتعريب الاتراك لكانت في أمنع قوّة وآمن حصن من الانتقاص والخروج عن سلطانهم، ولكنها فعلت العكس، اذ فكّرت بتتريك العرب، وما أسفهها سياسة وأسقمه من رأي، لأن تديّن الأتراك بالدين الاسلامي، علىٰ

جهل باللسان العربي، جعل لهم في القلوب منزلة .. فما قولك لو تعرّبت.. وزال داعي النفور والانقسام (بالتركي والعربي)..

■ الحريات والشورىٰ :

علىٰ أن دفاعه عن الحريات والشورىٰ ومشاركة جماهير الناس في الحكم وادارة البلاد، كانت السمة التي طغت علىٰ كل أفكار ودعوة الأفغاني في كل البلاد التي طافها أو أقام بها. يروي الأفغاني في خاطراته حواراً دار بينه وبين خديوي مصر اذ قال الخديوي : «إنّني أحبّ كل خير للمصريين ويسرّني أن أرىٰ بلادي وابناءها في أعلىٰ درجات الرقي والفَلاح، ولكن أكثر الشعب خامل جاهل.. ان دروسكم وأقوالكم المهيّجة ستؤدي بالشعب والبلاد في التهلكة».

فردّ الأفغاني بأدب : «ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحرية واخلاص ان الشعب المصري كسائر شعوب العالم لايخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده. ولكن هذا لا يمنع من وجود العالم والعاقل أيضاً فبالمنظار الذي تنظرون به الىٰ الشعب المصري.. ينظر به لسموّكم !.. واذا قبلتم نصحي وأسرعتم لإشراك الأمّة في حكم البلاد فتأمرون بإجراء انتخاب نوّاب عن الأمّة تسنّ القوانين.. فان ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم».

وقد سأله شاه ايران غاضباً : «أيصحّ أن أكون يا حضرة السيد وأنا ملك ملوك الفرس كأحد أفراد الفلاحين؟».

فردّ الأفغاني : «اعلم ياحضرة الشاه ان تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستوري أعظم وأثبت مما هي الآن. لاشك ياعظمة الشاه انك رأيت وقرأت عن أمّة استطاعت ان تعيش بدون أن يكون علىٰ رأسها ملك، ولكن هل رأيت ملكاً عاش بدون أمّة ورعية».

وفي كل لقاءاته بالسلطان عبد الحميد، كان جمال الدين يحثّه علىٰ فتح

الأبواب من حوله وتوثيق علاقته المباشرة بالناس ويوضّح له الصلة الوثيقة بين الشورىٰ والقرآن وحكمة تنظيم أمور البلاد علىٰ أساس دستوري ثابت.

«لا ريب لو تيسر ذلك لكان اعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسوراً وجمع شتات الممالك الاسلامية تحت لواء سلطان عادل همام، مثل الفاتح أو السلطان سليمان، أو السلطان سليم، غير عسير..».

وشرح السبب الثاني الذي كان يراه لا يقل في تأثيره عن الأول بأن جعلت القسطنطينية عاصمة للدولة، وهي أرض فُتحت حديثاً وليست في مركز الدولة و «لأن المستعمرة مهما عظم موقعها وطاب هواؤها، لايصح ان تُتّخذ قاعدة أو عاصمة للملك، لأسباب أهمها : ان المستعمرة كالثوب العارية، قابل للاسترداد، والممالك لا تسقط ولا تتبعثر اجزاؤها إلا من ضعف السلطان في عواصمها، ومنها، بعد المستعمرة، علىٰ الغالب عن مجموع القوّة واحاطتها بأعداء الملك وأعوانه..».

■ الرؤية السياسية :

ومع ادراكه لفوات الأوان في اصلاح ما سبق من أخطاء، إلا انه كان يملك رؤية لتغيير واقع الحال، وكانت رؤيته تعتمد علىٰ فهمه التاريخي الواقعي والاجتماعي لبلاد المسلمين، وقد ذكر في تأملاته التي أملاها علىٰ المخزومي انه اقترح علىٰ السلطان عبد الحميد مباشرة، ان يعيد التشكيل الاداري للدولة العثمانية من ولايات الىٰ خديويات، بحيث يصبح العراق وشمال الشام خديوية، والمثلث الضام لدمشق وبيروت حتىٰ القدس خديوية، والحجاز خديوية اخرىٰ.. الخ. بحيث تتمتع هذه المناطق بما يشبه الادارة الذاتية كما كانت الأمور في مصر قبل الاحتلال البريطاني. وكان الأفغاني يرى ان هذا الوضع سينعش الأوضاع في أجزاء الدولة ويجعلها أكثر قدرة علىٰ التحرك والنهوض وان ذلك في النهاية قد يدفع بايران وأفغانستان الىٰ اللحاق بالاتحادية الاسلامية الناهضة.

ولكن عبد الحميد ـ كما يذكر الأفغاني ـ رفض الفكرة وأبدىٰ عدم قناعته بها.

لايمكننا ـ علىٰ الاطلاق ـ ان نقول، ان الأفغاني عاش حياة، وترك رؤية، صائبتين بلا أخطاء، فقد كان مثله مثل كل عظام التاريخ، أخذ قيمته من أن عموم مسيرته ورؤيته كانت صحيحة الىٰ حد كبير، وأنه حاول حتىٰ الرمق الأخير ان يحقّق ما آمن به.

لقد فهم الأفغاني جوهر الغرب الاستعماري فقاتل ضده بصلابة، في الهند ومصر واسطنبول وايران ومع الحركة المهدية في السودان وأدرك أهمية وحدة الامة من جديد فحمل راية الوحدة في كل قطر حلّ به وأمام كل حاكم التقاه.

وأدرك سرّ التخلف والتهاوي في العالم الاسلامي ولذا فقد كان نقدياً متقدّماً وحضارياً مبدعاً. كان بلا شك مدافعاً صلباً عن الحرية وعن دور الشعوب في ادارة شؤونها.

■ استاذ الرواد :

ويستطيع الباحث اليوم ان ينظر الىٰ القرن الأخير من تاريخ امتنا فيجد ان جيلاً بأكمله من روّاد النهضة الاسلامية الحديثة من محمد عبده الىٰ عبد العزيز جاويش وعبدالله النديم ومصطفى كامل كانوا جميعاً من تلاميذه، وان الثورة العرابية في مصر وثورة الدستور في ايران كان أثراً من آثاره، بل اننا نستطيع القول ان النهضة الاسلامية المعاصرة، من ايران الىٰ أفغانستان الىٰ مصر، تنتمي جميعها الىٰ الأفغاني انتماءً شرعياً.

وفي أوراقه التي وجدت بعد وفاته بسنين عديدة، كشفت بعض القصائد الشعرية التي كتبها جمال الدين ولم يهتم بنشرها في حياته وفي احداها يقول :

«طغاة ايران يحرقون

مني الجسد والروح

سأحزم امتعتي وأرحل
صوب أرض تركيا
أرحل مرهقاً حزيناً وشقيّاً،
طالباً العدل
في محكمة السلطان
فان لم يخفف السلطان
عن قلبي المثقل
فسوف أرحل
طالباً العدل
في محكمة الله».

وقد مات السيد جمال الدين وحيداً في اسطنبول مع نهاية القرن التاسع عشر، تعيساً بائساً وكأنه ينظر الىٰ النهاية الآتية. كانت صرخاته أكبر من ان يستجيب لها عصره ومعاصروه.. فذهب، وبعده بسنوات قليلة كانت الدولة العثمانية كلّها تنهار وتذهب، وتنتهي بنهايتها مرحلة تاريخية بأكملها وليحتدم الصراع داخل الامة بين عشرات المتناقضات وهي تتجهز للمرحلة المقبلة.

الافتراء لتحقيق الاحتواء

هكذا كان السيد الأفغاني : رجل الثورة الاسلامية، في كل مكان يزرعها وفي كل قلب، له من كل حادثة عبرة، ومن كل وقت منطلق، وفي كل ساحة صراع مرير ضد عتاة الأرض وطواغيت البشر، وكل من تجلىٰ فيهم الكبر والاعتداء.

لقد ركّز السيد الشهيد علىٰ محور المشكلة التي كانت الأُمة تعانيها وتئن من آثارها وما كان هذا المحور إلا تشكيلاً من عنصرين وربما كان أحدهما عاملاً في خلق الآخر:

هذان العنصران هما التحريف في التصوّر، والميوعة في الاحساس وفي هاتين النقطتين كمن سر الداء العضال لهذه الأُمّة مما أورثها ضعفاً هائلاً في الثقة بالنفس، وتمييعاً فظيعاً في المواقف، وهزيمة نفسية أمام الغزو المعادي.

ومن هنا انطلق رحمه الله ليعيد للأُمة تصوّرها الصحيح عن العقيدة، وعن تلاحم العقيدة مع العمل، ويحرك فيها الاحساس الثوري المتفاعل مع العقيدة والمنطلق علىٰ أساسها.

وتكفي نظرة سريعة علىٰ أقواله وأفعاله وكتاباته وخططه لنحكم بالتالي علىٰ الرجل بأنه كان مسخّراً حياته للقضاء علىٰ محور الداء في هذه الأُمة، واقفاً نفسه لتطويق آثار الداء عاملاً علىٰ التوعية المطلوبة بهذه الآثار.

وفي هذا السبيل نسي السيد كل انتساب قومي أو عرقي أو نَسَبي أو أرضي ليحقق امتداده العالمي، وثار علىٰ التقاليد البالية التي منعت رجل العلم الديني من الخوض في غمار السياسة لينغمس كلياً في عالمها باعتبارها أحد الميادين الرئيسية التي يجب أن يجاهد فيها العلماء.

وراح يعلنها بالتالي دعوة كريمة، وصرخة مدوّية تدعو الىٰ الاصلاح والوحدة، وهما مفهومان يتلاحمان في شخصيته وسيرته ودعوته العالمية..

فاذا انضم لكل هذا الوعي الاخلاص فان من الطبيعي ان يتبعه التفاني والتضحية ونسيان الراحة؛ وكل ما يمتّ اليها وحينئذ يأتي النصر الالهي المؤزر لعباده الصالحين.

وهكذا كان الأمر، وسرت النيران لتعصف بالعروش في ايران وتركيا ومصر وهكذا تساقطت العروش الكرتونية التي حملت في أمخاخها العمالة والاستكبار، ومشت دعوة جمال الدين في الأفئدة الحرة لتصوغ مصلحين من أمثال محمد عبده هذا الرجل العظيم الذي خلد استاذه في كتاباته وأعماله معاً.

* * *

ومضىٰ الزعيم المسلم الىٰ ربّه بعد أن غرس الروح الثورية في مجمل الحياة الاسلامية لتتفرّع بعد ذلك بما يحقق أهدافه السامية.

وظن الاستعمار انه مات وماتت معه أفكاره، وربما ظن انه يستطيع أن يسخّر شخصيته لتغطية بعض عملياته هو، وراح يزرع عملاءه هنا وهناك آمناً.

إلا انه فوجئ بعد مدة بالعملاق الاسلامي يتحرّك فيهزّ الأرض تحت أقدام العملاء بل وينطلق من أرض كان يعتبرها جزيرة الأمان، من ايران الثورة فاذا بأكبر قلعة استعمارية تهتز، وأعتىٰ متكبر يسقط بكل حقارة في قمامة التاريخ.

وقد لاحظ ان هذه الثورة المباركة تحمل ملامح واضحة تتشابه مع ملامح شخصية الأفغاني ولكن بشكل أروع وأجلىٰ وأبعد تأثيراً.

إنها ثورة دينية يقودها رجل العلم الديني وتشعلها الجماهير المسلمة معلنة لزوم عودة التصوّر الصحيح الىٰ العالم الاسلامي كلّه، وضرورة بعث الحماس الاسلامي في كل قطاعاته وذلك لاستعادة الأمجاد الاسلامية الكبرىٰ.

وتستجيب الجماهير الاسلامية في كل مكان لهذه الانطلاقة وتتفاعل معها مما أفقده رشده وصوابه.

إلا أنّه بعدان استعاد صوابه راح يخطط لضرب الثورة في الصميم ومذ فشلت مخططاته لضرب الثورة راح يضرب تأثيرها ويحاول الفصل بينها وبين جماهيرها بشتىٰ الأساليب التشويهية.

وكان ضرب الأفغاني الثائر جزءاً من الخطة لتحقيق الأهداف الاستعمارية وذلك علىٰ يد العملاء الصليبيين والرجعيين والمغفلين المتعصبين.

وعدنا نسمع عن الرجل كل التهم تكال كيلاً حتىٰ ولو كانت في اطار ما يسمىٰ بالتحقيقات العلمية الموضوعية فاذا بالأفغاني البطل المتفاني يتحوّل الىٰ بابي، رافضي، بهائي، ماسوني، رجعي، قومي، مهادن للعملاء، يحب الشهرة، والمغامرة. بل راحت تتهم الشيخ محمد عبده بأنه كان يعلم الكثير عن استاذه إلا انّه أخفاه تقية !!

وهكذا نسيت كل مواقفه الرائعة في ايقاظ الشعوب والامة الاسلامية وأعرض هؤلاء عن الشهادات والأوسمة الحقيقية التي حملتها هذه الشخصية الرائعة، وعن الآثار العلمية والسياسية والحماسية التي تركها نوراً يضيء الدرب للأجيال، وعن الزهد الذي طبع مجمل حياته.

كل هذه الحقائق التي لا ريب فيها نسيت في سبيل تحقيق تلك المآرب الرخيصة.

■ قصة الحملة المسعورة :

اما كيف بدأت الحملة لتشويه صورة الأفغاني وكيف جرىٰ الاعداد لها فهو ما كشفته مصادرنا من خلال وثيقة مدوّنة نشرتها مجلة «الشهيد» الاسلامية نوردها مع بعض التصرف :

(إنه قرار المخابرات الاميركية.. الذي تنفّذه الأنظمة الرجعية بأموال شعوبهم المنهوبة التي يشترون بها الصحفيين والمزوّرين. والهدف (اسقاط شخصية السيد المجاهد جمال الدين الحسيني)، المعروف بالأفغاني.. وبالتالي اسقاط اعتبار الحركة الاسلامية المتصاعدة التي يعتبر السيد المجاهد أحد رموزها وملهميها..

ورغم اعتقادنا ان السيد المجاهد في قلوب الناس بجهاده وتاريخه الرائع.. إلا اننا نخوض في بعض تفاصيل هذه الحملة لكي تنكشف لنا وبصورة أوضح حقيقة دور الأنظمة الرجعية الحاقدة علىٰ الاسلام وقادته الرساليين.. وهذه احدىٰ جرائم هذه الأنظمة الرجعية التي لا تقل بشاعة عن جرائمهم الأخرىٰ، ضد شعوبهم المظلومة.

بعد انتصار الثورة الاسلامية في ايران ، وتنامي الوعي الاسلامي واتساع الصحوة الاسلامية في العالم، أخذت أقلام خبيثة ورخيصة، تصبّ كل جهودها في اطار كيل التهم والافتراءات علىٰ ماضي الشخصية الاسلامية الفذّة، الشهيد السيد جمال الدين الأفغاني.

وطبعاً تأتي هذه الاتهامات علىٰ صفحات مجلة أو كتاب يسبح بحمد طاغوت أو دكتاتور ملحد !...

فجلتا (التضامن) و (المجلة) الناطقتان بالعربية، تتوليان هذه الحملة المزجاة ضد شخصية المفكر الاسلامي الشهيد جمال الدين الحسيني، فقد فوّضت أقلام عملاء الملوك والسلاطين كي تبثّ في سيرة السيد الحسيني..

وكاتب البحث أو المجلة كان أكثر خبثاً في اختيار عنوان البحث.. اذ ابتدأ في

عنونة البحث بعبارة «ايراني غامض في مصر» أو «المجلة تفتتح ملف الأفغاني» وهذه العبارة يشيع استخدامها في أزقة المحاكم وعلىٰ الملفات القضائية، فهو يحاول ان ينتقل بالقارئ المسلم عموماً الىٰ صلب بحثه، ولكنه يريد ان يوقفه علىٰ باب البحث المكتوب فوقها «المجلة تفتتح ملف الأفغاني» و «ايراني غامض» ليشعره لا أقل انه مدعو للدخول الىٰ قاعة محكمة رجل غامض ! والمتهم فيها هو سيرة وأفكار السيد جمال الدين الحسيني.

اذن فالباحث منذ البداية لا نستطيع ان نتعهد فيه الصدق والامانة والنية الخالصة في نقل مشاهد عن حياة السيد الحسيني، وحتىٰ في ردّه علىٰ بعض مقتطفات من الكتب والبحوث التي كان يستعرضها، لم يقصد القربة الىٰ الله والدفاع عن السيد الجليل، بل لأن الوقائع الموجودة تخالف ما جاء في تلك الكتب والبحوث فهو لا يريد ان يقبل بها علىٰ علّاتها كي لا يضع نفسه موضع الاتهام بأنه ينساق مع ما ذهب اليه أعداء السيد الحسيني في كتاباتهم..

والبحث الذي قدمته المجلتان علىٰ حلقات وتبعه بعد ذلك عدد من التعليقات والتعقيبات.. في الحقيقة لا نستطيع أبداً ان نعتبره بحثاً، فهو عبارة عن اعادة الحياة الىٰ وثائق وكتب نشرت في العام ١٩٦٣ وما تلاه..

فالمجلتان أرادتا ان تعبثا بسيرة السيد الحسيني، انما عبر تسليط الأضواء علىٰ كتاب نشرته جامعة طهران العام ١٩٦٣، وعبر استعراض مجمل ما كتب عن السيد الحسيني، وكل هذه الكتابات كما تقول المجلتان كتبت بعد ظهور الكتاب الآنف الذكر الموسوم بـ«مجموعة أسناد ومدارك جاب نشده درباره سيد جمال الدين مشهور به أفغاني» وترجمته بالعربية «مجموعة وثائق غير منشورة تتعلّق بالسيد جمال الدين المشهور بالأفغاني».

والكتاب من عنوانه يطرح نفسه علىٰ انه مجموعة وثائق تخصّ السيد الحسيني.. اما الحقيقة، فان الوثائق ما هي الا افتراءات.

فعملية الطعن بسيرة السيد الحسيني حين صدر الكتاب كانت عملية مقصودة يمكن تبيانها من خلال النقاط التالية:

١ ـ تاريخ صدور الكتاب في العام ١٩٦٣، يكفي لأن يوضح حقيقة كذب الوثائق، فعام ١٩٦٣ شهد غلياناً اسلامياً داخل ايران أعقبه انتفاضة اسلامية عارمة قادتها الحوزة العلمية في قم بقيادة الامام الخميني، وكانت نتائج الانتفاضة التي سميت بانتفاضة ١٥ خرداد (حزيران ـ يونيو) تقديم خمسة عشر ألف شهيد وعشرات الآلاف من الجرحىٰ والمعتقلين، اما افرازاتها فانها ثبّتت الخط الاسلامي في قاموس نهضة الشعب الايراني المسلم، ضد حكم الشاه..

وكانت الانتفاضة الاسلامية هذه امتداداً لثورة الدستور وثورة التنباك الذي كان السيد الحسيني واحداً من قياداتها البارزين..

ولما كانت ثورة التنباك وثورة الدستور تغذي الشعب الايراني روح الثورة والنهوض خصوصاً بعد أحداث انتفاضة ١٥ خرداد (حزيران ـ يونيو)، ولما كان السيد جمال الدين الحسيني في مقدمة تلك الثورات وبالتالي فهو أحد ملهمي الانتفاضة الحالية وجذورها.. عمدت حكومة الشاه محمد رضا الىٰ اصدار الكتاب المذكور كي ترمي بذلك عدة أهداف بحجر.. فتشويه سمعة السيد الحسيني يعني الحاق التشويه بسمعة ثورتي التنباك والدستور، ويكون الهدف الآخر الأكثر مراداً هو تشويه قيادة الامام الخميني وانتفاضة ١٥ خرداد (حزيران ـ يونيو) التي هي قيادة السيد الحسيني وثورتا التنباك والدستور.

٢ ـ ان كل الكتابات التي كتبها كتّاب ايرانيون ومستشرقون، جاءت بعد اصدار حكومة الشاه لهذا الكتاب أو (الوثائق!)، بالاضافة الىٰ كل هذه الكتابات استندت الىٰ الكتاب المعني..

فهنا يأتي الشك، اين كانت الوثائق أولاً قبل العام ١٩٦٣؟ ولماذا الآن اين كانت كتابات المستشرقين والكتّاب الايرانيين الآخرين؟ ولماذا بعد ١٩٦٣؟! لماذا

الاستناد الىٰ كتاب «مجموعة وثائق غير منشورة» فقط من دون الاستعانة بكتب وبحوث اخرىٰ لكتّاب آخرين أو حتىٰ كتابات ومقالات السيد الحسيني ذاته ؟!

اذن.. فالعملية كانت مدبّرة ومستهدفة وإلا ليس من محض الصدفة ان تصدر كل الكتب المستندة الىٰ الكتاب المعني بعد عام ١٩٦٣، وكل كاتب من هؤلاء يأخذ أي وثيقة ليجعلها رأسمال للطعن بالسيد الجليل حتىٰ من دون تحكيم العقل أو لغة الكتاب والبحث، في وقت هناك بحوث وكتب صادرة قبل ١٩٦٣ لا تأتي بما أتىٰ به ذلك الكتاب !

المجلتان جاءتا لتنضما في صفوف أمثال هؤلاء الكتّاب مستفيدتين من الكتاب المذكور لتسيء الىٰ سمعة السيد الحسيني ولتزيد في اثبات ما هو منفي !، وانتقتا من الوثائق في حياة السيد الحسيني الذاتية فكيف بحياته السياسية ؟!، وحتىٰ من دون مراعاة لشعور المسلمين الذين يمجّون مثل هذه الافتراءات البعيدة عن الواقع.. ولكنها الحملة المسعورة ضد السيد الجليل التي يغيب عندها الضمير الحي !!

حينما تقرأ دراسة المجلتين أو قل استنساخ ما جاء في كتاب جامعة طهران وكتاب نيكي كدي الاميركية، ترىٰ انهما تحاولان ان تقولا للمسلمين ان السيد جمال الدين الحسيني لم يكن إلا العوبة بيد السلاطين والملوك.. ولم يكن يملك من أمره وارداته شيئاً..

في الواقع ان السيد الحسيني كانت له عدة علاقات مع هؤلاء السلاطين، ولكن علاقته كانت في نطاق اسداء النصح لهؤلاء السلاطين.. وحينما يصدر منهم الانحراف يقف بوجههم ليقوّم ذلك الانحراف، وعندما لا يذعن السلطان لذلك يأخذ السيد الحسيني بفضحه، وبعض هذه العلاقات كان السيد الحسيني يرتجي من ورائه خدمة الاسلام كطلبه من المسلمين مؤازرة سلطان الآستانة في تركيا ضد المؤامرات الانكليزية، اذ ما دام الخطر قادماً من الخارج وعلىٰ يد قوات صليبية ترمي من احتلالها للدول الاسلامية ضرب الاسلام فان الموقف يتطلب كما كان

يرىٰ السيد الحسيني ان لايترك المسلمون نصرة سلطان الآستانة لئلا تقع الأُمة الاسلامية أسيرة الاستعمار والصليبية.

ولم يكن عمل السيد هذا بمنقصة انما كان الاسلام في خطر، وهذا الموقف يذكّرنا بموقف المرجعية الاسلامية في العراق عندما طلبت من المسلمين ان ينضموا ضمن صفوف القوات المسلحة العثمانية ضد قوات الغزو الاستعماري البريطاني، فالخطر علىٰ الاسلام كان داهماً..

أما عمله السياسي الجاد ضد الاستعمار البريطاني في مصر فإنّ المجلتين تحاولان ان تسدلا ستاراً كثيفاً عليه من خلال نقل مقتطفات من كتاب من تأليف كاتبة ايرانية وكاتبة اميركية، استندتا علىٰ كتاب ما سمي بالوثائق وبحث لكاتب مصري حاقد علىٰ الاسلام والمسلمين فكيف بالسيد الحسيني ؟!

فالكاتبتان تقولان : «يخطئ المرء إذا أراد أن ينسب إلىٰ جمال الدين مذهباً، وأنّ فيه عقيدة متجانسة..» ورغم هذا التحامل الشديد علىٰ السيد الجليل والتقليل من شأنه، بحيث اتهمتاه بالعلمانية والتعامل مع الانجليز وصلته بحركة البابية المنافية لعقائد المسلمين، فان كاتب البحث في «المجلة» مثلاً يأتي ويثمّن جهودهما فيكتب: «ومع ان المؤلفة لم تطّلع علىٰ كتابات الأفغاني في الصحف المصرية، واكتفت بما كُتب عنه بالعربية، ومع انها أيضاً أوجزت الفصل الخاص بآرائه وفكره، واعتمدت علىٰ كتاباته الفارسية والفرنسية أساساً، فكتابها يقدّم دراسة موضوعية حتىٰ لَو اختلفنا معها كثيراً» !!.. وأيّة موضوعية هذه اذا كانت مراجع كتابها وثائق مبتورة حيكت في أروقة وكالة المخابرات ؟!

ولكي يزيد كاتب «المجلة» في طعن السيد الحسيني ينقل عن ذلك الكاتب الصليبي الأميركي الجنسية قوله في الحسيني : «وأهم من كل هذا أنه بنىٰ لنفسه وبنيت له في مصر اسطورة حتىٰ غدا الناس في مصر يقدّسونه دون أن يقرأوا له ويضعونه فوق مستوىٰ النقد..» ولكن الشمس لا يضيرها أبداً سحابة كثيفة، فالعين

لايمكن لها ان تنكر وجودها.. والسيد الحسيني الشمس التي تحاول بعض الكتابات العائمة ان تغيّبها.. إلا أن الشمس أقدر علىٰ إذابة هذه السحابات الداكنة ..

لقد أعار السيد الحسيني لله وللشعب المصري المسلم نفسه ووقته وجمجمته، اذ لم يرتح له بال وهو يحس باقدام الاستعمار البريطاني توغل في صدره، فانطلق يحرّض الشعب المصري المسلم علىٰ الثورة والانتفاضة ضد الاستعمار البريطاني فراح ينادي في أهل مصر.. «فيا أيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو علىٰ زمام التصرف فيها غيلة واختلاساً، زحف العدو اليكم تحت راية المحبة، ثم قلب لكم ظهر المجن، وتناول بيده الظالمة شؤونكم العامة، من عسكرية ومالية وادارة وقضاء، ولم يُبقِ لكم شيئاً إلا الحرمان من خدمة أوطانكم، وأنتم أحقّ بها وطالما دافعتم عنها في الأيام السابقة..».

وفي المقال الافتتاحي، لأول عدد من جريدة (العروة الوثقىٰ)، يصوّر جمال الدين حادث الاحتلال البريطاني لمصر علىٰ انه كارثة علىٰ العالم الاسلامي، وقد أهاب المسلمين ـ بباعث من دينهم ـ ان يتكاتفوا لدفع بلاء هذا الاحتلال..

يقول :

«.. ان الخطر الذي ألمّ بمصر نفرت له أحشاء المسلمين، وانكلمت به قلوبهم، ولا تزال الامة تستفزّهم ما دام الجرح نقارا، وما هذا بغريب علىٰ المسلمين، فان رابطتهم الملية أقوىٰ من رابطة الجنس واللغة، ومادام القرآن يتلىٰ بينهم، وفي آياته مالا يذهب علىٰ افهام قارئه فلن يستطيع الدهر ان يذلّهم..».

وما يُضحك أن تتّهم المجلة السيد الحسيني باستلام أموال من الحكومة الفرنسية، فاذا كان السيد غايته المال، لما احتاج لأن يجهد نفسه ويدخل في طرق وعرة وشائكة من أجل خدمة المسلمين، ولما احتاج إلىٰ ان يعرّض نفسه للهجرة أو الإهانة من قِبل أزلام الأنظمة الحاكمة كما حدث له في ايران عندما هاجمه خمسمائة

من المسلحين وأخذوه جرّاً علىٰ الرغم من مرضه الشديد، حتىٰ قال جمال الدين الحسيني في ذلك :

«كيف يهان هذا الهوان وهو الرفيع النسب، العزيز الحسب، العظيم الجاه، العالي المنزلة في دينه وشرفه وعقله، ورغبته في الخير ؟ كيف يرجوه الشاه ان يأتي بلده ويعده ان ينفذ اصلاحه، ويعلي كلمته، ثم يعامله معاملة العبد يطرد، والذليل يصفع، والحقير يهان ؟».

ولكي تقول الهجمة الشرسة التي يقودها العملاء عبر مجلة «المجلة» و «التضامن» وغيرهما، ضد السيد الحسيني بأنه ماسوني، فان كاتب البحث لكي لا يربط الحديث به يذهب الىٰ أحد الكتّاب الموجودين الذي أخذ عن كتاب (مجموعة وثائق..) فيقتبس منه العبارة التالية :

«وفي مصر أيضاً جرّته ـ الحسيني ـ تطورات الاحداث وتغلغل الأجانب في آخر عصر إسماعيل الىٰ النزول في معمعتها فنشط في المحافل الماسونية..».

قبل كل شيء لابد ان نعرف ماذا تعني الماسونية ؟

الماسونية ترتكز علىٰ ثلاثة ركائز كما يزعم أصحابها، والركائز هي حرية، مساواة، اخاء، ولكن في الواقع هي بعيدة عن ذلك و «الجمعيات الماسونية، أو التنظيم الماسوني، هو من أدقّ وأعقد الأساليب الخفية المستترة في استقطاب حركة المجتمعات وتوجيهها».

وقد عرف عن التنظيمات الماسونية انها ضد الاسلام الحنيف، وضد كل شيء يتّصف بالخير، وما شعاراتهم إلا لِذرّ الرماد في العيون، وهي يافطة يرفعونها لاغواء من يروم الخير والسعادة البشرية، وأيضاً يافطة لتشويش الرؤية والبصيرة علىٰ الآخرين، والتنظيمات الماسونية عدوّة الانسانية وتحرّكها الدوائر الصهيونية

الامبريالية لتحكيم سيطرة الاستكبار العالمي علىٰ المستضعفين والمحرومين.

نعم ان السيد تعرّف علىٰ الماسونية حينما كانت دوائر النظام الملكي والاستكبار العالمي والدوائر الصهيونية تتلبس لباس الخير والاصلاح، وعندما لمس من أول وهلة انها معادية لمَصالح الشعب المصري المسلم، أخذ يعرّيها ويوضّح للشعب المصري المسلم حقيقتها الهدّامة المناصرة للنظام الحاكم، فيذكر السيد الحسيني بهذا الخصوص ما يلي:

«أول ماشوّقني للعمل في (بناية الأمراء) عنوان كبير خطير: حرية. مساواة. اخاء، وان غرضها (منفعة الانسان / سعي وراء دك صروح الظلم / تشييد معالم العدل المطلق) ولكن كنت انتظر ان أسمع وأرىٰ في مصر كل غريبة وعجيبة، ولكن ما كنت لأتخيّل ان الجبن يمكنه ان يدخل من بين اسطوانتي المحافل الماسونية !، اذا لم تتدخل الماسونية في سياسة الكون، وفيها كل بناء حرّ، واذا كانت آلات البناء التي بيدها لا تستعمل لهدم القديم وتشييد معالم حرية صحيحة واخاء ومساواة، واذا كانت لا تدك صروح الظلم والعتو والجور، فلا حملت يد الاحرار مطرقة، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة».

هذه العبارات الصادقة التي توضّح حقيقة السيد جمال الحسيني وموقفه الحازم من المحافل الماسونية تتغافلٰ عنها الأقلام المحمومة، وما همها، سوىٰ قذف السيد بأباطيل محبوكة.

* * *

وأخيراً حينما نتساءل عمّن روّج لهذه التّرهات فاننا سنجد في طليعتهم عميلاً صليبياً هو «لويس عوض» بطل الغارة علىٰ التراث الاسلامي الاصيل وحامل كل

ما يمثّل النفوذ الثقافي الغربي الى الجسم العربي(١).

ولكي تكتمل المسرحية فقد أوعزت الرجعية العربية بنقد كتابات «عوض» هذا طبعاً مع كيل المديح له ورد كل الاعتراضات الاخرىٰ عليه، ونقده أحياناً، وبالتالي ارجاع الجميع الىٰ ما أُسمي بالوثائق التي شجّع نظام الشاه علىٰ نشرها من قبل جامعة طهران في السنة نفسها التي ثار فيها الشعب ضد نظامه أي العام ١٩٦٣م (ثورة ١٥ خرداد) ليجعلها المرجع الوحيد لدراسة حياة هذه الشخصية العظيمة.

إلا ان كل المحاولات باءت بالفشل، ولم تنطل الحيلة على المفكرين الواعين وبقي الأفغاني بطلاً عظيماً تفتخر به الامة وتعتزّ بعد أن قدّم لها أروع الأمثال في الايمان والوعي والجهاد والتضحية والاخلاص.

■ مؤامرة خطيرة.. تتطلب يقظة كبيرة :

هل البتّ في تتبع حياة السيد جمال الدين الحسيني وفي هذا الوقت بالذات عملية خالصة لاتحوم حولها الشبهات؟!

---

١ ـ لمعرفة حقيقة الرجل راجع الصورة التالية عن نص استقالته من حزب الوفد حيث يصرّح بأنّ «الله ليس مصدر السلطات» !.

نص الاستقالة

السيد الاستاذ فؤاد سراج الدين

رئيس حزب الوفد الجديد

تحية طيبة وبعد، فاتشرف بإبلاغكم اني انضممت الى «الوفد الجديد» عند تأسيسه في ١٩٧٨ اعتقادا مني بأن الوفد الجديد قائم على اسس الديمقراطية العلمانية التي قام عليها الوفد القديم منذ ١٩١٩.

هذه الاسس، في اختصار شديد ودون لف او دوران، هي ان «الامة مصدر السلطات»، لا ان الله مصدر السلطات، وبالتالي فان من حق البشر ان يضعوا دساتير وقوانين وضعية من صنع البشر بالحق الطبيعي بحسب تطور المجتمعات، لا دساتير وقوانين الهية واجبة النفاذ في كل زمان ومكان بالحق الالهي، ولا يجوز تعديلها بأغلبية ثلثي الاعضاء او بالاغلبية النصف زائد واحد.

وقد فوجئت في الفترة الاخيرة بتصريحات على مستوى القمة في قيادة حزب الوفد الجديد تعلن رفض الحزب للعلمانية التي آمن بها أساسا للعقد الاجتماعي، بما اقنعني بأن «الوفد الجديد» الذي تشرفت بالانضمام اليه في ١٩٧٨ يختلف اختلافا جوهريا عن الوفد الذي أسسه سعد زغلول وقاده مصطفى النحاس في فترة ما بين الثورتين.

وبناء عليه لقد قررت مع الاسف الشديد الاستقالة من عضوية حزب «الوفد الجديد»، متمنيا ان تثبت الايام خطأ مخاوفي وتقديراتي، وان يتمكن الحزب تحت قيادتكم الرشيدة من المشاركة في بناء الوطنية المصرية والديمقراطية المصرية في ظل سياسته الجديدة.

وتفضلوا بقبول وافر احترامي وتقديري

(د. لويس عوض)

اننا لسنا فقط نشّك بذلك، بل لنا قناعتنا، وبالأرقام والوقائع كما بيّنا بأن هناك مؤامرة خطيرة تستهدف اغتيال سيرة السيّد الحسيني الجهادية، وابدالها بسيرة ملؤها التشنجات والتناقضات والانتهاكات الصارمة للاسلام.. وان المسألة ليست متعلّقة بكاتب أو بمجلة أو صحيفة، انما مسألة نظام قائم يحاول استخدام تلك الأقلام لمصلحته الشخصية ألا وهو نظام آل سعود الحاكم في الجزيرة العربية، وليس هذا النظام وحده مشتركاً في هذه الجريمة، بل هو علىٰ رأس أنظمة الاسلام الاميركي المتحكمة بمصائر المسلمين في الخليج ومصر والمغرب وتونس والعراق وافغانستان وتركيا.

وهي مؤامرة تقف خلفها الدوائر الغربية والشرقية والصهيونية تستهدف :

(١) اظهار السيد جمال الدين الحسيني علىٰ أنه رجل مغامر لم ينو الاسلام في عمله، وانه للظهور وحب الشهرة !!

(٢) تشويه قداسة الثورة الاسلامية في ايران والتي تدين للسيد جمال الدين الحسيني بأفكاره وأعماله الاسلامية الكبيرة.

(٣) إبعاد الحركات الاسلامية العاملة في الساحة الاسلامية الشاسعة عن السيد الحسيني وعن الثورة الاسلامية في ايران، لقطع العلاقات الروحية والسياسية التي تدين بها الحركات لقيادة الامام الخميني.

(٤) إبعاد الشعوب الاسلامية عن الاحتكاك بالحركات الاسلامية والانتظام في صفوفها..

(٥) الطعن بالحركة الاسلامية المصرية وبالخصوص تلك التي رفعت سلاح القوة لمواجهة النظام، ويجيء الطعن نتيجة لهتك حرمة السيد جمال الدين الحسيني التي تتخذه الحركة الاسلامية العاملة في مصر قدوتها علىٰ طريق الجهاد الاسلامي.. وهذه النقطة لها أهميتها، ذلك ان التحرك الاسلامي داخل مصر نحو اقامة نظام اسلامي هو ما يقلق الدوائر الصهيونية التي تخشىٰ ان تقع «اسرائيل» في مواجهة مع

نظام اسلامي.

وقد لا يتصور أحدنا ان ربط عملية تشويه سيرة السيد الحسيني بالكيان الصهيوني، يمكن ان يكون بهذه السهولة، ولكن عليك ان تصدق اذا علمت ان «أسرائيل» تفكّر بقصف المفاعل النووي الباكستاني داخل باكستان بعد تصاعد الصحوة الاسلامية في الباكستان..

فاماتة أفكار السيد الحسيني داخل نفوس ابناء الحركة الاسلامية المصرية ـ كما تعتقد الدوائر الاستكبارية ـ من الممكن ان يقضي علىٰ روح التحرّك في الفرد المصري المسلم !

(٦) ضرب الوحدة الاسلامية وبالذات الوحدة الاسلامية بين الحركات الاسلامية العاملة، بين المجاهد المصري والعراقي والايراني، التونسي والمغربي، الأفغاني والايراني، الايراني والمصري، الخليجي والتركي وهكذا..

والوحدة الاسلامية بين الشيعي والسني وبالخصوص علىٰ نطاق الحركات الاسلامية، الوحدة الاسلامية التي مثّلها السيد الحسيني بعمله في صفوف علماء جامع الأزهر والحوزات العلمية الشيعية.. الوحدة الاسلامية التي تمثلت في تعاضد السيد جمال الدين الحسيني والشيخ محمد عبده.

إنّ المؤامرة التي تدبرها الأنظمة الرجعية أكبر من ان نتصور، وهي بكِبَر الثورة الاسلامية التي أخذت تزلزل الأرض من تحت أقدام الطواغيت في عالمنا الاسلامي.. وعلىٰ الاعلام الاسلامي ان ينتبه الىٰ هذه المؤامرة الخطيرة ويفضحها.. ويطرح حقيقة السيد جمال الدين الحسيني.. حقيقته التي تبقىٰ مناراً للعاملين في سبيل الله والمستضعفين.. قال تعالىٰ :

(يُريدون أنْ يُطفِئُوا نُورَ اللهِ بأَفواهِهِم، وَيأْبىٰ اللهُ إلاّ أَنْ يُتمّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرونَ)[1].

* * *

---

١ ـ التوبة : ٣٢.

وإنّنا كما أشرنا أولاً، وفاءً لذكرىٰ الرجل الكبير واحتفالاً بالذكرىٰ المئوية لاصدار مجلة (العروة الوثقىٰ) من باريس ـ نقدّم المجموعة الكاملة لهذه المجلة للقرّاء في العالم الاسلامي والعربي، سائلين المولىٰ العلي القدير ان يبعث في جماهيرنا الاسلامية روحاً ثورية وتحسساً للأهداف الكبرىٰ وشوقاً صنّاعاً للغد الأمثل.

والله الموفق.

سيد هادي خسرو شاهى.

محرم ١٤٠٦ هـ اكتوبر ١٩٨٥ / روما ـ ايطاليا.

الطبعة الأولى
روما ـ ايطاليا
١٩٨٥م

مركز الثقافة الاسلامية في اوروبا
روما ـ ايطاليا
Via Nomentana, 863 — 00162 Roma
Italia

العُروَة الوُثقىٰ

للسيد جمال الدين الأفغاني
و
الشيخ محمد عبده

الطبعة الثانية



بسم الله الرحمٰن الرحيم

لماذا صدرت الجريدة[1]

(ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير)

هذا ماتمدّه العناية الالهية من قول الحق، متعلقاً بأحوال الشرق، وعلىٰ الله المتّكل في نجاح العمل.

خفيت مذاهب الطامعين أزماناً ثم ظهرت، بدأت علىٰ طريق ربما لا تنكرها الأنفس ثم التوت، أوغل الأقوياء من الأُمم في سيرهم بالضعفاء حتىٰ تجاوزوا بيداء الفكر، وسحروا ألبابهم[2] حتىٰ أذهلوهم عن[3] أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام، وبلغوا بهم من الضيم حدّاً لا تحمله النفوس البشرية.

ذهب أقوام الىٰ ما يسوّله الوهم، ويغري به شيطان الخيال، فظنوا إنّ القوّة الآلية وإنْ قلّ عمالها يدوم لها السلطان علىٰ الكثرة العددية وإن اتّفقت آحادها بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير، في النزر اليسير، وهو زعم يأباه القياس بل

---

١ ـ صدر العدد الأول منها في ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م وبلغ ما نشر منها ثمانية عشر عدداً وصدر العدد الأخير منها في ذي الحجة سنة ١٣٠١ هـ وانتهت بسبب محاربة الانجليز لها.

٢ ـ في الأصل : لبابهم.

٣ ـ في الأصل : على .

يبطله البرهان، فإنّ تقلبات الحوادث في الأزمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنّه إن ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت في سواد أمّة عظيمة ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها فلم يجز في زمن من الأزمان امحاء أمّة أو ملّة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها علىٰ نسبة متقاربة، وان بلغت القوة أقصىٰ ما يمثّله الخيال.

والذي يحكم به العقل الصريح ويشهد به سير الاجتماع الانساني من يوم علم تاريخه الىٰ اليوم أن الأمم الكبيرة اذا عراها ضعف لافتراق في الكلمة، أو غفلة عن عاقبة لاتحمد، أو ركون إلىٰ راحة لا تدوم، أو افتتان بنعيم يزول، ثم صالت عليها قوة أجنبية، أيقظتها ونبهتها بعض التنبيه فاذا توالت عليها وخزات الحوادث، وأقلقتها آلامها هرعت الىٰ استبقاء الموجود ورد المفقود، ولم تجد بداً من طلب النجاة من أي سبيل وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية وهي ماتكون بالتئام أفرادها؛ والتحام آحادها، وان الإلهام الإلهي والاحساس الفطري والتعليم الشرعي ترشدها الىٰ أن لا حاجة لها الىٰ ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شيء عليها.

إن النفوس الانسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت اذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لاتحتمل الضيم إلا الىٰ حدّ يدخل تحت الطاقة ويسعه الإمكان فاذا تجاوز الاستطاعة كرّت النفوس الىٰ قواها، واستأسد ذئبها، وتنمر ثعلبها، والتمست خلاصها ولن تعدم عند الطلب رشاداً.

ربما تخطئ مرة فتكون عليها الدائرة، لكن مايصيبها من زلّة الخطأ يلهمها تدارك مافرط والاحتراس من الوقوع في مثله فتصيب أخرىٰ فيكون لها الظفر والغلبة، وان الحركة التي تنبعث لدفع ما لا يطاق اذا قام بتدبيرها قيّم عليها، ومدبر لسيرها، لايكفي في توقيف سريانها، أو محو آثارها، قهر ذاك القيم واهلاك ذاك المدبر، فان العلة مادامت موجودة لاتزال آثارها تصدر عنها، فان ذهب قيّم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة؛ نعم ممكن تخفيف الأثر أو إزالته بإزالة علّته ورفع أسبابه.

جرت عادة الامم أنْ تأنف من الخضوع لمن يباينها في الأخلاق والعادات والمشارب، وان لم يكلفها بزائد عمّا كانت تدين به لمن هو علىٰ شاكلتها، فكيف بها اذا حملها مالا طاقة لها به. لا ريب إنها تستنكره، وان كانت تستكبره، وكلما انكرته بعدت عن الميل اليه، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريباً تقرب بعضها من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب.

ان مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تُنسي الأمم ما بينها من الاختلاف في الجنسية والمشرب، فترىٰ الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر ألزم من التحزّب للجنس والمذهب وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية الىٰ الاتفاق أشدّ من دعوتها اليه للاشتراك في طلب المنفعة.

أبعد هذا يأخذنا العجب اذا أحسسنا بحركة فكرية في أغلب انحاء المشرق في هذه الأيام. كلٌّ يطلب خلاصاً ويبتغي نجاة وينتحل لذلك من الوسائل والأسباب ما يصل اليه فكره علىٰ درجته من الجودة والافن وان العقلاء في كثير من اصقاعه يتفكرون في جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل.

بلا، كان هذا أمراً ينتظره المستبصر وان عمى عنه الطامع وليس في الإمكان اقناع الطامعين بالبرهان ولكن ما يأتي به الزمان من عاداته في أبنائه بل مايجري به القضاء الإلٰهي من سنة الله في خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون.

بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته، ووصل العدوان فيهم نهايته، وأدرك المتغلب منهم نكايته، خصوصاً في المسلمين منهم ؛ فنهم ملوك انزلوا عن عروشهم جوراً وذووا حقوق في الأمرة حرموا حقوقهم ظلماً، وأعزاء باتوا أذلاء وأجلاّء أصبحوا حقراء وأغنياء أمسوا فقراء وأصحاء أضحوا سقاماً وأُسود تحوّلت أنعاماً، ولم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسّها الضرر من أفراط الطامعين في أطماعهم خصوصاً من جرّاء هذه الحوادث التي بذرت بذورها في الأراضي المصرية من نحو خمس سنوات بأيدي ذوي المطامع فيها. جلوا الىٰ البلاد مالا تعرفه فدهشت عقولها

وشدّوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها وألزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع فكانت الحركة العرابية العشواء فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين فاندفع بهم سيل المصاعب، بل طوفان المصائب، علىٰ تلك البلاد وظنوا بلوغ الأرب ولكن أخطأ الظن وهمّوا بما لم ينالوا.

لم تكد تخمد تلك الحركة في بادئ النظر حتىٰ خلفتها حركة اخرىٰ وفُتح باب كان مسدوداً وقام قائم بدعوة لها المكانة الأولىٰ في نفوس المسلمين بل هي بقية آمالهم ولا ندري الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة وربما يوجد من يدري ان مسببيها في حيرة من تلافيها، نعم أنّهم غرسوا غرساً إلا أنهم سيجنون أو هم الآن يجنون منه حنظلاً ويطعمون منه زقوماً. لاجرم هذه هي العواقب التي لا محيص عنها لمن يغالي في طمعه ويغلغل في حرصه ولو أنهم تركوا الأمر من ذاك الوقت لأربابه وفوّضوا تدارك كل حادث للخبراء به والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعته أو اقتناء فائدته لحفظوا بذلك مصالحهم ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة بدون أن تزل لهم قدم أو ينكس لهم علم.

غير أنهم ركبوا الشطط وغرّهم ما وجدوا من تفرّق الكلمة وتشتت الأهواء وهو أنفذ عواملهم واقتلها وما علموا أنه وان كان زريع الفتك إلا انه سريع العطب وما أسرع ان يتحوّل عند اشتداد الخطوب الىٰ عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين فان بلاء الجور اذا حل بشطر من الامة وعوفي منه باقيها كانت سلامة البعض تعزية للمصابين وحجاب غفلة للسالمين يحول بينهم وبين الاحساس بما أصاب إخوانهم أما اذا عمّ الضرر فلا محالة يحيط بهم الضجر ويعزّ عليهم الصبر فيندفعون الىٰ مافيه خيرهم ولا خير فيه لغيرهم.

ان الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها علىٰ نفوس المسلمين عموماً. إنّ مصر تعتبر عندهم من الأراضي المقدسة ولها في قلوبهم

منزلة لايعلها سواها نظراً لموقعها من الممالك الاسلامية ولأنها باب الحرمين الشريفين فان كان هذا الباب أميناً كانت خواطر المسلمين مطمئنة علىٰ تلك البقاع وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الاسلامية، ان الخطر الذي ألمّ بمصر نغرت له أحشاء المسلمين وتكلمت به قلوبهم ولا تزال آلامه تستفزهم مادام الجرح نغاراً. وماهذا بغريب على المسلمين فإنّ رابطتهم المليّة أقوىٰ من روابط الجنسية واللغة مادام القرآن يتلىٰ بينهم وفي آياته مالا يذهب علىٰ افهام قارئيه فلن يستطيع الدهر أن يذلّهم، ان الفجيعة بمصر حرّكت أشجاناً كانت كامنة وجددت أحزاناً لم تكن في الحسبان وسرى الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم وهم من تذكار الماضي ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ولا نأمل ان يصير التنفس زفيراً بل نفيراً عاماً بل يكون صاخة تمزّق مسامع من أصمه الطمع.

إنّ أولىٰ المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب له في فتوحاته إلا المداهاة ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ولا أسنّة يحفظ بها ما تمتد اليه يده إلا المراضاة يظهر بصور مختلفة الألوان متقاربة الأشكال كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم ومثبّت مراكز الأمراء ومسكن الفتن ومخلّص الحكومات من غوائل العصيان وواقي مصالح المغلوبين فكان أول مايجب عليه ملاحظته في سيره هذا أنْ لا يأتي من أعماله بما لايهتك هذا الستر الرقيق الذي يكفي لتمزيقه رجع البصر وكر النظر وان يتحاشىٰ العنف مع أمّة يشهد تاريخها بأنها إذا حنقت خنقت وليس له ان يغترّ بعدم مكنتهم وهو يعلم ان الكلمة اذا اتحدت لا تعوزها الوسائط ولا يعدم المتحدون قوياً شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته وان المغيظ لايبالي في الايقاع بمناوئه أسلم أو عطب فهو يضر ليضر، إن مسه الضر.

إلا ان غشية التهم ذهبت بعقول المنهومين ووقرت اسماعهم عن حسيس

الهمسات المتراسلة من الهند الى مكة ومن مكة الى مصر والكرير[1] الممتد من مصر الى مكة ومن مكة الى الهند وكلها تتلاقى بين تراقي المغرورين بقوتهم المسترسلون في جفوتهم.

إنّ الرزايا الاخيرة التي حلّت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها فأيقظ أفكار العقلاء وحوّلت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التي أدّت بهم الى ما هم فيه فتقاربوا في النظر وتواصلوا في طلب الحق وعمدوا الى معالجة الحق وعلل الضعف راجين ان يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ومؤملين ان تمهّد لهم الحوادث سبيلاً حسناً يسلكونه لوقاية الدين والشرف وان في الحاضر منها لنهزة تغتنم واليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم ولئن فاتت فكم في الغيب من مثلها والى الله عاقبة الأمور.

تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار خصوصاً البلاد الهندية والمصرية وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ويوحدون كلمة الحق في كل صقع لا ينون في السعي ولا يقصرون في الجهد ولو أفضى بهم ذلك الى أقصى ما يشفق منه حي على حياته.

ولما كانت بدايتهم تستدعي مساعدة من يضارعهم في مثل حالهم رأوا ان يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالي أوروبا وكتبوا على أنفسهم النظر في أمر السلطة العامة الاسلامية وفروض القائم بها وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين وفيها موسم الحجيج العام في كل عام يجتمع اليه الشرقي والغربي ويتآخى في مواقفها الطاهرة الجليل والحقير والغني والفقير كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات والله يهدي من يشاء الى سواء السبيل.

---

١ ـ الكرير : صوت في الصدر كصوت المختنق.

ولما كان نيل الغاية علىٰ وجه أبعد من الخطر وأقرب الىٰ الظفر يستدعي ان يكون للداعي في كل قلب سليم نفثة حق ودعوة صدق طلبوا عدّة طرق لنشر أفكارهم بين من خفي عنه شأنهم من اخوانهم واختاروا ان يكون لهم في هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم وهو اللسان العربي وان تكون في مدينة حرّة كمدينة باريس[1] ليتمكنوا بواسطتها من بثّ آرائهم وتوصيل أصواتهم الىٰ الأقطار القاصية تنبيهاً للغافل وتذكيراً للذاهل، فرغبوا الىٰ السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني أن ينشئ تلك الجريدة بحيث تتبع مشربهم وتذهب مذهبهم فلبّىٰ رغبتهم بل نادىٰ حقاً واجباً عليه لدينه ووطنه وكلّف الشيخ محمد عبده ان يكون رئيس تحريرها فكان ما حمل الأول علىٰ الإجابة، حمل الثاني علىٰ الإمتثال، وعلىٰ الله الاتكال في جميع الأحوال.

---

١ ـ يقصد باريس عام ١٨٨٤ !!.

الجريدة ومنهجها

سيأتي في خدمة الشرقيين علىٰ مافي الامكان من بيان الواجبات التي كـان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آت.

ويستتبع ذلك البحث في أصول الأسباب ومناشئ العلل التي قصرت بهم الىٰ جانب التفريط والبواعث التي دفعت بهم الىٰ مهامه حـيرة عـميت فـيها السـبل واشتبهت بها المضارب وتاه فيها الخريت [1] وضل المرشد حتىٰ لايدري السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة والمزعجات المدهشة والمدهشات القاتلة.

وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين ولبست عليهم مسالك الرشد وتزيح الوساوس التي أخذت بعقول المنعمين حتىٰ أورثـتهم اليأس من مداواة علاّتهم وشفاء ادائهم وظنوا ان زمان التـدارك قـد فـات وان العناية بلغت حدّها.

وتحـاول اشراب الأفـهام ان لا حـاجة في الوصـول الىٰ نـقطة الخـلاص المرغوبة الىٰ قطع دائرة عظيمة تصورها يوجب فـتور الهـمم وانحـطاط العـزائم وان تخيّل تلك الدائرة الواسعة انما عرض من الادبار عـلىٰ المـطلوب وهـو تحت

---

١ ـ الخريت : الدليل الحاذق بطرق الأرض.

الجنح ويكفي في الوصول اليه عطفة نظر وقطع بعض خطوات قصيرة.

وان الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث انما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم وهي ما تمسكت بـه أعـزّ دولة أوروبـية وأمنعها ولا ضرورة في ايجاد المنعة الىٰ اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الاخرىٰ ولا ملجئ للشرقي في بدايته ان يقف موقف الأوروبي في نهايته بل ليس له أن يطلب ذلك وفيما مضىٰ أصدق شاهد علىٰ ان من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقراً أعجزها وأعوزها.

وتنبه بأن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية فان فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوى لابتلاع الضعيف، وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة المدبج بأشكال المجاملة شفافاً ينم عـمّا وراءه وتنقب عن المسالك الدقيقة التي يسري بها الطامعون في دياجر الغفلات.

ويهتم بدفع ما يرمي به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً مـن التهـم الباطلة التي يوجهها اليهم من لاخبرة له بحالهم ولا وقوف علىٰ حقائق أمـورهم وإبطال زعم الزاعمين ان المسلمين لا يتقدمون الىٰ المدنية ما داموا علىٰ أصولهم التي فاز بها آباؤهم الأولون ولا تهن في تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون في شؤونهم مع اختيار الصادق وانتقاء الثابت.

وتراعى في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأُمم وتمكين الأُلفة في أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها والسياسات القويمة التي لا تـميل الىٰ الحـيف والاجحاف بحقوق الشرقيين.

ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين اليها والحاملين عليها لا تظهر اذا أدلجوا ولا تنجد إذا غوروا وتذهب مذاهب الرشد وتصيب بحول الله مواقعه عند من سبق في أذلى علم الله هدايته والله يهدي من يشاءِ الىٰ صراط مستقيم.

وترسل الىٰ الذين نعرف اسماؤهم مجاناً بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير والغني والفقير ومن لم يصل الينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب الىٰ ادارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل إقامته علىٰ النهج الذي يريده والله الموفق.

الجنسية والدّيانة الاسلامية

ان استقراء حال الأفراد من كل امة واستطلاع اهوائها يثبت لجليّ النظر ودقيقه وجوب تعصب للجنس ونعرة عليه عند الأغلب منهم وان المتعصب لجنسه منهم ليتيه بمفاخر بنيه ويغضب لما يمسّهم حتىٰ يقتل دون دفعه بدون تنبيه منه لطلب السبب ولا بحث في علة هذا الوجدان حتىٰ ظنّ كثيرون من طلاب الحقيقة ان التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية إلا انه يبعد ظنهم ما نراه في حال طفل ولد في أمّة من الأمم ثم نقل قبل التمييز الىٰ أرض أمّة أُخرىٰ وربي فيها الىٰ ان عقل ولم يذكر له مولده فانّا لانرىٰ في طبعه ميلاً اليه بل يكون خالي الذهن من قبله ويكون مع سائر الأقطار سواء بل ربما كان آلف لمرباه وأميل اليه والطبيعي لا يتغيّر.

ولهذا لا نذهب الىٰ أنه طبيعي ولكن قد يكون من الملكات العارضة علىٰ الأنفس ترسمها علىٰ ألواحها الضرورات فان الانسان في أي أرض له حاجات جمّة وفي أفراده ميل الىٰ الاختصاص والاستئثار بالمنفعة اذا لم يصبغوا بتربية زكية، وسعة المطمع اذا صحبها اقتدار تدعو بطبعها الىٰ العدوان فلهذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض آخر فاضطروا بعد منازلة الشرور احقاباً طوالاً الىٰ الاعتصاب بلحمة النسب علىٰ درجات متفاوتة حتىٰ وصلوا الىٰ الاجناس فتوزعوا أمماً كالهندي والانجليزي والروسي والتركماني ونحو ذلك ليكون كل قبيل منهم بقوة

أفراده المتلاحمة قادراً علىٰ صيانة منافعه وحفظ حقوقه من تعدي القبيل الآخر ثم يجاوزوا في ذلك حدّ الضرورة كما هي عادة الانسان في أطواره فذهبوا الىٰ حدّ أن يأنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه علماً بأنه لابدّ أن يكون جائراً اذا حكم ولئن عدل فان قبول حكمه ذلاً تحسّ به النفس وينفعل له القلب.

فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية تبع هو الضرورة في الزوال كما تبعها في الحدوث بلا ريب وتبطل الضرورة بالاعتماد علىٰ حاكم تتصاغر لديه القوى وتتضائل لعظمته القدرة وتخضع لسلطته النفوس بالطمع وتكون بالنسبة اليه متساوية الأقدام وهو مبدأ الكل وقهّار السموات والأرض ثم يكون القائم من قِبله بتنفيذ أحكامه مساهماً للكافة في الاستكانة والرضوخ لأحكام أحكم الحاكمين. فاذا أذعنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلىٰ وأيقنت بمشاركة القيم علىٰ أحكامه لعامتهم في التطامن لما أمر به. اطمأنت في حفظ الحق ودفع الشرّ الىٰ صاحب هذه السلطة المقدسة واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة اليها فمحىٰ أثرها من النفوس والحكم لله العلي الكبير.

هذا هو السرّ في اعراض المسلمين علىٰ اختلاف اقطارهم عن اعتبار الجنسيات ورفضهم أي نوع من أنواع العصبيات ماعدا عصبتهم الاسلامية فان المتديّن بالدين الاسلامي متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه ويلتفت عن الروابط الخاصة الىٰ العلاقة العامة وهي علاقة المعتقد.

لأن الدين الاسلامي لم تكن اصوله قاصرة علىٰ دعوة الخلق الىٰ الحق وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنىٰ الىٰ عالم أعلىٰ بل هي كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد وبيان الحقوق كليها وجزئيها وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات واقامة الحدود وتعيين شروطها حتىٰ لايكون القابض علىٰ زمامها لا من أشد الناس خضوعاً لها ولن ينالها بوراثه ولا امتياز في جنس أو قبيلة أو قوّة

بدنية وثروة مالية وانما تنالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة علىٰ تنفيذها ورضاء الامة. فيكون وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم المقدّسة الالهية التي لا تميز بين جنس وجنس واجتماع آراء لأمّة، وليس للوازع أدنىٰ امتياز عنهم إلا بكونه أحرصهم علىٰ حفظ الشريعة والدفاع عنها.

وكل فخار تكسبه الانساب وكل امتياز تفيده الاحساب لم يجعل له الشارع اثراً في وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة فهي ممقوتة على لسان الشارع والمعتمد عليها مذموم والمتعصب لها ملوم فقد قال صلىٰ الله عليه وسلم (ليس منّا من دعا الىٰ عصبية وليس منّا من قاتل علىٰ عصبية وليس منّا من مات علىٰ عصبية) والأحاديث النبوية والآيات المنزلة متضافرة علىٰ هذا ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة في التقوىٰ ـ اتباع الشريعة (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الأزمان علىٰ اختلاف الاجيال من لا شرف له في جنسه ولا امتياز له في قبيله ولا ورث المُلك عن آبائه ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه وما رفعه الىٰ منصة الحكم إلا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه.

وان بسطة ملك الوازعين في ا لمسلمين كان يسديها اليهم علىٰ حسب امتثالهم للأحكام الالهية واهتدائهم بهديها وتجردهم عن الاعتلاء الشخصي وكلما أراد الوازع ان يختصّ نفسه بما يفوق به غيره في أبهته ورفاهة معيشته وان يستأثر علىٰ المحكومين بحظ زائد رجعت الأجناس الىٰ تعصبها ووقع الاختلاف وانقبضت سلطة ذاك الوازع.

هذا ما أرشدنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم الىٰ الآن لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبات الاجناس وانما ينظرون الىٰ جامعة الدين لهذا ترى العربي لا ينفر من سلطة التركي، والفارسي يقبل سيادة العربي، والهندي يذعن لرياسة الأفغاني ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض، وان المسلم في تبدّل

حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل الىٰ قبيل مادام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذاهبها،نعم اذا نبأ في سيره عنها وجار في حكمه عمّا نصّت عليه وطلب الاثرة بما ليس من حقه انصدعت منه القلوب، وانحرفت عن محبته الأنفس وأصبح وان كان وطنياً فيهم أشنع حالاً من الأجنبي عنهم.

ان المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالتأثّر والأسف عندما يسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامي بدون التفات الىٰ جنسها وقبيلها.

ولو ان حاكماً صغيراً بين قوم مسلمين من أي جنس كان تبع الأوامر الالهية وثابر على رعايتها وأخذ الدهماء بحدودها وضرب بسهمه مع المحكومين في الخضوع لها وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة لأمكنه ان يجوز بسطة في الملك وعظمة في السلطان وان ينال الغاية من رفعة الشأن في الأقطار المعمورة بأرباب هذا الدين ولا يتجشّم في ذلك أتعاباً ولا يحتاج الىٰ بذل النفقات ولا تكثير الجيوش ولا مظاهرة الدول العظيمة ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية... ويستغني عن كل هذا بالسير علىٰ نهج الخلفاء الراشدين والرجوع الىٰ الاصول الأولىٰ في الديانة الاسلامية القويمة ومن سيره هذا تنبعث القوة وتتجدد لوازم المنعة أكرر عليك القول بأن السبب هو الدين الاسلامي لم تكن وجهته كوجهة سائر الأديان الىٰ الآخرة فقط ولكن مع ذلك أتىٰ بما فيه مصلحة العباد في دنياهم وما يكسبهم السعادة في الدنيا، والنعيم في الآخرة وهو المعبّر عنه في الاصطلاح الشرعي بسعادة الدارين وجاء بالمساواة في أحكامه بين الأجناس المتباينة والأمم المختلفة.

أبيضت عين الدهر وامتقع لون الزمان حتىٰ أصاب أن بعضاً من المسلمين علىٰ حكم الندرة يعزّ عليهم الصبر ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم وخروجهم في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية فيلجأون للدخول تحت سلطة أجنبية علىٰ أن الندم يأخذ بأرواحهم عند أول خطوة يخطونها في هذا الطريق فمثلهم كمثل من

يريد الفتك بنفسه حتى اذا أحسّ بالألم رجع واسترجع: وان بعض ما يـطرأ عـلىٰ الممالك الاسلامية من الانقسام والتفريق انما يكـون مـنشأوه قـصور الوازعـين وحيدانهم عن الاصول القوية التي بنيت عليها الديانة الاسلامية وانحرافـهم عـن مناهج اسلافهم الأقدمين فان مَنابذة الأصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشدّ مايكون ضررهما بالسلطة العليا فاذا رجع الوازعون في الاسلام الىٰ قواعـد شرعهم وساروا سيرة الأولين السابقين لم يمض قليل من الزمان إلا وقد آتاهم الله بسطة في الملك وألحقهم في العزّة بالراشدين أئمة الدين وفّقنا الله للسداد، وهـدانـا طريق الرشاد.

ماضي الأمة وحاضرها وعلاج عللها[1]

(سنّة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)

أرأيت أمّة من الأمم لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم انشق عنها عماء العدم فاذا هي بحمية كل واحد منها كون بديع النظام قوي الأركان شديد البنيان عليها سياج من شدّة البأس ويحيطها سور من منعة الهمم تخمد في ساحاتها عاصفات النوازل وتنحل بأيدي مديريها عقد المشاكل نمت فيها أفنان العزة بعدما ثبتت أصولها ورسخت جذورها وامتد لها السلطان علىٰ البعيد عنها والداني اليها ونفذت منها الشوكة وعلت لها الكلمة وكملت القوة فاستعلت آدابها علىٰ الآداب وسادت أخلاقها وعاداتها علىٰ ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها وأحست مشاعر سواها من الأمم بأن لا سعادة إلا في انتهاج منهجها وورود شريعتها وصارت وهي قليلة العدد كثيرة الساحات كأنها للعالم روح مدبّر وهو لها بدن عامل.

وبعد هذا كلّه وهىٰ بناؤها وانتثر منظومها وتفرّقت فيها الأهواء وانشقّت العصى وتبدّد ما كان مجتمعاً وانحل ما كان منعقداً وانفصمت عرىٰ التعاون وانقطعت روابط التعاضد وانصرفت عزائم أفرادها عمّا يحفظ وجودها ودار كل في محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه لا يلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية

---

[1] ـ أكثر عناوين المقالات مأخوذ عن تاريخ الامام (رحمه الله) ـ طبعة مجلة (المنار) الاسلامية.

وهو في غيبة عن أن ضروريات حاجاته لاتنال إلا علىٰ أيدي الملتحمين معه بلحمة الأمة وانه أحوج الىٰ شدّ عضدهم من تقوية ساعده والىٰ توفير خيرهم من تنمية رزقه وكأنه بهذه الغيبة في سبات يخيله الناظر اليه صحوا، وذبول يظنه المغرور زهواً وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فأبادها وحدثت فيهم قناعة التهم والرضا بكل حال ولئن تنبّه خاطر للحق في خيال أحدهم أو استفزّه داع من قلبه الىٰ ما يكسب ملّته شرفاً أو يعيد اليها مجداً عده هوساً وهذياناً أُصيب به من ضعف في المزاج أو خلل في البنية أو حسب أنّه لو أجاب داعي الذمة لعاد عليه بالوبال وأورده موارد الهلكة أو لصار من أقرب الأسباب لزوال نعمته ونكد معيشته ويحكم لنفسه سلاسل من الجُبن وأغلال من اليأس فتغلّ يداه عن العمل وتقف قدماه عن السعي ويحسّ بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه ويقصر نظره عن درك ما أتى أسلافه من قبل وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة علىٰ ما كسبوا وقيّماً علىٰ ما أورثوه لاعقابهم ويبلغ هذا المرض من الامة حدّاً يشرف بها علىٰ الهلاك ويطرحها علىٰ فراش الموت فريسة لكل عاد وطعمة لكل طاعم.

نعم رأيت كثيراً من الأمم لم تكن ثم كانت وارتفعت ثم انحطت وقويت ثم ضعفت وعزت ثم ذُلت وصحت ثم مرضت ولكن أليسَ لكل علة دواء. بلىٰ.

وآاسفاً ما أصعب الداء وما أعزّ الدواء وما أقلّ العارفين بطرق العلاج كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهي لم تفترق إلا لأن كلاً عكف علىٰ شأنه ... استغفر الله لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشدّ أعضائه اتّصالاً به ولكنه صرف لشؤون غيره وهو يظنها من شؤون نفسه. نعم ربما التفت كلّ الىٰ ما هو في فطرة كل حيّ من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه وهو لايدري من أيّ وجه يحصلها ولا بأيّة طريقة يكون في أمن عليها ؛ كيف تبعث الهمم بعد موتها وما ماتت إلا بعد ما سكنت زمناً غير قصير الى معاليها هل من السهل ردّ التائه الىٰ الصراط

المستقيم وهو يعتقد ان الفوز في سلوك سواه خصوصاً بعدما استدبر المقصد وفي كل خطوة يظن أنّه علىٰ مقربة من الخطوة. كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه المبتهج بأحلامه وفي أذنه وقرٌ وفي ملامسه خدر، هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقة من امّة عظيمة تتباعد أنحاؤها وتتنائى اطرافها وتتباين عاداتها وطبائعها هل من نبأة تجمع أهوائها المتفرقة وتوحّد آرائها المتخالفة بعدما تراكم جهل وران غين وخيل للعقول ان كل قريب بعيد وكل سهل وعر، أيم الله انه لشيء عسير يعيى في علاجه النطاسي ويُحار فيه الحكيم البصير :

هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف علىٰ أصل الداء وأسبابه الأولىٰ والعوارض التي طرأت عليه. ان كان المرض في أمّة فكيف يمكن الوصول الىٰ علله وأسبابه إلا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الاحوال وتنوع الأطوار، أيمكن لطبيب يعالج شخصاً بعينه أن يختار له نوعاً من العلاج قبل أن يعرف ما عرض له من قبل في حياته ليكون علىٰ بيّنة من حقيقة المرض وإلا فان كثيراً من الأمراض تتولد جراثيمها في طور من أطوار العمر ثم لاتظهر إلا في طور آخر لتغلب قوة الطبيعة علىٰ مادة المرض فلا يبدو أثرها، كلا أنه ليصعب علىٰ الطبيب الماهر تشخيص علّة لشخص واحد سنو عمره محدودة وعوارض حياته محصورة فكيف بمن يريد مداواة ملّة طويلة الأجل وافرة العدد، لهذا يندر في أجيال وجود بعض رجال يقومون بأحياء أمّة أو إرجاع شرفها ومجدها اليها وان كان المتشبهون بهم كثيرين وكما ان المتطبب القاصر في الأمراض البدنية لا يزيد علاجه المرض إلا شدّة لولا مساعدة الاتفاق والصدفة بل ربما يفضي بالمريض الىٰ الموت. كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأُمم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها ووجوه العلة فيها وأنواعها وما يكتنف ذلك من العادات وما يوجد في أفرادها من المذاهب والاعتقادات وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الأرض ومكانتها الأولىٰ من الرفعة ودرجتها الحالية من الضعة

وتدرجها فيما بين المنزلتين فان أخطاء طالب اصلاحها في اكتناه شيء مما ذكرنا تحوّل الدواء داء والوجود فناء.

فمن له حظ في الكمال الانساني ولم يطمس من قلبه موضع الالهام الالهي لا يجرؤ على القيام بما يسمونه تربية الامم واصلاح ما فسد منها وهو يحسن من نفسه أدنىٰ قصور في أداء هذا الأمر العظيم علماً أو عملاً. نعم يكون ذلك من محبي الفخفخة الباطلة وطلاّب العيش في ظل وظائف ليسوا من حقوقها في شيء.

ظن قوم في هذه الأزمان أن أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد وانها تكفل إنهاض الأمم وتنبيه الأفكار وتقويم الأخلاق كيف يصدق هذا الظن، وانّا لو فرضنا ان كتّاب الجرائد لايصدقون بما يكتبون إلا نجاح الأمم مع التنزّه عن الأغراض فبعدما غم الذهول واستولت الدهشة على العقول وقل القارئون والكاتبون لاتجد لها قارئاً ولئن وجدت القارئ فقلما تجد الفاهم، والفاهم قد يحمل مايجده على غير ما يُراد منه لضيق في التصوّر أو ميل مع الهوى فلا يكون منه إلا سوء التأثير فيشبه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافاً. علىٰ أن الهمة اذا كانت في درك الهبوط فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتىٰ تتجه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها مع قصر المدة وتدفق سيول الحوادث ان هذا وحقك لعزيز.

ويظن قوم آخرون أن الأمة المنبثة في أقطار واسعة من الأرض مع تفرّق أهوائها وأخلادها الىٰ مادون رتبتها بدرجات لا تحصر ورضاها بالدون من العيش والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا من مشربها بل لمن كان خاضعاً لسيادتها راضخاً لأحكامها مع هذا كلّه يتم شفاؤها من هذه الأمراض القاتلة بانشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها وتكون علىٰ الطرز الجديد المعروف باوروبا حتى تعمّ المعارف جميع الأفراد في زمن قريب ومتى عمّت المعارف كملت الاخلاق واتحدت الكلمة واجتمعت القوّة. وما أبعد ما يظنون فان هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوي قاهر يحمل الأمة علىٰ ما تكره أزماناً حتىٰ

تذوق لذته وتجني ثمرته ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائباً عن سلطته في تنفيذ ما أراد من خيرها ويلزم له ثروة وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة وموضوع كلامنا في الضعف ودوائه فهل مع الضعف سلطة تقهر وثروة تغني ولو كان للامة هذان لما عدت من الساقطين.

فان قالوا يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات وافقناهم علىٰ الامكان لولا ما يكون من طمع الأقوياء حتىٰ لايدعون لهم سبيلاً لأن يستنشقوا نسيم القوة فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر.

علىٰ انّا لو فرضنا مسالمة الدهر ومنحت الأمة مدّة من الزمان تكفي لبثّ تلك العلوم في بعض الأفراد والاستزادة منها شيئاً فشيئاً فهل يصح الحكم بان هذا التدرّج يفيدها فائدة جوهرية وان ما يصيبه البعض منها يهيئه للكمال اللائق به ويمكنه من القيام بارشاد الباقي من ابناء امته. واعجبا كيف يكون هذا وان الأمة في بُعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها وكيف بذرت بذورها وكيف نبتت واستوت على سوقها وأينعت وأثمرت وبأي ماء سقيت وبأيّ تربة غذيت ولا وقوف لها على الغاية التي قصدت منها في مناشئها ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات وان وصل اليها طرف من ذلك فانما يكون ظاهراً من القول لأنباء عن الحقيقة فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الأفراد بها وسوقها الىٰ أذهانهم المشحونة بغيرها يقوم من أفكارهم ويعدل من أخلاقهم ويهديهم طرق الرشاد في إفادة إخوانهم.

لعلّ الأقرب ان ناقلي تلك العلوم وهم من أمة هذا شأنها مع ماينعكس اليهم من الأوهام المألوفة فيها وما رسخ في نفوسهم على عهد الصبا وما يعظمونه من أمر الأمة التي تلقوا عنها علومهم يكونون بين أمّتهم كخلط غريب لايزيد طبائعها إلا فساداً.

ماذا يكون من أولئك الناشئين في علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ولو

صدقوا في خدمة أوطانهم. يكون منهم ماتعطيه حالهم يؤدون ما تعلموه كما سمعوه لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطباعها وما مرنت عليه من عاداتها فيستعملونه على غير وضعه ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه وغفلتهم عن آتيه يظنونه علىٰ ما بلغهم هو الكمال لكل نفس والحياة لكل روح فيرومون من الصغير ما لا يرام إلا من الكبير وبالعكس غير ناظرين إلا الىٰ صور ما تعلموه ولا مفكرين في استعداد من يعرض عليهم وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد أو يزيدها علىٰ ما بها أضعافاً وما هذا إلا لكونهم ليسوا أربابها وانما هم لها نَقَلة وحَمَلة.

فهؤلاء الصادقون إلا من وفّقه الله منهم بعنايته الالٰهية يكون مثلهم كمثل والدة حنون يلذ لها غذاء فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها في اللذة وسنه سن اللبان لايقبل سواه فيسرع اليه المرض وينتهي به الى التلف فتكون منزلتهم من الأمة منزلة الآلة المحللة يشتتون بقية الجمع ويبددون أخريات الالتئام إن كان الفساد أبقىٰ للقوم بعض الروابط، فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها وما قصدوا إلا خيراً أن كانوا مخلصين ويوسعون بذلك الخصاص حتى تعود أبواباً ويباعدون ما بين الضفاف حتى تصير ميادين لتداخل الأجانب فيهم تحت اسم النصحاء وعنوان المصلحين ويذهبون بأمّتهم الى الفناء والاضمحلال وبئس المصير.

شيّد العثمانيون والمصريون عدداً من المدارس على النمط الجديد وبعثوا بطوائف منهم الى البلاد الغربية ليتحملوا اليهم ما يحتاجون اليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب وكل ما يسمونه تمدناً وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها علىٰ نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانساني. هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدّموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ هل صاروا أحسن حالاً مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد ؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة هل نجوا بها من ورطات ما يلجئهم اليه الاجانب بتصرفاتهم ؟ هل أحكموا

الحصون وسدوا الثغور ؟ هل نالوا بها من المنعة ما يدفع عنهم غارة الاعداء عليهم ؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف في الأفكار حداً يميل عزائم الطامعين عنهم ؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية فهي تؤثر مصلحة البلاد علىٰ كل مصلحة وتطلبها وان تجاوزت محيط الحياة الدنيا، وان بادت في سبيلها، خلفها وارث علىٰ شاكلتها كما كان في كثير من الأمم.

نعم ربما وجد بينهم أفراد يتفيهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ويصونها في عبارات متقطعة بتراء لا تعرف غايتها ولاتعلم بدايتها ووسموا أنفسهم زعماء الحرية أو بسمة أُخرىٰ علىٰ حسب ما يختارون ووقفوا عند هذا الحد. ومنهم آخرون عمدوا الىٰ العمل بما وصل اليهم من العلم فقلبوا أوضاع المباني والمساكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون وتنافسوا في تطبيقها علىٰ أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية وعدّوها من مفاخرهم وعرضوها معرض المباهات فنسفوا بذلك ثروتهم الى غير بلادهم واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره فاماتوا أرباب الصنائع من قومهم وأهلكوا العاملين في المهن لعدم اقتدارهم ان يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة من الحاجيات الجديدة والكماليات الجديدة لأن مصانعهم لم تتحول الىٰ الطرز الجديد وأيديهم لم تتعود علىٰ الصنع الجديد وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة وهذا جدع لأنف الأمّة يشوّه وجهها ويحط بشأنها وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها.

علمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث بأن المقلدين من كل امّة المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الاعداء اليها وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم واحتقار من لم يكن علىٰ مثالهم شؤماً علىٰ أبناء أمتهم يذلونهم ويحتقرون أمرهم ويستهينون بجميع أعمالهم وان جلت وان بقي في بعض رجال الامّة بقية من

الشمم أو نزوع الى معالي الهمم أنصبوا عليه وارغموا من أنفه حتىٰ يمحى اثر الشهامة وتخمد حرارة الغيرة ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين، وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلاً لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم. أقول ولا أخشىٰ لوماً لو كان في البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلّب على بعض أراضيها الانجليز لما بارحوها أبد الآبدين. فان نتيجة العلم عند هؤلاء ليست إلا توطيد المسالك والركون الىٰ قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم فيبالغون في تطمين النفوس وتسكين القلوب حتى يزيلون الوحشة التي قد يصون بها الناس حقوقهم ويحفظون بها استقلالهم، ولهذا لو طرق الأجانب أرضاً لأيّة أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدومهم ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم، كأنما هم منهم ويعدون الغلبة الاجنبية في بلادهم مباركة عليهم وعلىٰ أعقابهم.

* * *

فما الحيلة وما الوسيلة، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها، والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها والوقت ضيّق والخطب شديد.. اي جهوي من الأصوات يوقظ الراقدين علىٰ حشايا الغفلات، أي قاصفة تزعج الطباع الجامدة وتحرّك الأفكار الخامدة أي نفخة تبعث هذه الأرواح في أجسادهما وتحشرها الىٰ مواقف صلاحها وفلاحها. الاقطار فسيحة الجوانب بعيدة المناكب. المواصلات عسرة بين الشرقي والغربي والجنوبي والشمالي. الرؤوس مطرقة الىٰ ماتحت القدم أو منغضة الىٰ ما فوق السماء ليس للأبصار جولان الى الامام والخلف واليمين والشمال ولا للاسماع اصغاء ولا

للنفوس رغبات وللأهواء تحكم وللوساوس سلطان.

ماذا يصنع المشفقون علىٰ الأمة والزمن قصير ماذا يحاولون والأخطار محدقة بهم بأيّ سبب يتمكنون ورسل المنايا علىٰ أبوابهم لا أطيل عليك بحثاً ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان ولكني استلفت نظرك الىٰ سبب يجمع الأسباب ووسيلة تحيط بالوسائل. أرسل فكرك الىٰ نشأة الامّة التي خملت بعد النباهة وضعفت بعد القوّة واسترقت بعد السيادة وضيمت بعد المنعة وتبين أسباب نهوضها الأول حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل فقد يكون ما جمع كلمتها وأنهض همم آحادها ولحم ما بين أفرادها وصعد بها الىٰ مكانة تشرف منها علىٰ رؤوس الأمم ويسوسهم وهي في مقامها بدقيق حكمتها انما هو دين قويم الأصول محكم القواعد شامل لأنواع الحكم باعث علىٰ الألفة داع الىٰ المحبة مزك للنفوس، مطهر للقلوب من أدران الخسائس، منوّر للعقول باشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج اليه الانسان من مباني الاجتماعات البشرية، وحافظ وجودها وينادي بمعتقديه الىٰ جميع فروع المدنية.

فان كانت هذه شرعتها ولها وردت وعنها صدرت فما تراه من عارض خللها وهبوطها عن مكانتها انما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريّا وحدوث بدع ليست منها في شيء، أقامها المعتقدون مقام الأصول الثابتة، وأعرضوا عمّا يرشد اليه الدين وعمّا أتىٰ لأجله وما أعدته الحكمة الالهية له حتىٰ لم يبق منه إلا اسماء تذكر وعبارات تقرأ فتكون هذه المحدثات حجاباً بين الأمة وبين الحق الذي تشعر بندائه أحياناً بين جوانحها.

فعلاجها الناجع انما يكون برجوعها الى قواعد دينها والأخذ بأحكامه علىٰ ماكان في بدايته وارشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الاخلاق وايقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة ولأن جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة والقلوب مطمئنة اليه وفي زواياها نور خفي من محبته فلا يحتاج القائم باحياء الامة إلا الىٰ نفخة واحدة يسرى نفثها

في جميع الأرواح لأقرب وقت فاذا قاموا لشؤونهم ووضعوا أقدامهم علىٰ طريق نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحقّة نصب أعينهم فلا يعجزهم بعد ان يبلغوا بسيرهم منتهىٰ الكمال الانساني.

ومن طلب اصلاح امة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه فقد ركب بها شططاً وجعل النهاية بداية وانعكست التربية وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ولا يزيد الأمة إلا نحساً ولا يكسبها إلا تعساً.

هل تعجب أيّها القارئ من قولي ان الأصول الدينية الحقّة المبرأة عن محدثات البدع تنشئ للأمم قوة الاتحاد وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف علىٰ لذة الحياة وتبعثها علىٰ اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهي بها الىٰ أقصىٰ غاية في المدنية. ان عجبت فان عجبي من عجبك أشد. هل نسيت تاريخ الأمة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات واتيان الدنايا والمنكرات حتى اذا جاءها الدين فوحدها وقوّاها وهذبها ونوّر عقولها وقوّم اخلاقها وسدّد أحكامها فسادت على العالم وساست من تولته بسياسة العدل والانصاف وبعد ان كانت عقول ابنائها في غفلة عن لوازم المدينة ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها الىٰ طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها ونقلوا الىٰ ديارهم طب بقراط وجالينوس وهندسة اقليدس وهيئة بطليموس وحكمة افلاطون وارسطو وما كانوا قبل الدين في شيء من هذا وكل أمّة سادت تحت هذا اللواء انما كانت قوّتها ومدنيتها في التمسك بأصول دينها.

وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك وافتتاح الأقطار وطلب السيادة علىٰ الأمصار، وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم وارتفاع النفوس عن الدنايا وبعد الغايات وعلو المقاصد، هي التي هذّبت أخلاقهم، وقوّمت أفكارهم، وكفتهم عن معاطاة الرذائل، وخسائس الأمور وسوافلها، ثم بعد مضي زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها، فبيان أسباب الخلل فيها وعلاّته نفرد له فصلاً مستقلاً في آخر عدد ان شاء الله، وهو الموفق للصواب.

النصرانية والاسلام وأهلها

(إن في ذلك لذكرىٰ لمن كان له قلب أو ألق السمع وهو شهيد)

خلق الله الانسان عالماً صناعياً ويسّر له سبيل العمل لنفسه وهداه للإبداع والاختراع، وقدّر له الرزق من صنع يديه، بل جعله ركن وجوده، ودعامة بقائه، فهو علىٰ جميع أحواله من ضيق وسعة، وخشونة ورفاهة، وتبد وحضارة، صنيعة أعماله. أقواته من معالجة الأرض بالزراعة أو قيامه على الماشية وسرابيله وما يقيه الحر أو البرد والوجى من عمل يديه نسجاً أو خصفاً وأكنانه ومساكنه ليس إلا مظاهر تقديره وتفكيره وجميع ما يفتتن فيه من دواعي ترفه ونعيمه إنما هي صور أعماله ومجالي افكاره، ولو نفض يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسط أكفّه للطبيعة ليستجديها نفساً من حياة لشحت به عليه، بل دفعته الىٰ هاوية العدم، وهو في صنعه وإبداعه محتاج الى استاذ يثقّفه وهادٍ يرشده، فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته يعمل ليعلم كيف يعمل، وليقتدر علىٰ أن يعمل، فصنعته أيضاً من صنعه فهو في جميع شؤونه الحيوية عالم صناعي كأنه منفصل عن الطبيعة بعيد من آثارها، حاجته اليها كحاجة العامل لآلة العمل. هذا هو الانسان في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه.

دعه في هذه الحالة وخذ طريقاً من النظر الى أحواله النفسية من الادراك

والتعقل والاخلاق والملكات والانفعالات الروحية تجده فيها أيضاً عالماً صناعياً: شجاعته وجبنه، جزعه، وصبره، كرمه وبخله، شهامته ونذالته، قسوته ولينه، عفته وشرهه، وما يشبهها من الكمالات والنقائص جميعها تابع لما يصادفه في تربيته الأولىٰ، وما يودع في نفسه من أحوال الذين نشأ فيهم وتربىٰ بينهم، مرامي أفكاره، ومناهج تعقله، ومذاهب ميله، ومطامح رغباته ونزوعه الىٰ الأسرار الالهية أو ركونه الىٰ البحث في الخواص الطبيعية، وعنايته باكتشاف الحقيقة في كل شيء، أو وقوفه عند بادئ الرأي فيه وكل ما يرتبط بالحركات الفكرية انما هي ودائع اختزنها لديه الآباء والامهات، والاقوام والعشائر والمخالطون.

وأما هواء المولد والمربى ونوع المزاج، وشكل الدماغ وتركيب البدن، وسائر الغواشي الطبيعية فلا أثر له في الاعراض النفسية والصفات الروحانية إلا ما يكون في الاستعداد والقابلية، على ضعف في ذلك الأثر، فان التربية وما ينطبع في النفس من أحوال المعاشرين وأفكار المثقفين تذهب به كأن لم يكن أودع في الطبع نعم ان أفكاراً تتجدد، ومعقولات عن أخرىٰ تتولد وصفات تسمو، وهمماً تعلو، حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين ويظن ان هذا من تصرّف الطبيعة لا من آثار الاكتساب، ولكن الحق فيه ان ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب فهو مصنوع يتبع مصنوعاً، فالانسان في عقله وصفات روحه عالم صناعي.

هذا مما لايرتاب عليه العقلاء والسذج، ولكن هل تذكرت مع هذا ان الاعمال البدنية، انما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية، وان الروح هي السلطان القاهر علىٰ البدن ؟ أظنك لا تحتاج فيه الىٰ تذكير لأنه مما لا يغرب عن الأذهان إنما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين، ولا أظن منكراً يجحدها :

إن الدين وضع الهي، ومعلمه والداعي اليه البشر، تتلقاه العقول عن المبشرين المنذرين، فهو مسكوب لمن يختصهم الله بالوحي، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين، وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب، ويرسخ في الأفئدة،

وتصبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات، وتتمرن الأبدان علىٰ ما ينشأ عنه من الأعمال عظيمها وحقيرها، فله السلطة الأولىٰ علىٰ الأفكار وما يطاوعها من العزائم والارادات، فهو سلطان الروح ومرشدها الىٰ ما تدبر به بدنها، وكانما الانسان في نشأته لوح صقيل، وأول ما يخط فيه رسم الدين، ثم ينبعث الىٰ سائر الاعمال بدعوته وارشاده. وما يطرأ على النفوس من غيره، فانما هو نادر شاذ، حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عمّا أحدثه فيه من الصفات بل تبق طبعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال.

وبعد هذا فوضوع بحثنا الآن الملّة المسيحية والملّة الاسلامية وهو بحث طويل الذيل وانما نأتي فيه على اجمال ينبئك عن تفصيل ان الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة في كل شيء وجاءت برفع القصاص واطراح الملك والسلطة، ونبذ الدنيا وبهرجها، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها، وترك أموال السلاطين للسلاطين، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية، بل والدينية، ومن وصايا الانجيل : من ضربك علىٰ خدّك الأيمن فأدر له الايسر. ومن أخباره ان الملوك انما ولايتهم علىٰ الأجساد وهي فانية والولاية الحقيقية الباقية علىٰ الأرواح وهي لله وحده فمن يقف على مباني هذه الديانة ويلاحظ ما قلنا من ان الدين صاحب الشوكة العظمى على الافكار، مع ملاحظة ان لكل خيال أثراً في الارادة يتبعه حركة في البدن على حسبه، يعجب كل العجب من اطوار الآخذين بهذا الدين السلمي، المنتسبين في عقائدهم اليه، فانهم يتسابقون في المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه

العيش فيها، ولا يقفون عند حدّ في استيفاء لذاتها، ويسارعون الى افتتاح الممالك؛ والتغلب علىٰ الاقطار الشاسعة، ويخترعون كل يوم فناً جديداً من فنون الحرب، ويبدعون في اختراع الآلات الحربية القاتلة، ويستعملها بعضهم في بعض، ويصولون بها على غيرهم ؛ ويبالغون في ترتيب الجيوش وتدبير سوقها في ميادين القتال ؛ ويصرفون عقولهم في إحكام نظامها حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكري من أوسع الفنون وأصعبها ؛ وان أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بحفظ أملاكهم ؛ فضلاً عن الالتفات الى طلب غيرها.

الديانة الاسلامية وضع أساسها علىٰ طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة ورفض كل قانون يخالف شريعتها، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها، فالناظر في أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكماً لا ريب فيه بأن المعتقدين بها لابدّ ان يكونوا أول ملّة حربية في العالم، وان يسبقوا جميع الملل الىٰ اختراع الآلات القاتلة، واتقان العلوم العسكرية، والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجرّ الأثقال والهندسة وغيرها، ومن تأمل في آية (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة) أيقن ان من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة، وطلب كل وسيلة الى ما يسهل له سبيلها، والسعي اليها بقدر الطاقة البشرية، فضلاً عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلّب غيره عليه، ومن لاحظ ان الشرع الاسلامي حرّم المراهنة إلا في السباقة والرماية انكشف مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون العسكرية والتمرّن عليها، ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الأوقات، إذ يراهم يتهاونون بالقوّة، ويتساهلون في طلب لوازمها، وليست لهم عناية بالبراعة في فنون القتال ولا في اختراع الآلات، حتى فاقتهم الأمم سواهم فيما كان أول واجب عليهم، واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات، وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم واستكانوا لها، ورضخوا

لأحكامها ومن وازن بين الديانتين حار فكره كيف اخترع مدفع الكروب والمتراليوز وغيرهما بأيدي أبناء الديانة الأولىٰ قبل الثانية. وكيف وجدت بندقية مارتين في ديار الأولين، قبل وجودها عند الآخرين! وكيف أحكمت الحصون، ودرعت البواخر، وأخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم، دون أهل الغلبة والحرب!

لِمَ لا يحار الحكيم وان كان نطاسياً! لِمَ لايقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة! هل القرون الخالية والاحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المتمسكين بعراهما ؟ هل نبذت كل ملّة من الملتين عقائد دينها ظهريا من أجيال بعيدة ؟ هل اقتصر النصارىٰ في دينهم علىٰ الأخذ بشريعة موسىٰ، واقتفاء سيرة يوشع بن نون، هل تخللت بعض آيات الانجيل من حيث يدرى ولا يدرى بين الخطب والمواعظ التي تُتلى على منابر المسلمين، أو أُلقي شيء منها في أماني معلميهم وناشري شريعتهم عندما يتربعون في محافل دروسهم ؟ هل تبدلت سنّة الله في الملتين هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الأبدان فيهما علىٰ الأرواح ؟ أو وجد للأرواح دبير سوى الفكر والخيال ؟ أو انفلتت الأفكار من سلطة الدين ؟ أو تعاصت النفوس عن الانتقاش بنقشته، وهو أول حاكم عليها وأقوى مؤثر فيها. هل تتخلف العلل عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الأسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه يرشد العقول الىٰ كشف المساتير وحل المعميات ؟

أينسب هذا الىٰ اختلاف الأجناس، وكثير من أبناء الملتين يرجعون الىٰ أصول واحدة ويتقاربون في الأنساب الدانية. أينسب هذا الىٰ اختلاف الأقطار وكثير من القبيلين يتشابهون في طبائع البلدان، ويتجاورون في مواقع الأمكنة. ألم يصدر من المسلمين وهم في شبيبة دينهم أعمال بهرت الأبصار، وأدهشت الألباب. ألم يكن منهم مثل فارس والعرب والترك الذين دوّخوا الممالك واستووا علىٰ كرسي السيادة فيها، كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية اشباه المدافع، فزع لها

المسيحيون، وغابوا عن معرفة أسبابها ذكر ملكام سرجم «انجليزي» في تاريخ فارس أن محموداً القزنوني كان يحارب وثني الهند بالمدافع وكانت هي الأسباب في انهزامهم بين يديه سنة ٤٠٠ من الهجرة، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئاً منها.

فأي عون من الدهر أخذ بأيدي الملّة المسيحية فقدّمها الى مالم يكن في قواعد دينها. وأيّ صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخرتهم عن تعاطي الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم ؟ مقام للحيرة وموضع للعجب! ويظن ان لابد لهذا التخالف من سبب، نعم وتفصيله يطول، ولكن نجمل علىٰ ما شرطنا ان الدين المسيحي إنما امتد ظله وعمّت دعوته في الممالك الأوربية من أبناء الرومانيين، وهم علىٰ عقائد وآداب وملكات وعادات ورثوها عن أديانهم السابقة ؛ وعلومهم وشرائعهم الأولىٰ، وجاء الدين المسيحي اليهم مسالماً لعوائدهم ومذاهب عقولهم، وداخلهم من طرق الاقناع ومسارقة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة، فكان كالطراز على مطارفهم، ولم يسلبهم ما ورثوه عن أسلافهم، ومع هذا فإن صحف الإنجيل الداعية الى السلامة والسلم لم تكن لسابق العهد مما يتناوله الكافة من الناس بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين، ثم ان الاحبار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع، وسنوا محاربة الصليب، ودعوا اليها دعوة الدين، التحمت آثارها في النفوس بالعقائد الدينية، وجرت منها مجرىٰ الأصول، ولحقها علىٰ الأثر تزعزع عقائد المسيحيين في أوروبا، وافترقوا شيعات وذهبوا مذاهب تنازع الدين في سلطته، وعاد وميض ما أودعه أجدادهم في جرائيم وجودهم ضراماً، وتوسعوا في فنون كثيرة، وانفسح لهم مجال الفكر فيها، وكانت براعتهم في الفن العسكري، واختراع آلات الحرب والدفاع مساوقة لبراعتهم في سائر الفنون.

أما المسلمون فبعد أن نالوا في نشأة دينهم ما نالوا، وأخذوا من كل كمال حربي حظاً، وضربوا في كل فخار عسكري بسهم، بل تقدموا سائر الملل في فنون المقارعة، وعلوم النزال والمكافحة ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وأبدعوا

فيه، وخلطوا بأصوله ما ليس منها، فانتشرت بينهم قواعد الجبر، وضربت في الأذهان حتى اخترقتها، وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال، هذا الى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع وما أحدثه السوفسطائية الذين أنكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر، ولا تثبتها الحقائق، وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ينسبونها الىٰ صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ويثبتونها في الكتب وفيها السمّ القاتل لروح الغيرة وان ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفاً في الهمم وفتوراً في العزائم وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة خصوصاً بعد حصول النقص في التعليم والقصير في إرشاد الكافة الى أصول دينهم الحقّة ومبانيه الثابتة التي دعا اليها النبي وأصحابه فلم تكن دراسة الدين علىٰ طريقها القويم إلا منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة لعلّ هذا هو العلّة في وقوفهم. بل الموجب لتقهقرهم. وهو الذي نعاني من عنائه اليوم ما نسأل الله السلامة منه.

إلا أن هذه العوارض التي غشيت الدين. وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته وإن كان حجابها كثيفاً. لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يحرموها بالمرة تدافع دائم وتغالب لا ينقطع. والمنازعة بين الحق والباطل كالمدافعة بين المرض وقوّة المزاج. وحيث ان الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم. ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة. فلابد يوماً أن يسطع ضياؤه ويقشع سحاب الاغيان. وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق. وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم. ومغالبة المعتدين. وطلب المنعة من كل سبيل. لا يعين لها وجهاً. ولا يخصص لها طريقاً.

فاننا لا نرتاب في عودتهم الى مثل نشأتهم. ونهوضهم الىٰ مقاضاة الزمان ما سلب منهم. فيتقدّمون على من سواهم في فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة حفظاً لحقوقهم. وضناً بأنفسهم عن الذل وملّتهم عن الضياع والىٰ الله تصير الأمور.

انحطاط المسلمين وسكونهم وسَبَب ذلك

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا)

إن للمسلمين شدّة في دينهم وقوة في إيمانهم وثباتاً علىٰ يقينهم يباهون بها من عداهم من الملل. وان في عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض. ومما رسخ في نفوسهم ان في الايمان بالله وما جاء به نبيّهم صلىٰ الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين ومن حرم الايمان فقد حرم السعادتين، ويشفقون علىٰ أحدهم أن يمرق من دينه أشدّ مما يشفقون عليه من الموت والفناء. وهذه الحالة كما هي في علمائهم متمكنة في عامتهم. حتىٰ لو سمع أي شخص منهم في أي بقعة من بقاع الأرض عالماً كان أو جاهلاً أن واحداً ممن وسم بسمة الاسلام في أي قطر ومن أي جنس صبا عن دينه رأيت من يصل اليه هذا الخبر في تحرق وتأسف يلهج بالحوقلة والاسترجاع. ويعد النازلة من أعظم المصائب علىٰ من نزلت به. بل وعلىٰ جميع من يشاركه في دينه. ولو ذكرت مثل هذه الحادثة في تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئين من السنين لا يتمالك قلبه من الاضطراب ودمعه من الغليان. ويستفزه الغضب ويدفعه لحكاية ما رأىٰ كأنه يحدث عن غريب أو يحكي عن عجيب.

المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة علىٰ ما يدخل في ولايتهم من البلدان. وكلهم مأمور بذلك لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين في الجنس ولا المختلفين فيه، وهو فرض عين علىٰ كل واحد منهم إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان علىٰ الجميع أعظم الآثام، ومن فروضهم في سبيل الحماية وحفظ الولاية، بذل الأموال والأرواح وارتكاب كل صعب، واقتحام كل خطب، ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم في حال من الأحوال حتىٰ ينالوا الولاية خاصة لهم من دون غيرهم، وبالغت الشريعة في طلب السيادة منهم علىٰ من يخالفهم الىٰ حد لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره، لوجبت عليه الهجرة من دار حربه. وهذه قواعد مثبتة في الشريعة الاسلامية يعرفها أهل الحق، ولا يغير منها تأويلات أهل الأهواء وأعوان الشهوات في كل زمان.

المسلمون يحثّ كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة، وما يفرض عليه الايمان، وهو هاتف الحق الذي بقي له من الهامات دينه، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين في هذه الأيام بعضهم في غفلة عمّا يلمّ بالبعض الآخر، ولا يألمون لما يألم له بعضهم فأهل (بلوجستان) كانوا يرون حركات الانجليز في (أفغانستان) علىٰ مواقع أنظارهم، ولا يجيش لهم جأش ولم تكن لهم نعرة علىٰ إخوانهم، والافغانيون كانوا يشهدون تداخل الانجليز في بلاد فارس ولا يضجرون ولا يتململون، وان جنود الانجليز تضرب في الأراضي المصرية ذهاباً واياباً وتقتل وتفتك، ولا ترى نجدة في نفوس اخوانهم المشرفين علىٰ مجاري دمائهم، بل السامعين لخريرها من حلاقيمهم، الذين أحمرت أحداقهم من مشاهدها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن شمائلهم.

تمسك المسلمين بتلك العقائد وإحساسهم بداعية الحق في نفوسهم مع هذه الحالة التي هم عليها مما يقضي بالعجب ويدعو الى الحيرة، ويسبق الىٰ بيان السبب فخذ مجملاً منه : ان الأفكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات

والوجدانيات النفسية وان كانت هي الباعثة علىٰ الأعمال وعن حكمها تصدر بتقدر العزيز العليم، لكن الأعمال تثبتها وتقويها وتطبعها في الأنفس عليها حتىٰ يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق، وتترتب عليه الآثار التي تلائمها.

نعم ان الإنسان إنسان بفكره وعقائده إلا أن ما ينعكس الىٰ مرايا عقله من مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشدّ التأثير، فكل شهود يحدث فكراً وكل فكر يكون له أثر في داعية، وعن كل داعية ينشأ عمل، ثم يعود من العمل الىٰ الفكر، ولا ينقطع الفعل والأنفعال بين الأعمال والأفكار، مادامت الأرواح في الأجساد، وكل قبيل هو الآخر عماد.

ان للاخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها في الاعتصاب والالتحام لولا ما تبعث عليه الضرورات، وتلجئ اليه الحاجات، عن تعاون الانسباء والعصبة على نيل المنافع، وتضافرهم علىٰ دفع المضار، وبعد كرور الأيام علىٰ المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذاً يصرفه في آثارها بقية الأجل ويكون انبساط النفس لعون القريب، وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جارياً مجرىٰ الوجدانيات الطبيعية كالإحساس بالجوع والعطش والري والشبع، بل اشتبه امره علىٰ بعض الناظرين فعده طبيعياً. فلو اهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها، ولم تدع ضرورات الحياة في وقت من الأوقات الى ما يمكن تلك الصلة ويؤكّدها، أو وجد صاحب النسب من يظاهره في غير نسبة أو الجأته ضرورة الى ذلك ذهب أثر تلك الرابطة النسبية، ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجري مجرىٰ المحفوظات من الروايات والمنقولات. وعلى مثال ما ذكرنا في رابطة النسب وهي أقوىٰ رابطة بين البشر يكون الأمر في سائر الاعتقادات التي لها أثر في الاجتماع الانساني من حيث ارتباط بعضه ببعض. اذا لم يصحب العقد الفكري ملجئ الضرورة أو قوة الداعية الى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود اثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلاً من أشكالها، فلن يكون منشأ

لآثاره، وإنما يعدّ في الصور العلمية له رسم يلوح في الذاكرة عند الالتفات اليه كما قدمنا.

بعد تدبر هذه الأصول البينة والنظر فيها بعين الحكمة يظهر لك السبب في سكون المسلمين الى ماهم فيه مع شدتهم في دينهم، والعلّة في تباطؤهم عن نصرة إخوانهم، وهم أثبت الناس في عقائدهم، فإنه لم يبق من جامعة بين المسلمين في الأغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عمّا يتّبعها من الأعمال، وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل. فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس اليها لا تواصل بينهم ولا تراسل فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الحجازي فضلاً عمّن يبعد عنهم، والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الأفغاني وهكذا بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم، ولا صلة تجمعهم إلا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهم وآخر، أما في هيئتهم الكلية فلا وحدة لهم، بل لا انساب بينهم، وكل ينظر الى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه.

كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء، كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين. أليس بعجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين في مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين ؟ أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين في المشرق ؟

هذا التدابر والتقاطع وإرسال الحبال على الغوارب عمّ المسلمين حتى صحّ أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم ولا بلد وبلد إلا طفيف من الإحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم، وربما يتعرفون مواقع أقطارهم بالصدفة إذا التقى بعضهم ببعض في موسم الحجيج العام، وهذا النوع من الإحساس هو الداعي الى الأسف وانقباض الصدر إذا شعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبي عن ملته، لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعاضدته.

كانت الملة كجسم عظيم قوي البنية صحيح المزاج، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه، فتداعت للتناثر والانحلال، وكاد كل جزء يكون على حدة وتضمحل هيئة الجسم.

بدأ هذا الإنحلال والضعف في روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم. كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة الى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان، ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت الىٰ اقسام : خلافة عباسية في بغداد، وفاطمية في مصر والمغرب، وأُموية في أطراف الأندلس، تفرّقت بهذا كلمة الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلاف الى وظيفة الملك، فسقطت هيبتها من النفوس، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون اليه من وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة.

وزاد الاختلاف شدة وتقطّعت الوشائج بينهم بظهور جنكيزخان وأولاده وتيمورلنك وأحفاده وإيقاعهم بالمسلمين قتلاً وإذلالاً حتىٰ أذهلوهم عن أنفسهم فتفرّق الشمل بالكليّة وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعاً، وانفرد كل بشأنه أو انصرف الى ما يليه، فتبدد الجمع الى آحاد، وافترق الناس فرقاً كل فرقة تتبع داعياً اما الىٰ ملك أو مذهب، فضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو الى الوحدة، وتبعث على اشتباك الوشيجة، وصار ما في العقول منها صوراً ذهنية تحويها مخازن الخيال، وتلحظها الذاكرة عند عرض ما في خزائن النفس من المعلومات، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين، بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر الى المسامع على طول من الزمان، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت، كما يكون علىٰ الأموات من الأقارب لا يدعو الى حركة لتدارك النازلة، ولا دفع الغائلة.

وكان من الواجب على العلماء قياماً بحق الوراثة التي شُرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو اليه الدين، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتىٰ يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة إذا اهتزّ أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعّاظ في جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون اليها في شؤون وحدتهم ويأخذون بأيدي العامة الى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر، ويجمعوا أطراف الوشائج الى معقد واحد يكون مركزه في الأقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام، حتىٰ يتمكنوا بذلك من شدّ أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان والقيام بحاجات الأمة اذا عرض حادث الخلل وتطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ويكون كذلك أدعىٰ لنشر العلوم وتنوير الأفهام وصيانة الدين من البدع، فإن إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف، فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة، وليس بخاف على المستبصرين ما يتّبع هذا من قوة الأمة وعلو كلمتها واقتدارها علىٰ دفع ما يغشاها من النوازل.

إلا إنّا نأسف غاية الأسف اذا لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين الى هذه الوسيلة وهي أقرب الوسائل وإن التفتت اليها في هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة، ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق ان يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحّد جمعهم ويجمع شتيتهم، فقد دارستهم التجارب ببيان لا مزيد عليه، وما هو بالعسير عليهم أن يبثوا الدعاة الىٰ من يبعد عنهم، ويصافحوا بالأكف من هو علىٰ مقربة منهم، ويتعرّفوا أحوال بعضهم فيما يعود علىٰ دينهم وملتهم بفائدة، أو ما يخشىٰ أن يمسها بضرر، ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة، والرمق باق والآمال مقبلة، والىٰ الله المصير.

سبات من له حق
وحراك مَنْ لا حق له

هذه دول أوروبا جميعاً ودولة فرنسا خصوصاً شاخصة الأبصار الى ما أصاب مصالحها وأضاع حقوقها في القطر المصري وأضر بتجارتها فيه، ولا تبدي حركة ولا يسمع لها صوت، إلا همس خفي في الجرائد، والدولة العثمانية وهي شديدة الأزر قوية العضد بما لها من المكانة في قلوب الهنديين، وكل انجليزي قلبه بين أصابع الدولة العثمانية، وأحشائه مستقرة علىٰ أناملها، وفي نظرها أن سلطتها أشرفت على الزوال في الأقطار المصرية، وسيادتها عليها كادت تكون اسماً، ومع ذلك لا تأتي عملاً ولا تخطو خطوة، سوى انها اكتفت بإقامة الحجج ورفع الصوت بالاستغاثة لدى الدول، حتىٰ أبحها الصياح وليس من يسمع ولا من يجيب. وذوو الحقوق في الولاية على مصر والأخذ بزمام الحكم فيها على اختلاف مشاربهم، قد شدت أياديهم بحبال من الآمال، وسلاسل من المخاوف، لايجدون لهم قراراً علىٰ فكر، ولا ثباتاً على رأي، وإنما هم بين اعصار من الأوهام، وتيارات من هواجس الخيال، يحملقون الى مواقع الحوادث، حائرين لا يطرف لهم طرف، ولا يغمض لهم جفن، وعامة الأهالي في الديار المصرية بين فقر كاد يفضي الى قحط، واختلاف في النظام، وضعف في السلطة،

وخبط في الأحكام، كادت تؤدي الى يأس من الاصلاح، وقد أخذهم الدوار من التلف الى جوانبهم طوراً ينظرون الى حكامهم نظر الآمل في هممهم، وحسن تدبيرهم، وآخر الى ما وعدتهم به الحكومة الانجليزية من الجلاء عن أوطانهم، وتركهم وما يدبرون لأنفسهم، والقرعة تضرب عند الأمة البريطانية على ديارهم، بدون أن يجعل لهم فيا سهم، كانما هم عنها أغراب لا يؤبه بهم، ولا يبالى بشأنهم.

نزاع بين رجال السياسة الانجليزية، بعضهم يدفع الحكومة للاستيلاء على مصر واعلان السيادة عليها، واستلام أزمة أحكامها وآخرون يقولون هذا مما يخالف أحكام الزمم، ولا تسوغه شريعة الوفاء، وانما علينا أن نحل بها عساكرنا زمناً يكفي لقضاء مانريده فيها، ثم نخليها اذا لم يوجد موجب يحتّم البقاء. عبارات مختلفة، ومَعان متشابهة، يتنازعون وهم متوافقون، ويتخالفون وهم متّحدون، يذهبون في انتحال الاسباب لما يبتغون، مذاهب مختلفة فبعض الجرائد كجريدة «التايمز» وما علىٰ مشربها تعتل بالجنرال جوردون وتهون ما حل به من الفشل وتتقدم الى الحكومة الانجليزية بطلب انقاذه من الخطر ولا وسيلة لخلاصه إلا إعلان الحكومة بالسيادة علىٰ البلاد المصرية، فلهذا الاعلان من القوة المعنوية التي تدافع عن الجنرال ما ليس لجيش عرمرم، أما ارسال الجيوش فهو محال لوعرة السبل وكثرة النفقات وشدّة الحرارة، ولئن همّت به الحكومة فانما يكون من أعمال اليأس والقنوط، فهذه الجرائد جعلت هذه المصالح الدولية وحقوق الدولة العثمانية وحقوق ستة ملايين من سكان القطر المصري، فداء لرأس الجنرال جوردون وفي زعمها ان ماتراه ليس رأياً يبديه أرباب الجرائد بل هو ما تراه الأمة البريطانية بأسرها، وربما لايكون بعيداً، وبعض الجرائد وتشاركهم جريدة «التايمز» تتذرع فيما تطلب بما حصل لأرباب الديون المصرية من القلق علىٰ ديونهم، وليس لهم ضمانة ترفع قلقهم، ويسكن اضطرابهم، إلا اعلان السيادة على القطر المصري وقوم آخرون منهم

يجعلون حجتهم مصائب الأهالي المصريين ورزاياهم وما حلّ ببلادهم من احتلال، ولا ينقذهم من هذا الشقاء إلا السيادة الانجليزية، جميعهم على وفاق على ان هذه السيادة هي الجوهر الثمين والسرّ المكنون، والأكسير المضنون به على غير أهله، متىٰ أبرزوه لم يبق مريض إلا عوفي، ولا ضعيف إلا قوي، ولا فاسد إلا صلح، كأن في هذا الأسم ما في الرقي والطلاسم، يغني عن الجيوش والأموال والعدة والرجال.

ولا نظن ان يكون في هذا الأسم ما يدعيه الانجليز من القوة ولا أن تكون في طيه هذه الأسرار العجيبة، ولو أننا فرضنا تنازل أرباب الحقوق عن حقوقهم من الدول الأوروبية والدولة العثمانية وأرباب الشأن الولاية، وسوغوا لحكومة انجلترا ان تنقش أحرف السيادة في أوراقها الرسمية أو في هواء الديار فليس من السهل عليها أن تزيد الحامية الى حد يحفظ ملكاً عظيماً يتاخم بلاد أوروبا وقد ظهرت آثار قوّتها مدة الحلول وما عاد منها على البلاد، على أن الأهالي كانوا في سكون تام لركونهم الى ما تعدهم به حكومة انجلترا من الجلاء عن أوطانهم فاذا أعلنت السيادة انفصمت علائق الآمال، وانحرفت القلوب ومالت الى الدعوة القائمة على القرب منها، وانقلب الكافة الى الذود عن حقوقهم الوطنية أو الملية، ولايرهبون القوة الانجليزية فيى داخل البلاد بعدما علموا شأنها ويكون هذا حجّة جديدة لمحمد أحمد في تأييد دعواه لدى المصريين ولا يرعبه اسم السيادة بعدما لم ترهبه جيوش الجنرال هكس وجراهام، وفتكه بالأولى وإلجائه الثانية، الىٰ إخلاء سواحل البحر الأحمر، فأي شأن يكون لهذا الأسم الشريف، نعم يكون بداية مشكل جديد في مصر والله أعلم بعاقبته.

التَّعَصُّبْ

"اتبعوا ما أُنزل اليكم من ربّكم
ولا تتبعوا من دونه أولياء"

لفظ شغل مناطق الناس خصوصاً في البلاد المشرقية تلوكه الألسن وترمي به الأفواه في المحافل والمجامع حتىٰ صار تكأة[1] للمتكلمين، يلجأ اليه العييى[2] في تهتهته[3]، والذملقاني[4] في تفيهقه [5] أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير فقلما تكون عبارة إلا وهو فاتحتها أو حشوها أو خاتمتها، يعدون مسماه علّة لكل بلاء، ومنبعاً لكل عناء، ويزعمونه حجاباً كثيفاً وسدّاً بين المتّصفين به وبين الفوز والنجاح، ويجعلونه عنواناً على النقص وعلماً للرذائل، والمتسربلون بسرابيل الأُفرنج الذاهبون في تقليدهم مذاهب الخبط والخلط لاَ يميزون بين حق وباطل، هم أحرص الناس على التشدّق بهذا البدع الجديد، فتراهم في بيان مفاسد التعصب يهزون الرؤوس

١ـ التكأة : ما يتوكأ عليه.

٢ـ العييى : من العي وهو العجز عن الكلام .

٣ـ التهتهة : ضرب من اللكنة.

٤ـ الذملقاني : السريع الكلام.

٥ـ التفيهق : التوسع والتنطع.

ويعبثون باللحى ويبرمون السبال، وإذا رموا به شخصاً للحط من شأنـه أردفـوه للتوضيح بلفظ أفرنجي (فناتيك) [١] فان عهدوا بشخص نوعاً من المخالفة لمشربهم عدّوه متعصباً، وهمزوا به وغمزوا ولمـزوا، وإذا رأوه عـبسوا وبـسروا، وشمـخوا بأنوفهم كبراً وولوه دبراً، ونادوا عليه بالويل والثبور، ماذا سبق الى أفهامهم من هذا اللفظ، وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدأ لكل شناعة، ومصدراً لكل نقيصة، وهل لهم وقوف علىٰ شيء من حقيقته ؟

التعصب قيام بالعصبية، والعصبية من المصادر النسبية، نسـبة الىٰ العـصبة، وهي قوم الرجل الذين يعززون قوّته، ويدفعون عنه الضيم والعداء، فالتعصب صف للنفس الانسانية، تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه، ووجوه الاتصال تابعة لأحكام النفس في معلوماتها ومعارفها.

هذا الوصف هو الذي شكل الله به الشعوب، وأقام بناء الأمم وهو عقد الربط في كل أمة، بل هو المزاج الصحيح يوحّد المتفرّق منها تحت اسم واحد، أو يـنشئها بتقدير الله خلقاً واحداً، كبدن تألّف من أجـزاء وعـناصر، تـدبره روح واحـدة، فتكون كشخص يمتاز في أطواره وشؤونه وسعادته وشقائه عن سائر الأشخاص.

وهذه الوحدة هي مبعث المباراة بين أمة وأمة، وقبيل وقبيل، ومباهاة كل من الأمتين المتقابلتين بما يتوفر لها من أسباب الرفاهة وهناءة العيش، وما تجمعه قواها من وسائل العزّة والمنعة، وسمو المقام ونفاذ الكلمة، والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الأشخاص. أعظم باعث علىٰ بلوغ أقصىٰ درجات الكمال في جميع لوازم الحياة بقدر ماتسعه الطاقة.

التعصب روح كلي مهبطة هيئة الأمة وصورتها، وسائر أرواح الأفراد حواسه ومشاعره فاذا ألمَ بأحد المشاعر ما لا يلائمه من أجنبي عنه انـفعل الروح الكـلي، وجاشت طبيعته لدفعه، فهو لهذا مثار الحمية العامة، ومسعر النعرة الجنسية. هذا هو

---

١ ـ معناها : متعصب.

الذي يرفع نفوس آحاد الأمة عن معاطاة الدنايا وارتكاب الخيانات فيما يعود علىٰ الأمة بضرر، أو يؤول بها الى سوء عاقبة. وان استقامة الطباع ورسوخ الفضيلة في أمة تكون علىٰ حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين آحادها. يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم من بدن حي، لايجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم، ولا يرى القدمان في تطرفهما انحطاطاً في رتبة الوجود وانما كل يؤدي وظائفه لحفظ البدن وبقائه.

وكلما ضعفت قوة الربط بين أفراد الأمة بضعف التعصب فيهم استرخت الأعصاب، ورثت الأطناب، ورقت الأوتار، وتداعى بناء الامة الى الانحلال كما يتداعى بناء البنية البدنية الى الفناء، بعد هذا يموت الروح الكلي، وتبطل هيئة الامة وان بقيت آحادها، فما هي إلا كالأجزاء المتناثرة، إما أن تتصل بأبدان أُخرىٰ بحكم ضرورة الكون، وإما أن تبقىٰ في قبضة الموت الى ان ينفخ فيها روح النشأة الاخرىٰ. (سنّة الله في خلقه) إذا ضعفت العصبية في قوم رماهم الله بالفشل، وغفل بعضهم عن بعض، وأعقب الغفلة تقطّع في الروابط، وتبعه تقاطع وتدابر فيتّسع للأجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بإفاضة روح التعصب في نشأة ثانية.

نعم ان التعصب وصف كسائر الأوصاف، له حد اعتدال وطرفا إفراط وتفريط، واعتداله هو الكمال الذي بيّنا مزاياه والتفريط فيه هو النقص الذي أشرنا لرزاياه، والإفراط فيه مذمة تبعث علىٰ الجور والاعتداء فالمفرط في تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق، ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة، وينظر الىٰ الأجنبي عنه كما ينظر الى الهمل، لا يعترف به بحق، ولا يرعى له ذمة، فيخرج بذلك عن جادة العدل، فتنقلب منفعة التعصب الى مضرة ويذهب بهاء الامة، بل يتقوّض مجدها، فان العدل قوام الاجتماع الانساني، وبه حياة الأمم، وكل قوة لا تخضع للعدل فمصيرها الى الزوال، وهذا الحدّ من الافراط في التعصب هو الممقوت على لسان

الشارع صلى الله عليه وسلم في قوله «ليس منّا من دعا الىٰ عصبية».

التعصب كما يُطلق ويُراد منه النعرة علىٰ الجنس، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد، كذلك توسّع أهل العرف فيه، فأطلقوا على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً، والمتنطعون من مقلدة الأفرنج يخصون هذا النوع منه بالمقت، ويرمونه بالتعس، ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل. فان لحمة يصير بها المتفرقون الى وحدة، تنبعث عنها قوة لدفع الغائلات، وكسب الكمالات، لايختلف شأنها إذا كان مرجعها الدين أو النسب، وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين في أقوام مختلفة من البشر، وعن كل منهما صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الانساني، وليس يوجد عند العقل أدنىٰ فرق بين مدافعة القريب عن قريبه، ومعاونته على حاجات معيشته، وبين ما يصدر من ذلك عن المتلاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب.

فتعصب المشتركين في الدين المتوافقين في أصول العقائد بعضهم لبعض إذا وقف عند الاعتدال ولم يدفع الى جور في المعاملة، ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو نقض لذمته، فهو فضيلة من أجلّ الفضائل الانسانية، وأوفرها نفعاً وأجزلها فائدة بل هو أقدس رابطة وأعلاها، إذا استحكمت صعدت بذوي المكنة فيها الى أوج السيادة وذروة المجد، خصوصاً إن كانوا من قبيل قوى فيهم سلطان الدين. واشتدت سطوته على الأهواء الجنسية حتى أشرف بها علىٰ الزوال كما في أهل الديانة الاسلامية، علىٰ ما أشرنا اليه في العدد الثاني من جريدتنا.

ولا يؤخذ علينا في القول بأنه من أقدس الروابط، فانه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة، ويصل ما بينهم في المقاصد والعزائم والأعمال، وكذلك يمحو أثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر، بل الأجناس المتخالفة في المنابت واللغات والعادات، بل المتباعدة في الصور والأشكال، ويحول أهواءها المتضاربة الىٰ قصد واحد، وهو تأصيل المجد وتأييد الشرف، وتخليد الذكر

تحت الاسم الجامع لهم هذا الأثر الجليل عهد لقوة التعصب الديـني، وشهـد عـليه التاريخ بعدما أرشد اليه العقل الصحيح، وما كانت رابطة الجنس لتقوى علىٰ شيء منه.

ثغثغ جماعة من متزندقة هذه الأوقات في بيان مـفاسد التـعصب الديـني وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به اخوالهم من ضيم، وتضافرهم لدفع ما يلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف هو الذي يصدهم عن السير الى كمال المـدنية، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة، ويرمي بهم في ظلمات الجهل، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان علىٰ من يخالفهم في دينهم، ومن رأى أولئك المتفنفين ان لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح إلا بانحلال العصبية الدينية ومحو أثرها، وتخليص العقول من سلطة العقائد وكثيراً ما يرجفون بأهل الدين الاسلامي، ويخوضون في نسبة مذام التعصب اليهم.

كذب الخراصون، ان الدين أول معلم وأرشد استاذ وأهدى قائد للأنفس الىٰ اكتساب العلوم والتوسع في المعارف، وأرحم مؤدب وأبصر مروّض بطبع الأرواح علىٰ الآداب الحسنة، والخلائق الكريمة، ويقيمها علىٰ جادة العدل، وينبه فيها حاسة الشفقة والرحمة، خصوصاً دين الاسلام فهو الذي رفع أمة كانت من أعرق الأمم في التوحش والقسوة والخشونة، وسما بها الىٰ أرقىٰ مراقي الحكمة والمدنية في أقرب مدة، وهي الأمة العربية.

قد يطرأ على التعصب الديني من التغالي والإفراط مـثل مـا يـعرض عـلى التعصب الجنسي فيقضي الىٰ ظلم وجور، ربما يؤدي الى قيام أهل الديـن لإبـادة مخالفيهم ومحق وجودهم، وكما قامت الأمم الغربية واندفعت على بلاد الشرق لمحض الفتك والإبادة لا للفتح ولا للدعوة الى الدين في الحرب الهائلة المـعروفة بحـرب الصليب، وكما فعل الاسبانيوليون بمسلمي الأندلس، وكما وقع قـبل هـذا وذاك في بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحي، إن صاحب السلطان من المسيحيين جمع

اليهود في القدس وأحرقهم إلا ان هذا العارض لمخالفته لأصول الدين قلما تمتد له مدة، ثم يرجع أرباب الدين الىٰ أصوله القائمة علىٰ قواعد السلم والرحمة والعدل.

اما أهل الدين الاسلامي فنهم طوائف شطت في تعصبها في الأجيال الماضية إلا انه لم يصل بهم الافراط الى حد يقصدون فيه الإبادة واخلاء الأرض من مخالفيهم في دينهم، وما عهد ذلك في تاريخ المسلمين بعدما تجاوزوا حدود جزيرة العرب، ولنا الدليل الأقوم على مانقول، وهو وجود الملل المختلفة في ديارهم الى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم في عنفوان القوة وهي في وهن الضعف، نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممالك وامتداد الفتوحات وكانت لهم شدة علىٰ من يعارضهم في سلطانهم، إلا انهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الأديان، ويرعون حق الذمة، ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه، ويدفعون عنه غائلة العدوان، ومن العقائد الراسخة في نفوسهم:

(أن من رضىٰ بذمتنا فله مالنا وعليه ما علينا) ولم يعدلوا في معاملتهم لغيرهم عن أمر الله في قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو علىٰ أنفسكم أو الوالدين والأقربين) اللّهم الا ما لا تخلو عنه الطبائع البشرية.

ومن نشأة المسلمين الى اليوم لم يدفعوا أحداً من مخالفيهم عن التقدم الى ما يستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكانة، ولقد سما في دول المسلمين علىٰ اختلافها الى المراتب العالية كثير من أرباب الأديان المختلفة، وكان ذلك في شبيبتها وكمال قوّتها، ولم يزل الأمر علىٰ ما كان، وفي الظن ان الأمم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل الىٰ اليوم (فسحقاً لقوم يظنون أن المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم).

لم يسلك المسلمون من عهد قريب مسلك الإلزام بدينهم والإجبار على قبوله مع شدّة بأسهم في بدايات دولهم، وتغلغلهم في افتتاح الأقطار، واندفاع هممهم للبسطة في الملك والسلطة، وإنما كانت لهم دعوة يبلغونها، فإن قبلت وإلا استبدلوا بها رسماً مالياً يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب

الفقه الاسلامي، هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين أيام شوكتهم الأولى، فإنّهم ماكانوا يطأون أرضاً إلا ويلزمون أهلها بخلع أديانهم، والتطوق بدين اولئك المسلطين وهو الدين المسيحي كما فعلوا في مصر وسورية، بل في البلاد الافرنجية نفسها.

هذا فصل من الكلام ساق اليه البيان وفيه تبصرة لمن يتبصّر، وتذكرة لمن يتذكّر، ثم أعود بك الى سابق الحديث فيما كنا بصدده : هل لعاقل لم يصب برزيئة في عقله أن الاعتدال من التعصب الديني نقيصة، وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي إلا بما يكون به التعصب الديني أقدس وأطهر وأعم فائدة، لاتخال عاقلاً يرتاب في صحة ما قررناه فما لأولئك القوم يهذرون بما لايدرون. أي أصل من أصول العقل يستندون اليه في المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسي فقط، واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل، ويعبرون عنه بمحبة الوطن، وأي قاعدة من قواعد العمران البشري في التهاون بالتعصب الديني المعتدل وحسبانه نقيصة يجب الترفع عنها.

نعم ان الأفرنج تأكد لديهم ان أقوى رابطة بين المسلمين انما في الرابطة الدينية، وأدركوا أن قوتهم لا تكون إلا بالعصبية الاعتقادية، ولأولئك الأفرنج مطامع في ديار المسلمين وأوطانهم، فتوجهت عنايتهم الى بثّ هذه الأفكار الساقطة بين أرباب الديانة الاسلامية وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها، لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزاباً، فانهم علموا كما علمنا، وعلم العقلاء أجمعون ان المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا في دينهم واعتقادهم، وتسنىٰ للمفسدين نجاح في بعض الأقطار الاسلامية، وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلاً وتقليداً فساعدوهم على التنفير من العصبية الدينية بعدما فقدوها ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس التي يبالغون في تعظيمها واحترامها حمقاً منهم وسفاهة، فثلهم كمثل من هدم بيته قبل ان يهيئ لنفسه مسكناً سواه فاضطر للاقامة بالعراء معرضاً لفواعل

الجو وما تصول به على حياته.

من هذا ما سلك الانجليز في الهند لما أحسوا بالعراء بخيال السلطنة يطوف على أفكار المسلمين منهم لقرب عهدها بهم وفي دينهم ما يبعثهم على الحركة الى استرداد ما سُلب منهم، وأرشدهم البحث في طبائع الملل الى أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية وما دام الاعتقاد المحمدي والعصبة الملية سائدة فيهم فلا تؤمن بعثتهم الى طلب حقوقهم فاستهووا طائفة ممن يتسمون بسمة الاسلام، ويلبسون لباس المسلمين، وفي صدورهم غلّ ونفاق وفي قلوبهم زيغ وزندقة، وهم المعروفون في البلاد الهندية بالنيجرية أي الدهريين فاتخذهم الانجليز أعواناً لهم على فساد عقائد المسلمين، وتوهين علائق التعصب الديني ليطفئوا بذلك نار حميتهم ويخمدوا ثائرة غيرتهم، ويبددوا جمعهم، ويمزقوا شملهم، وساعدوا تلك الطائفة على انشاء مدرسة كبيرة في (عليكر) ونشر جريدة لبثّ هذه الأباطيل بين الهنديين حتى يعمّ الضعف في العقائد وترث أطناب الصلات بين المسلمين فيستريح الانجليز في التسلط عليهم، وتطمئن قلوبهم من جهتهم كما اطمأنت من جهة غيرهم، وغر أولئك الغفّل المتزندقين ان رجال دولة بريطانيا يظهرون لهم رعاية صورية، ويدنونهم من بعض الوظائف الخسيسة (تعس من يبيع ملته بلقمة وذمته برذال العيش).

هذا أسلوب من السياسة الأوربية أجادت الدول اختباره وجنت ثماره، فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم، فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل في البلاد العثمانية والمصرية وغيرها من الممالك الاسلامية، ولم تعدم صيداً من الأمراء والمنتسبين الى العلم والمدنية الجديدة، واستعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم، وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام ان يميلوا مع هذه الأهواء الباطلة، ولكنّا نعجب من أن بعضاً من سذّج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في ايمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني، ويهجرون في رمي المتعصبين بالخشونة، والبعد عن معدات المدنية الحاضرة،

ولايعلم اولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم، ويفسدون شأنهم، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المارقين، يطلبون محو التعصب المعتدل، وفي محوه محو الملّة ودفعها الىٰ أيدي الأجانب يستعبدونها ما دامت الأرض أرض والسماء سماء.

والله ما عجبنا من هؤلاء وهؤلاء بأشد من العجب لأحوال الغربيين من الأمم الافرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الأفكار بين الشرقيين ولا يخجلون من تبشيع التعصب الديني ورمي المتعصبين بالخشونة.. الأفرنج أشدّ الناس في هذا النوع من التعصب وأحرصهم علىٰ القيام بدواعيه، ومن القواعد الأساسية في حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم، واذا عدت عادية مما لايخلو عنه الاجتماع البشري على واحد ممن على دينهم ومذاهبهم في ناحية من نواحي الشرق سمعت صياحاً وعويلاً وهيعات ونبآءات تتلاقى أمواجها في جو بلاد المدنية الغربية وينادي جميعهم : ألا قد ألمت ملمة، وحدثت حادثة مهمة، فأجمعوا الأمر وخذوا الأهبة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها حتىٰ لاتنخدش الجامعة الدينية، وتراهم على اختلافهم، في الاجناس وتباغضهم، وتحاقدهم وتنابذهم في السياسات، وترقب كل دولة منهم، لعثرة الأُخرىٰ حتى توقع بها السوء يتقاربون ويتآلفون ويتّحدون في توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم، في الدين وإن كان في أقصى قاصية من الأرض، ولو تقطعت بينه وبينهم، الأنساب الجنسية.

أما لو فاض طوفان الفتن وطم وجه الأرض وغمر البسيطة من دماء المخالفين لهم في الدين والمذهب، فلا ينبض فيهم عرق ولا يتنبّه لهم إحساس بل، يتغافلون عنه ويذرونه وما يجرف حتى يأخذ مده الغاية من حدّه، ويذهلون عمّا أودع في الفطر البشرية من الشفقة الانسانية والمرحمة الطبيعية، كأنما يعدون الخارجين عن دينهم، من الحيوانات السائمة والهمل الراعية، وليس من نوع الانسان الذي يزعم الأوروبيون انهم حماته وأنصاره، وليس هذا خاصاً بالمتدينين منهم، بل

الدهريون ومن لايعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني، ولا يألون جهداً في تقوية عصبيتهم وليتهم يقفون عند الحق، ولكن كثيراً ما تجاوزوه. أما ان شأن الأفرنج في تمسكهم بالعصبية الدينية لغريب.

يبلغ الرجل منهم أعلىٰ درجة في الحرية كجلادستون، ثم لاتجد كلمة تصدر عنه إلا وفيها نفثة من روح بطرس الراهب[1] بل لاترىٰ روحه إلا نسخة من روحه، (انظر الى كتب جلادستون وخطبه السابقة).

فيا أيتها الأمة المرحومة هذه حياتكم فاحفظوها، ودماؤكم فلا تريقوها، وأرواحكم فلا تزهقوها، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت. هذه هي روابطكم الدينية لا تغرنكم الوساوس ولا تستهوينكم الترهات، ولا تدهشكم زخارف الباطل، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها العربي بالتركي، والفارسي بالهندي، والمصري بالمغربي، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية حتى ان الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر وان تنأت دياره، وتقاصت أقطاره.

هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله اليكم، وفيها عزّتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها، ولكن عليكم في رعايتها ان تخضعوا لسطوة العدل، فالعدل أساس الكون وبه قوامه ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم، وعليكم ان تتقوا الله وتلزموا أوامره في حفظ الذمم، ومعرفة الحقوق لأربابها، وحسن المعاملة وإحكام الألفة في المنافع الوطنية بينكم وبين ابناء أوطانكم وجيرانكم من أرباب الأديان المختلفة، فإن مصالحكم لا تقوم إلا بمصالحهم، كما لاتقوم مصالحهم إلا بمصالحكم، وعليكم أن لا تجعلوا عصبة الدين وسيلة للعدوان، وذريعة لانتهاك الحقوق فإن دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه بأشدّ العقاب. هذا ولا تجعلوا عصبيتكم قاصرة على مجرد ميل بعضكم لبعض، بل تضافروا بها على

---

١ ـ هو داعية الحرب الصليبية.

مباراة الأمم في القوة والمنعة والشوكة والسلطان ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الانسانية.

اجعلوا عصبيتكم سبيلا لتوحيد كلمتكم، واجتماع شملكم، وأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوّة النقص الى ذروة الكمال وتعاونوا علىٰ البر والتقوىٰ ولا تعاونوا علىٰ الإثم والعدوان.

القضاء والقدَر

مضت سُنّة الله في خلقه بأن للعقائد القلبية سلطاناً على الأعمال البدنية، فما يكون في الأعمال من صلاح أو فساد، فانما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها على ما بينا في بعض الاعداد الماضية، وربّ عقيدة واحدة تأخذ بأطراف الأفكار فيتبعها عقائد ومدركات أخرىٰ، ثم تظهر علىٰ البدن بأعمال تلائم أثرها في النفس، وربّ أصل من أصول الخير وقاعدة من قواعد الكمال اذا عرضت علىٰ الأنفس في تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه علىٰ السامع فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة فيعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه، وفي كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها، وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في الفهم، أو علىٰ خبث الاستعداد، فتنشأ عنها أعمال غير صالحة، وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد، ولا كيف يصرفه اعتقاده، والمغرور بالظواهر يظن ان تلك الاعمال انما نشأت عن الاعتقاد بذلك الأصل وتلك القاعدة، ومن مثل هذا الانحراف في الفهم وقع التحريف والتبديل في بعض أصول الأديان غالباً، بل هو علّة البدع في كل دين علىٰ الأغلب، وكثيراً ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الاعمال، حتىٰ أفضىٰ بمن ابتلاهم الله به الىٰ الهلاك وبئس

المصير، وهذا ما يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن في دين من الأديان، أو عقيدة من العقائد الحقّة استناداً الى أعمال بعض السذّج المنتسبين الى الدين أو العقيدة.

من ذلك عقيدة القضاء والقدر التي تعدّ من أصول العقائد في الديانة الاسلامية الحقة. كثر فيها لغط المغفلين من الأفرنج وظنوا بها الظنون، وزعموا انها ما تمكنت من نفوس قوم إلا وسلبتهم الهمة والقوة، وحكمت فيهم الضعف والضعة، ورموا المسلمين بصفات ونسبوا اليهم أطواراً، ثم حصروا علّتها في الاعتقاد بالقدر فقالوا : ان المسلمين في فقر وفاقة وتأخّر في القوة الحربية والسياسية عن سائر الأمم، وقد فشا فيهم فساد الأخلاق فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض، وتفرّقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة وغفلوا عمّا يضرّهم وما ينفعهم، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة، ولكن متى أمكن لأحدهم ان يضرّ أخاه لايقصّر في الحاق الضرر به، فجعلوا بأسهم بينهم والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد اخرى، رضوا بكل عارض، واستعدوا لقبول كل حادث، وركنوا الى السكون في كسور بيوتهم، يسرحون في مرعاهم، ثم يعودون الى مأواهم، الأمراء فيهم يقطعون أزمنتهم في اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات، وعليهم فروض وواجبات تستغرق في أدائها أعمارهم ولا يؤدون منها شيئاً. يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمانهم اسرافاً وتبذيراً نفقاتهم واسعة، ولكن لا يدخل في حسابها شيء يعود على ملّتهم بالمنفعة، يتخاذلون ويتنافرون، وينوطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية، فرب تنافر بين أميرين يضيع أمّة كاملة، كل منهما يخذل صاحبه، ويتسعدي عليه جاره، فيجد الأجنبي فيهما قوة فانية وضعفاً قاتلاً فينال من بلادهما ما لا يكلّفه عدداً ولا عدة، شملهم الخوف وعمّهم الجبن والخور يفزعون من الهمس، ويألمون من اللمس. قعدوا عن الحركة الى ما يلحقون به الأمم في العزة والشوكة، وخالفوا في ذلك أوامر دينهم،

مع رؤيتهم لجيرانهم بل الذين تحت سلطتهم، يتقدمون عليهم ويباهونهم بما يكسبون، واذا أصاب قوماً من أخوانهم مصيبة أوعدت عليهم عادية لا يسعون في تخفيف مصابهم، ولا ينبعثون لمناصرتهم، ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لا جهرية ولا سرية، يكون من مقاصدها احياء الغيرة، وتنبيه الحمية، ومساعدة الضعفاء، وحفظ الحق من بغي الأقوياء وتسلّط الغرباء.

هكذا نسبوا الى المسلمين هذه الصفات وتلك الأطوار، وزعموا ان لا منشأ لها إلا اعتقادهم بالقضاء والقدر وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الالهية، وحكموا بأن المسلمين لو داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة، ولن ينالوا عزّاً ولن يعيدوا مجداً، ولا يأخذون بحق، ولا يدفعون تعدياً، ولا ينهضون بتقوية سلطان، أو تأييد ملك، ولا يزال بهم الضعف يفعل في نفوسهم، ويركس من طباعهم، حتىٰ يؤدي بهم الى الفناء والزوال (والعياذ بالله) يفني بعضهم بعضاً بالمنازعات الخاصة، وما يسلم من أيدي بعضهم يحصده الأجانب.

واعتَقَدَ أولئك الأفرنج انه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين : بأن الانسان مجبور محض في جميع أفعاله ؛ وتوهموا ان المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلّقة في الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل، ومتى رسخ في نفوس قوم أنه لا خيار لهم في قول ولا عمل، ولا حركة ولا سكون، وانما جميع ذلك بقوة جابرة، وقدرة قاسرة، فلا ريب تتعطل قواهم، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى، وتمحى من خواطرهم داعية السعي والكسب، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحوّلوا من عالم الوجود الىٰ عالم العدم.

هكذا ظنت طائفة من الأفرنج، وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول في المشرق ولست أخشىٰ أن أقول : كذب الظان. وأخطأه الوهم وبطل الزاعم. وافتروا علىٰ الله والمسلمين كذباً ـ لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني وشيعي وزيدي واسماعيلي ووهابي وخارجي يرى مذهب الجبر المحض، ويعتقد سلب الاختيار عن

نفسه بالمرة، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزاء اختيارياً في أعمالهم، ويسمىٰ بالكسب، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم، وانهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الالهية، والنواهي الربانية، الداعية الىٰ كل خير، الهادية الىٰ كل فلاح، وأن هذا النوع من الاختيار وهو مورد التكليف الشرعي، وبه تتم الحكمة والعدل.

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمىٰ بالجبرية ذهبت الى ان الانسان مضطر في جميع أفعاله اضطراراً لا يشوبه اختيار وزعمت ان لا فرق بين أن يحرك الشخص فكّه للأكل والمضغ وبين أن يتحرك بقفقفة البرد عند شدّته، ومذهب هذه الطائفة يعدّه المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة، وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبقَ لهم أثر، وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر، ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون.

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع، بل ترشد اليه الفطرة، وسهل على من له فكر ان يلتفت الى ان كل حادث له سبب يقاربه في الزمان، وأنه لا يرىٰ من سلسلة الأسباب الا ما هو، حاضر لديه ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها، وان لكل منها مدخلاً ظاهراً فيما بعده بتقدير العزيز العليم. وإرادة الانسان إنما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة. وليست الإرادة إلا أثراً من آثار الادراك. والادراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس. وشعورها بما أودع في الفطرة من الحاجات. فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والإرادة ما لا ينكره أبله. فضلاً عن عاقل، وان مبدأ هذه الأسباب التي ترى في الظاهر مؤثرة انما هو بيد مدبّر الكون الأعظم الذي أبدع الأشياء على وفق حكمته. وجعل كل حادث تابعاً لشبهة كأنه جزاء له. خصوصاً في العالم الإنساني.

ولو فرضنا ان جاهلاً ضلّ عن الاعتراف بوجود إله صانع للعالم فليس في إمكانه ان يتملّص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية في

الإرادات البشرية. فهل يستطيع إنسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنة التي سنّها الله في خلقه ؟ هذا أمر يعترف به طلاّب الحقائق فضلاً عن الواصلين ـ وان بعضاً من حكماء الأفرنج وعلماء سياستهم التجأوا الى الخضوع لسلطة القضاء، وأطالوا البيان في اثباتها، ولسنا في حاجة الىٰ الاستشهاد بآرائهم.

ان للتاريخ علماً فوق الرواية عني بالبحث فيه العلماء من كل امّة وهو العلم الباحث عن سير الأمم في صعودها وهبوطها وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها، وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل في العادات والاخلاق والأفكار، بل في خصائص الإحساس الباطن والوجدان، وما يتبع ذلك كلّه من نشأة الأمم، وتكوّن الدول، أو فناء بعضها واندراس أثره.

هذا الفن الذي عدوه من أجلّ الفنون الأدبية وأجزلها فائدة بناء البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر، والاذعان بأن قوى البشر في قبضة مدبر للكائنات، ومصرف للحادثات، ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع، ولا ضعف قوي، ولا انهدم مجد، ولا تقوّض سلطان.

الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرّد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجرأة والاقدام، وخلق الشجاعة والبسالة، ويبعث على اقتحام المهالك التي توجف لها قلوب الأسود، وتنشق منها مرائر النمور. هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات، واحتمال المكاره، ومقارعة الأهوال، ويحليها بحلى الجود والسخاء، ويدعوها الىٰ الخروج من كل ما يعز عليها، بل يحملها على بذل الأرواح، والتخلي عن نضرة الحياة، كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة.

الذي يعتقد بأن الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة امته، أو ملّته، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشىٰ الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشييد المجد، علىٰ حسب الأوامر الالهية، وأصول الاجتماعات البشرية.

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم)اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم الى الممالك والأقطار يفتحونها ويتسلّطون عليها، فأدهشوا العقول وحيروا الألباب مما دوخوا الدول وقهروا الأمم، وامتدت سلطتهم من جبال بيريني الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا الى جدار الصين، مع قلة عدتهم وعددهم، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة، وطبائع الأقطار المتنوعة، أرغموا الملوك، وأذلوا القياصرة والأكاسرة، في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة. ان هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات.

دمروا بلاداً، ودكدكوا أطواداً، ورفعوا فوق الأرض أرضاً ثانية من القسطل، وطبقة أخرىٰ من النقع، وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم، وأقاموا بدلها جبالاً وتلالاً من رؤوس النابذين لسلطانهم، وأرجفوا كل قلب، وأرعدوا كل فريصة وما كان قائدهم وسائقهم الى جميع هذا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر.

هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء، ويضيق بها بسيط الغبراء، فكشفوهم عن مواقعهم، وردوهم علىٰ أعقابهم.

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق، وانقضت شهبها علىٰ الحيارىٰ في هبوات الحروب من أهل المغرب، وهو الذي حملهم علىٰ بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل اعلاء كلمتهم، لايخشون فقراً ولا يخافون فاقة. هذا الاعتقاد هو الذي سهّل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون في حجورهم الى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم، كانما يسيرون الى الحدائق والرياض، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على اللّه اماناً من كل غادرة، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة، وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم،

وخدمتها فيما تحتاج اليه، لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول الا بحمل السلاح، ولا تأخذ النساء رهبة، ولا تخشى الأولاد مهابة، هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم الى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب، ويبدد أفلاذ الاكباد، حتى كانوا ينصرون بالرعب، يقذف به في قلوب أعدائهم فينهزمون بجيش الرهبة قبل ان يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم، بل قبل ان تصل الى تخومهم أطراف جحافلهم.

بكائي على السالفين وتحيبي على السابقين، أين أنتم يا عصبة الرحمة وأولياء الشفقة أين أنتم يا أعلام المروءة، وشوامخ القوة، أين أنتم يا آل النجدة، وغوث المضيم يوم الشدة أين أنتم يا خير أمّة أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ؟ أين أنتم أيها الأمجاد الأنجاد القوامون بالقسط الآخذون بالعدل الناطقون بالحكمة، المؤسسون لبناء الأمة، ألا تنظرون من خلال قبوركم الى ما أتاه خلفكم من بعدكم، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم، انحرفوا عن سنّتكم، وجاروا عن طريقكم فضلوا عن سبيلكم، وتفرّقوا فرقاً وأشياعاً، حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفاً، وتحترق الأكباد حزناً. اضحوا فريسة للأمم الاجنبية لا يستطيعون ذوداً عن حوضهم، ولا دفاعاً عن حوزتهم، ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبّه الغافل، ويوقظ النائم، ويهدي الضآل، الىٰ سواء السبيل ؟ (انّا لله وانّا اليه راجعون).

أقول وربما لا أخشىٰ واهماً ينازعني فيما أقول انه من بداية تاريخ الاجتماع البشري الى اليوم ما وجد فاتح عظيم، ولا محارب شهير، نبت في أوسط الطبقات، ثم رقىٰ بهمته الى أعلى الدرجات فذللت له الصعاب، وخضعت الرقاب، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو الىٰ العجب، ويبعث الفكر لطلب السبب، إلا كان معتقداً بالقضاء والقدر، سبحان الله، الانسان حريص على حياته شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجبلة، فما الذي يهوّن عليه اقتحام المخاطر، وخوض المهالك،

ومصارعة المنايا، إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر، وركون قلبه الى ان المقدر كائن ولا أثر لهول المظاهر.

أثبتت لنا التواريخ أن كورش الفارسي (كيخسرو) وهو أول فاتح يعرف في تاريخ الأقدمين ما تسنىٰ له الظفر في فتوحاته الواسعة، إلا لأنه كان معتقداً بالقضاء والقدر، فكان لهذا الاعتقاد لا يهوله هول، ولا توهن عزيمته شدّة، وان اسكندر الأكبر اليوناني كان ممن رسخ في نفوسهم هذه العقيدة الجليلة وجنكيزخان التتري صاحب الفتوحات المشهورة كان من أرباب هذا الاعتقاد، بل كان نابليون الأول بونابرت الفرنساوي من أشدّ الناس تمسكاً بعقيدة القضاء، وهي التي كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيرة، فيتهيأ له الظفر، وينال بغيته من النصر.

فنعم الاعتقاد الذي يطهّر النفوس الانسانية من رذيلة الجبن وهو أول عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله في طبقته أيّاً كانت، نعم إننا لا ننكر ان هذه العقيدة قد خالطها في نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر، وربما كان هذا سبباً في رزيئتهم ببعض المصائب التي أخذتهم بها الحوادث في الأعصر الأخيرة، ورجاؤنا في الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم في تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع، ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا يعملون، وينشروا بينهم ما أثبتته ائمتنا رضي الله عنهم كالشيخ الغزالي وأمثاله من أن التوكل والركون الى القضاء انما طلبه الشرع منا في العمل، لا في البطالة والكسل، وما أمرنا الله ان نهمل فروضنا، ونتبذ ما أوجب علينا، بحجة التوكل عليه فتلك حجة المارقين عن الدين، الحائدين عن الصراط المستقيم ولا يرتاب أحد من أهل الدين الاسلامي في أن الدفاع عن الملة في هذه الأوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف وليس بين المسلمين وبين الالتفات الى عقائدهم الحقّة التي تجمع كلمتهم، وترد

اليهم عزيمتهم، وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الأول، إلا دعوة خير من علمائهم، وان جميع ذلك موكول الى ذمتهم.

أما ما زعموه في المسلمين من الانحطاط والتأخّر فليس منشأوه هذه العقيدة «ولا غيرها من العقائد الاسلامية» ونسبته اليها كنسبة النقيض الى نقيضه بل أشبه ما يكون بنسبة الحرارة الى الثلج والبرودة الى النار. نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر، وثمل من العز والغلب وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان، صدمة من طرف الشرق وهي غارة التتر من جنگيزخان وأحفاده، وصدمة من جهة الغرب وهي زحف الأمم الاوروبية بأسرها علىٰ ديارهم، وان الصدمة في حال النشوة تذهب بالرأي، وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة، ووسد الأمر فيهم الىٰ غير أهله، وولي على أمورهم من لايحسن سياستها، فكان حكامهم وأمراؤهم من جراثيم الفساد في أخلاقهم وطباعهم، وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم فتمكن الضعف من نفوسهم، وقصرت أنظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التي لا تتجاوز لذته الانية، وأخذ كل منهم بناصية الآخر، يطلب له الضرر ويلتمس له السوء من كل باب، لا لعلّة صحيحة ولا داع قوي، وجعلوا هذا ثمرة الحياة، فآل الأمر بهم الى الضعف والقنوط وأدىٰ الى ماصاروا اليه.

ولكني أقول ـ وحق ما أقول ـ ان هذه الملة لن تموت مادامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم، ورسومها تلوح في أذهانهم، وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم، وكل ما عرض عليهم من الأمراض النفسية والاعتلال العقلي، فلابد ان تدفعه قوة العقائد الحقّة، ويعود الأمر كما بدأ وينشطوا من عقالهم، ويذهبون مذاهب الحكمة والتبصر في انقاذ بلادهم، وارهاب الأمم الطامعة فيهم، وايقافها عند حدّها، وما ذلك ببعيد، والحوادث التاريخية تؤيده

فانظر الى العثمانيين الذين نهضوا بعد تلك الصدمات القوية (حروب التتر والحروب الصليبية) وساقوا الجيوش الى ارجاء العالم، واتسعت لهم ميادين الفتوحات، ودوخوا البلاد وأرغموا أنوف الملوك، ودانت لسلطانهم الدول الأفرنجية، حتى كان السلطان العثماني يلقّب بين الدول بالسلطان الأكبر.

ثم ارجع البصر تجد هزّة في نفوسهم وحركة في طباعهم أحدثها فيهم ما توعدتهم به الحوادث الأخيرة من رداءة العاقبة وسوء المنقلب : حركة سرت في أفكار ذوي البصيرة منهم في أغلب الانحاء شرقاً وغرباً وتألفت من خيارهم عصبات للحق كتبت على نفسها نصرة العدل والشرع، والسعي بغاية الجهد لبثّ افكارها، وجمع الكلمة المفترقة، وضم الأشتات المتبددة وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية، لتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم وتنقل اليهم بعض ما يضمره الأجانب لهم، وإنّا نرىٰ عدد الجمعية الصالحة يزداد يوماً بعد يوم، نسأل الله تعالىٰ نجاح أعمالها، وتأييد مقصدها الحق، ورجاؤنا من كرمه ان يترتب علىٰ حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عموماً وللمسلمين خصوصاً.

الفضائل والرذائل وأثرها

وذكّر فإن الذكرىٰ تنفع المؤمنين*

قالوا : للانسان كمال مفروض عليه أن يسعىٰ اليه، وقالوا إنّه عرضة لنقص يجب عليه الترفع عنه، وقالوا كماله في استيفاء ما يمكن من الفضائل ؛ ونقصه في التلوّث برذيلة من الرذائل، فما هي الفضائل وما هي الرذائل، الفضائل سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها، كالسخاء والعفة والحياء ونحوها، فالسخيان لايتشاحان ولا يتنازعان في التعامل، فإن من سجية كل منهما البذل في الحق، والمنع اذا اقتضاه الحق، فكل يعرف حدّه فيقف عنده، فلا يوجد موضوع للنزاع عند معاطاة الاعمال المالية، والأعفاء لا يتزاحمون علىٰ مشتهى من المشتهيات، فان من خُلق كل منهم التجافي عن الشهوة، وفي طبيعته الايثار بالرغائب، وهكذا اذا استقريت جميع ما عدّه علماء التهذيب من الصفات الفاضلة تجد ان من لوازم كل فضيلة منها التأليف بين المتّصفين بها في متعلق الأثر الناشئ عن تلك الفضيلة فإذا اجتمعت الفضائل أو غلبت في شخصين مالت نفوسهما الى الاتحاد والالتئام في جميع الأعمال والمقاصد أو جلّها ودامت الوحدة بينهما بمقدار رسوخ الفضيلة وعلى هذا النحو يكون الأمر في الأشخاص الكثيرة، فالفضائل هي مناط الوحدة بين الهيئة الاجتماعية وعروة الاتحاد بين الآحاد، تميل

بكل منها الىٰ الآخر الى من يشاكله حتى يكون الجمهور من الناس كواحد منهم، يتحرّك بإرادة واحدة، ويطلب في حركته غاية واحدة، بمجموع الفضائل هو العدل في جميع الأعمال فاذا شمل طائفة من نوع الانسان وقف بكل من آحادها عند حدّه في عمله لا يتجاوزه بما يمسّ حقاً للآخر فيه يكون التكافؤ والتوازر، لكل شخص من أفراد الإنسان وجود خاص به وأودعت فيه العناية الالهية من القوى ما به يحفظ وجوده، وما به التناسل لبقاء النوع، وهو في هذا يساوي سائر أفراد الحيوان، لكن قضت حكمة الله أن يكون الإنسان ممتازاً عن بقية الأنواع الحيوانية بكون آخر، ووجود أرقىٰ وأعلىٰ، وهو كون الاجتماع، حتى يتألف من أفراده الكثيرة بنية واحدة يعمّها اسم واحد، والأفراد فيها كأعضاء تختلف في الوظائف والأشكال، وانما كلٌ يؤدي عمله لبقاء البنية الجامعة وتقويتها وتوفير حظّها من الوجود ليعود اليه نصيب من عملها الكلي كما أودع الله في أعضاء أبداننا وبنيتنا الشخصية، والفضائل في المجتمع الانساني كقوة الحياة المستكملة في كل عضو ما يقدره على أداء عمله مع الوقوف عند حدّ وظيفته كاليد بها البطش والتناول وليس من خصائصها الأبصار، والعين بها الابصار وتميّز الألوان والاشكال، وليس من وظائفها البطش والكل حي بحياة واحدة، وان شئت قلت الفضائل في عالم الانسان كالجذبة العامة في العالم الكبير، فكما ان الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات، وبالتوازن في الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه، وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب الآخر وانتظم بها سيره في مداره الخاص بتقدير العزيز العليم، حتى تمتّ حكمة الله في وجود الأكوان وبقائها : كذلك شأن الفضائل في الاجتماع الإنساني، بها يحفظ الله الوجود الشخصي الىٰ الأجل المحدود ويثبت البقاء النوعي الىٰ أن يأتي أمر الله.

أي أمة يكون الواضع فيها والرافع، والحارس والوازع، والجالب والدافع، وجميع من يدير أمورها، ويسوسها في شؤونها انما هم أفراد منها من هاماتها أو

من لهازمها «من الأعلياء والأوساط بل سائر الأطراف» ويكون كل واحد منها قائماً بحق الكل ولا يختار مقصداً يعكس مقصد الكل، ولا يسعىٰ الى غاية تميل به من غاية الكل، ولا يهمل عملاً يتعلّق بالأمة حتىٰ يكون الجميع كالبنيان المتين لا تزعزعه العواصف ولا تدكّه الزلازل، وبقوة كل منهم يجتمع للأمة قوة، تحفظ بها موقعها، وتدفع بها عن شرفها ومجدها، وتردّ غارة الأغيار عليها، فهي الأمة التي سادت فيها الفضائل، واستعلت فيها مكارم الأخلاق.

ان أمة هذا شأنها لا يتخالف أفرادها إلا للتآلف، ولا يتغايرون إلا للاتحاد، فمثلهم في اختلاف أعمالهم كمثل المتدابرين علىٰ محيط دائرة يتفارقان في مبدأ السير ليتلاقيا علىٰ نقطة من المحيط ومثالهم في تغاير مأخذهم لجلب منافعهم كجاذبي طرفي خيطة واحدة (حبل واحد) كلٌّ آخذ بطرف مع تعادل القوتين في جذب أحدهما لصاحبه أبعاد لنفسه عنه من وجه، وحفظ لمكان قربه منه من وجه آخر، فلا يفترقان ولا يتباينان، ولا تفنىٰ منفعة أحدهما في منفعة الآخر، اما ان مسالك الأفراد من مثل هذه الأمة بما منحوه من الارتباط بينهم كأنصاف دائرة مركزها حياة الأمة وعظمتها، ولا يخرج ولا واحد منهم عن محيط الجنسية، وانهم في جلب منافعها واستكمال فوائدها كالجداول تمدّ البحر لتستمد منه.

يرى كل واحد منهم ان ما تبتهج به النفوس البشرية. وتمتاز بالميل اليه عن سائر الحيوانات من رفعة المكانة والغلب وبسط الجاه ونفاذ الكلمة. انما يمكن اذا توفر للأمة حظّها من هذه المزايا فيسعىٰ جهده لإبلاغ كل واحد من الأمة أقصىٰ ما يؤهله استعداده ليأخذ بسهم مما يناله. فلا يهمل ولا يخون في الدفاع عن فرد من أفرادها. فضلاً عن هيئتها العامة. وإلا فقد خان نفسه. لأنّه أبطل آلة من آلات عمله. وقطع سبباً من أسباب غايته. ولا يحتقر واحداً من الآحاد. ولا يزدري بعمله. ويحسب الشخص من الأمة وان كان صغيراً بمنزلة مسمار صغير في آلة كبيرة لو سقط منها تعطلت الآلة بسقوطه.

عليك ان تنظر في حقائق الصفات الفاضلة لتحكم بما ينشأ عنها من الأثر الذي بيّناه : التعقّل والتروي وانطلاق الفكر من قيود الأوهام والعفّة والسخاء والقناعة والدماثة «لين الجانب» والوقار والتواضع وعظم الهمة والصبر والحلم والشجاعة والإيثار «تقديم الغير بالمنفعة على النفس» والنجدة والسماحة والصدق والوفاء والأمانة وسلامة الصدر من الحقد والحسد والعفو والرفق والمروءة والحمية وحب العدالة والشفقة.

ألا ترىٰ لو عمّت هذه الصفات الجليلة امّة من الأمم أو غلبت في أفرادها يكون بينها سوى الاتحاد والالتئام التام ؟ هل يوجد مثار للخلاف والتنافر بين عاقلين حرّين صادقين وفيين كريمين شجاعين رفيقين صابرين حليمين متواضعين وقورين عفيفين رحيمين. أما والله لو نفخت نسمة من أرواح هذه الفضائل على أرض قوم وكانت مواتا لأحيتها، أو قفر لأنبتتها أو جدباً لأمطرتها من غيث الرحمة ما يسبغ نعمة الله عليها، ولأقامت لها من الوحدة سياجاً لايخرق، وحرزاً منيعاً لايهتك، وان أولىٰ الأمم بأن تبلغ الكمال في هذه السجايا الشريفة أمة قال نبيّهم «إنما بعثت لأُتمم مكارم الأخلاق» الفضيلة حياة الأمم تصون أجسامها عن تداخل العناصر الغريبة، وتحفظها من الانحلال المؤدي الى الزوال (وما كان ربُّك ليهلك القرىٰ بظلم وأهلها مصلحون).

وأما الرذائل فهي كيفيات خبيثة تعرض للأنفس، من طبيعتها التحليل والتفريق بين النفوس المتكيفة بها كالقحة «قلة الحياء» والبذاء «التطاول على الأعراض بما لاتقتضيه الحشمة والأدب من الكلام» والسفه والبله والطيش والتهوّر والجبن والدناءة والجزع والحقد والحسد والكبرياء والعجب واللجاج والسخرية والغدر والخيانة والكذب والنفاق، فأي صفة من هذه الصفات تلوّث بها نفسان ألقت بينهما العداوة والبغضاء، وذهبت بهما مذاهب الخلاف الى حيث لا يبق أمل في الوفاق، فإن طبيعة كل واحدة منها اما مجاوزة الحدود في التعدي

على الحقوق واما السقوط الى ما لا يمكن معه للشخص أداء الواجب عليه لمن يشاركه في الجنسية أو الملة أو القبيلة أو العشيرة أو بأي نوع من أنواع التعامل، والإنسان مجبول بالطبع على النفرة ممن يتعدى على حقوقه أو يمنعه حقاً منها، وإن شئت فتخيّل وقحين بذيئين سفيهين جبانين بخيلين «كل يمنع الآخر حقّه» شرهين حاقدين حاسدين متكبرين «كل لا يستحسن إلا فعل نفسه» لجوجين خائنين غادرين كاذبين منافقين، هل يمكن أن يجمعهما مقصد أو توّحد بينهما غاية ؟ أليسَ كل وصف على حدّته قاضياً بانتباذ كل من صاحبه وان لم تكن داعية، وكفىٰ بخُلقه وصفته باعثاً قوياً للتنابذ.

هذه الرذائل اذا فشت في أمة نقضت بناءها ونثرت أعضاءها بددتها شذر مذر، واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه الأمة قوّة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر، وتصرفها في أعمال الحياة بالقسر، فإن حاجاتهم في المعيشة طالبة للاجتماع وهو لايمكن مع هذه الأوصاف، فلابد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع الى حدّ الضرورة.

هذه صفات إذا رسخت في نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتىٰ، تراهم أعزّة بعضهم على بعض، اذلة للأجنبي عنهم، يدعون أعداءهم للسيادة عليهم، ويفتخرون بالانتماء اليهم، يمهدون السبل للغالبين الى النكاية بهم ويمكنون مخالب المغتالين من أحشائهم، ويرون كل حسن من ابناء جنسهم قبيحاً، وكل جليل منهم حقيراً، إذا نطق أجنبي بما يدور علىٰ ألسنة صبيانهم عدّوه من جوامع الكلم ونفائس الحكم، وإذا غاص أحدهم بحر الوجود واستخرج لهم درر الحقائق وكشف لهم دقائق الأسرار عدّوه من سقط المتاع وقالوا بلسان حالهم أو مقالهم ليس في الإمكان ان يكون منّا عارف ومن المحال ان يوجد بيننا خبير. ويغلب عليهم حب الفخفخة والفخر الكاذب، ويتنافسون في سفاسف الأمور ودنياتها، يرتابون في نصح الناصحين، وان قامت على

صدقهم أقطع البراهين، يسخرون بالواعظين، وان كانوا في طلب خيرهم من أخلص المخلصين، يبذلون جهدهم لخيبة من يسعى لإعلاء شأنهم، وجمع كلمتهم، ويقعدون له بكل سبيل، يقيمون في طريقه العقبات، ويهيئون له أسباب العِثار، تراهم بتضارب أخلاقهم وتعاكس أطوارهم كالبدن المصاب بالفالج ولا تنتظم لأعضائه حركة، ولا يمكن تحريك عضو منه على وجه مخصوص لمقصد معلوم، فتنفلت أعمالهم عن حدّ الضبط، وتخرج عن قواعد الربط. فساد طباعهم بهذه الاخلاق يجعلهم منبعاً ومبعثاً للضر، يصير الواحد منهم كالكلب الكلب، أول ما يبدأ بعضّ صاحبه قبل الأجنبي، بل كالمبتلي بجنون مطبق، أول مايفتك بمربيه ومهذبه ثم يثني بطبيبه ومن يعالج دائه، تكون الآحاد منهم كالأمراض الأكالة من نحو الجذام والآكلة، يمزّقون الأمة قطعاً وجذاذات بعدما يشوّهون وجهها ويوشوشون هيئتها، أولئك قوم يسامون في مراعي الدنايا والخسائس لتغلب النذالة على سائر أوصافهم، فينتفخون على ابناء جلدتهم، ويذلون لقزم الأجانب فضلاً عن عليتهم، وبهذا يمكنون الذلة في نفوسهم، من دونهم، ويطبعونها على الخضوع للغرباء، بل الأعداء الألداء من طبقة الىٰ طبقة حتى تضمحل الأمة وتنسخ هيئتها وتفنىٰ في أمة أو ملّة أخرىٰ، سنّة الله في تبدّل الدول وفناء الأُمم (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد) أعاذنا الله من هذه العاقبة، وحرس أمتنا وملتنا من المصير الى هذه النهاية.

بقيت لنا لمحة نظر الى مابه تقتنىٰ الفضائل. وتمحّص النفوس من الرذائل، حتى تسعد الجمعيات البشرية بالاتحاد، وتصون به أكوانها من الفساد «كل مولود يولد علىٰ الفطرة» مادة مستعدة لقبول كل شكل والتلون بأي لون، فهل ينال كمال الفضيلة من آبائه وأسلافه، انىٰ يكون لهم حظّ منها، وقد كانوا ناشئين على مثل ما نشأ وليدهم يرشدنا رائد الحق الى أن الاعتدال في أصول الاخلاق والتحلي بحلية الفضائل وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها انما

يكون بالدين ولن يتم أثر الدين في نفوس الآخذين به فيصيبوا حظاً وافراً مما يرشد اليه فيتمتعوا بحياة طيبة وعيشة مرضية إلا اذا قام رؤساء الدين وحَمَلَتُهُ وحفظته بأداء وظائفهم من تبيين أوامره ونواهيه وتثبيتها في العقول ودعوة الناس الى العمل بها، وتنبيه الغافلين عن رعايتها وتذكير الساهين عن هديها اما اذا أهمل خَدَمَة الدين وظائفهم أو تهاونوا في تأدية أعمالها ضعف اليقين في النفوس، وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية، واظلمت البصائر بالغفلة وتحكمت الشهوات البهيمية، وتسلّطت الحاجات المعاشية، ومال ميزان الاختيار مع الهوى، فحشدت الى الأنفس أوفاد الرذائل، فيحق على الناس كلمة العذاب، ويحل بهم من الشقاء ما أشرنا اليه سابقاً.

هذه علل الخراب في كل أمة لقد ظهر أثرها في أمم لا تحصى عدداً من بداية كون الانسان الى الآن، ولم يزل بقايا بعضها يشهد على ما فتكت به الرذائل فيهم، بعدما بدلوا وغيّروا كما في طائفة الدهيرو (منك) من سَكَنة الأقطار الهندية المعروفين عند الأوروبيين بطائفة «باريا» (قُل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم). فالدين وهو السائق الى السعادة في الدنيا كما يسوق اليها في الآخرة.

تقلب قلب الدهر على بعض طوائف من المسلمين في أقطار مختلفة من الأرض وسلبهم تيجان عزّهم وألقاها على هامات قوم آخرين، واليوم ينازع طوائف أُخرىٰ ولا نخاله يتغلّب عليهم فكشف هذا عن نوع من الضعف، ولا يكون ناشئاً إلا عن شيء من الاهمال في اتّباع أوامر الشرع الاسلامي ونواهيه بحكم قول الله في كتابه (إن الله لايغيّر مابقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم) وقد يكون ذلك، وربما لاينكر الآن ان كثيراً من عامة المُسلمين وان صحّت عقائدهم من حيث ما تعلّق به الاعتقاد إلا إنهم لا ينهجون في بعض أعمالهم منهاج الشريعة الغرّاء، وهذا مما يحدث ضعفاً في قوّة الامة بقدر الميل عن جادة الاعتدال في

الفضائل والأعمال (وما أصابتكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم).

إلا ان المسلمين لم يزالوا علىٰ أصول الفضائل الموروثة عن أسلافهم ولهم حسن الاذعان بما جاء به شرعهم وكتاب الله متلو علىٰ ألسنتهم، وسنّة نبيّهم يتناقلونها رواية ودراية، وسير الخلفاء الراشدين والسلف الصالح مرسومة على صفحات نفوس الخاصة منهم، فليس ما طرأ على بعضهم من الغفلة عن متابعة الشرع وما تسبب عنه من الضعف في القوة إلا عرضاً لا يبقى وحالاً لا يدوم.

انظر نظرة انصاف الى ما أودعتهُ آيات القرآن من غرر الفضائل وكرائم الشيم، والى حرص المسلمين على احترام كتابهم وتبجيله، تجد من نفسك حَكَماً باتاً بأن علماء الديانة الاسلامية لو نشطوا لاداء وظائفهم المفروضة عليهم بحكم وراثتهم لصاحب الشرع، والمحتومة على ذمتهم بأمر الله الموجّه الىٰ الذين يعقلونه وهم هم في قوله الحق (ولتكن منكم أمّة يدعون الىٰ الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وبالحض الإلهي المفهوم من قوله (فلولا نفر من كل فرقة منهم «المؤمنين» طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلّهم يحذرون) ولو قاموا يعظون العامة بما ينطق به القرآن ويذكرونهم بما كان عليه صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الناهجون على سنته من الأخلاق المحمودة والأعمال المبرورة، لرأيت ان الامة الاسلامية ناشطة من عقالها، متظافرة على إعادة مجدها وصيانة ولايتها العامة من الضعف، وبيضة دينها من الصدع، كل ذلك في أقرب وقت، ولن تكون إلا صيحة واحدة فإذا هم قيام ينظرون.

ولا ريب ان الراسخين في العلم من أهل الدينِ الاسلامي يعلمون ان ما أُصيب به المسلمون في هذه الأزمان الأخيرة، إنما هو مما امتحنهم الله به جزاء على بعض ما فرّطوا، وليس للناس علىٰ الله حجة فالرجاء في هممهم وغيرتهم الدينية وحميتهم الملية أن يوجهوا العناية الى رتق الفتق قبل اتساعه، ومداواة

العلة قبل استحكامها، فيُذكّروا أبناء الملّة بأحكام الله، ويُحكموا بينهم روابط الأخوة والأُلفة كما أمر الله في كتابه وعلى لسان نبيه، ويبذلوا الجهد لمحو اليأس والقنوط الذي ملك أفئدة البعض منهم، ويقنعوهم أنه لا ييأس من لطف الله إلا الذين في قلوبهم مرض وفي عقائدهم زيغ، ويسيروا بهم في سبيل يجمع كلمتهم، ويوحّد وجهتهم، ويقوّي فيهم إباءة الضيم، والنفرة من الذل، ويحرّك فيهم روح الأنفة، حتى لا تسمح نفس أحدهم أن يأتي الدنية في دينه، ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعده الحق في قوله (وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين).

الوحدة الاسلامية

(وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)

أظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الأقصىٰ الىٰ تونكاني على حدود الصين في عرض ما بين فازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء أقطار متصلة، وديار متجاورة، يسكنها المسلمون، وكان لهم فيها السلطان الذي لا يغالب. أخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام، فأداروا بشوكتهم كرة الأرض إلا قليلاً. ما كان يهزم لهم جيش، ولا ينكس لهم علم، ولا يُرد قول علىٰ قائلهم. قلاعهم وصياصيهم متلاقية، ومنابتهم ومغارسهم في سهوبهم «أراضيهم السهلة الواسعة» وأخيافهم «الأراضي المنحدرة عن الجبل» رابية مزدهية بأنواع النبات، حالية بأصناف الأشجار، صنع أيدي المسلمين، ومدنهم كانت آهلة مؤسسة على أمتن قواعد العمران تباهي مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم، وتفاخرها بشموس الفضل، وبدور العلم، ونجوم الهداية، من رجال لهم المكان الأعلىٰ في العلوم والآداب.

كان في نقطة الشرق من حكمائهم ابن سينا والفارابي والرازي ومن يشاكلهم، وفي الغرب ابن باجة وابن رشد وابن الطفيل ومماثلوهم، ومابين ذلك أمصار تتزاحم فيها أقدام العلماء في الحكمة والطب والهيئة والهندسة وسائر العلوم

العقلية، هذا فضلاً عن العلوم الشرعية التي كانت عامة في جميع طبقات الملة. كان خليفتهم العباسي ينطق بالكلمة فيخضع لها فغفور الصين [١] وترتعد منها فرائص أعظم الملوك في أوربا. ومن ملوكهم في قرونهم المتوسطة مثل محمود الغزنوي وملكشاه السلجوقي، وصلاح الدين الأيوبي، وكان منهم في المشرق مثل تيمور الكوركان، وفي الغرب السلطان محمد الفاتح، والسلطان سليم والسلطان سليمان العثماني، أولئك رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم ولم يمح أثرهم.

كانت لأساطيل المسلمين سلطة لا تبارىٰ في البحر الأبيض والاحمر والمحيط الهندي ولها الكلمة العليا في تلك البحار الى زمان غير بعيد، كان مخالفوهم يدينون للملكوت فضلهم كما يذلون لسلطان غلبهم، والمسلمون اليوم هم هم يملأون تلك الأقطار التي ورثوها عن آبائهم وعديدهم لا ينقص عن أربعمائة مليون، وأفرادهم في كل قطر بما اشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداماً على الموت ممن يجاورهم، وهم بذلك أشدّ الناس ازدراء بالحياة الدنيا وأقلهم مبالاة بزخرفها الباطل، جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم، ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالأوهام، ويدعو الى الفضائل وعقائل الصفات، فأودع في أفكارهم جراثيم الحق وبذر في نفوسهم بذور الفضل، فهم بأصول دينهم أنور عقلاً وأنبه ذهناً وأشد استعداداً لنيل الكمالات الانسانية، وأقرب الى الاستقامة في الاخلاق، وربما يرون لأنفسهم من الاختصاص بالشرف، وما وعدوا به على لسان كتابهم الصادق من اظهار شأنهم علىٰ شؤون العالم أجمع ولو كره المبطلون، لا يرغبون بسلطة لغيرهم عليهم، ولا يحوم بفكر واحد منهم أن يخضع لذي سطوة من سواهم، وان بلغت من الشدة أو اللين ما بلغت. لما بينهم من الإخاء المؤزر بمناطق العقائد، يحسب كل واحد منهم ان سقوط طائفة من بني ملّته تحت سلطة الأجانب

---

١ ـ فغفور : لقب ملوك الصين.

سقوط لنفسه. ذلك إحساس يشعر به وجدانه ولا يجد عنه مسلياً، وبما ساخ (غاص ورسب) في نفوسهم من جذور المعارف التي أرشدهم اليها دينهم، ونالوا منها النصيب الأعلىٰ في عنفوان دولتهم، يعدون أنفسهم أولىٰ الناس بالعلم وأجدرهم بالفضل.

ذلك شأنهم الأول وهذا وصفهم للآن، ولكنهم مع هذه كلّه وقفوا في سيرهم بل تأخروا عن غيرهم في المعارف والصنائع بعد أن كانوا فيها أساتذة العالم، وأخذت ممالكهم تنقص أطرافها وتتمزق حواشيها مع ان دينهم يرسم عليهم أن لايدينوا لسلطة من يخالفهم بل الركن الأعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته. هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الأرض وهم العباد الصالحون. هل غفلوا عن تكفّل الله لهم بإظهار شأنهم على سائر الشؤون ولو كره المجرمون ؟ هل سهوا عن ان الله اشترىٰ منهم لإعلاء كلمته أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنّة ؟ لا. لا. إن العقائد الاسلامية مالكة لقلوب المسلمين حاكمة في ارادتهم وسواء في العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصّتهم.

نعم يوجد للتقصير في انماء العلوم، وللضعف في القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم، لأنا بيّنا ان لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم، فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة ؛ والسلاطين في جنس واحد، مع تباين الأغراض وتعارض الغايات، فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم على خصمه، وألهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض، فأدت هذه المغالبات وهي أشبه شيء بالمنازعات الداخلية الى الذهول عمّا نالوا من العلوم والصنائع، فضلاً عن التقصير في طلب مالم ينالوا منها، والاغسار دون الترقي في عواليها، ونشأ من هذا ما نراه من الفاقة والاحتياج، وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام، وجلب تنازع الأمراء على المسلمين تفرّق الكلمة وانشقاق

العصا، فلهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم.

هذا كان من أمراء المسلمين مع ما فيه من الضرر الفادح عندما كانوا منفردين في ميادين الوغى، لا يجاريهم فيها سواهم من الملل، ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمان، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فانقلبوا مع الهوى، وضلّت عنهم غايات المجد المؤثل، وقنعوا بألقاب الامارة وأسماء السلطنة وما يتبع هذه الاسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان، واختاروا موالاة الأجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس، ولجأوا للاستنصار به وطلب المعونة منه على ابناء ملّتهم، استبقاء لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل.

هذا الذي أباد مسلمي الأندلس، وهدّم أركان السلطنة التيمورية في الهند ومحا أطلالها وعلى رسومها شيّد الانجليز ملكهم بتلك الديار. هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالممالك الاسلامية ودهورتها أمانيهم الكاذبة في مهاوي الضعف والوهن، قبح ماصنعوا وبئس ما كانوا يعملون، أولئك اللاهون بلذاتهم، العاكفون على شهواتهم، هم الذين بددوا شمل الملة، وأضاعوا شأنها، وأوقفوا سير العلوم فيها، وأوجبوا الفترة في الاعمال النافعة، من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدي بنيها.

الا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهالك على الخسائس، ما أشدّ ضررهما وما أسوأ أثرهما، نبذوا كلام الله خلف ظهورهم وجحدوا فرضاً من أعظم فروضه، فاختلفوا والعدو على أبوابهم، وكان من الواجب عليهم ان يتّحدوا في الكلمة الجامعة، حتى يدفعوا غارة الأباعد عنهم، ثم لهم أن يعودوا لشؤونهم، ماذا أفادتهم المغالاة في الطمع والمنافسة في السفاسف ؟ أفادتهم حسرة دائمة في الحياة، وشقاءً أبدياً بعد الممات، وسوء ذكر لا تمحوه الأيام.

أما وعزة الحق وسر العدل، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من

العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم، لتعارفت أرواحهم وائتلفت آحادهم، ولكن وا أسفا تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير أو ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهي. هؤلاء الذين حوّلوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم، حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب.

الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الاسلامية، من أشد أركان الديانة المحمدية، والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين، لا يحتاجون فيه الى استاذ يعلم، ولا كتاب يثبت، ولا رسائل تنشر. ان رعاة المسلمين فضلاً عمّن علاهم تتصاعد زفراتهم، وتفيض أعينهم من الدمع حزناً وبكاءً على ما أصاب ملتهم من تفرّق الآراء، وتضارب الأهواء، ولولا وجود الغواة من الأمراء، ذوي المطامع في السلطة بينهم، لاجتمع شرقيهم بغربيهم، وشماليهم بجنوبيهم، ولبى جميعهم نداءً واحداً ان المسلمين لا يحتاجون في صيانة حقوقهم، إلا الى تنبّه أفكارهم لمعرفة ما به يكون الدفاع واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه وارتباط قلوبهم الناشئ عن احساس بما يطرأ على الملّة من الأخطار.

ألم تر أمة الروس هل تجد فيها ما يزيد على هذه الأصول الثلاثة، هي امة متأخرة في الفنون والصنائع عن سائر أمم أوربا وليس في ممالكها ينابيع للثروة، ولئن كانت فليس هناك ما يستفيضها من الأعمال الصناعية، فهي مصابة بالحاجة والاعواز غير أن تنبه أفكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمتهم واتّفاقهم في النهوض به وارتباط قلوبهم صير لها دولة تميد لسطوتها رواسي أوربا. لم يكن للروسية مصانع لمعظم الآلات الحربية، ولكن لم يمنعها ذلك عن اقتنائها، ولم يرتق فيها الفن العسكري الى حد ما عليه جيرانها، إلا ان هذا لم يقعدها عن جلب ضباط من الامم الاخرى لتعليم عساكرها، حتى صار لجيشها صولة تخيف، وحملة تخشاها دول أوروبا.

فما الذي أقعدنا عن مشاكلة غيرنا، فيما هو أيسر الأشياء علينا، ونحن أشدّ الناس ميلاً اليه : من رعاية شرف الملّة والتألم بما يحطّ منه والتعاون على صون الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يثلمها. مارد الأفكار عن الحركة، وما أقعد الهمم عن النهوض، إلا أولئك المترفون، يحرصون على طيب في المطعم، ولين في المضجع، وتطاول في البنيان، وتفاخر بالخدم والخول ولا يراعون في حرصهم ما بعد يومهم، ويحافظون على لقب موضوع ورسم متبوع، يقنعون منه بالاحتفال لهم في المواسم والاعياد وهزّ الرؤوس وثني الأعطاف، تعظيماً وتبجيلاً، ثم تذييل الأوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات، هؤلاء الساقطون يرضون لتخيل هذه المواثل (جمع ماثل من الرسوم ماذهب أثره) بكل دنيئة، هؤلاء يقبلون من تصرف أعدائهم في بيوتهم ما لايقبله واحد من آحاد الناس دون موته، أولئك صاروا في أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا، يحبسون هذه الأسود عن فريستها بل يجعلونها طعمة للثعالب، لا حول ولا قوّة إلا بالله.

أيا بقية الرجال، ويا خلف الأبطال، ويا نسل الأقيال، هل ولى بكم الزمان، هل مضىٰ وقت التدارك، هل آن أوان اليأس، لا، لا، معاذ الله ان ينقطع أمل الزمان منكم، ان من أدرنه الىٰ بيشاور دولاً اسلامية متصلة الأراضي، متّحدة العقيدة يجمعهم القرآن، لا ينقص عددهم عن خمسين مليوناً، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة، أليس لهم ان يتفقوا علىٰ الذبّ والإقدام كما اتّفق عليه سائر الأمم، ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم، فالاتفاق من اصول دينهم، هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم البعض، أليس لكل واحد ان ينظر الى أخيه بما حكم الله في قوله (إنما المؤمنون اخوة) فيقيمون بالوحدة سدّاً يحول عنهم هذه السيول المتدفعة عليهم من جميع الجوانب.

لا ألتمس بقولي هذا ان مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً، فإن هذا ربما

كان عسيراً، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه يسعىٰ بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فإن حياته بحياته وبقائه ببقائه، إلا ان هذا بعد كونه أساساً لدينهم تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات، هذا آن الاتفاق، هذا آن الاتفاق، ألا ان الزمان يواسيكم بالفرص وهي لكم غنائم فلا تفرّطوا، ان البكاء لايحيي الميت، ان الأسف لايرد الفائت، ان الحزن لايدفع المصيبة، ان العمل مفتاح النجاح، ان الصدق والاخلاص سلّم الفلاح، ان الوجل يقرب الأجل، ان اليأس وضعف الهمّة من أسباب الحتف (وقُل أعملوا فسيرىٰ الله عملكم ورسوله والمؤمنون ثم تردون الىٰ عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) ألا لاتكونوا ممن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين، أحذروا ان تقعوا تحت قوله الله : (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله علىٰ قلوبهم فهم لايفقهون) ان القرآن حي لايموت، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود، ومن أصيب من مقته فهو ممقوت، كتاب الله لم ينسخ فارجعوا اليه، وحكّموه في أحوالكم وطباعكم (وما الله بغافل عمّا تعملون).

ولعلّ أمراء المسلمين قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين وهمّوا بملافاة أمرهم، قبل ان يقضى عليهم، بما رزئ به المفرطون من قبلهم، ورجاؤنا ان أول صيحة تبعث الى الوحدة وتوقظ من الرقدة، تصدر عن أعلاهم مرتبة، وأقواهم شوكة، ولا نرتاب في أن العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولىٰ في هذا العمل الشريف، والله يهدي من يشاء ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الوحدة والسيادة

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً»

أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة، ويهدي اليهما الدين تارة أخرى، وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب، وكل منهما يطلب الآخر ويستصحبه بل يستلزمه، وبهما نمو الأمم وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها، وهما الميل الى وحدة تجتمع، والمكلف بسيادة لا توضع. واذا أراد الله بشعب أن يوجد ويلق بوانيه (يثبت ويقيم) الىٰ أجل مسمىٰ أودع في ضناضنه (أصوله) هذين الوصفين الجليلين، فأنشأه خلقاً سوياً، ثم استبقىٰ له حياته بقدر ما مكن فيه من الصفتين الى منتهىٰ أجله.

كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها، ويشتد به بناؤها، فلابد يوماً أن تقضم وتهضم وتضمحل ويمحىٰ أثرها من بسيط الأرض. إن التغلب في الأمم كالتغذي في الحياة الشخصية، فإذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حركة النمو، ثم ارتدت الى الذبول والنحول، ثم أفضت الىٰ الموت والهلاك، وليس من الممكن لأمة ان تحفظ قوامها ؛ وتصول على من يليها لتختزل منه ما يكون مادة لنمائها، إلا أن تكون متفقة في تحصيل ما تحتاج اليه هيئتها. إذا أحسست من أمة ميلاً الىٰ الوحدة فبشرها بما أعد الله لها في مكنون

غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم، إذا تصفحنا تاريخ كل جنس واستقرينا أحوال الشعوب في وجودها وفناها، وجدنا سنّة الله في الجمعيات البشرية، حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة، ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها في الغلب، وما انحرف شأن قوم وما هبطوا عن مكانتهم، إلا عند لهوهم بما في أيديهم، وقناعتهم بما تسنى لهم، ووقوفهم على أبواب ديارهم، ينظرون طارقهم بالسوء، وما أهلك الله قبيلا إلا بعدما رزئوا بالافتراق، وابتلوا بالشقاق، فأورثهم ذلاً طويلاً وعذاباً وبيلاً، ثم فناءً سرمدياً.

الوفاق تواصل وتقارب يحدثه احساس كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها، وشعور جميع الآحاد في جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان، فيلذ لهم كما يلذ أشهىٰ مرغوب لديهم، وبما تفقده من ذلك، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به، وهذا الإحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر في أحوال امته، فيجعل جزءاً من زمنه للبحث فيما يرجع اليها بالشرف والسؤدد، وما يدفع عنها طوارق الشرّ والغيلة، ولا يكون همّه بالفكر في هذا أقل من همّه بالنظر في أحواله الخاصة ثم لا يكون نظراً عقيماً حائزاً بين جدران المخيلة، دائراً علىٰ أطراف الألسنة، بل يكون استبصاراً تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر علىٰ استكماله بما يمكن من السعة، وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون في استحصال مواد المعيشة بلا فرق، بل تجد الأنفس أن شأن الأمة في المكان الأول من النظر، والدرجة الأولىٰ من الاعتبار، والشؤون الخاصة في المنزلة الثانية منها. ولا تقف فيما تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة، بل يأخذ العقلاء منها سبلاً من التفكير، ويخترطون سيوفاً من الهمّة، ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة، ونواد من المكنة، ويتسخرجوا دفائن من الثروة ويجمعوا ذلك للأمة، لصيانة حياتها الى حدّ العمر اللائق بها، كما يسعىٰ الحازم جهده لتوفير ما يلزم لمعيشته، وما يطمئن به قلبه في دفع حاجته مدة العمر الغالب، بل يزيد عليه

ما فيه الكفاية لابنائه من بعده وان الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون ثم تتلوه سائر الأدوار وأولها أقصرها وهو سن الطفولية، وبدء الكمال فيما يليه، فما أرفع همم العقلاء في الأمم المستبصرة.

إذا بلغ الإحساس من مشاعر أفراد الأمة الىٰ الحد الذي بيّناه، رأيت في الدهماء منهم والخاصة هماً تعلو، وشيماً تسمو، وإقداماً يقود، وعزماً يسوق، كل يطلب السيادة والغلب، فتتلاقى هممهم، وتتلاحق عزائمهم، في سبيل الطلب فيندفعون للتغلب على الذين يلونهم، كما تندفع السيول على الوهاد، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضو اليه، ويكون نزوهم على الأمم بعد الغلب الأول تدفقاً من الطبع لا يحتاج الىٰ فكر وروية إلا في إعداد وسائل الفوز والظفر.

هذان الأمران الوفاق والغلب عمادان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الاسلامية، وفرضان محتومان على من يستمسك بها ومن خالف أمر الله فيما فرض منهما عواقب من مقته بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، جاء في قول صاحب الشرع «ان المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً» وان المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه إذا مسّ أحدهما ألم تأثر له الآخر، وجاء في نهيه «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا» وأنذر من شذ عن الجماعة بالخسران والهلكة وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب.

هذا كله بعدما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله، ونهاهم عن التفرق والتغابن، وامتن عليهم بنعمة الاخوة بعد ان كانوا أعداء ونطق الكتاب الالهي (إنما المؤمنون إخوة) وطلب من المخاطبين بآياته ان يبادروا باصلاح ذات البين عند التخالف، ثم شدد على وجوب الاصلاح وإن أدىٰ إلى مقاتلة الباغي، فقال : (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احداهما علىٰ الأخرىٰ فقاتلوا التي تبغي حتىٰ تفيء الىٰ أمر الله) وانما أمر الله الدخول فيما اتفق

عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة (ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعدما جاءتهم البينات) وتوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم فحكم بأن من يتّبع غير سبيل المؤمنين يوله الله ما تولىٰ، ويصله جهنم وساءت مصيراً، وفي أمره الصريح ايجاب التعاون على البر والتقوى، ولا بر أحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق وإعلاء منار الأمة وأخبر الصادق صلى اللّٰه عليه وسلم (أن يد الله مع الجماعة) وكفى بالقدرة الالهية عوناً اذا صح الاجتماع وصدقت الألفة، وقد بلغت مكانة الاتفاق في الشريعة الاسلامية أسمىٰ درجة في الرعاية الدينية، حتى جعل إجماع الأمة واتفاقها علىٰ أمر من الأمور كاشفاً عن حكم الله وما في علمه وأوجب الشرع الأخذ به على عموم المسلمين، وعدّ جحوده مروقاً من الدين، وانسلاخاً عن الايمان، ومن عناية الشارع بأمر الاتفاق قوله صلى اللّٰه عليه وسلم «لو دعيت الىٰ حلف الفضول لفعلت» (حلف الفضول ما كان من هاشم وزهرة وتيم حيث وفدوا على عبد الله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفعوا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم، وسميّ حلف الفضول لأنهم تحالفوا علىٰ أن لا يدعوا عند أحد فضلاً يزيد عن حقه ويكون نواله بالظلم إلا أخذوه منه وردوه لمستحقه) فهو من حلف الجاهلية، وقد صرّح الشارع بقبوله لو دُعي اليه، هذا اجمال الأدلة على وجوب الاتفاق وحظر المنابذة والمغابنة بين المسلمين، بل وبينهم وبين غيرهم ممن رضي بذمتهم وقبل جوارهم بالمعروف في شرعهم فإن سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه.

واما السعي لإعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة فلا تجد آية من آيات القرآن الشريف إلا وهي داعية اليه، جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه، حاظرة عليهم أن يتوانوا في اداء المفروض منه، ومن الأوامر الشرعية أن لا يدع المسلمون تنمية ملتهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كلّه لله، وفي السُنّة

المحمدية والسيرة النبوية، مما يضافر آيات القرآن ما جمعه العلماء في مجلدات يطول عدّها، هذا حكم ديننا لا يرتاب فيه أحد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته.

هل يمكن لنا ونحن على ما نرى من الاختلاف والركون الى الضيم ان ندعي القيام بفروض ديننا، كيف ومعظم الأحكام الدينية موقوف إجراؤه على قوة الولاية الشرعية، فإن لم يكن الوفاق والميل الىٰ الغلب فرضين لذاتهما أفلا يكونان مما لا يتم الواجب إلا به، فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدمنا، هل لنا عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لاينفع خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين، وأيسر شفاعة الينا اقامتها وعديدنا ربعمائة مليون أو يزيد، هل يتيسر لنا إذا خلونا بأنفسنا وجادلتنا ضمائرنا أن نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن ؟

كل هذه الرزايا التي حطّت بأقطارنا، ووضعت من أقدارنا، ماكان قاذفنا ببلائها، ورامينا بسهامها، إلا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذي نهانا الله ونبيه عنه، لو أدينا حقوقاً تطالبنا بها تلك الكلمة التي تهل بها ألسنتنا، وتطمئن قلوبنا بذكرها، وهي كلمة الله العليا هل كان يمكن للاغراب ان يمزقوا ممالكنا كل ممزق، وهل كان يلمع سيف العدوان في وجوهنا، وهل كنّا نشيم نيران الاعداء إلا وأقدامنا في صياصيهم، وأيدينا على نواصيهم. ان لأبناء الملة الاسلامية يقيناً بما جاء به شرعهم، لكن أليسَ علىٰ صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله عليه في ذلك الدين ؟ (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ولا ريبة في ان المؤمن يسرّه أن يعلمه الله صادقاً لا كاذباً، وأي صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب إلا الصدق في العمل، هل يود المسلم لو يعمّر ألف سنة في الذل والهوان وهو يعلم ان الإزدراء بالحياة هو دليل الايمان، أنرضىٰ ونحن

المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة، وان يستبدّ في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يرقب فينا إلاًّ ولا ذمّة، بل أكبر همّه ان يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلي منا أوطاننا، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته، والجالية من أمته.

لا. لا. ان المخلصين في ايمانهم الواثقين بوعد الله في نصر من ينصر الله الثابت في قوله : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم) لايتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم، والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية فأين المفر. المبصر بنور الله يعلم انه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه إلا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين. هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكّسة، وأملاكنا ممزّقة، والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقي في أيدينا ثم لا نُبدي حركة، ولا نجتمع على كلمة، وندّعي مع هذا إننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمّد.. واخجلتاه لو خطر هذا ببالنا ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجري على لسانه شاهد الاسلام.

ان الميل للوحدة والتطلّع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الاسلام كل هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين قاطبة ولكن دهاهم بعض ما أشرنا اليه في أعداد ماضية فألهاهم عمّا يوحي به الدين في قلوبهم وأذهلهم أزماناً عن سماع صوت الحق يناديهم من بين جوانحهم، فسهموا وماغووا، وزلوا وما ضلوا، ولكنهم دهشوا وتاهوا، فمثلهم مثل جواب الجاهيل من الأرض في الليالي المظلمة، كل يطلب عوناً وهو معه ولكن لايهتدي اليه، وأرىٰ ان العلماء العاملين لو وجّهوا فكرتهم لإيصال أصوات بعض المسلمين الى مسامع بعض، لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت وليس بعسير عليهم ذلك بعدما اختص الله من بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع، وفي تلك البقعة يحشر الله من جميع رجال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم فما هي إلا كلمة تُقال بينهم من ذي مكانة في نفوسهم تهتز لها أرجاء

الأرض، وتضطرب لها سواكن القلوب. هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية فإن أضفت اليه ما أذاب قلوبهم من تعديات الأجانب عليهم، وما ضاقت به صدورهم من غارات الأغراب على بلادهم، حتى بلغت أرواحهم التراقي، ذهبت الىٰ أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حدّاً يوشك أن يكون فعلاً، وهو مما يؤيد الساعين في هذا المقصد، ويهيئ لهم فوزاً ونجاحاً بعون الله الذي ما خاب قاصده، وهو ربي إليه أدعو وإليه أُنيب.

الأمل وطلب المجد

(إنّه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)

(ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون)

تلك آيات الكتاب الحكيم، تنبئ عن سرّ عظيم، اختصّ الله بـه الانسـان، ورفعه به على سائر الأكوان، ليبلغ به المقام المحمود، ويحوز مـا أعـدته له العـناية الإلهية من الكمال اللائق به. راجع نفسك، واصغ لمناجاة سرك، تجد في وجـدانك ميلاً قوياً، وحرصاً شديداً، يدفعك الى طلب المجد، وعلو المنزلة، في قـلوب أبـناء جنسك ثم ارفع بصرك الى سواد أمة بتمامها» تجد مثل ذلك في كـليتها كـما هـو في آحادها تبتغي رفعة المكانة في نفوس الأمم سواهـا، ذلك أمـرٌ فـطري جُـبل الله عليه طبيعة هذا النوع منفرداً ومجتمعاً، ليس من السهل عـلى طـالب المجـد وعـلو المكانة أن يصل الى ما يطلب ولكـنه يـلاقي في الوصـول اليـه وعـراً في السـبل، وعقبات تصد عن المسير، ومع هذا فلا يضعف حرصه، ولا يـنقص مـيله، يـقطع شعاباً، ويعاني صعاباً، حتىٰ يرقى ذروة المجد، ويـتنسم شـاهق العـزة، ولو قـام في وجهه مانع عن الاسترسال في مسيره والتجأ للسكون رأيـته يـتململ ويـتضجر كأنما يتقلب على الرمضاء، ولو سبر الحكيم الخبير أعمال البشر، ونسب كل عـمل الى غاية العامل منه، رأىٰ أن معظمها في طلب الكرامـة وعـلو المـقام، كـل عـلى

حسبه وما يتعلق منها بتقويم المعيشة ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة لما يتعلق بشؤون الشرف، هذه خلة ثابتة في الكافة من كل شعب على اختلاف الطبقات من أرباب المهن الىٰ أصحاب الأمر والنهي، كل ينافس أهل طبقته في أسباب الكرامة بينهم ويأنف من ضعته فيهم ويحرص على ما يحله من قلوبهم محل الاعتبار، حتى اذا بلغ الغاية مما به الرفعة عندهم، تخطى حدود تلك الطبقة ودخل في طبقة اخرىٰ، ونافس أهلها في الجاه، ولا يزال يتبع سيره مادام حياً يخطر في بسيط الأرض، ذلك لأن الكمال الإنساني ليس له حدّ، ولا تحدّه نهاية، وليس في استطاعة أحد من الناس ان يقنع نفسه ويعتقد أنه بلغ من الكمال حداً ليست بعده غاية.

سبحان الله ماذا أخذت محبة الشرف من قلب الانسان وماذا ملكت من أهوائه ؟ بعده ثمرة حياته وغاية وجوده، حتى انه يحتقر الحياة عند فقده والعجز عن دركه، أو عند مسه والخوف من سلبه، أرأيت أن فقيراً ذا أسمال لايؤبه له اذا اعتدىٰ عليه من تطول يده اليه بفعلة تهينه، أو قذفة تشينه، يغلبه الغضب للدفاع عن المنزلة التي هو فيها فيرتكب مخاطرة ربما تفضي به الى الموت وان القذف أو الإهانة ما نقصت شيئاً من طعامه ولا شرابه، ولا خشنت مضجعه في مبيته، آلاف مؤلفة من الناس في الأجيال المختلفة والأجناس المتنوعة ألقوا بأنفسهم الىٰ المهالك، وماتوا دفاعاً عن الشرف أو طلباً للكرامة والمجد، جل شأن الله لا يهنأ للانسان طعام ولا شراب، ولا يلين له مضجع إلا ان يلحظ فيه ان مانال منه أعلىٰ مما نال سواه، مع وقوف بعض من الناس على ذلك ليعترفوا له بالأعلوية فيه، كأن لذة التغذية والتوليد إنما وضعت لتكون وسيلة للذة المباهاة والمفاخرة، فما ظنك بسائر اللذائذ. كم يعاني الانسان من التعب البدني، وكم يقاسي من مشاق الأسفار، وكم يخاطر بروحه في اقتحام الحروب والمكافحات، وكم يتحمل في الانقطاع عن اللذات، مع التمكن منها، كل ذلك لينال شهرة أو ليكسب فخاراً

أو ليحفظ ما أتاه الله منه، ما أجلّ عناية الله بالإنسان لايعيش إلا ليشرف فيشرف به العالم، وكل لذة دون الشرف فهي وسيلة اليه، بل الحياة الدنيا هي السبيل الوعر يسلكها الحي الى ما يستطيع من المجد، وفي نهاية الأجل يفارقها قرير العين بما قارب منه آسف الفؤاد على ما قصر عنه.

ما هو المجد الذي يسعى اليه الانسان بالإلهام الإلهي، ويخوض الأخطار في طلبه ويقارع الخطوب في تحصيله، هو شأن تعترف النفوس لصاحبه بالسؤدد، وتذعن له بالاعتلاء، وتُلقي اليه قياد الطاعة، يكون هذا له ولكل من يدخل في نسبته اليه من ذوي قرابته وعشيرته وسائر أمته فتنفذ كلمته اليه وكلمة المتصلين به، والملتحمين معه في شؤون من سواهم وهو أعظم مكافأة من العزيز الحكيم على معاناة الأوصاب لتحصيل ذلك الشأن في هذه الحياة الأولىٰ، فما كان يحسبه طالب المجد عائداً الى نفسه بالمنفعة. يبارك فيه مدبر الكون فيفيض خيره على بني جلدته أجمعين. واها ! تلك حكمة بالغة : إذا نال الواحد من الأمة مطلبه من المجد نالت الأمة حظها من السؤدد. نعم وهل نال ما نال إلا بمعونة سائر الآحاد منها (ذلك تقدير العزيز العليم). ماذا يستطيع المجاهد وحده. وماذا يكسبه من سعيه. ان لم يكن له أعضاد من بني قبيله. فمن كان همّه أن يصعد الى عرش العزة. ويرقى الى ذروة السيادة فعليه أن يهيئ نفسه والمنتمين اليه لتحصيل كل ما يعد في العالم الانساني فضيلة وكمالاً. ما أصعب القيام بخدمة هذا الميل الفطري والإلهام الإلهي. وما أشدّ ما تحمل النفوس في قضاء بعض الوطر مما يتصل به. وما أعظم الحامل للأنفس على تجشم المصاعب لنيل ما تميل اليه من هذا الأمر الرفيع. ما هذا الباعث الشريف الذي يسهل على الأرواح كل صعب ويقرّب كل بعيد، ويصغر كل عظيم، ويلين كل خشن، ويسليها عن جميع الآلام، ويرضيها بالتعرض للتهلكة ومفارقة الحياة، فضلاً عن بذل كل نفيس، والسماح بكل عزيز، هذا الباعث الجليل، وهذا الموجب الفعال هو الأمل.

الأمل ضياء ساطع في ظلام الخطوب، ومرشد حاذق في يهماء الكروب، وعلم هاد في مجاهيل المشكلات، وحاكم قاهر للعزائم اذا عرتها فترة، ومستفز للهمم ان عرض لها سكون، ليس الأمل هو الأمنية والتشهي اللذين يلمحهما الذهن تارة بعد أخرى، ويعبر عنهما بليت لي كذا من المال وكذا من الفضل مع الركون الى الراحة والاستلقاء على الفراش، واللهو بما يبعد عن المرغوب كأن صاحبهما يروم ان يبدّل الله سنته في سير الإنسان عناية بنفسه الشريفة أو الخسيسة، فيسوق اليه ما يهجس بخاطره دون أن يصيب تعباً أو يتلاقى مشقة، إنما الأمل رجاء يتبعه عمل، ويصحبه حمل النفس على المكاره، وعرك لها في المشاق والمتاعب، وتوطينها لملاقاة البلاء بالصبر، والشدائد بالجلد وتهوين كل ملم يعرض لها في سبيل الغرض من الحياة حتى يرسخ في مداركها ان الحياة لغو اذا لم تغذ بنيل الأرب، فيكون بذل الروح أول خطوة يخطوها القاصد فضلاً عن المال الذي لا يقصد منه إلا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث الكون.

وكما كان الميل للرفعة أمراً فطرياً، كذلك كان الأمل وثقة النفس بالوصول الى غاية سعيها من ودائع الفطرة، غير أن ثبوتهما في فطرة عموم البشر كان داعياً للمزاحمات والممانعات، فإن كل واحد بما أودع في جبلته يطلب الكرامة والتمكن في قلب الآخر فكل طالب ومطلوب، ولم تبلغ سعة العقل الانساني الى درجة تعين لكل فرد من الأفراد عملاً تكون له به المنزلة العليا في جميع النفوس، غير ما يكون به للآخر مثل تلك المنزلة حتى يكون جميعهم أمجاداً شرفاء بما يأتون من أعمالهم، ولكنهم تزاحموا في الآمال والاهواء، ومسالكهم ضيقة، ومشارعهم ضنكة، فنشأت تلك المقاومات والمصادمات بين النوع البشري حكمة من الله ليعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين. فاذا توالى الصدام على شخص أو قوم حدث في الهمم ضعف وأصابها انحطاط وحصل الفساد في هاتين الخلتين الشريفتين «الرجاء وطلب المجد» كما يحصل الفساد في سائر الاخلاق الفاضلة

بسوء التربية وربما يؤول الضعف الى اليأس والقنوط «نعوذ بالله منهما».

ماذا يكون حال القانطين المنقطعة آمالهم، يحكمون علىٰ أنفسهم بالحطة، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة، فيأتون الدنايا ويتعاطون الرذائل، ولا ينفرون من الاهانة والتحقير بل يوطنون أنفسهم على قبول ما يوجّه اليهم من ذلك أيّاً كان، فتسلب منهم جميع الأحساسات والوجدانات الانسانية التي يمتاز بها الانسان عن الأنعام فيرضون بما ترضىٰ به البهائم، فلا يهتمون إلا بحاجات قبقبهم وذبذبهم، ثم ياليتهم يكونون هملاً وسوائب يرعون النبات، ويتّبعون مواقع الغيث، ولكنهم وان تركوا العمل لأنفسهم فالله تعالىٰ يسلّط عليهم من يكلفهم بالعمل لغيرهم، فيكونون كالنمال الحمالة لا تستفيد مما تحمل شيئاً، وظيفتها أن تسعىٰ وتشقىٰ ليسعد غيرها ويستريح، فيعالجون العمل في الفلاحة والصناعة وغيرهما من الأعمال الشاقة، ويدأبون بأشدّ مما يدأب العامل لنفسه، ثم لاينالون مما يعملون شيئاً، ثمرات كسبهم بأسرها محولة الى الذين سادوا عليهم بهممهم «هذا الذي يتجشمه الذليل في ذلة من مشاق الأعمال ومعاناة المكاره لو تحمل بعضاً منه في طلب العزّة لأصاب حظه منها» بل تصير درجة القانطين عند من سادوا عليهم أدنىٰ من درجة الحيوانات العاملة، فان السائدين يشعرون بحكم البداهة، ان هؤلاء أسقطوا أنفسهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضىٰ الفطرة الانسانية ورضوا لها بما دون حقها، بل بما لايصح ان يكون من شأنها وكفروا نعمة الله في تكوينهم على الشكل الانساني وإيداعهم ما أودع في أفراد الانسان فيعاملهم أولئك السادات بما لا يعاملون به ما يقتنون من الحيوانات، ولنا علىٰ ذلك شاهد العيان في الأمم التي أدركها اليأس وسقطت في أيدي الأجانب.

ونظن انه يوجد أقوام آخرون سامهم ساداتهم في الزمن السابق ويسومونهم الآن ما لاتسام به السوائم الراعية وهم على القرب منّا وليسوا ببعيد عنّا.

عجباً كيف تتبدل أحكام الجبلة وكيف يمحى أثر الفطرة ؟ كيف تسفل النفس حتىٰ لا تطلب رفعة ؟ وكيف تقنط حتى لايكون لها أمل ؟ والأمل وحب الكرامة طبيعيان في الانسان، بعد إمعان النظر نجد السبب في ذلك ظن الانسان أن جميع أعماله إنما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال وان قوّته هي سلطان أعماله وليس فوق يده يد تمده بالمعونة أو تصدّه بالقهر فإذا صادفته الموانع مرة بعد أُخرىٰ وقطعت عليه سبيل الوصول لمطلبه رجع الى قدرته فوجدها فانية، وقوته فرآها واهنة، فيعترف بوهنه، ويسكن الى عجزه، فييأس ويقنط، ويذل ويسفل اعتقاداً منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التي تعاصت على قدرته ومتى كانت قوة المانع أعظم من قوته فلا سبيل الى العمل لاستحالة قهر المانع فيقطع الأمل فيقع في الشقاء الأبدي، أما لو أيقن أن لهذا الكون مدبراً عظيم القدرة تخضع كل قوة لعظمته، وتدين كل سطوة لجبروته الأعلىٰ، وان ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه يصرف عباده كيف يشاء، لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس، وتغتال آماله غائلة القنوط، فإن صاحب اليقين لو نظر الى ضعف قدرته لا يفوته النظر الىٰ قوة الله التي هي أعلىٰ من كل قوة، فيركن اليها في أعماله، ولا يجد اليأس الى نفسه طريقاً، فكلما تعاظمت عليه الشدائد زادت همته انبعاثاً في مدافعتها معتمداً على ان قدرة الله أعظم منها، وكلما أغلق في وجهه باب فتحت له من الركون الى الله أبواب، فلا يمل ولا يكل، ولا تدركه السآمة، لاعتقاده أن في قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزاء، ويلق قيادهم الى الأذلاء، وان يدك الجبال، ويشق البحار، ويمكن الضعفاء من نواصي الأقوياء وكم كانت لقدرة الله من هذه الآثار، فتشتد عزيمته ويدأب فيما كلفه الله من السعي لنيل الكمال والفوز بما أعده الله له من السعادة في الأولىٰ والآخرة، وما كان لموقن بالله وبقدرته وعزته وجبروته ان يقنط وييأس، ولهذا أخبر الله تعالىٰ عن الواقع والحقيقة التي لا ريبة فيها بما قال وهو أصدق القائلين (أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم

الكافرون) وبما حكي من قول نبيه ابراهيم (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضآلون) فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلاً على الكفر ومن أين يطرق اليأس قلباً عقد علىٰ الايمان بالله وقدرته الكاملة.

لهذا نقول ان المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وبما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ان يقنطوا من رحمة ربهم في إعادة مجدهم مع كثرة عددهم، ولا يسوغ لهم أيمانهم أن يرضخوا للذل، ويرضوا للضيم، ويتقاعدوا عن إعلاء كلمتهم وهم الى الآن محفوظون مما ابتلى به كثير من الأمم، فإن لهم ملوكاً عظاماً، ولا يزال في أيديهم ملك عظيم على بسيط الأرض، وان من الحق أن نقول : أن أبواب رحمة الله مفتحة لديهم وما عليهم سوى ان يلجوها، وان روح الله نافحة عليهم وما يلزمهم سوى ان يستنشقوها والفرص دائماً تمد أيديها اليهم تطلب انهاضهم وتنبه غافلهم وتوقظ نائمهم، وليس عليهم في استرجاع مكانتهم الأولىٰ والصعود الى مقامهم الأول إلا ان يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملّتهم، وذلك أيسر ما يكون عليهم، بعد تمكن الجامعة الدينية بينهم، فأي موجب لليأس وأيّ داعٍ للقنوط وبين أيديهم كتاب الله الناطق بأن اليأس من أوصاف الضالين، وهل توجد واسطة بين الرشد والغي (فماذا بعد الحق إلا الضلال) هل يكون للقانطين فيهم من عذر ؟ أيرضون بالعبودية للأجانب بعد تلك السيادة العليا، ماذا يبتغون من الحياة إن كانت في ذل وإهانة وفقر وفاقة وشقاء دائم بيد عدو غاشم ؟ أيطمئنون وهم بين أجنبي حاكم، وبغيض شامت، ومقبح غبي، ومشنع دني، ومعير خسيس، يرمونهم بضعف العقول ونقص الاستعداد، ويحكمون بأن محالاً عليهم أن يصيروا أمةً في عداد الأمم، ألم ينسلخ الانسان عن كل خاصة إنسانية كيف يرضى بحياة مكتنفة بكل هذه التعاسات والمكدرات. أينسون أنهم كانوا في الأرض وما طال على ذلك الزمان، ولا محيت التواريخ ولا عفت الآثار، ولا اضمحلت بالكلية شوكة المسلمين من وجه

الأرض.

ان كان للعامة عذر في الغفلة عمّا أوجب الله عليهم فأي عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون في علومه، لِمَ لا يسعون في توحيد متفرق المسلمين، لِمَ لا يبذلون الجهد في جمع شملهم، لِمَ لا يفرغون الوسع لإصلاح ما فسد من ذات بينهم، لِمَ لا يأتون على ما في الطاقة لتقوية آمال المسلمين، وتذكيرهم بوعود الله التي لا تخلف لمن صدق في طاعته واليقين به وتبشيرهم بهبوب روح الله على أرواحهم.

بلى ان قوماً شرح الله صدورهم للايمان قاموا بهذا الأمر في مواقع مختلفة من الأرض يجمع التواصل بينها عقدة واحدة إلا ان املنا في بقية المسلمين ان يتفقوا معهم ويقوموا بتعضيدهم، ليتمكن الجميع من نصر الله (إن تنصروا الله ينصركم ويثبّتأقدامكم).

رجال الدولة وبطانة الملك
كيف يجب أن يكونوا

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا)
(ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي)
(صدورهم أكبر، قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون)

قالوا تصان البلاد ويحرس الملك بالبروج المشيّدة، والقلاع المنيعة، والجيوش العاملة، والأهب الوافرة، والأسلحة الجيدة. قلنا نعم هي إحراز وآلات لابدّ منها للعمل فيما يقي البلاد، ولكنها لاتعمل بنفسها، ولا تحرس بذاتها، فلا صيانة بها ولا حراسة إلا أن يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة، وأولوا رأي وحكمة، يتعهدونها بالإصلاح زمن السلم، ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب، وليس بكاف حتىٰ يكون رجال من ذوي التدبير والحزم وأصحاب الحذق والدراية يقومون على سائر شؤون المملكة، يوطئون طريق الأمن، ويبسطون بساط الراحة ويرفعون بناء الملك على قواعد العدل، ويوقفون الرعية عند حدود الشريعة، ثم يراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ليحفظوا لها المنزلة التي تليق بها بينها، بل يحملوها على أجنحة السياسة القويمة الىٰ أسمىٰ مكانة تمكن لها ولن يكونوا أهلاً للقيام على هذه الشؤون الرفيعة حتىٰ

تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طافحة بالمرحمة والشفقة على سكانها، وحتى تكون الحمية ضاربة في نفوسهم آخذة بطباعهم، يجدون في أنفسهم منبهاً على ما يجب عليهم، وزاجراً عما لا يليق بهم، وغضاضة وألماً موجعاً عندما يمس مصلحة الدولة ضرر، ويوجس عليها من خطر، ليتيسر لهم بهذا الإحساس وتلك الصفات أن يؤدوا أعمال وظائفهم كما ينبغي، ويصونوها من الخلل الذي ربما يفضي قليله الى فساد كبير في الملك، فهؤلاء الرجال بهذه الخلال هم المنعة الواقية والقوة الغالبة.

يسهل على حاكم في أي قبيل أن يكتب الكتائب ويجمع الجنود ويوفر العدد من كل نوع بنقد النقود وبذل النفقات، ولكن من أين يصيب بطانة من أولئك الذين أشرنا اليهم. عقلاء رحماء، وأُباة أصفياء، تهمهم حاجات الملك كما تهمهم ضرورات حياتهم لابدّ أن يتبع في هذا الأمر الخطير قانون الفطرة، ويراعى ناموس الطبيعة، فان متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ وتكشف له خفيات الدقائق، وقلما يخطئ في رأيه أو يتأود في عمله من أخذ به دليلاً، وجعل له من هديه مرشداً. واذا نظر العاقل في أنواع الخطأ التي وقعت في العالم الانساني من كلية وجزئية وطلب أسبابها لا يجد لها من علة سوى الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سنّة الله في خلقه.

من أحكام هذا الناموس الثابت ان الشفقة والمرحمة والحمية والنعرة على الملك والرعية، انما تكون لمن له في الأمة أصل راسخ ووشيج يشدّ صلته بها، هذه فطرة فطر الله الناس عليها، ان الملتحم مع الأمة بعلاقة الجنس أو المشرب يراعي نسبته اليها ونسبتها اليه ويراها لا تخرج عن سائر نسبه الخاصة به فيدافع الضيم عن الداخلين معه في تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحريمه «راجع رأيك فيما تشهده كثيراً حتىٰ بين العامة عندما يرمي أحدهم أهل البلد الآخر أو دينه بسوء على وجه عام كسوري ينتقد المصريين أو مصري ينتقد السوريين» هذا

الى ما يعلمه كل واحد من الأمة أن ما تناله أُمته من الفوائد يلحقه حظ منها وما تصيبها من الأرزاء يصيبه سهم منه. خصوصاً ان كان بيده هـامات أمـورها وفي قبضته زمام التصرف فيها فان حظه من المنفعة أوفر ومصيبته بالمضرة أعظم، وسهمه من العار الذي يلحق الأمة أكبر، فيكون اهتمامه بشؤون الأمة التي هو منها وحرصه على سلامتها بمقدار ما يؤمله من المنفعة أو يخشاه من المضرة.

فعلىٰ ولي الأمر في الدولة أن لا يكل شيئاً من عمله إلا الى أحد رجلين : إما رجل يتصل به في جنسية سالمة من الضعف والتمزيق موقرة في نفوس المنتظمين فيها محترمة في قلوبهم يحملهم توقيرها واحترامها على التفاني في وقايتها من كل شين يدنو منها ولم توهن روابطها اختلافات المشارب والأديان، وإما رجل يجتمع معه في دين قامت جامعته مقام الجنسية، بل فاقت منزلته من القلوب منزلتها، كالدين الاسلامي الذي حل عند المسلمين وان اختلفت شعوبهم محل كل رابطة نسبية فان كلاً من الجامعتين «الجنسية على النحو السابق والدينية» مبدآن للحمية على الملك ومنشآن للغيرة عليه.

أما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطته مقام الجنس، فمثلهم في الدولة كمثل الأجير في بناء بيت لا يهمه إلا استيفاء أجرته ثم لا يبالي أسلِم البيت أو جرفه السيل أو دكته الزلازل، هذا إذا صدقوا في أعمالهم يؤدون منها بمقدار ما يأخذون من الأجر، واقفين فيها عند الرسم الظاهر، فان الواحد منهم لا يشرف بشرف الأمة الذي هو خادم فيها ولا يمسه شيء مما يمسها من الضعة لأنه منفصل عنها اذا فقد العيش فيها فارقها وارتد الى منبته الذي ينتسب اليه، بل هو في حال عمله وخدمته لغير جنسه لاصق بمنبته في جميع شؤونه ما عدا الأجر الذي يأخذه وهذا معلوم ببداهة العقل فلا يجد في طبيعته ولا في خواطر قلبه ما يبعثه على الحذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرص الزائد علىٰ ما يُعلي شأنه، بل لا يجد باعثاً يبعثه على الفكر فيما يقوم

مصلحته من أي وجه، هذه حالهم هي لهم بمقتضىٰ الطبيعة لو فرضنا صدقهم وبراءتهم من أغراض أُخر، فما ظنك بالأجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فراراً من الفقر والفاقة وضربوا في أرض غيرهم طلباً للعيش من أي طريق وسواء عليهم في تحصيله صدقوا أو كذبوا وسواء وفوا أو قصروا، وسواء راعوا الذمة أو خانوا أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد لأممهم يمهدون لها طرق الولاية والسيادة علىٰ الأقطار التي يتولون الوظائف فيها (كما هو حال الأجانب في المالك الاسلامية لايجدون في أنفسهم حاملاً على الصدق والامانة ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة)[1] ومن تتبع التواريخ التي تمثل أحوال الأمم الماضية وتحكي لنا عن سنّة الله في خليقته وتصريفه بشؤون عباده، رأى ان الدول في نموها وبسطتها ما كانت مصونة الا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وما كان شيء من أعمالها بيد أجنبي عنها وان تلك الدول ما انخفض مكانها ولا سقطت في هوّة الانحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها، وارتقاء الغرباء الى الوظائف السامية في أعمالها فان ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار خصوصاً اذا كان بين الغرباء وبين الدولة التي يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم، وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة.

نعم كما يحصل الفساد في بعض الأخلاق والسجايا الطبيعية لسبب العوارض الخارجية، كذلك يحصل الضعف والفتور في حمية أبناء الدين أو الأمة، ويطرأ النقص على شفقتهم ومرحمتهم فينقص بذلك اهتمام العظماء منهم بمصالح الملك إذا كان ولي الأمر لايقدر أعمالهم حق قدرها وفي هذه الحالة يقدمون منافعهم الخاصة على فرائضهم العامة فيقع الخلل في نظام الأمة ويضرب الفساد، ولكن ما يكون من ضرره أخف وأقرب الىٰ التلافي من الضرر الذي يكون سببه

---

١ ـ يقصد الأفغاني في مهاجمته العنيفة هنا، بعض الأجانب الذين يسيئون الى البلاد التي آوتهم. ويدعي ان هجومه لا ينطبق اليوم على الاجانب الذين يحترمون تقاليد البلاد في ظل القومية العربية.

استلام الأجانب لهامات الأمور في البلاد لأن صاحب اللحمة في الأمة وان مرضت أخلاقه واعتلت صفاته، إلا ان ما أودعته الفطرة وثبت في الجبلة، لايمكن محوه بالكلية فاذا أساء في عمله مرة أزعجه من نفسه صائح الوشيجة الدينية أو الجنسية، فيرجع الى الاحسان مرة أخرى، وان ما شد بالقلب من علائق الدين أو الجنس لا يزال يجذبه آونة بعد آونة لمراعاتها والإلتفات اليها، ويميله الى المتصلين معه بتلك العلائق وان بعدوا.

لهذا يحق لنا ان نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق وأخص من بينهم أمراء المسلمين، حيث سلموا أمورهم ووكلوا أعمالهم من كتابة وادارة وحماية للأجانب عنهم، بل زادوا في موالاة الغرباء والثقة بهم حتى ولوهم خدمتهم الخاصة بهم في بطون بيوتهم، بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم في ممالكهم، بعدما رأوا كثرة المطامع فيهم لهذا الزمان، وأحسوا بالضغائن والأحقاد الموروثة من أجيال بعيدة، وبعد ما علمتهم التجارة أنهم إذا ائتمنوا خانوا، واذا عززوا أهانوا، يقابلون الإحسان بالإساءة والتوقير بالتحقير، والنعمة بالكفران، ويجازون على اللقمة باللطمة، والركون اليهم بالجفوة، والصلة بالقطيعة، والثقة فيهم بالخدعة، أما آن لأمراء الشرق أن يدينوا لأحكام الله التي لا تنقض، ألم يأن لهم أن يرجعوا الى حسهم ووجدانهم ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الرزايا والمصائب، ألم يكن لهم أن يكفوا عن تخريب بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم.

ألا أيها الأمراء العظام مالكم وللأجانب عنكم (ها أنتم تحبونهم ولا يحبونكم) قد علمتم شأنهم ولم تبق ريبة في أمرهم (ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها) سارعوا الى ابناء أوطانكم واخوان دينكم وملتكم، وأقبلوا عليهم ببعض ما تقبلون به على غيرهم تجدوا فيهم خير عون وأفضل نصير، اتبعوا سُنّة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس أجمعين،

وراعوا حكمته البالغة فيما أمركم وما نهاكم كيلا تضلوا ويهـوى بكـم الخـطل الى أسفل سافلين، ألم تروا، ألم تعلموا، ألم تحسوا، ألم تجربوا، الى متى ؟ الى متى، انا لله وانا اليه راجعون.

كم حكمة الله في حبّ المحمّدة الحقة

العالم الانساني كتاب المعتبر، وسفر المستبصر، وكل قرن من قرونه صفحة، وكل جيل من الناس سطر فيه أو جملة ولنا في كل ما خطّه القلم الإلهي عِبرة.

أول ما يفيدنا النظر فيه وقوفنا على أحوال الشعوب في أطوارها المختلفة، وأدوارها المتبدلة فترى أمماً علت وسمت وحلقت في جو المعالي وجازت في الرفعة مسارح النظر، ثم انحدرت بعد هذا وتدهورت وعفت رسومها، ولم يبق لها أثر إلا في الروايات والأحاديث، ومنها أجيال كانت في ثنى العدم ثم اكتست حلية الوجود، واتخذت من الاجتماع الانساني مكان الهامة من الجسد، ثم انطوت وأخنت عليها امهات قشعم ومنها ما نراه الى اليوم يسحب مطارف العزة، ويشرف على العالم بالأمر والنهي من شواهق القوة.

فن الناس من تتجلى له هذه الشؤون وتلك الأطوار كما تعرض عليه التماثيل ينبسط لبعضها اذا أعجبه، وينقبض للاخر اذا أنكره، وهو في غفلة عن منشأ ظهورها وعلل انقلابها، فإن سُئل عن السبب قال : سبحان الله هكذا كان وهكذا يكون، وما هو إلا بخت يسعد فيسعد به السعداء، وينحس فيتعس به الأشقياء.

ومنهم من تنفذ بصيرته الى الحقيقة فيقف على ما هيأه الله من الأسباب التي تتبعها أحوال الأمم في صعودها وهبوطها، ويعلم ان ما سيق من الخير لأمة انما كان بأيدي آحاد من أماثلها جدوا وجاهدوا، وربما بذلوا من نفائسهم وأنفسهم فازوا بتأصيل المجد لشعوبهم وبني جنسهم، ويرى لأولئك الأعلام ذكراً يرفع ومكانة من القلوب تحمد، وتمييزاً عند الخلف بالكرامة وهم لا يخالفوا الناس في جسومهم ودمائهم، وإنما تقدموهم بهممهم وقد يسوقه الاعتبار الى الاقتداء بهم رغبة في اقتطاف ثمار الثناء وتخليد الذكر، فاذا أخذ مأخذهم، واستقام على طريقهم فلا يكاد يخطو بعض خطوات ومبدأ المسير تحت نظره، حتى تتعثر أقدامه في أياد مقطعة، ورؤوس مجذوذة، وأشلاء مبددة، وشعور منثورة، وصدور مدقوقة، ويشهد الطريق مضرسة بقبور الشهداء، من طلاب الحق والناهجين في منهاجه، ولا محيص عن سلوكها، وتبدو له غابات وأدغال يرجع اليه منها صدى زئير الآساد وزمجرة الضراغم، ولابد له من اختراقها.

هكذا تنكشف لطالب المعالي موحشات مدهشات مصاولة لمخاطر أدناها، والموت الشريف أقصاها وأعلاها، فتارة يخور عزمه ويضعف همه فينكص على عقبيه، ويرتدّ الى أسوأ حاليه ويرتع في مراتع أمثاله، حتى يروح الى عطنه الأولىٰ به وهو العدم، وتارة يوحي اليه الإلهام الإلٰهي ان الشخص في خاصته والامم في هيئاتها ونوع الانسان في مجموعه، تطالبها صورة الابداع بأعمال شريفة دونها إجهاد الأنفس في السعي، وحملها على ما لا تهوى، ومغالبة الأهوال والغوائل، وفيما أودع الله الانسان من القوى العالية، والخواص السامية، أكبر مساعد على ما تندفع اليه الهمة، وتنبعث له العزيمة.

ان من أحياه الله بالحياة الانسانية كلما هاجمته المصاعب لا يزداد إلا حرصاً على قهرها كما أن صاحب الشمم لا يزيده الخصام إلا حدة في الجدال، وإصراراً على إقناع الخاصم، وكثير ممن على شكل الانسان يحيا حياته هذه

بروح حيوان آخر وهو يعاني فيها من الشقاء أشدّ مما يعانيه الانسان في ابراز مزايا الانسان.

ان صاعد الجبل ربما يجد شيئاً من التعب ويخشى مفترسه الكواسر، ولكن قد ينجو منها ويستريح على القنة، ويعتصم بمكانه من الرفعة، وتقصر عنه يد المتناول، أما من أخلد الى السفل فحظه من الحياة خوف لاينقطع، وإشفاق لا يزول، كل لحظة توعده بالسقوط في صيد الصائد، والوقوع بين أنياب الغائل، مات من الناس كثير في طلب العلاء ولم ينالوا، وبلغ كثير من الطالبين غاية ما أملوا، ولكن هلك بالفتك أضعاف هؤلاء وهؤلاء ممن رئموا الخمول، ورضوا بالحياة الحيوانية ـ هذه أحاديث الحق ونفثات الروح الزكية تبعث من أيده الله ووهبه نعمة العقل الى مداومة السير واقتفاء أثر الماضين الى أشرف المقاصد، فاما وصل واما مات كما يموت الكرام.

لم تنل أمة من الأمم مزية من المزايا المحمودة عند بني البشر سواء في العلوم والمعارف، والآداب والفضائل، أو القوانين والنواميس العادلة، أو العسكرية وقوة الحماية، حتى خرج آحاد منها الى ما تخشاه النفوس وتهابه القلوب، وسلكوا تلك المسالك الوعرة، فبلغوا بأممهم، أقصىٰ ما بلغت بهم هممهم، مع الاعتماد على العناية الأزلية في جميع سيرهم.

ماذا يريد القانون في خدمة الأمم أو النوع الانساني، والمنفقون لحياتهم في أعمال فادحة يعود نفعها على من تجمعه معهم جامعة الأمة أو الملة أو يشاركهم في النوع، أليس قد جعل الله لكل شيء سببا، أليس من سنّة الله في عباده ان لا تتجه الإرادة البشرية الى حركة تصدر عن المديد إلا بعد تصوّر غاية تعود الى ذاته وبعد اليقين أو راجح الظن بأنه يستفيد الغاية من العمل، فإن كان الأجل يذهب في مساورة الآلام الروحية، والعمر ينفد في مناهدة الأوصاب البدنية، فماذا يقصدون من أعمالهم، ان كان يوجد في أبناء جلدتهم، وذرى ملتهم، من

يساعد حوادث الكون على ايلامهم، وممانعتهم في مقاصدهم، وصدهم عن السعي فيما يرجع خيره الى أنفس المعارضين، ويثخن فيهم جراح اللوم والتقريع والشماتة والتشنيع، أو يدافعهم بالمكافحة والمنازلة فما الذي يبتغون من جدهم وكدهم، لا لذة تجتنى؛ ولا ألم يتقى، فما هذا الباعث القوي الذي غلب الأهواء، ولم يضعفه جهد البلاء.

نعم أودع الله في الانسان ميلاً أقوىٰ من كل ميل، وهو أخص خاصة فيه يمتاز بها عن غيره من الأنواع، وهو (حب المحمدة الحقة وحسن الذكر من وجوه الحق) أقول هذا تفادياً من حب المحمدة من أي وجه حقاً كان أو باطلاً، وطلب الثناء بالزور والغش والرياء، والظهور بمظاهر الأخيار، مع تبطن سرائر الأشرار، فان هذا من أسوء الخلال، وانما يعرض بعد اعتلال الفطرة وفساد الطبيعة. المحمدة هي الغذاء الروحاني، والمقوّم النفساني، وكلما قرب الشخص من الكمال الانساني تهاون بالشهوات أو ازدرىٰ باللذائذ الحسية، وقوى فيه الميل الى المحمدة الباقية، وبذل الوسع فيما يفيدها من جلائل الاعمال، تأمّل، ان الفاضل يرى له في هذا العالم أجلين أقصرهما الأجل المحدود من يوم ولادته الى نهاية العمر المقدر، والآخر أبعد من هذا نهاية، وبدايته عندما ينجم من عمله الصالح أثر لمنفعة تشمل أمته أو تعمّ النوع الانساني، وغاية هذا الأجل عندما يمحى أثره من ألواح النفوس وصفحات التاريخ، فللروح الفاضلة وجودان : وجود في بدنها الخاص، ووجود في جميع الأبدان، وهو ما يكون بحلولها من كل روح محل الكرامة والتبجيل، ولا ريب ان هذا الأجل الطويل، وهذا الوجود العريض، خير من ذاك الأجل القصير، وذاك الوجود الكز[١] وحقيق بالانسان ان يبيع ماهو أدنىٰ بالذي هو خير.

يطول بي الكلام فاقصر، ان الله الذي وهب كل نوع ما به كماله وضع في

---

١ ـ الكز : اليابس والمنقبض، والمراد هنا مالا خير فيه.

جبلة البشر ميلاً الى الحمد، وألهمهم تأدية حقه لمستحقه، ألم تر انطلاق الألسن في كل أمة بالثناء على كل من كان سبباً لها في مجد ورفعة، أو نهوض من سقطة، أو توحيد كلمة، أو تجديد قوة، أو كمال في فضيلة، أو تقدم في علم أو صنعة، ويرسمونه في الألواح، ويسجلون مدحته في بطون التواريخ، ويرفعون له الهياكل والتماثيل، ويحفظون له ذكراً حميداً يتناقله الأبناء عن الآباء، حتى ينقرضوا وينقرض العالم.

إذا جحدت الأمة حق العامل لها، أو قصرت في استحسان عمله، ضعفت الهمم، وقل السعي في المصالح العامة، وانقبضت الأيدي عن تعاطيها، فهبطت شؤون الأمة، فافترقت وماتت.

ان الله جلّ شأنه قرن كل حادث بسبب، فإذا استوى لدى الأمة الحسن والقبيح، والطيب والخبيث، والفضيلة والرذيلة، والمصلحة والمفسدة، وفقد منها التميز، ولم تقدر أعمال العاملين حق قدرها، ولم تعرف معروفاً، ولم تنكر منكراً، سلبت آحادها الميل الى المعالي والكمالات، وكان هذه أشدّ نكاية بها من جور الظالمين، وتغلب الغالبين، ظلم الظالم لا يدوم، وسطوة الغالب لا تثبت، إذا كان جمهور الأمة يقابل الإحسان بالاعتراف، والفضل بالحمد، فإنه يوجد منها من يشتري هذه المكافأة بتخليصها وإنقاذها، وأما فقد هذا الاحساس الشريف، فهو أشبه علة بالهرم، لا عقبىٰ له إلا الموت والهلاك.

كيف لا تكون المدحة الحقة نعمة على النفوس الانسانية، يسعى اليها الأعلون من بني الانسان، وقد امتن الله بها على نبيه فيما يقول له (ورفعنا لك ذكرك)، وكيف لاتكون حقاً تطالب به الطبيعة وقد سمح الله لمستحقها بالتحدث بنعم الأعمال الصالحات، كما سوغ لنبيه ذلك في قوله (وأما بنعمة ربك فحدّث).

قلب طرفك في تواريخ الأمم أقصاها وأدناها، تجد برهاناً قاطعاً على ان الامة متى بخست قيم الأعمال العالية، وازدرى فيها بشأن الفضيلة، فقدت ما به قوامها،

قوامها، وانهدم بناؤها، وذهبت كما ذهب أمس، ولا جرم ان الكفران مقرون بزوال النعم.

يمكنني أن أختم كلامي هذا بكلمة شكر لهذه العصابة الطاهرة، التي أقدمت في هذه الأوقات النحسة، ووقفت على شفير الخطر، وكتبت علىٰ نفسها السعي في توحيد المسلمين، ويسرنا أن نرى عددها كل يوم في ازدياد، نسأل الله نجاح أعمالها وتأييد مقاصدها إنّه نعم المولىٰ ونعم النصير.

الشرف

كلمة يهتف بها أقوام مختلفة من الناس، إلا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون، فئة ترى الشرف في تشييد القصور، والتعالي في البنيان، وزخرفة الحوائط والجدران، ووفرة الخدم والحشم، واقتناء الجياد، وركوب العربات، وفئة أُخرىٰ تتوهم أن الشرف في لبس الفاخر من الثياب، والتزيّن بألوان الألبسة وأنواعها، والتحلي بحلى الجواهر الثمينة، مرصعة بالأحجار الكريمة، كالألماس والياقوت والزمرد ونحوها. وفئة تتخيل الشرف في الألقاب والرتب كالبيك والباشا، أو في الوسامات المعروفة بالنياشين وعلو اسمائها كالأول من الصنف الفلاني، والثاني من الدرجة الفلانية، حتى انك ترى الرجل يسلب مال أخيه، وينهب ثروة أقاربه وذويه، أو بني ملته ومواطنيه، ليشيد بما يصيب من السحت قصراً ويرفع بناء ويزخرف بيتاً، ويقيم له حرّاساً من المماليك، وخفراء من الغلمان، ويظن بذلك أنه نال مجداً أبدياً وفخاراً سرمدياً، وصح لحاله ان يعنون بعنوان الشرف، وتجد الآخر يذهب في الكسب أشنع مما يذهب الأول ليكتسي برفيع الثياب، ويتزين بأجمل الحلى، أو ليكون له من ذلك ما يفاخر به أمثاله، ويتخيل انه بلغ به درجة من الرفعة لا يداني فيها ويعبر عن حاله هذا بلفظ الشرف، ويتوهم أنه وصل الحقيقة من معناه ومنهم ثالث يسهر ليله ويقطع

نهاره، بالفكر في وسيلة ينال بها لقباً من تلك الألقاب، أو يحصل بها وساماً أو يستفيد وشاحاً، وسواء عنده الوسائل يطلبها أيّاً كان نوعها، وإن أفضت الى خراب بلاده، أو تذليل أمته، أو تمزيق ملته، وعنده أنه رقى الذروة من معنىٰ الشرف.

نحن نرىٰ هذه الأوهام قائمة مقام الحقائق في أذهان كثير من الناس ولكن لا نظنها طمست عين الحق فيهم، حتى عموا عن ادراك أخطائهم وانحرافهم عن الصواب في وهمهم، ماذا يجد من نفسه المباهي بقصوره، وولدانه وحوره، لايحس من أنه وان حاز منها أعلىٰ ما يتصوره العقل، فذاته التي هي أعز لديه من جميع ما كسب لم تستفد شيئاً من الكمال، وان جميع ما حصله فهو أجنبي عنه، وليس له نسبة اليه إلا نسبة العناء في تحصيله، ألا يرى ان كثيراً ممن بلغ مبلغه أو فاقه، سلبتهم صروف الدهر ما بأيديهم، فأصبحوا بصفاتهم وجواهر ذاتهم، فان لم تكن على جانب من الكمال الانساني انخرطت في سلك الطبقات السافلة، ولم يبق لهم في القلوب منزلة ولا في النفوس مكانة.

ماذا يشعر به المفاخر بحليه ولباسه إذا تجرّد منه وخلى بنفسه ان لم يكن لذاته حلية من الفضيلة وزينة من الكمال، ألا يكون هو وعراة الفقراء سواء وألا يجد من سره عند المفاخرة انه يجول مع الغانيات وربات الخدور، في ميدان واحد، ماذا يتصور الزاهي برتبته، المعجب بوسامه، ان لم يكن قبل وسمته أو الصعود لرتبته، على حال تجل، أو كمال يبجل، أليس يشعر انه لو سلب الوسام، أو نزع عنه الوشاح، يعود الى منزلته من الاحتقار فان نال الكرامة عند بعض السذج واللقب معلق عليه، أليس ذلك تعظيماً للقب لا للملقب به، ألا تكون هذه الكرامة عارضاً سريع الزوال، بل رسماً ظاهراً لا يمسّ بواطن القلوب.

نعم لهذه الألقاب الشريفة شأن يرتفع به النظر اذا سبق بعمل يعترف عموم العالم بشرفه، وكان اللقب دليلاً عليه أو مشيراً اليه، كما يكون لمثلها حال

يسقط به الاعتبار اذا تقدمها فعله يمقتها العقلاء من النوع البشري، وكان الوسام أو اللقب عنواناً على ما اقترف كاسبه، وعلامة على ما احترم.

انظر وتدبّر ولا تخطئ فما أنت من الصواب ببعيد، ان عثمان الغازي الذي لقبه أعداؤه بأسد (بلاونه) نال رتبة ومُنِحَ لقباً، وحظي بمكانة رفيعة بين الطبقة العليا من العظماء في دولته بعدما دفع بروحه للموت في المدافعة عن ملته، وجاهد في اعلاء كلمة دينه، بما شهد له الأعداء والأصدقاء، وان بعض الأمراء في ديار اسلامية علقت عليهم ألقاب شريفة من دولة كدولة الانجليز جزاء لهم على ما تقدموا أمام جيوش أعدائهم، لافتتاح بلادهم، حتى مكنوا الانجليز من ديارهم، وجميع المسلمين الآن يكابدون الجهد في إيجاد الوسائل لخروجهم منها، أين موقع النيشان من صدر عثمان باشا الغازي من موقعه على صدور أولئك المخدوعين، أظن رجع النظر بين الموقعين يثبت لك أن النيشان يشرف بشرف العمل الذي جعل دليلاً عليه ويسقط بسقوطه.

ماذا غرّ أولئك الواهمين علىٰ اختلافهم، ألا يعلمون ان الثياب المعلمة بالدم، الموشاة بالنجيع، الملوّنة بالمهج، هي التي حفظت للابسيها ذكراً حسناً لاينقطع، وأثراً مجيداً لايمحىٰ، ان الذين ضرّجوا بدمائهم في طلب المجد لمللهم، هم الذين خشعت لذكرهم الأصوات، وأجمعت علىٰ فضلهم خواطر القلوب، ألم يصل اليهم ان الذين قضوا نحبهم في غيابات الجبّ، وانتهت حياتهم في ظلمات السجن، لطلب حق مسلوب أو حفظ مجد موجود هم الذين سما ذكرهم الىٰ شرف الشمس الأعلىٰ، وعلت اسماؤهم على جميع الأسماء، أظن ان الذين كانوا في الغرفات العالية ينظرون الى جناتهم وحدائقهم، ويشرفون على الناس من شرفات قصورهم، وقصروا حياتهم على التمتع بما نالوا، لم يبق لهم ذكر ولم يكن لهم في حياتهم شأن، إلا ما هو محصور في دوائر بيوتهم، ولا يختلف عنهم أولئك الذين كانوا يسحبون مطارف الرفه ويكتسون حلل الخز والديباج، ذهبوا

وذهبت معهم أكسيتهم، فارتدوا من حيث أتوا لايعلم متىٰ جاءوا الى الدنيا، ومتىٰ انكشفوا عنها.

هل سمعنا ان أحداً يذكر بين بني البشر بأنه نال نيشان كذا وحصل رتبة كذا، نعم يقولون علم وعمل، وأعطىٰ وبذل ورفع ووضع، وجاهد وكافح، وأباد وأبقىٰ، وما يشاكل ذلك من الاعمال التي لها أثر ثابت، اذا ذكر اسكندر الأكبر هل يخطر بالبال ان كان له قصر أو لا. أي أبله يطلب سيرة نابليون الأول في آثار قصر كان يسكنه، أو في خرق ثياب كان يلبسها وهل بلغ عظماء العالم ما بلغوا من مقامات الشرف بعدما شيدوا وزينوا وترفهوا وتنعموا أكان جميع ما ينالون من ذلك بعد ان يسودوا ويفتحوا ويغلبوا ويأخذوا بالنواصي. خدع قوم بالأحلام وغرتهم الأوهام، ففرطوا في شؤون بلادهم وباعوا مجدها الشامخ بتلك الاسماء التي لا مسمى لها، وزعموا وان لم تطاوعهم ضمائرهم انهم رقوا من مكانة الشرف وان كان خاصاً بهم بعدما علموا ان الرتب والنياشين جاوزت حدها، ونالها غير أهلها، فلو انهم أصغوا لما تحدثهم به سرائرهم، وتعنفهم به خواطر أفئدتهم، ورمقوا بأبصارهم ما يحيط بهم، لعلموا أنهم في أخس المنازل وأبعد المزاجر، وأدركوا خطأهم في معنى الشرف وجورهم عن جادة الصواب في طلبه، لو أحسوا بما رزئت به أوطانهم، وما لصق من الذل والعار بذراريهم، لطرحوا الوشاحات، ونبذوا الوسامات، ولبسوا أثواب الحداد، ونفروا خفافاً وثقالاً لطلب الشرف الحقيقي.

الشرف حقيقة محدودة كشفتها الشرائع، وحددتها عقول الكاملين من البشر، وليس لذي شاكلة انسانية ان يرتاب في فهمها، إلا من ختم الله على قلبه، وجعل على بصره غشاوة.

الشرف بهاء للشخص، يحوم عليه بالأنظار، ويوجه اليه الخواطر والأفكار وجمال يروق حسنه في البصائر والأبصار ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه

يكون له أثر حسن في أمته أو بني ملته، أو في النوع الانساني عامة، كإنقاذ من تهلكة، أو كشف لجهالة، أو تنبيه لطلب حق سلب. أو تذكير بمجد سبق. وسؤدد سلق. أو إنهاض من عثرة أو ايقاظ من غفلة أو إرشاد لخير يعمّ. أو تحذير من شرّ يغم. أو تهذيب أخلاق أو تثقيف عقول. أو جمع كلمة وتجديد رابطة أو إعادة قوة. وانتشال من ضعف. أو ايقاد حمية أو خصومة لغيرة.

من أتىٰ عملاً من الاعمال له أثر من هذه الآثار فهو الشريف وان كان يسكن الخصاص والأكواخ. ويلبس الدلوق والأسمال، ويقتات بنبات البر، ويبيت علىٰ تراب الفقر، ويتوسد نشز الأرض، ويضرب في كل واد، ويتردد بين الربى والوهاد، هذا له حلية من عمله، وزينة من فضله، وبهاء من كماله، وضياء من جده، يهدي اليه ضالة الألباب، وتائهة الأفئدة، تعرفه المشاعر الحساسة ولا تنكره، وتكتنفه دارات القلوب المتطايرة اليه ولا تنفصل عنه، له من روحه قصور شاهقة، وغرفات شائقة، ومناظر رائقة، وجمال باهر، ونور زاهر، لايكاد يخفى حتى يظهر، ولا يكاد يستتر حتىٰ يبصر، اليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح، يرفعه الى أعلى عليين، حياة طيبة في القلوب وعزة مشرقة في جبهة الزمان (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون).

نعم قد ينبعث عليه من أرباب الطباع الفاسدة بعض الكرائه، فيسلقونه بالألسنة، ويرشفونه بسهام اللوم، ولا تروق في أنظارهم أزهار أعماله، ولا أنوار مزاهره، لبعدها عن فهمهم، وغرابتها على حواسهم، لما ألفوه من الانكباب علىٰ تلك السفاسف الساقطة، التي عدّوها شرفاً، وحسبوها مجداً، وقد بيناها كما كشفتها الشرائع وآراءها العقلاء، وإنما مثلهم مثل الجعل ينفر من رائحة الورد، ويألف روائح القذر، لايبعد ان يسخر بالعامل الفاضل مَنْ لا خلاق لهم، أو يقصده بالاضرار من لا ذمة له، ولكنهم بأنفسهم يهزأون، وبمصالحهم يضرون، ولا يطول عليهم الزمان في هذا العمى، بل لايلبثون إذا بدت الثمرة الشهية ان

يهرعوا لاقتطافها، ويطعموا من جناها، ولا يسعهم بعد ذلك إلا الحمد لغارس الشجرة، وحافظ الثمرة، وان كان دونهم في تلك الزخارف التي لا قيمة لها في نظر العاقل ثم يكون عقابهم على ما فرط منهم ندماً على الخطيئة، وأسفاً على السيئة وألماً في قلوبهم تهيجه ذكرى ماقاموا من سوء عملهم، وانكشاف نقصهم لدى وجدانهم، هكذا تمنح العناية الألهية هذه الكرامة لصاحب العمل الشريف مادام حياً، فإذا غابت شمسه عن أفق هذا العالم لم تحجب أشعة ضيائه التي فاضت منه علىٰ نجوم هاديات، وبدور منيرات، نعم أنه يموت ويتوارىٰ خلف حجاب العدم بجسمه، ولكنه قائم في الأفئدة، شاهد علىٰ الألسنة، حي يرزق عند ربه، ونعمة الحياة حياته، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

الأمة وسلطة الحاكم المستبد

«وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»

ان الأمة التي ليس لها في شؤونها حل ولا عقد، ولا تستشار في مصالحها، ولا أثر لإرادتها، في منافعها العمومية، وانما هي خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون، ومشيئته نظام، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، فتلك أمة لا تثبت على حال واحد، ولا ينضبط لها سير. فتعتورها السعادة والشقاء. ويتداولها العلم والجهل، ويتبادل عليها الغنى والفقر، ويتناوبها العز والذل، وكل ما يعرض عليها من هذه الأحوال خيرها وشرها، فهو تابع لحال الحاكم فإن كان حاكمها عالماً حازماً أصيل الرأي. عالي الهمة، رفيع المقصد قويم الطبع، ساس الأمة بسياسة العدل، ورفع فيها منار العلم ومهّد لها طرق اليسار والثروة، وفتح لها أبواباً للتفنن في الصنائع، والحذق في جميع لوازم الحياة، وبعث في أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة، وحملهم على التحلي بالمزايا الشريفة من الشجاعة والشهامة وأباء الضيم، والأنفة من الذل، ورفعهم الى مكانة عليا مَن العزة، ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهة وتقدم بهم الى كل وجه من وجوه الخير.

وان كان حاكمها جاهلاً سيء الطبع، سافل الهمة، شرهاً مغتلماً جباناً، ضعيف الرأي، أحمق الجنان، خسيس النفس، معوج الطبيعة، أسقط الأمة

بتصرفه الى مهاوي الخسران، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل، وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر وجار في سلطته عن جادة العدل، وفتح ابواباً للعدوان، فيتغلب القوي على حقوق الضعيف، ويختل النظام، وتفسد الأخلاق وتخفض الكلمة، ويغلب اليأس فتمتد اليها أنظار الطامعين، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في أحشاء الأمة.

عند ذلك ان كان في الأمة رمق من الحياة وبقيت فيها بقية منها، وأراد الله بها خيراً اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة، واستئصال جذورها قبل ان تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الأمة، فتميتها وينقطع الأمل من العلاج، وبادروا الى قطع هذا العضو المجذم قبل أن يسري فساده الى جميع البدن فيمزقه. وغرسوا لهم شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وجددوا لهم بنية صحيحة سالمة من الآفات (استبدلوا الخبيث بالطيب) وان انحطت الأمة عن هذه الدرجة وتركت شؤونها بيد الحاكم الأبله الغاشم يصرفها كيف يشاء، فانذرها بمضض العبودية، وعناء الذلة ووصمة العار بين الأمم، جزاء على مافرطوا في أمورهم. (وما ربك بظلام للعبيد).

دعوة الفرس الى الاتحاد مع الأفغان

«(إذا أراد الله بقوم خيراً جمع كلمتهم)»

سرنا من الجرائد الفارسية صدقها في خدمة أوطانها واعتدالها في مشاربها وزادنا مسرّة اهتمامها بترجمة بعض الفصول المهمة من جريدتنا ونقلها الى اللسان العذب الفارسي مما تظن فيه تنبيهاً لأفكار المسلمين، واستلفاتاً لعقولهم الى ما فيه خيرهم، فلها منّا ومن كل مخلص في محبة ملته أوفر الشكر، خصوصاً جريدة (اطلاع) التي تطبع في مدينة (طهران) وهذا المنهج القويم مما تعم به الفائدة في جميع الأقطار الاسلامية، فإن جميعها بعد بلاد العرب، وان اختلفت ألسنة سكانها باختلاف شعوبهم إلا أنهم ينطقون باللغة الفارسية، فهي في الشرق كاللسان الفرنساوي في الغرب، وكان بودنا أن يعززوا أفكارنا بما تجود به قرائحهم السليمة، وأذهانهم الصافية، وترشدهم اليه عقولهم العالية، خصوصاً فيما يتعلق بالدعاء للوحدة الاسلامية، وإحياء الرابطة الملية بين المسلمين، لاسيما في الاتفاق بين الإيرانيين والأفغانيين.

هاتان طائفتان هما فرعان لشجرة واحدة، وشعبتان ترجعان لأصل واحد هو الأصل الفارسي القديم، وقد زادهما ارتباطاً اجتماعياً في الديانة الحقّة الاسلامية، ولا يوجد بينهما إلا نوع من الاختلاف الجزئي لايدعو الى شقّ العصا،

وتمزيق نسيج الاتحاد، وليس بسائغ عند العقول السليمة أن يكون مثل هذا التغاير الخفيف سبب في تخالف عنيف.

ليس ببعيد على همم الايرانيين وعلو أفكارهم أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الاسلامية، وتقوية الصلات الدينية، كما قاموا في بداية الاسلام بنشر علومه، وحفظ أحكامه وكشف أسراره، وما قصروا في خدمة الشرع الشريف بأيّة وسيلة.

نعم البخاري ومسلم والنيسابوري والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبو داود والبغوي وابو جعفر البلخي والكليني وغيرهم ممن أنبتتهم أراضي ايران، أبو بكر الرازي الطبيب الشهير والامام فخر الدين الرازي ممن نشأوا في طهران، أبو حامد الغزالي حجة الاسلام، وأبو اسحق الاسفرايني، والبيضاوي، وخواجة نصير الدين الطوسي، والأبهري وعضد الملة والدين، وغيرهم من علماء الكلام والاصول ممن تفتخر بهم بلاد فارس وهم فخار للمسلمين، الفيلسوف الشهير أبو علي بن سينا، وشهاب الدين المقتول، ومن على شاكلتهم ممن جبلوا من تراب فارس ان أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربي وضبط أصوله، وتأسيس فنونه، منهم سيبويه، وأبو علي الفارسي، والرضي، ومنهم عبد القاهر الجرجاني، مؤسس علوم البلاغة لبيان اعجاز القرآن، وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية، وصاحب صحاح الجوهري من احدى قراهم، ومجد الدين الفيروزابادي، من إحدىٰ بلدانهم، الزمخشري، والسكاكي، وأبو الفرج الاصفهاني، وبديع الزمان الهمداني، وغيرهم ممن بينوا دقائق القرآن، وشيدوا معالم الدين، كلهم من أرض فارس.

الطبري أول المؤرخين، والأصطخري، والقزويني، أول الجغرافيين، كانوا من بلاد فارس، الشبلي كان من نهاوند، وأبو يزيد البسطامي كان من بسطام، والاستاذ الهروي وهو الاستاذ الحقيقي للشيخ محيي الدين بن العربي، كان من

هراة وكلها بلاد إيران.

هل يُنسى صدر الشريعة وفخر الاسلام البزدوي والامدي، والمرغيناني، والسرخسي، والسعد التفتازاني، والسيد الشريف والأبيوردي، وكلهم من أبناء فارس، من أين كان القطب الشيرازي، والصدر الشيرازي، ورأس الحكمة في المتأخرين مير باقر الداماد، ومير فندركسي وغيرهم كانوا من بلاد فارس ؟ أي فضل كان ولم يكن لهم فيه اليد الطولى، أي مزية مَنَّ الله بها على الاسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها، نعم وفيهم جاء من قول النبي صلى اللّه عليه وسلم (لو كان العلم في الثريا لناله رجال من فارس).

فيا أيها الفارسيون تذكروا أياديكم في العلم، وانظروا الى آثاركم في الاسلام، وكونوا للوحدة الدينية دعامة، كما كنتم للنشأة الاسلامية وقاية، أنتم بما سبق لكم أحقّ الناس بالسعي في استرجاع ما كان لكم في فتوة الاسلام، أنتم أجدر المسلمين بوضع أساس للوحدة الاسلامية، وما ذلك ببعيد على طيب عناصركم وقوة عزائمكم، أظن لا يخفى عليكم ان هذا الوقت هو أحسن الأوقات لندائكم بالوحدة مع الأفغانيين والتحالف معهم على مقاومة العادين، لتكونوا بالاتحاد معهم حصناً حصيناً، وحرزاً منيعاً، تقف دونه أقدام الطامعين، أظنكم لم تنسوا ان استيلاء الانجليز على الممالك الهندية، انما تم بوقوع الخلاف بينكم وبين الأفغانيين.

هل يخفى عليكم ان كل مسلم في الهند شاخص ببصره الى طرف بنجاب ينتظر قدومكم اذا اتحدتم مع اخوانكم الأفغانيين، حصلت لكم تجارب كثيرة وشهدتم من مظاهر الحوادث ما فيه أكمل عبرة، فهل يصح بعد هذا ان تستمروا على التجافي والتباعد مع علمكم ان الوحدة منبت الشوكة.

هذا آن التآخي والتوافق، هذه أوقات التحالف والتواثق، أحاط الاعداء ببلادكم، شرقاً وغرباً وكل يشحذ سيفه ويسدد سهمه، حتى تمكنه الفرصة من

شنّ الغارة على أطراف بلادكم، فلو ضاعت الفرصة في هذا الوقت فربما لا تصادفونها في غيره، الإنجليز في ارتباك شديد في المسألة المصرية مع ضعفهم في القوة العسكرية، ومتورطون باختلاف الدول عليهم ومعاكساتها لمقاصدهم.

الأمير عبد الرحمن خان أمير أفغانستان على ما نعهده من أول شبيبته أشد الناس عداوة للانجليز، وبينه وبينهم حزازات لا تزول، بل نقول ان عداوة الانجليز سارية في عروق الأفغانيين عموماً ممتزجة بدمائهم، فلو حصل الاتفاق الآن بين سلطنة الشاه وبين امارة الأفغان، لوجدت قوة اسلامية جديدة في المشرق بين سائر الطوائف الاسلامية، وينبعث فيهم وفي سائر المسلمين حياة جديدة، وتتجدد لهم آمال جليلة، وتنتعش بذلك أرواح المؤمنين، هذا وقت تنبهت فيه أفكار الأفغانيين الى أعمال جيرانهم في المسألة المصرية، وتحركت فيهم السواكن، وهي أعظم فرصة لأهل فارس في دعوتهم للاتحاد معهم.

هذا عمل من أجلّ الاعمال وأجزلها فائدة، وان من أكبر الفضل ان يقوم أهل الفضل من أهالي ايران بتحرير الفصول ونشر الرسائل في بيان فوائد الاتفاق بين الطائفتين، وان لذلك لأثراً عظيماً في النفوس خصوصاً ان كانت من أقلام العلماء الأعلام، والمجتهدين الكرام.

العالم الانساني عالم الفكر والكلام فأحكام الفكر الصالح ونشره في الكتب والرسائل والجرائد مما يؤثر أجمل الأثر في تهذيب الناس وتثقيف عقولهم، وإزالة الضغائن المفسدة لمعاشهم ومعادهم، فاذا قام المستبصرون وخطبوا ووعدوا، وكتبوا ونشروا، مع الوقوف عند الحدود الدينية، والأصول الشرعية، كان فضل الله كافلاً لهم النجاح.

أي فرق بين الأفغانيين وإخوانهم الايرانيين، كل يؤمن بالله وبما جاء به محمّد صلّى الله عليه وسلم، عبد الرحمن خان بما أكسبته التجارب أول من يتقدم لهذا الاتفاق، ولا نشك ان شاه ايران لما اطلع عليه في سياحاته وشاهده

أسفاره لا يأبىٰ المبادرة اليه والسعي فيه، ان البادئ بالعمل في هذا المقصد الأسمىٰ هو صاحب الفضل الأعظم بين المسلمين خصوصاً وبين العالم عموماً ويجنى ثمرته في وقت قريب.

كان الألمانيون يختلفون في الدين المسيحي على نحو ما يختلف الايرانيون مع الأفغانيين في مذاهب الديانة الاسلامية، فلما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثر في الوحدة السياسية، ظهر الضعف في الأمة الالمانية، وكثرت عليها عاديات جيرانها، ولم يكن لها كلمة في سياسة أوروبا، وعندما رجعوا الىٰ أنفسهم وأخذوا بالأصول الجوهرية، وراعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة، أرجع الله اليهم من القوة والشوكة ما صاروا به حكّام أوروبا وبيدهم ميزان سياستها.

ورجاؤنا في الأفاضل الكرام صاحب جريدة (فرهنك) الأصفهانية، وصاحب جريدة «اطلاع» الطهرانية وسائر أرباب الجرائد الايرانية أن يوجهوا أفكارهم الى هذا المطلب الرفيع، ويجعلوا له محلاً فسيحاً في جرائدهم، وينشروها في بلادهم، وبلاد الأفغان، باللسان الفارسي، وهو لسان الطائفتين، وماهي إلا أيام ثم نرىٰ علائم النجاح ان شاء الله ربّ العالمين.

امتحان الله للمؤمنين

«آلم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين».

من الناس بل أغلب الناس من يقول آمنا. وللايمان آثار ثم يحسبون ان الله يتركهم وما يقولون، ويدعهم وما يتوهمون، ويعاملهم سبحانه وهو الحكم العدل بما يظنون في أنفسهم قبل أن يبتليهم أيهم أحسن عملا، حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم، ويعلموا هل هم حقيقة مؤمنون أو هذه دعوى سوّلتها النفس، وغرت بها الأماني، وانهم تائهون في أوهامهم يحسبون أنهم علىٰ شيء، وهم خلو من كل شيء، ولما يدخل الايمان في قلوبهم. إلا في غيه حتى يبتليه في دعوى الايمان ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين ولئلا تكون للناس على الله حجة، حاشا حكياً أنزل الكتب وأرسل الرسل ووعد وأوعد، وبشّر وأنذر، وقوله الصدق، ووعده الحق، ان يجازى من بنى عقيدته على خيال ليس له أثر، وظن ليس له أساس، وبالسعادة السرمدية، والنعيم الأبدي، ان المغترّ بزعمه، الحائر في ظلمات أوهامه الذي لايسهل عليه الايمان احتمال المشاق وتجشم المصاعب في سبيله، ليس بمعزل عن المنافقين الذين حكم الله عليهم بالشقاء الأبدي والعذاب

المخلد الايمان يغلب كل هوى، ويقهر كل أمنية، ويدفع بالنفس الى طلب مرضاة الله بلا سائق ولا قائد سواه، يقول الله وهو أصدق القائلين (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ان يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والله عليم بالمتقين. انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) هذا قضاء الله وهذا حكمه على الذين يستأذنون في بذل أرواحهم وأموالهم في اداء فريضة الايمان، حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون.

صدق الله وصدقت كتبه ورسله ان للعقائد الراسخة آثاراً تظهر في العزائم والأعمال وتأثيراً في الأفكار والإرادات لايمكن للمعتقدين أن يزيحوها عن أنفسهم ماداموا معتقدين، هكذا الايمان في جميع شؤونه وأطواره، له خواص لا تفارقه، ونزعات لا تزايله، وصفات جليلة لا تنفك عنه وخلائق عالية سامية لا تباينه، بها كان يمتاز المؤمنون في الصدر الأول وكان يعترف بمزيتهم وعلو منزلتهم من كانوا يجحدون عقيدتهم، نعم هم الذين صبروا في نيران امتحان الله وابتلائه حتى ظهر ايمانهم ذهباً أبريزاً صافياً من كل غش، وأعدّ الله لهم جزاء علىٰ صبرهم نعياً مقيماً. ما أصعب ابتلاء الله وما أشدّ فتنته وما أدقّ حكمته في ذلك ليميّز الله الخبيث من الطيب.

نعم إن دون ابتلاء الله خلع العادات، وتحمل الصعوبات، وبذل الأموال وبيع الأرواح، كل خطر فهو تهلكة ينبغي البعد عنها إلا في الايمان، فكل تهلكة فيه فهي نجاة، وكل موت في المحاماة عن الايمان فهو بقاء أبدي وكل شقاء في اداء حقوق الايمان فهو سعادة سرمدية، المؤمن يبذل ماله فيا يقتضيه ايمانه ولا يخشى الفقر، وان كان الشيطان يعده الفقر، ليس في النفقة لاداء حق الايمان تبذير ولو أتت علىٰ كل ما في أيدي المؤمنين، ان للمؤمنين حياة وراء هذه الحياة، وان له لذة وراء لذاتها، وان له سعادة غير ما يزينه الشيطان من سعادتها، هكذا يرى المؤمن ان كان الايمان مسّ قلبه ولو لم يبلغ العناية من كماله.

ان الفرار من محنة الله في الايمان مجلبة للخزي الأبدي. ان الفرار من صدمة جيش الضلال وان بلغت أقصىٰ ما يتصور موجب للشقاء السرمدي. لا سعادة إلا بالدين ودون حفظ الدين تتطاير الأعناق، ان للايمان تكاليف شاقة وفرائض صعبة الاداء إلا على الذين امتحن الله قلوبهم للتقوىٰ، ان القيام بفرائض الايمان محفوف بالمخاطر، مكتنف بالمكاره، كيف لا وأول ما يوجبه الايمان خروج الانسان عن نفسه وماله وشهواته ووضع جميع ذلك تحت أوامر ربه، لن يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحبّ اليه من نفسه. أول احساس يلمّ بنفس المؤمن انه في هذه الدنيا عابر سبيل الى دار أُخرىٰ خير من هذه الحياة وأبقىٰ. وأول خطوة يخطوها المؤمن بذل روحه إذا دعاه داعي الايمان ، ولا داعي أرفع صوتاً وأبين حجة من نداء الحق على لسان أنبيائه. لا يقبل الله في صيانة الايمان عذراً ولا تعلة ما دامت الرجل تمشي والعين تنظر واليد تعمل. ان امتحان الله للمؤمنين سُنّة من سُننه.

ومن يضلّل الله فماله من هادٍ

يوجد بين بني البشر نفوس لم يرضها الاسلام، ولم تقنع بالكفر، تتلون تلون الحرباء، وتتشكل تشكل الأغوال، وتتقلب تقلب الدهر الخؤون، لا ترضى بحال، ولا تنسج على منوال، يضحكون وقت البكاء، ويمرحون عند اشتداد اللأواء، ويبكون لأوقات المسرّة، ويضجرون لسمة الرحمة، مثلهم كمثل الحسك المثلث الأضلاع، كله شوك حيثما قلبته، تراهم في النهار مسلمين منقلبين بين مذاهب الاسلام يصبحون سنيين ويقيلون شيعيين ويقضون طرف اليوم وهابيين، فاذا جنّ الليل رأيتهم دهريين اباحيين، أولئك الذين غضب الله عليهم ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، منهم أناس من أرباب الجرائد الساقطة في الهند يريدون أن يتزلّفوا للحكومة الهندية الانجليزية بما فيه مضرّة أوطانهم وأبناء الملة التي ولدوا فيها لينالوا من ظالميهم جائزة ما، أو ليكون لهم في دوائرهم اسم ما، فأخذوا يؤولون بعض فصول العروة الوثق ويحولونها عن وجهتها جهلاً، أو عناداً ولوماً، ويحرّفون الكلم عن مواضعه على حسب اهوائهم الخسيسة، وطباعهم الخبيثة ؛ قاتلهم الله أنّىٰ يؤفكون، أولئك قوم عرفناهم وليس لهم بين قومهم شأن يعرفون به فليس يهمنا أمرهم. وإنما نقدم الشكر للجرائد المهمة الهندية الناهجة في خدمة أوطانهم منهج الحق، السالكة جادة الاعتدال على ماتعني به من ترجمة فصول العروة الوثق الى اللسان الهندي تعمياً للفائدة في أبناء أوطانها، جزاها الله عن المسلمين خيراً.

أسبابُ حفظ الملك

(أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها. فإنهاتعمى الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور).

أهلك الله شعوباً، وأباد قبائل، ودمّر بلاداً، ولايزال عدل الله يبدل قوماً بقوم ويأتي لكل حين بأناس آخرين، حكيم سبقت رحمته غضبه، جعل لكل عمل جزاء، وعين بحكمته لكل حادث سببا (ولا يظلم ربك أحداً) وليست أفعاله جزافاً، ولا يصدر عنه شيء عبثاً، أمر الله عباده بالسير في الأرض (قُل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ليريهم قضاءه الحق وحكمه العدل، فيمن سلف ومن خلف، فيطيعوا أوامره، ويقفوا عند حدود شرائعه، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة، من كان له قلب يعقل وعين تبصر، وعقل يفقه، وتتبع حوادث العالم، وتدبر كيفية إنقلاب الأمم، وخاض في تواريخ الأجيال الماضية، واعتبر بما قصّ الله علينا في كتابه المنزل، يحكم حكماً لا يخالطه ريب، بأنه ما حاق السوء بأمة وما نزلت بها نازلة البلاء، وما مسّها الضرّ في شيء إلا وكانت هي الظالمة لنفسها، بما تجاوزت حدود الله وانتهكت حرماته، ونبذت أوامره العادلة، وانحرفت عن شرائعه الحقة، وحرّفت الكلم عن مواضعه،

وأوّلت من كلامه تعالى على حب الأهواء والشهوات.

كما ان للأغذية والأدوية، واختلاف الفصول والاهوية، أثراً ظاهراً في الأمزجة بتقدير العزيز العليم، كذلك اقتضت حكمة الله ان يكون لكل عمل من الاعمال الانسانية، ولكل طور من أطوار البشر، أثر في الهيئة الاجتماعية، ولهذا كان من رحمته بعباده تحديد الحدود، وتقرير الأحكام ليتبين الخير من الشر، ويتميّز النفع من الضر، فأرسل الرسل، وأنزل الكتب، فمن خالف الأوامر الالهية فقد ظلم نفسه، فليستعد لخزي الدنيا وعذاب الآخرة.

ان تأثير الفواعل الكونية في أطوار الحياة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر، أما تأثير أحوال بني الانسان في هيئة اجماعهم، فيسهل على سره لكل ذي إدراك، ان لم تكن عين بصيرته عمياء.

ألم تر ان الله جعل اتفاق الرأي في المصلحة العامة والاتصال بصلة الأُلفة في المنافع الكلية سبباً للقوة واستكمال لوازم الراحة في هذه الحياة الدنيا، والتمكن من الوصول لخير الأبد في الآخرة، وجعل التنازع والتغابن علّة للضعف، وداعياً للسقوط في هوّة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية، ومهيأ لوقوع المتنازعين في مخالب العاديات من الامم، فمن نظر نظرة في أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها، ولم يكن مصاباً بمرض القلب، وعمى البصيرة، أدرك سرّ أمر الله في قوله (واعتصموا بحبل الله جميعا) وسرّ نهيه في قوله (ولا تفرقوا. ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) أي جاهكم وعظمتكم وعلوّ كلمتكم.

ان الله تعالى يجعل الركون الى من لايصحّ الركون اليه، والثقة بمن لاتنبغي الثقة به، سبباً في اختلال الأمر وفساد الحال، فمن وثق في عمله بمن ليس منه في شيء، ولا تجمعه معه جامعة حقيقية، ولا تصله به رابطة صحيحة، وليس في طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته، أو كتم سرّه، ولا ما يحمله على بذل الجهد في جلب منفعته، ودفع المدار عنه، فلا ريب يفسد حاله، ويسوء مآله، وان كان

ملكاً ضاع ملكه، أو أميراً بطل أمـره والحـوادث عـاهدة، وأحـوال المـغرورين ناطقة، فمن لم يرزأ بعمىٰ البصيرة يدرك بأول التفات سر نهى الله تـعالىٰ في قـوله (لاتتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جـاءكم مـن الحق) وقوله (لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا مـا عـنتم قـد بدت البغضاء من أفواههم وما تُخفي صدورهم أكبر) وسائر نواهيه المـبنية عـلىٰ الحكمة البالغة المرشدة الىٰ مصالح الدارين.

لكل شخص في طبقته من أمـته عـمل مـفروض عـليه ، وواجب يـلزمه القيام به، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة في هذه الدنيا، ويـعد لهـا مآلا صـالحاً في الآخرة. وهو انسان له قلب واحـد، لو جـعل مـعظم همـه في شيء فـانه سـائر الأشياء، فلو توغل في الشهوات، وبالغ في الترف، وبطر فيما أنعم الله عـليه، فـقد أغفل فرائضه، وأضر بنفسه، وحرم من منافعه، وحل به مـن عـقاب اللـه أشـد الوبال، وخسر الدنيا والآخرة معاً، وربما مست آثار أعماله بالسوء مـن يجـاوره، واحترق بناره الموقدة بفساد أخلاقه، وانحرافه عن سنن الحـق مـن يسـاكـنه في بلدته، أو يواطنه في مدينته، وهذه آثار المترفين في كل امة تنطق بما لايـعجم إلا على أذن صماء، وتشهد بما لايخفى إلا على بصيرة كمهاء، وان فيما قصّ الله عـلينا من أحوال المترفين، لأكبر عبرة (وكم أهلكنا من قرية بـطرت مـعيشتها فـتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قـليلا وكـنّا نحـن الوارثـين. حـتى اذا أخـذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون. لا تجأروا اليوم إنكم منّا لا تنصرون. ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمـرحـون) هـذه عـواقب اللاهـين بحظوظهم عمّا أوجب الله عليهم (ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضـنكا ونحشره يوم القيامة أعمىٰ).

ما أوتي الانسان من العلم إلا قـليلا، لايمكـن لانسـان وحـده أن يحـيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه، ولا ان يطّلع على منابع فوائده ليكسبها، أو يكشـف

مكامن مضاره فيتقيها. خلق الانسان ضعيفا فأرشده الله للاستعانة بغيره من بني جنسه (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) خلقنا محتاجين للعون مضطرين للصبر وهدانا ربنا للتعاون والتناصر.

هذا مما يحكم به العقل في المصالح الخاصة، فكيف لو كان شخص ولاه الله رعاية أمّة، وألقى اليه بزمام شعب مصالحه التامة تحت إرادته، وهو الوازع فيه والواضع والرافع، لاريب ان مثل هذا الشخص أحوج الى المشورة والاستفادة من آراء العقلاء، وهو أشد افتقاراً الىٰ ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته، وتكون سعة دائرة افتقاره الى التشاور على مقدار سعة سلطانه. وقد أمر الله نبيه وهو المعصوم من الخطأ تعليما وإرشاداً فقال (وشاورهم في الأمر) وقال فيما امتدح به المؤمنين (وأمرهم شورىٰ بينهم) أي بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم، أي بصيرة لاتهتدي الى هذا المنهج القويم (أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين).

ان وازع البلاد والقائم على الملك لو المح لمحة الى نفسه لرأىٰ أن بلاده في كل وقت معرّضة لأطماع الطامعين، وأن الحرص المودع في طباع البشر، يحرّك جيرانه كل آن للسطوة على ممالكه ليذلوا قومه، ويستعبدوا أهله، ويستأثروا بمنافع أرضهم وثمار كدّهم، ويمحوها أبناء جلدتهم، فعليه وعلى من يشركه في أمره من عماله، والحكام النائبين عنه في إيالاته، وقوّاد جيشه، وعلى كل أرباب الرأي، ومن بهم قوام الملك، أن يستعدوا لدفع طوارئ العدوان، ورفع نوازل الغارات الأجنبية، فلو فرطوا في إعداد لوازم الدفاع، أو تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الأطماع، أو تهاونوا فيما يشدّ قوتهم، ويقوّي شوكتهم، بأي وجه كان، ومن أي نوع كان، فقد عرّضوا ملكهم للهلاك، وألقوا بأنفسهم في مهاوي الأخطار.

هذا مما يفهمه الأبله والحكيم، ويصل اليه إدراك الجاهل والعليم، وهو سرّ الافصاح والابهام في قوله تعالىٰ (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أمر بإعداد

القوة ووكلها الى الطاقة وحكم الاستطاعة. على حسب ما يقتضيه الزمان، وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم، هذا أمر الله ينبّه الغافل، ويذكّر الذاهل (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا).

إعطاء كل ذي حق حقه، ووضع الأشياء في مواضعها، وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها، مما يوجب صيانة الملك، وقوّة السلطان، ويشيد بناء السلطة، ويحكم دعائم السطوة، ويحفظ نظام الداخل من الخلل، ويشفي نفوس الأمة من العلل، هذا مما تحكم به بداهة العقل وهو عنوان الحكمة التي قامت بها السموات والأرض، وثبت بها نظام كل موجود، وهو العدل المأمور به على لسان الشرع في قوله تعالىٰ (إن الله يأمركم بالعدل والاحسان) كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة في كل جزء من أجزاء العالم يوجب فنائه واضمحلاله، كذلك الجور في الجمعيات البشرية يسبب دمارها، لهذا حثّت الأوامر الألهية على العدل، وكثر النهي في الكتاب المجيد عن الظلم والجور، والحكام أولىٰ من توجه اليه الأوامر والنواهي في هذا الباب، العدل هو الحكمة التي امتن الله بها على عباده، وقرنها بالخير الكثير فقال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) هي مظهر من أجلّ مظاهر صفاته العلية، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير.

من سار في الأرض، وتتبع تواريخ الأمم، وكان بصير القلب، علم انه ما ينهدم بناء ملك، ولا انقلب عرش مجد، إلا لشقاق واختلاف، أو ثقة بمن لا يوثق به، وتخلل العنصر الأجنبي، أو استبداد في الرأي، واستنكاف عن المشورة، وإهمال في إعداد القوة، والدفاع عن الحوزة، أو تفويض الأعمال لمن لا يحسن أداءها، ووضع الأشياء في غير مواضعها، فيكون جور في الحكم، واختلال في النظم، وفي كل ذلك حيد عن سنن الله، فيحصل غضبه بالخاطئين، وهو أحكم الحاكمين.

لو تدبرنا آيات القرآن، واعتبرنا بالحوادث التي ألمّت بالممالك الاسلامية، لعلمنا ان فينا من حاد عن أوامر الله وضلّ عن هديه، ومنّا من مال عن الصراط المستقيم الذي ضربه الله لنا وأرشدنا اليه، وبيننا من اتبع أهواء الأنفس وخطوات الشيطان (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم) فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة، وقواد الملة المحمدية، ان يهتموا بتنبيه الغافلين عن ما أوجب الله، وإيقاظ النائمة قلوبهم عمّا فرض الدين، ويعلموا الجاهل، ويزعجوا نفس الذاهل، ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم، ويستلفتوهم الى ما أعدّ الله لهم لو استقاموا، ويحذروهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع الى ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ورفض كل بدعة، والخروج عن كل عادة سيئة، لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية، وما نزل بها من قضاء الله عندما حادت عن شرائعه، ونبذت أوامره (فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون).

على العلماء ان يزيلوا اليأس بتذكير وعد الله ووعده الحق في قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) هذه وظيفة العلماء الراسخين وما هم بقليل بين المسلمين، ولا نظنهم يتهاونون فيما فوّض الله اليهم، ووكل الى ذمتهم، وهم امناء الدين وحملة الشرع، ورافعوا لواء الاسلام، وأوصياء الله على المؤمنين، أعانهم الله على خير أعمالهم، ونفع بهم المؤمنين بارشادهم.

ونريد ان نمنَّ علىٰ الذين استضعفوا في الأرض

(ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)

للانسان عقل سمي، وفكر علي، وحدث قوي، وبراعة في الاستدلال، ومهارة في الاستنباط، ومع هذا كله تراه في رأيه عليلاً، ولا يصيب في مقاصده إلا قليلاً، تشابه علل الحوادث في تنوعها يحول بين المرء وعلم الحوادث الآتية، ويحجب عن نظره جادة الصواب، فيخبط في خطاء ويخوض في عمه، وتلتبس عليه المقدمات، فتشبه النتائج، فيختل قياس الاستنباط، هذا ما يحمل كثيراً من الناس على الحكم باستحالة ممكن، أو إمكان مستحيل. لو أن حاذقاً بصيراً بفنون السياسة، وخبيراً بأحوال الأمم، ذهب الى البلاد الهندية قبل اليوم بأربعين سنة، وساح في أرجائها ووقف على أحوال أولاد السلاطين المغوليين، وما هم فيه من الذلة وأحفاد (تيبوسلدان) وما أصابهم من الفقر والمسكنة، وسلالة سلاطين (أوده) وما نزل بهم من الهوان، ونوابي (كارناتك) وأمراء السند وما حل بهم من الصغار، وتدبر شؤون (مرتة) تلك القبيلة العظيمة القاطنة في (فونا) و (ستارة) وما حولها، وأحاط بالبلاء المنصب على غيرهم من سائر الأمراء والرجوات العظام، ثم لاحظ سلطة الانجليز وتغلبهم على تلك البلاد وما أعدوه لقهرها من

الآلات الحربية، والحصون القوية، وما هم عليه من الحذق في الحيل والخدع السياسية، وما عليه رعاياهم من الضعف والعجز وسلامة القلب وغرة الجنان ولو أتى من الفكر في لواحق هذه الاحوال على غاية جهده لحكم بناء على ماالديه من المقدمات، وما يحضره من الأقيسة، بأن أولئك الأقوام وسلائل الأمراء وأحفاد السلاطين، قد ضرب عليهم الذل الأبدي، وسجلت عليهم العبودية السرمدية، بل ربما ذهب به الوهم الى الحكم عليهم بتحتم الفناء ولزوم الاضمحلال، فإن الناظر في شؤونهم ما كان يحضره إلا صولة الانجليز وسمة اقتدارهم، وخضوع الهنديين وشدة عجزهم، ماكان يخطر في ذلك الوقت بخاطر أحد أن الايام تأتي بهذا الحادث الجديد.

ان الروسية تقطع الفيافي من وراء بحر الخزر حاملة عواملها رافعة أعلامها ضاربة في تلك البوادي، زاحفة الى حدود الهند ماكان يختلج في صدر أحد في تلك الأوقات ان حرص الانجليز وطمعهم في الاستيلاء على مصر يوجب انحراف الدول عنهم ويقتضي قيام رجل السياسة (البرنس بسمارك) لجمع كلمة الدول على مصادمتهم. ماكان يحوم في خيال ان قائماً يسمى محمد أحمد يقوم بدعوة دينية في أعالي السودان وبعد ارغامه للانجليز مرات يحرك قلوب الهنديين ويوقظ نائميهم، ويثير الساكن من خواطرهم وينهض الهمم، ويحيى الآمال فيهم بعد القنوط وتنتشر دعوته في أرجاء الهند، نعم ومن أين يكون للانسان علم هذه الحوادث وهي محجوبة بستار الغيب، فهو معذور في أحكامه مقسور على أوهامه.

نرى دوائر السوء تدور بالحكومة الانجليزية، وقد تهيأت ضاريات الشر للوثبة عليها، وليس لها حليف في أوروبا، وان استيئثارها بمنافع الأمم، وطمعها في الاختصاص بمصالح العالم، أبعد عنها الأصدقاء. ونفر منها الأولياء، فكانت هذه السقطة بهزة لنهوض الروسية وتقدمها الى الحدود الهندية، ومن مصلحة

الدول في أوروبا خصوصاً دولة الألمان على ما يظهر من جرائدها الرسمية أن تؤيد الروسية فيما تقصد من فتح الهند، فإن اندفاع السيل الروسي على تخوم الهند خير لأوروبا عموماً وألمانيا خصوصاً من انحداره الى بعض المواقع الأوروبية وأنجع في صيانة السلم الأوروبي اذا جاء يوم التصادم بين روسيا والانجليز على حدود الهند وما هو ببعيد كان قضاء السوء على الجيش الانجليزي في الصدمة الأولىٰ فيما نظن لقلّة عدده، ولأن العدد الغالب فيه من الهنديين الحرجة صدورهم المجروحة قلوبهم المترقبين لفرصة تمكّنهم من الخروج على حكامهم الظالمين. فإذا وقعت الهزيمة اشتعلت نار الثورة في عموم الهند، ومحيت سلطة الانجليز بأيدي الهنديين.

ليس من الممكن للروسية أن تستولي على الأقطار الهندية استيلاء مطلقاً لأول وهلة فإن البلاد واسعة أطرافها شاسعة تحتاج في إدارتها والمحافظة عليها الى ملايين من الناس يعسر عليها جذبهم من بلادها البعيدة، نعم ان الانجليز تسلطوا على الهند ولكن في أحقاب. فدولة روسية ملجأة بحكم الضرورة الى تشكيل ممالك في الهند يديرها رجال من العائلات الملكية القديمة من أولاد سلاطين المغول وذرية سيبو سلطان وأمراء السند و (أوده) و (كارناتك) والمرتيين وغيرهم وتكتفي دولة الروس بعقد محالفات تجارية بينها وبين تلك الممالك. وربما كانت هذه السيرة توافق بعض الإمارات الاسلامية المستقلة وبعض ممالك المسلمين وقد يكون من مصلحة دولة ايران وامارة افغانستان ان تتفقا مع الروسية اتفاقاً يفيد كلاً من المتحالفين.

ان الروسية ما جاءت الىٰ (مرو) لتهلك عساكرها في قفارها ولا يصدها عن سيرها إخلاصها في محبة الانجليز ولا ارتباطها معهم بعهد مع علمها ان لا عهد لهم. انما جاءت لتفتح باب التجارة مع أثرىٰ قطر في الشرق وتهدم سلطان الانجليز فيه، فإن الاثرة الانجليزية ما تركت مصلحة تجارية تتمتع بها أمة من

الأمم. هذا عارض سوء على حكومة بريطانيا ولكنه سحاب رحمة على الهنديين بما انتقم الله لهم من عدوهم فبذلك فليفرحوا وليعد الأمراء أنفسهم لما أعد الله لهم من العزة بعد الذلة والحرية بعد العبودية والخلاص من قهر حكومة لا ترحم صغيراً ولا توقّر كبيراً.

لانظن ولن نظن ان يجد الانجليز لهم يوم التصادم نصيراً من دول أوربا ولا من دول المشرق ولا من الهنديين ولا من صنف البشر لأنه لا توجد نفس تشعر بوجود حكومة الانجليز على سطح الأرض إلا وقد مسها منهم شيء من الضرّ.

ان حكومة الانجليز تشعر بقربها من هذا الخطر العظيم وتعلم ان ما ينزل بها من المصاب في الهند لايقصر ضرره على حالها فيه ولكنه يزلزل جزائر بريطانيا فإن حياتها ومجدها ليس إلا بالهند، كيف لايشعر الإنجليز بسوء عاقبتهم وهم يحسون بضعفهم في القوى العسكرية وانحراف قلوب رعاياهم الهنديين عنهم واحتدامها غيظاً عليهم عجّل الله لهم مافيه خير الضعفاء.

ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات

(وأولئك لهم عذاب عظيم)

أزفت هجمة الروسية على الهند وسير الدول في سياستها وحرصها على تقرير السلم في أوربا يمد الروس في مقاصدهم ويهيئ لهم الأسباب ويقرّب مدة الوصول. هذا طور من السياسة جديد لو اتفقت فيه دولة ايران مع امارة افغانستان لكان لكل منهما حظ وافر ونفع جزيل، ان الروسية وان كانت تنصرها نفرة القلوب الهنديين من الانجليز إلا ان في طريقها عقبات لا يذللها إلا موالاة الفرس والأفغان. ان الهند بعيد من معسكرات الروس ودونه مسالك مجهولة وطرق ملتوية وليس الروس من الخبرة بها في شيء، الروس في حاجة للمواصلة مع أمراء الهند وفي ضرورة للوقوف على اخلاقهم ومجاري ميلهم ومواقع أهوائهم ولا سبيل يوصلهم الى ذلك إلا إشراك الفارسيين والأفغانيين في أعمالهم الحربية والسلمية. ليس من السهل على الروسية أن تستعين بدولة فارس وامارة الأفغان على فتح أبواب الهند إلا ان تساهمها في الغنيمة وتشركها في المنفعة وإلا كانا سدّاً محكماً دون أهم غاياتها.

كيف يمكن للروسية ان تخرق تلك الأجسام الآخذة بطريق الهند وهي

مرابض الأسود. كيف تتوهم السلامة في معابرها الضيقة اذا قصدت الاختصاص بالفريسة. ان الروسية لاتخفى عليها صعوبة الأمر ولا يغيب عنها ان كشف أمة عظيمة عن بلاد سكنتها أحقاباً ونالت فيها أعلى مجد وأعظم فخار يعدّ من أعظم الأعمال ويحتاج لكثرة الأعوان والأنصار وليس بين يديها من يصح به الاستنصار إلا دولة الفرس وحكومة الأفغان فليس من الحكمة في العمل ان تختص دونها بثمراته خصوصاً وانها لاتبتغي سوى فتح أبواب الهند للتجارة فعلى الأفغانيين ان يرفعوا أبصارهم ويستقبلوا حظهم بفكر سديد وعقل رشيد، ويتقدموا للاتفاق مع إخوانهم الايرانيين، فليس بينهم وبينهم ما يصح عليه الاختلاف في المصالح العمومية فالجميع من أصل واحد، وتجمعهم رابطة واحدة، وهي أشرف الروابط «رابطة الدين الاسلامي» وليعلموا ان استمرارهم على التخالف في مثل هذا الوقت ربما يجلب الضرر عليهم وعلى اخوانهم المسلمين من الهنديين. وعلى الفارسيين والأفغانيين ان يراعوا الكلمة الجامعة والصلة الجنسية ولا يجعلوا الاختلاف الفرعي في المذهب سبباً في خفض الكلمة الاسلامية، وقطع الصلة الحقيقية، فليس من العقل ان يقام من خلاف جزئي، علّة لاضمحلال الكل.

أظن ان قد علم كل من القبيلين ان الاختلاف بينهما هو الذي جلب على كل منهما ما جلب. هذا الخلاف الفرعي بينهم استعمله بعض السياسيين في الأزمان السابقة آلة للشقاق والمناوءات، وربما جنوا من غرسهم ثماراً آتية، ولكنه الآن لايثمر إلا الدمار والبوار، وهذا مما لا أخاله يخفى على عاقل. لايجوز للأفغانيين في هذا الوقت ان يقفوا عند هذا الخلاف الفرعي فليجوزوه الى الوحدة الأصلية فإن الأخطار حاطتهم من كل جانب، ولا منجاة لهم إلا بالاتفاق مع إخوانهم الفارسيين، هذا وقت التآخي، وهذه فرصة الالتئام، ليس للأفغانيين عذر، ولا للتعلل عندهم محل، لاسيما وقد تولى الصدارة في الدولة الفارسية رجل

عظيم القدر رفيع الشأن، واسع العرفان، لا تحجبه شؤون الكثرة، عن ذات الوحدة، ولا تقف به أطوار التلوين، دون منازل التمكين، ولا تشغله مظاهر الفرق عن مقامات الجمع، يتجلى له الواحد في مراتب الكثير، وتنجلي له حقيقة الأحدية في المنازل العددية، فالاتحاد مشربه، والائتلاف مذهبه، وعندي أنه الأب الرحيم لكل ايراني بدون استثناء، يسعى لجمع كلمتهم بلا ملاحظة اختلاف المذهب، ولا تفارق في الفروع، وانما يراعى الجامعة الحقة، فعلى الأفغانيين ان يمدوا سواعدهم في هذه الأوقات لمحالفة اخوانهم ولا يضيعوا هذه الفرصة، وعلى القبيلين ان يجعلوا وفاقهم سياجاً لأوطانهم، وعدة لمكافحة أعدائهم، ومنبعاً فيّاضاً لخير بلادهم، فينالوا شرفاً رفيعاً، ويورثوا أعقابهم مجداً مخلداً.

سُنن الله في الأُمم
وتطبيقها علىٰ المسلمين

(ان الله لايغيّر ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم. ذلك بأن الله لم يكُ مغيراً نعمة أنعمها علىٰ قوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم)

(تلك آيات الكتاب الحكيم، تهدي الى الحق والى صراط مستقيم)، ولا يرتاب فيها إلا القوم الضالون، هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من وعد وأقدر من أوعد، هل كذب الله رسله، هل ودع أنبياءه وقلاهم، هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال، نعوذ بالله !! هل أنزل الآيات البينات لغواً وعبثاً، هل افترت عليه رسله كذباً، هل اختلقوا عليه افكاً، هل خاطب الله عبيده برموز لايفهمونها، وأشارات لايدركونها، هل دعاهم اليه بما لايعقلون، نستغفر الله ! أليس قد أنزل القرآن عربياً غير ذي عوج، وفصّل فيه كل أمر وأودعه تبياناً لكل شيء، تقدّست صفاته وتعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً، هو الصادق في وعده ووعيده، ما اتخذ رسولاً كذاباً، ولا أتىٰ شيئاً عبثاً، وما هدانا إلا سبيل الرشاد، ولا تبديل لآياته، تزول السموات والأرض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يقول الله (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون)، ويقول (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)، وقال (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)، وقال (ليظهره على الدين كلّه وكفىٰ بالله شهيدا) هذا ما وعد الله في محكم الآيات مما لايقبل تأويلا، ولا ينال هذه الآيات بالتأويل ؛ إلا من ضلّ عن السبيل، ورام تحريف الكلم عن مواضعه، هذا عهده الى تلك الأمة المرحومة، ولن يخلف الله عهده، وعدها بالنصر والعزة وعلو الكلمة، ومهّد لها سبيل ما وعدها الى يوم القيامة، وما جعل لمجدها أمداً، ولا لعزتها حدّاً.

هذه أمة أنشأها الله عن قلة، ورفع شأنها الى ذروة العلى، حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات، ودكت لعظمتها عوالي الراسيات، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات، وذابت للرعب منها أعشار القلوب، هال ظهورها الهائل كل نفس وتحيّر في سببه كل عقل، واهتدى الى السبب أهل الحق فقالوا : قوم كانوا مع الله فكان الله معهم، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من عنده هذه أمة كانت في نشأتها فاقدة الذخائر، معوزة من عنده، هذه أمة كانت في نشأتها فاقدة الذخائر، معوزة من الاسلحة وعدد القتال، فاخترقت صفوف الأمم واختطت ديارها، ولا دفعتها أبراج المجوس وخنادقهم، ولا صدتها قلاع الرومان ومعاقلهم، ولا عاقها صعوبة المسالك، ولا أثر في همتها اختلاف الأهوية، ولا فعل في نفوسها غزارة الثروة عند من سواها، ولا راعها جلالة ملوكهم، وقدم بيوتهم، ولا تنوع صنائعهم، ولا سعة دائرة فنونهم، ولا عاق سيرها أحكام القوانين، ولا تنظيم الشرائع، ولا تقلب غيرها من الأمم في فنون السياسة، كانت تطرق ديار القوم فيحتقرون أمرها، ويستهينون بها، وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تزعزع أركان تلك الدول العظيمة، وتمحو أسماءها من لوح المجد، وما كان يختلج بصدر ان هذه العصابة الصغيرة، تقهر تلك الأمم الكبيرة، وتمكن في نفوسها عقائد دينها، وتخضعها لأوامرها

وعاداتها وشرائعها، لكن كان كل ذلك ونالت تلك الأمة المرحومة على ضعفها، مالم تنله أمة سواها، نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجداً في الدنيا، وسعادة في الآخرة.

هذه الأمة يبلغ عددها اليوم زهاء أربعمائة مليون من النفوس، وأراضيها آخذة من المحيط الأطلسي الى أحشاء بلاد الصين، تربة طيبة، ومنابت خصبة، وديار رحبة، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة، وأموالها مسلوبة، تتغلب الاجانب علىٰ شعوب هذه الأمة شعباً شعباً، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة، ولم يبق لها كلمة تسمع، ولا أمر يطاع، حتى ان الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم في ملمة، ويمسون في كربة مدلهمة، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التي تلم بهم، وصار الخوف عليهم أشدّ من الرجاء لهم.

هذه هي الأمة التي كانت الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يد، وهن صاغرات، استبقاء لحياتهن، وملوكها في هذه الأيام يرون بقاءهم في التزلّف الى تلك الدول الأجنبية ويا للمصيبة ويا للرزية.

أليس هذا بخطب جلل، أليس هذا ببلاء نزل، ما سبب هذا الهبوط، وما علّة هذا الانحطاط ؟ هل نسيء الظن بالوعود الالهية، معاذ الله هل نستيئس من رحمة الله ونظن ان قد كذب علينا، ونعوذ بالله ! هل نرتاب في وعده بنصرنا بعد أن أكده لنا، حاشاه سبحانه، لا كان شيء من ذلك ولن يكون فعلينا أن ننظر لأنفسنا ولا لوم لنا إلا عليها، ان الله تعالىٰ برحمته قد وضع لسير الأمم سنناً متبعة، ثم قال : (ولن تجد لسنة اللّٰه تبديلا).

أرشدنا سبحانه في محكم آياته الى ان الأمم ما سقطت من عرش عزها، ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنّها الله على اساس الحكمة البالغة، ان الله لا يغيّر ما بقوم من عزة وسلطان، ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة، حتىٰ يغيّر أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل

وصحة الفكر، وإشراق البصيرة والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة، والتدبر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحلّ بهم الدمار، ثم لعدولهم عن سنّة العدل، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة، حادوا عن الاستقامة في الرأي، والصدق في القول، والسلامة في الصدر، والعفة عن الشهوات، والحمية على الحق، والقيام بنصره، والتعاون على حمايته، خذلوا العدل ولم يجمعوا همهم على إعلاء كلمته، واتبعوا الأهواء الباطلة، وانكبوا علىٰ الشهوات الفانية، وأتوا عظائم المنكرات، خارت عزائمهم، فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين.

هكذا جعل الله بقاء الامم ونماءها في التحلي بالفضائل التي أشرنا اليها، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها، سنّة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال، كسنته تعالىٰ في الخلق والايجاد، وتقدير الأرزاق وتحديد الآجال، علينا ان نرجع الى قلوبنا، ونمتحن مداركنا، ونسبر أخلاقنا، ونلاحظ مسالك سيرنا، لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالايمان، هل نحن نقتفي أثر السلف الصالح، هل غيّر الله ما بنا قبل ان نغيّر ما بأنفسنا، وخالف فينا حكمه وبدّل في أمرنا سنته، حاشاه وتعالى عما يصفون، بل صدقنا الله وعده، حتى اذا فشلنا وتنازعنا في الأمر وعصيناه من بعدما أرى أسلافنا ما يحبون، وأعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنّا شيئاً، فبدّل عزنا بالذل، وسمونا بالانحطاط، وغنانا بالفقر، وسيادتنا بالعبودية، نبذنا أوامر الله ظهريا، وتخاذلنا عن نصره، فجازانا بسوء أعمالنا، ولم يبق لنا سبيل الى النجاة سوى التوبة والإنابة اليه، كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرىٰ الأجانب عنّا يغتصبون ديارنا، ويستذلون أهلها، ويسفكون دماء الأبرياء من إخواننا، ولا نرى في أحد منّا حراكاً.

هذا العدد الوافر والسواد الأعظم من هذه الملة لا يبذلون في الدفاع عن

أوطانهم وأنفسهم شيئاً من فضول أموالهم، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، كل واحد منهم يود لو يعيش ألف سنة، وان كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة، ومسكنه الهوان، تفرقت كلمتنا شرقاً وغرباً، وكاد يتقطع ما بيننا، لا يحن أخٌ لأخيه، ولا يهتم جار بشأن جاره، ولا يرقب أحدنا في الآخر إلاً ولا ذمة، ولا نحترم شعائر ديننا، ولا ندافع عن حوزته، ولا نعززه بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسبما أمرنا.

أيحسب اللابسون لباس المؤمنين ان الله يرضى منهم بما يظهر علىٰ الألسنة ولا يمسّ سواد القلوب، هل يرضىٰ الله عنهم بأن يعبدوه على حرف، فإن أصابهم خير إطمأنوا به، وان أصابتهم فتنة انقلبوا علىٰ وجوههم خسروا الدنيا والآخرة، هل ظنوا ان لايبتلي الله ما في صدورهم، ولا يمحص ما في قلوبهم، ألا يعلمون ان الله لايذر المؤمنين على ماهم عليه حتى يميّز الخبيث من الطيب، هل نسوا ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره وإعلاء كلمته،، لايبخلون في سبيله بمال، ولا يشحون بنفس، فهل لمؤمن بعد هذا ان يزعم نفسه مؤمناً وهو لم يخط خطوة في سبيل الايمان، لا بماله ولا بروحه.

إنما المؤمنون هم الذين اذا قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لايزيدهم ذلك إلا إيماناً وثباتاً، ويقولون في أقدامهم حسبنا الله ونعم الوكيل، كيف يخشىٰ الموت مؤمن وهو يعلم ان المقتول في سبيل الله حي يرزق عند ربه، متمتع بالسعادة الأبدية، في نعمة من الله ورضوان، كيف يخاف مؤمن من غير الله، والله يقول (فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين).

فلينظر كل الى نفسه ولا يتبع وساوس الشيطان، وليمتحن كل واحد قلبه قبل أن يأتي يوم لاتنفع فيه خلّة ولا شفاعة، وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين، وما جعله الله من خصائص الايمان، فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا، ياسبحان الله، ان هذه أمتنا أمة واحدة، والعمل في

صيانتها من الاعداء أهم فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء، يثبت ذلك نصّ الكتاب العزيز، واجماع الأمة سلفاً وخلفاً، فما لنا نرى الاجانب يصلون على البلاد الاسلامية، صولة بعد صولة، ويستولون عليها دولة بعد دولة، والمتسمون بسمة الايمان آهلون لكل أرض، متمكنون بكل قطر، ولا تأخذهم علىٰ الدين نعرة، ولا تستفزهم للدفاع عنه حمية، ألا يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن، وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي، وتتخذوه إماماً لكم في جميع أعمالكم، مع مراعاة الحكمة في العمل، كما كان سلفكم الصالح، ألا يا أهل القرآن هذا كتابكم فاقرأوا منه (فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت) ألا تعلمون فيمن نزلت هذه الآية، نزلت في وصف من لا ايمان لهم، هل يسر مؤمناً أن يتناوله هذا الوصف المشار اليه بالآية الكريمة أو غر كثيرين من المدعين للايمان ما زين لهم من سوء أعمالهم، وما حسنته لديهم أهواؤهم (أفلا يتدبرون القرآن أم علىٰ قلوب أقفالها).

أقول ولا أخشىٰ نكيراً، لا يمس الايمان قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه في سبيل الايمان، لا يراعى في ذلك عذراً ولا تعلة، وكل اعتذار في القعود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله.

مع هذا كلّه نقول أن الخير في هذه الأمة الى يوم القيامة كما جاءنا به نبأ النبوّة، وهذا الانحراف الذي نراه اليوم نرجو ان يكون عارضاً يزول، ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأحيوا روح القرآن، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة، واستلفتوهم الى عهد الله الذي لايخلف، لرأيت الحق يسمو، والباطل يسفل، ولرأيت نوراً يبهر الأبصار، وأعمالاً تحار فيها الأفكار، وان الحركة التي نحسها من نفوس المسلمين في أغلب الأقطار هذه الأيام، تبشرنا بأن الله قد أعدّ النفوس لصيحة حق يجمع بها كلمة

المسلمين، ويوحد بها بين جميع الموحدين، ونرجو أن يكون العمل قريباً، فإن فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم، صحت لهم الأوبة، ولصحت منهم التوبة، وعفا الله عنهم، والله ذو فضل على المؤمنين، فعلى العلماء أن يسارعوا الى هذا الخير، وهو الخير كلّه : جمع كلمة المسلمين، والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً).

* * *

الوهم

(اللّهم اكشف عن بصائرنا ستار الأوهام حتىٰ نرىٰ الحقائق كما هي كيلا نضل ونشقىٰ).

ألا قاتل الله الوهم، الوهم طوراً يكون مرآة المزعجات، مجلىٰ المفزعات، وطوراً يكون ممثلاً للمسرات، حاكياً للمنعشات، وهو في جميع أطواره حجاب الحقيقة، وغشاء على عين البصيرة، لكن له سلطان علىٰ الإرادة وحكم علىٰ العزيمة، فهو مجلبة الشر، ومنفاة الخير.

الوهم يمثل الضعيف قوياً، والقريب بعيداً، والمأمن مخافة، والموئل مهلكاً، الوهم يذهل الواهم عن نفسه، ويصرفه عن حسه، يخيل الموجود معدوماً، والمعدوم موجوداً، الواهم في كون غير موجود، وعالم غير مشهود، يخبط فيه خبط المصروع، لايدري ماذا أدركه وماذا تركه، الوهم روح خبيث يلابس الروح الانسانية وهي في ظلام الجهل، إذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام، وتسلطت علىٰ الإرادات، فتقود الواهمين الىٰ بيداء الضلالة، فيخبطون في مجاهيل، لايهتدون الىٰ سبيل، ولا يستقيمون علىٰ طريق.

كان الانجليز أمة مجتمعة القوى، مستكملة العدد مستعدة للفتوحات، وذلك في زمان بليت فيه الأمم الشرقية بتفريق الكلمة، واختلاف الاهواء، وحجبت

بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم، فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة، وكل بديع من الإختراع سحراً أو كرامة، فانتهز الإنجليز تلك الفرصة واندفعوا الىٰ الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه، وما دهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الأوربية التي أثارت فيهم خواطر الأوهام، ثم زاد الوهم قوة ما نصبه الانجليز من حبائل الحيلة والمكر، حتى خلبوا قلوب المساكين وأذهلوهم عمّا في أيديهم، بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم، فسلبوا أموالهم، وانتزعوا منهم أراضيهم، وأجلوهم عن أملاكهم، فاستغنت الأمة الانجليزية بما سلبت، وأثرت بما نهبت، وترفهت بما ملكت، واليوم تراها حاكمة على اقطار واسعة، وانحاء شاسعة، وقواها منقسمة علىٰ تلك الأقطار، متوزعة فيها، فلا ترىٰ في كل إيالة من إيالاتها الشرقية إلا نزر من العدة والعدد، وهي في جميعها ضعيفة واهنة، لاتستطيع ذوداً ولا دفاعاً، وان أخف حركة في تلك الانحاء توجب زعزعة في تلك القوة أو هدمها بالمرة، وقد ظهر هذا الأمر علىٰ الأمة الانجليزية، فهي دائماً في رجفة على أملاكها، في خيفة من تمزّقها وضياعها، تتوجس من كل حادثة في العالم، وتقلق لأية حركة تحدث في الوجود، وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب توجب بحدوثها زلزلة في قوى الانجليز المتوزعة في الأنحاء الضعيفة في جميع الأرجاء.

ومع هذا كلّه نرى الأمر لم يزل خفياً علىٰ الشرقيين، محجوباً عنهم بحجاب الوهم، يمثل الوهم لكل شرقي أن الانجليز على ماكانوا عليه في ماضي زمانهم، فمثل الشرقيين مع الانجليز كمثل مار في مفازة يرى بها جثة أسد مطروحة علىٰ طريقه فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهمها سبعاً ضارياً ومفترساً قوياً فينكب عن الطريق وهماً وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه، يرتعد ويسقط ويموت خوفاً أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتختلط عليه مسالك الوصول الى غايته وربما صادف مهلكة في ضلالة ومتلفة في غيه، بل لا نخطئ ان قلنا ان هذا الوهم كان

متسلطاً على الغربيين كما هو متسلط على الشرقيين، فالأوربيون كانوا ينظرون الى انجلترا في أملاكها البعيدة كما ينظرون اليها في جزائر بريطانيا وكانت حكومة انجلترا متحصنة ممتنعة في هذه القبة الوهمية، متربعة على عرش هذه العظمة الخيالية، يحسّ الانجليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائماً في ستره ولا ستار أكثف من الوهم، ولهذا نراهم في كل حادثة يجلبون ويصيحون ويزأرون ليشيروا بالضوضاء هواجس الأوهام، فتحول أنظار الناظرين، وتغشى بصائر المستبصرين، فتحول دون استطلاع الحقيقة، وإلا فقليل من الإلتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب علىٰ الانجليز.

ذهب الانجليز الى الهند في قوى مجتمعة وتسابقوا مع فرنسا وهولندا والبرتغال في ميدان الأراضي الهندية الواسعة فحازوا في هذه المباراة قصب السبق بما امتازوا به من الدهاء والمكر، وبما ساعدهم علىٰ ذلك من غفلة الهنديين لذاك العهد أو طيب قلوبهم، فمالت النفوس الى الانجليز اغتراراً، وتغلبوا علىٰ تلك البلاد واستقلوا بأمرها شيئاً فشيئاً وما أبقوا لغيرهم من الدول إلا مضائق من الأرض لا تذكر، وأول ما استمالوا به القلوب السالمة قولهم اننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولندا والبرتغال) فإنها تريد التسلّط على ممالككم، أما نحن «الانجليز» فلا نريد إلا تحريركم واستقلالكم. ثم انا نرى للانجليز الآن في الهند والهند الصينية، وبورما سلطة على نحو مائتين وخمسين مليوناً من النفوس جميعها كاره لتلك السلطة الانجليزية، طالب للتخلص منها، يفضل أيّة سلطة سواها، ظالمة كانت أو عادلة، كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الأمم أنه لاتوجد حكومة في العالم تبلغ في ظلمها مبلغ الانجليز، ولا تصل الى ما وصل اليه الانجليز في الكبرياء والجبروت، ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا، ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها، وشدّة ميلهم للتملص من تلك السلطة الظالمة، لايوجد فيهم قوة تقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة

المبغوضة إلا خمسون الف جندي انجليزي، مع انه يوجد من الممالك الصغيرة التي لها نوع من الاستقلال وتخشىٰ زوال ما بقي لها، ما لو جمعت قواها لبلغت أكثر من ثلاثمائة ألف جندي، هذا فضلاً عمّن يمكنه حمل السلاح من أهالي البلاد التي دخلت في الحكومة الانجليزية وزال استقلالها بالمرة، فلولا الوهم الذي استولى على المشاعر والحواس حتى أذهلها عمّا بين يديها، بل عما هو موجود فيها، ما بقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفائقة القوة في قبضة قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل والهوان، ولو لمح أولئك المساكين أنفسهم لمحة اعتبار، وأدركوا ما أتاهم الله من القوة الطبيعية، ونظروا الى ضعف الانجليز في الحالة الحاضرة لرأوا موئل الخلاص بين أيديهم، وملجأ النجاة تحت أرجلهم، وعلموا ان استقلالهم لأنفسهم وبلادهم، لايحتاج الى تجشم تعب ولا تكلف مشقة، ولا يدعو الىٰ بذلك أموال وافرة، ولا سفك دماء غزيرة.

يوجد في الدول الأوروبية من يهاب دولة الإنجليز اعتباراً لما في سلطتها من الممالك الواسعة والأمم العظيمة مما لم يبلغ عدده رعية دولة من الدول، ويقيس شأنها وقوتها في تلك الأطراف القاصية بما يراه في جزائر بريطانيا ويظن ان لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوي قدرتها عليه في بريطانيا أو تقرب منها، ولم يلتفت الى ان جسم الانجليز قد مد في الطول والعرض الى حدّ لو حصلت فيه أدنىٰ هزّة لتقطعت أوصاله (رق حتىٰ انقطع) تفرقت قواهم في بسيط الأرض حتى لم تبق لهم في موضع قوة، ورعاياهم في كل صقع في ضجر لا مزيد عليه يترقبون في كل آن زحفاً من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين، لو التفتت تلك الدولة التي تهاب انجلترا الى حقيقة الأمر لما احتاجت في معارضتها ومنازلتها الىٰ تدبر ولا مشورة، فقد وصل الأمر من الظهور الى حد لايحتاج الىٰ دقة الفكر لولا حجاب الوهم. قاتل الله الوهم.

ان العثمانيين ينظرون الى دولة الانجليز كما ينظرون الىٰ دولة الروس مع

ملاحظة ان دولة إنجلترا تحكم على مائتين وخمسين مليوناً من النفوس فيظنون لهذا النظر ان معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر، وليتهم مدوا أنظارهم الى ما وراء ذلك ليتبين لهم قوتها العسكرية، وماذا يمكنها ان تسوق من الجنود الى ميادين القتال، ويتضح لهم ان هذه الملايين الكثيرة لا اعتداد بها في قوة دولة انجلترا، فإنما هي في الحقيقة قوة لأعدائها عليها، وهي في ارتقاب الفرص لخلع طاعتها، فمتىٰ ارتبكت دولة انجلترا بالحرب مع دولة أخرىٰ رأيت مائتين وخمسين مليوناً تقاتل عساكر الانجليز خصوصاً خمسين مليوناً من المسلمين في حكومة انجلترا يعدون الدولة العثمانية قبلة لهم وملاذاً يلجأون اليه وهم أول قوم حربيين في البلاد الهندية. ليت العثمانيين يعلمون ان دولة إنجلترا انما تستميل المسلمين في الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها ومدافعة عن حقوقها. أما والله لو علم العثمانيون ماهم من السلطة المعنوية على رعايا الانجليز واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء لما تجرعوا مرارة الصبر على تحكمات الانجليز وحيفهم في أعمالهم، وتعديهم على حقوق السلطان في مثل المسألة المصرية التي هي في الحقيقة أهم مسألة عثمانية أو اسلامية.

ان سكنة مصر كانوا أيام عرابي علىٰ قسمين، قسم يروم حفظ الحالة القديمة والوقوف عندما يرسم به توفيق باشا، وقسم كان يميل بأحد جانبيه الىٰ عرابي، ويهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديم، فكان هذا القسم الثاني في ريبة من أمره ولا عزيمة من الريب. والقسم الأول مخلد الى الفشل، فدخل الانجليز بلا حرب حقيقية وانما بنوع من الترهيب وقليل من الترغيب وخفيف من الدسائس، صادف قلوباً مستعدة فأخذ منها مقاماً، فانحلت الرابطة وتفرّق الناس عن عرابي بزوال جانب الميل اليه من قلوبهم. ومع ذلك ما كان يعتقد واحد منهم أن الانجليز يبتغون من البلاد شيئاً سوى انهم يؤيدون توفيق باشا وينقذونه من الثائرين عليه، فتساهل المصريون في الأمر بحسن ظنّهم في حكومة

الانجليز مع ما جاءتهم من الحجة القوية القائمة على ان صاحب السيادة الشرعية في رضاء عن تصرفها، بهذا فاز الانجليز واستقرت أقدامهم، أما وقد مضىٰ الزمان الكافي لظهور غدرهم، وسوء نيّتهم، فلا يوجد من الأهالي المصريين من يميل اليهم، بل لايوجد إلا من يبغضهم ويتمنىٰ فناءهم، ويود لو يعمل عملاً لهلاكهم، ولكن الوهم يجسم المخافة ويكبح العزيمة. إن أهالي مصر كأنهم ذهلوا عن الأسباب التي مكّنت الانجليز من بلادهم، كأنهم يظنون ان المصريين كانوا على كلمة واحدة في مدافعة الانجليز، ثم تغلبت عليهم القوة الانجليزية وقهرتهم جميعاً. كأن المصريين نسوا ما كان بينهم وان الانجليز ما دخلوا بلادهم إلا بعونتهم. هذا هو الوهم العجيب. ان الذين كانوا من مدة سنتين سبباً في تغلّب العساكر الانجليزية وحلولها في وادي النيل وأنه لولاهم ما استقر لها قدم فيه، يظنون الآن أن تلك العساكر قادرة على قهر الأهالي عموماً وإخضاعهم لحكومة بريطانيا. وبهذا الظن الباطل يستسلمون لأعدائهم كرهاً ويجارونهم في أهوائهم نفاقاً. هلا ينظر المصريون نظرة متأمل الى القوة الانجليزية ليعلموا ان ليس في طاقة بريطانيا لو أفرغت جهدها أن تبعث الى مصر والسودان أزيد من عشرين ألف جندي. ألا يعلمون أنه اذا اشتغل الجند الانجليز بالسودان وحصلت حركة خفيفة في الشرقية والبحيرة والفيوم لارتبك الانجليز وخارت عزائمهم والتجأوا لترك البلاد لأهلها. ألا قاتل الله الوهم.

ان للانجليز قوة حربية بحرية لا تنكر، ولكن مبلغ تلك القوة البحرية هو الذي ظهر أثره في سواكن. لايمكن ان تعمل عملاً فيما يبعد عن البحر أكثر من فرسخين. فلو فرضنا ان الانجليز أطلقوا قنابلهم على السواحل فهل في استطاعتهم ان يقيموا تحت ظلال القنابل الىٰ أبد الآبدين. إذا كان الأهالي في داخل البلاد يناوئونهم وليس لهم من القوة العسكرية البرية ما يقهرهم على الطاعة. ليس في الأمر شيء سوى الوهم، هذا الوهم تمزقت حجبه عن بصائر

الغربيين فعلموا من هم الانجليز.. ضعيف يسطو على حقوق الأقوياء. صوت عال وشبح بال. قامت الدول على معارضتهم لعلمها ان الانجليز صاروا للأمم كالدودة الوحيدة على ضعفها تفسد الصحة وتدمّر البنية. لكن بقي ان يزول هذا الوهم عن الشرقيين حتى يستفيدوا من هذه الحركات ويستقلوا بأمورهم ولا ينتقلوا من عبودية الىٰ أخرىٰ، ولا يستبدلوا سيداً أجنبياً بسيد آخر. اللّهم أرفع عنّا حُجب الأوهام وهيئ لنا الرشد في أمورنا، واحفظنا من الغواية واهدنا الىٰ خير نهاية.

* * *

الجُبْن

(أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة. قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم).

شهد العيان ودلت الآثار على ماصدر من بعض أفراد الإنسان من أعمال تحيّر الألباب، وتدهش الأفكار، ينظر اليها ضعفاء العقول، فيعدونها معجزات، وان لم تكن في أزمنة النبوات، ويحسبونها خوارق عادات، وان لم تكن من تحدي الرسالات، وقد ينسبها الغفل الىٰ حركات الأفلاك، وأرواح الكواكب، وموافقة الطوالع، ومن القاصرين من يظنها من أحكام الصدف، وقذفات الاتفاق، عجزاً عن إدراك الأسباب، وفهم الصواب، وأما من أتاه الله الحكمة، ومنحه الهداية، فيعلم ان الحكيم الخبير جلّ شأنه، وعظمت قدرته، أناط كل حادث بسبب، وكل مكسوب بعمل، وانه قد اختص الانسان من بين الكائنات بموهبة عقلية، ومقدرة روحانية، يكون بهما مظهراً لعجائب الأمور، وبهذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكاليف الشرعية، وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء والثواب أو العقاب عند واسع الكرم سريع الحساب.

إذا رجع البصير الى القياس الصحيح، رأىٰ في تشابه القوى الانسانية،

وتماثل الفطرة البشرية، مايدل على تقارب العقول بل على استواء المدارك، وأرشده الفكر السليم الى أن فضل الله قد أعدّ كل انسان للكمال، ومنحه ما يكون به مصدراً لفضائل الأعمال، على تفاوت لا يظهر به الاختلاف بينها إلا للنظر الدقيق. هنا وقفة الحيرة.. استعداد فطري للكمال في خلقة الانسان، ميل كلي في كل فرد لأن ينفرد بالفخار، ويمتاز بجلائل الآثار، وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه وتعالىٰ، لايخيب طالباً، ولا يرد سائلاً، إذا صدق القاصد في قصده، وأخلص السالك في جده، فما العلة في إخلاد الجمهور الأعظم من بني الانسان الى دنيات المنازل وقصورهم عن الوصول الى ما أعدته لهم العناية ويستفزهم اليه الميل الغريزي، خصوصاً أن كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدّقة بوعده ووعيده، ترجو ثواباً على الباقيات الصالحات، وتخشى عقاباً على ارتكاب الخطيئات، وتعترف بيوم العرض الأكبر، يوم تجزى كل نفس بما كسبت (من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ماذا يقعد بالنفوس عن العمل، ماذا ينحدر بها في مزالق الزلل. إذا ردت المسببات الى أسبابها، وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها وجدنا لهذا علّة هي أم العلل. ومنشأ يقرن به كل خلل «الجبن».

الجبن هو الذي أوهىٰ دعائم المالك فهدم بناءها. هو الذي قطع روابط الأمم فحل نظامها. هو الذي أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم. وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم. هو الذي يغلق أبواب الخير في وجوه الطالبين. ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين. يسهل على النفوس احتمال الذلة. ويخفف عليها مضض المسكنة. ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل. يوطن النفس على تلقي الاهانة بالصبر والتذليل بالجلد ويوطئ الظهور الجاسية لأحمال من المصاعب أثقل مما كان. يتوهم عروضه عند التحلي بالشجاعة والاقدام. الجبن يلبس النفس عاراً دون القرب منه موت أحمر عند كل روح

زكية وهمة عليّة. يرىٰ الجبان وعر المذلات سهلا. وشظف العيش في المسكنات رفها ونعيما.

ومن يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

لا بل يتجرع مرارات الموت في كل لحظة ولكنه راض بكل حال وان لم يبق له إلا عين تبصر الاعداء. ولا ترى الاحياء، ونفس لا يصعد إلا بالصعداء وإحساس لايلم به إلا ألم اللأواء. هذه حياته : اضاع كل شيء في القناعة بلا شيء. وهو يظن أنه أدرك البغية. وحصل المنية.

ماهو الجبن ؟ إنخذال في النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها، وهو مرض من الأمراض الروحية، يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية، وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع الى الخوف من الموت، الموت مآل كل حي ومصير كل ذي روح، ليس للموت وقت يعرف، ولا ساعة تعلم، ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر في كل لحظة، ولا يعلمه إلا مقدر الآجال جلّ شأنه (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت) يشتد الخوف من الموت الى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم، والذهول عمّا أعدّه الله للانسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة اذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله، نعم يغفل الانسان عن نفسه فيظن ما جعله الله واقياً للحياة ـ وهو الشجاعة والاقدام ـ سبباً في الفناء، يحسب الجاهل ان في كل خطوة حتفاً، ويتوهم ان في كل خطوة خطراً، مع ان نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الانسانية، وما ناله طلاب المعالي من الفوز بآمالهم، وما ذللوا من المصاعب في سيرهم، تكشف له ان تلك المخاوف إنما هي أوهام وأصوات غيلان. ووساوس شياطين. غشيته فأدهشته. وعن سبيل الله صدّته. ومن كل خير حرمته.

الجُبن فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الايام، لتغتال به نفوس الانسان،

وتلتهم به الأمم والشعوب. هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله، هو علة لكل رذيلة، ومنشأ لكل خصلة ذميمة، لا شقاء إلا وهو مبدأه، ولا فساد إلا وهو جرثومته، ولا كفر إلا وهو باعثه وموجبه. ممزق الجماعات، ومقطع روابط الصلات، هازم الجيوش، ومنكس الاعلام، ومهبط السلاطين من سماء الجلالة الى أرض المهانة. ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطيسة، أليس هو الجبن ؟ ماذا يبسط أيدي الأدنياء لدنيئة الارتشاء، أليس هو الجبن ؟ ربما تتوهم بعد المثال فتأمل، فإن الخوف من الفقر يرجع بالحقيقة الى الخوف من الموت، وهو علّة الجبن. سهل عليك أن تعتبر هذا في الكذب والنفاق وسائر أنواع الأمراض المفسدة لمعيشة الانسان، الجبن عار وشنار على كل ذي فطرة انسانية خصوصاً الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر، ويؤملون ان ينالوا جزاء لأعمالهم أجراً حسناً ومقاماً كريماً.

ينبغي أن يكون أبناء الملة الاسلامية بمقتضىٰ أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن) فإنها أشدّ الموانع عن أداء ما يرضى الله وانهم لايبتغون إلا رضاه، يعلم قراء القرآن ان الله قد جعل حب الموت علامة الايمان، وامتحن الله به قلوب المعاندين، ويقول في ذم من ليسوا بمؤمنين (ألم تر الىٰ الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية. وقالوا ربنا لِمَ كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الىٰ أجل قريب)... الإقدام في سبيل الحق، وبذل الأموال والأرواح في إعلاء كلمته أو سمة يتسم بها المؤمنون، لم يكتف الكتاب الإلهي بأن تقام الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتكف الأيدي، وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح في إعلاء كلمة الحق، والعدل الإلهي بل عده الركن الوحيد الذي لايعتدّ بغيره عند فقده، لايظن ظان أنه يمكن الجمع بين الدين الاسلامي وبين الجبن في قلب واحد، كيف يمكن هذا

وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الاقدام، وان عماده الإخلاص لله والتخلي عن جميع ماسواه لاستحصال رضاه.

المؤمن من يوقن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ولا يفيده التباطؤ عن أداء الفروض زيادة في الأجل، ولا ينقصه الإقدام دقيقة منه، المؤمن من لاينتظر بنفسه الىٰ إحدىٰ الحسنيين، إما أن يعيش سيداً عزيزاً، وإما ان يموت مقرّباً سعيداً، وتصعد روحه الىٰ أعلىٰ عليين، ويلتحق بالكروبيين والملائكة المقربين.

من يتوهم أنه يجمع بين الجبن وبين الايمان بما جاء به محمد صلى اللّٰه عليه وسلم، فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الايمان في شيء. كل آية من القرآن تشهد على الجبان بكسبه في دعوى الايمان، لهذا نؤمل من وَرَثة الأنبياء ان يصدعوا بالحق، ويذكروا بآيات الله، وما أودع الله فيها من الأمر بالإقدام لإعلاء كلمته، والنهي عن التباطؤ والتقاعد في أداء ما أوجب الله من ذلك، وفي الظن أن العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الأمر بذاك المعروف والنهي عن هذا المنكر) زمناً قليلاً ووعظوا الكافة بتبيين معاني القرآن الشريف وإحيائها في أنفس المؤمنين رأينا لذلك أثراً في هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر، وشهدنا لها يوماً تسترجع فيه مجدها في هذه الدنيا وهو مجد الله الأكبر، فالمؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم وبما تمكن في أفئدتهم من آثار العقائد لا يحتاجون الا لقليل من التنبيه، ويسير من التذكير، فينهضون نهضة الأسود فيستردوا مفقوداً ويحفظوا موجوداً، وينالوا عند الله مقاماً محموداً.

زلزال الانجليز في السودان

نقلت الجرائد الانجليزية برقية وردت الىٰ جريدة الستنداراد من دونقلا ثم كررت ذكره وثبتت مفاده أياماً متواليات ومحصله : ان الألسن تلهج في مدينة دونقلا وفيما بين الجيوش الإنجليزية بقدوم جيش محمد أحمد والحديث مستفيض في جميع المعسكرات بأنه زاحف اليهم بجيشين أحدهما يأتي من الصحراء والآخر علىٰ شطوط النيل وأنهم لابدّ أن يلاقوا منه صدمة شديدة لا قِبل لهم باحتمالها، وقد استولىٰ بذلك الإضراب والتشويش على أفكار العساكر خصوصاً عساكر مدير دونقلا خوفاً وفزعاً. ولكن لما أيقنوا به وأطمأنوا اليه من ان السلطان راض عن أعمال محمد أحمد بل صدرت منه التنبيهات الى جميع المؤمنين في تلك الأطراف بأن يتجنبوا محاربة هذا القائم وان يعتبروا الانجليز في منزلة العدو الألد ويقاوموهم مقاومة الآيسين اهـ

كنا نعلم ان جميع المسلمين وعموم الوطنيين يرون من فروض ذمتهم السعي في معاكسة سير الانجليز وإقامة الموانع في طريقهم بقدر الطاقة والإمكان قياماً بما يوجبه الدين والوطن ولا يحتاجون في الانبعاث لهذا العمل الشريف الى أمر سلطاني، فان الشريعة الإلٰهية والنواميس الطبيعية في كل ملة وكل قطر من أقطار الأرض تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عن حوزته وتبيح الموت

دونه بل توجبه في مدافعة الباغين عليه وتدعو كل ذي عقل لأخذ الحذر من حيل المحتالين، والتوقي من الأرواح الشريرة الخبيثة التي تتجلى في أشكال من الصور منها ما يخطف برونقه الظاهر، لب الألباب ويذهب بهوة الصورى بنور الأبصار، وهي منابع الشرّ ومصادر الفساد ومهب رياح الفتن والاختلال. تلك أرواح الأجانب ونفوس الأباعد الذين يهتكون حرم البلاد ويخفضون شئون العباد ويغمطون الحقوق ويفسدون الأخلاق ويذلون النفوس. المدافعة عن الوطن أمرٌ طبيعي وفرض معاشي يكاتف في دعوة الطبيعة اليه الميل الى الطعام والشراب فليس يمدح القائمون به ولا يثنى عليهم في أدائه. نعم تتجلىٰ صورهم الجميلة محلاة بأوصافها الفاضلة في مزايا التواريخ عندما يمر النظر اليها على تماثيل الخائنين الذين جاوزوا تخوم الطبيعة وصيغت لهم هياكل من اللعن الأبدي مسربلة بالخزي والعار السرمدي هكذا يعرف الشيء بضده.

لسنا نعني بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس (وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس) بل خائن الوطن من يكون سبباً في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن، بل من يدع قدماً لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها، ذاك هو الخائن في أي لباس ظهر وعلىٰ أي وجه انقلب. القادر على فكر يبديه، أو تدبير يأتيه، لتعطيل حركات الأعداء ثم يقصر فيه، فهو الخائن من لم يستطع عملاً وأمكنه أن يرشد العامل وتهاون في النصيحة فقد خان من سوف عمل اليوم الى الغد، وتوانى في تضليل كيد الأعداء بقولٍ أو فعلٍ، فقد ارتكب خطيئة الخيانة، وكل خائن لوطنه أو ملته فهو ملعون على ألسنة الأنبياء والمرسلين وممقوت في نظر العالم أجمعين. ما أعظم جريمة الخيانة «المساهلة في شؤون الأوطان» يأتي الزمان بطوله على كل شيء فيمحو أثره ويطمس رسمه إلاّ وصمة الخيانة فلا تطويها الأدهار ولا يخفيها تطاول الأعصار. محيت اسماء العظماء والملوك والسلاطين ولكن لم تمح اسماء الخائنين. لوث على

وجه الزمان ودرن في صفحة الإمكان مكتنفة باللعنة محفوفة بالمقت الى أبد الآبدين. لايحيط القلم بوصف الخائن وما يتبعه من الشنائع ولكن النفوس مهما تدانت في الإدراك تشعر بعظم جرمه فلنرجع الىٰ موضوع كلامنا.

كنّا علىٰ يقين ولا نزال عليه. ان الذات الشاهانية وهي الأب الأكبر لعموم المسلمين وهي الكافلة للشريعة الحافظة للدين هي أجدر الناس بالالتفات الى حركة الأعداء في البلاد الاسلامية وهي لا تألو جهداً في تعويق سيرهم وإحباط أعمالهم، ولا يمكن أن يطمئن للسلطان قلب وهو يرى ان أمة عظيمة من أخلص الأمم في الولاء له والخضوع لشوكته سقطت تحت السلطة الأجنبية وأنه لحرج الصدر من أعمال الحكومة الانجليزية وعدوانها على الحقوق العثمانية والاسلامية والمصرية بلغت غشمرة الانجليز الى حد لايحتمل، فليس من الغريب ان تضيق بها الصدور وتفيض بالغيظ منها القلوب وتبلى منها دروع الصبر وتذوب سابغات الجلد.

فيا أيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاساً، زحف العدو اليكم تحت راية المحبة، ثم قلب لكم ظهر المجن، وتناول بيده الظالمة شؤونكم العامة، من عسكرية ومالية وإدارة وقضاء، ولم يبق لكم شيئاً إلا الحرمان من خدمة أوطانكم، وانتم أحق بها وطالما دافعتم عنها في الأيام السابقة، هذا وهو لم يأمن طوارق السياسة الخارجية ولم يمح القوى الداخلية، يطلب استمالة القلوب اليه، وجمع النفوس عليه، فكيف به اذا رسخت أقدامه، وارتكزت أعلامه، وخلا له الجو من المعارضين، ماذا ترجون من مطاولته وماذا تؤملون في إرخاء العنان له، وماذا تهابون في معارضته والأخذ على يده. أما رجاء الخير منه فوهمٌ فاسد وخيال باطل، فقد رأيتم أنه أفسد شؤونكم، وأقلق راحتكم، وحرم رجالكم من الخدم، وأفقر آلافاً مؤلفة من العائلات، ووهب من بلادكم

لأعدائكم وأضرّ بمنافعكم العامة من زراعة وتجارة وصناعة فأغلق أبواب الكسب في وجوهكم، وقصد الىٰ التدخل فيما يختص بأمور دينكم، (كالأوقاف) وعمد الى خرق سياجكم وإزالة قوتكم بطرد جنودكم وهذه أوائل أعماله فكيف تكون نهايتها. فماذا تخشون منه، هل تخشون أن تنقص أموالكم، وثمرات كسبكم إذا أديتم حقوق وطنكم، وحاربتم عدوكم، ربما يختلج هذا بخاطر بعضكم، وهو من عجيب الخواطر، أنتم واقعون بسكونكم فيما تخافون منه، انتقصت الأموال والثمرات، وفاضت العبرات وزادت الحسرات، وان زدتم في الخضوع زادكم عدوكم خساراً وأوسعكم خراباً ودماراً، إن رسخت قدم العدو بينكم لايبقى منكم غني إلا افتقر، ولا عظيم إلا احتقر، وان شئتم فانظروا مستقبلكم في مرآة حاضركم، واقرأوا حالكم في تواريخ من سبقكم.

هل تخشون اذا قمتم بفروضكم ان يأتي الخطر على حياتكم. يمكن ان يعرض هذا الوهم بخيال طائفة منكم، ولكن فلتعلموا أن عدوكم في هذا الوقت ضعيف العزيمة خائر القوة، الدول متألبة عليه يترقب منها في كل آن مطالبته بنتائج أعماله ومحاسبته علىٰ عواقب تصرفه، ثم هو يخشاكم كما يخشىٰ الدول أو أشد خشية. أنه مسرع في سيره منطلق الى مقصده بغاية ما يمكنه ليتخذ لنفسه قراراً مكيناً، ومقراً أميناً، ولا يخفاكم ان المسرع في جريه يكبه علىٰ وجهه عثرة في مدرة، فلو ظهرت منكم في هذا الوقت مقاومة خفيفة، أو مؤاخذة طفيفة، أو تظاهرتم بالنفرة وعدم الرضاء عن سيره فيكم، وجهرتم بذلك لرأيتم أن ماءه سراب، وسحابه جهام، وسيفه كهام، وأوقفتم سيره واستعليتم بقوتكم على ضعفه، وأقمتم للدول حجة قوية في كبحه ورد جماحه، والزامه باحترام الحقوق العامة والخاصة، ونزع قوة العمل من يد استبداده، وتخويلها لسلطة تحفظ بها الموازنة بين حقوقكم وحقوق أوربا كافة. أما لو تركتم عدوكم حتىٰ ينتهي لمقره، ويقوى على أمره، ويدوخ السودان، ويحيط بجيوشه أعالي البلاد المصرية «لا

أناله الله ذلك» صعب بعد هذا تعريفه بقدره ، وإيقافه عند حده ، وضعفت حجة الدول في معارضته ، ان أقوم حجة للدول عليه هي عجزه عن القيام بما كتب على نفسه من تقرير الراحة واصلاح ما كان يظن من الخلل في مصر فلو تمكن عدوكم بسكونكم من إظهار قدرته وإقامة الدليل على كفاءته للولاية عليكم فقد فاز بالسيادة فيكم و أصبحت دماءكم وأموالكم وجميع شؤون حياتكم في قبضة جوره.

في إمكانكم الآن أن تضروا بعدوكم وليس في إمكانه ان يضرّ بكم، فإذا مضى زمن انعكست القضية وأصبحتم في عجز عن مقاومته وأصبح وفي يده عصى الجبروت لإذلالكم.

إن كنتم تخافون من الموت أو التذليل فهل هو الآن على بعد منكم، أليس يؤخذ منكم الأبرياء بالشبه الباطلة، ويهانون ويذللون وكثير منهم يقتلون، ان عدوكم هذا سيحاسبكم على خطرات قلوبكم وحركات دمائكم في أبدانكم ويفعل بإخوانكم في ديار غير دياركم، ثم لايبقي علىٰ أحدٍ منكم. فأنتم اليوم أصحاب أمركم وهذا قصده اليكم وفي إمكانكم ان تستعينوا الله في التحصن من خطر آجل، بدون ضرر عاجل فإن شئتم فارحموا أنفسكم، وإلا فأنتم ساقطون، فيما منه تخافون.

ياقوم يؤثر في كتبكم من كلام سلفكم : الشجاع محبب حتىٰ لعدوه، والجبان مبغض حتىٰ لأبيه وأمه، تعلمون أنه ما عز قوم بالخضوع ولا استهين شعب بالاباء، لماذا تعدون أنفسكم في الدرجة الدنيا عمّن سواكم. ألستم تتشابهون في الخلقة مع أعدائكم، ألستم تمتازون عنهم بالايمان الصادق، والعقائد الصحيحة، ألستم تنتسبون الىٰ أولئك الأبطال الذين دوّخوا البلاد وسادوا العباد، ألستم تدعون أنكم أشرف عنصراً وأكرم جوهراً فإن قمتم بطلب حقوقكم فهل يصيبكم أكثر مما يصيب أعدائكم، ان كان الموت فهم يخشونه، ان كان الخسار

فهم يرهبونه إنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون.

لأي شيء يخاطر عدوكم بماله ودمه للتغلب علىٰ ما ليس له ولأي سبب لاتقدمون بشيء من شهامتكم في حفظ ما هو لكم ان هذا لشيء عجاب، هل نذكركم بقول شاعركم:

لايسلم الشرف الرفيع من الأذىٰ حتىٰ يراق علىٰ جوانبه الدم

ليس هذا مقام التذكير وليس المكان مكان المباراة في المجد والمسابقة الى معالي الأمور. إنما الكلام الآن في الدفاع عن الحياة وصيانة ضروريات المعيشة، فإن لم يستفزكم طلب العلا وسمو الهمم فليستفزكم تصور الشقاء المنتظر، الذي رأيتم بوادره ونعوذ بالله أن تدرككم أواخره. استغفر الله لاتزال ترجى فيكم النجدة والشمم والرفعة. لايزال دينكم يترقب منكم حمية عليه وغيرة لدفع الغائلة عنه.

ان صاحب الدين صلىٰ الله عليه وسلم ينتظر فيما يعرض عليه من أعمالكم نهضة لإعلاء كلمة الحق وإنقاذه من مخالب أعدائه وان الله في عزة جبروته لن يدعكم على ما أنتم عليه حتى يعلم الصادقين منكم ويعلم الصابرين، (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدوٌ مبين. ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين).

باب النتف
والاخبار

سياسة انجلترا في الشرق

هلع على ما في البيت فهلوع لاغلاق الباب، فانخلع المصراع وانقض الجدار من ورائه.

هذا شأن دولة بريطانيا في الهند، وقناة السويس، قصارى بغيتها ان تكون في أمن على هذا الباب، وكان سهلا عليها ان تخلص النية،، في مسالمة أرباب الولاية عليه، فيقونه بأرواحهم وأموالهم، ثم هي تفوز بفوائده الى الأبد.

الا ان جيشان الأوهام، وموحشات الاحلام، دفعتها لمباشرة حمايته بنفسها، فإذا الأمر أصعب من أن ينال، وأساس البيت أوهى من أن يدوم.

أرادت دولة انجلترا بعد تبوئها أرض مصر، أن تدخلها تحت حمايتها، وأن تبدل العساكر الوطنية بانجليزية، وأن تقيم في السودان سلطنة مستقلة، وحاولت في ذلك إرضاء المصريين بأنه من الضروريات لتنظيم أحوالهم واقرار الراحة بينهم وتسكين روع العثمانيين بحفظ الحق وتخفيف الوزر، وكان لكل أن يستبشر بهذه الخدمة الجليلة إن تمت، لو لا ما لدولة إنجلترا من تقسيم الممالك التيمورية في الهند، واقامتها لكل قسم حامية من قبلها، وكان هذا أكبر الأسباب واصغرها لاستيلائها على الأقطار الهندية، وإنا لنأسف على التفاوت بين الزمانين، والتباين بين المكانين، فلا الإحسان الانجليزي يمكن تتميمه، ولا العثمانيون والمصريون

يستبشرون بنوله، وخطر الأمرين غير يسير.

ظهرت دعوى المهدوية في السودان واشتد أزر القائم بها بمسارعة الإنجليز الى التداخل في مصر بحجة حفظ باب الهند، وعظم خطب الداعى بعد ما أراق دماء غزيرة ودبت روح دعوته إلىٰ سواحل البحر الأحمر، وحدود مصر الطبيعة وأمالت القلوب إليه نفرتها من السلطة الانجليزية.

يقرب من الظن أن نفثاته ما زجت افئدة العرب في فيافي طرابلس، او قاربت وأن هذه النيران التي يشعلها بالبكاء على الدين والنواح على امتهانه، لا تلبث ان تنقض شرارة منها على جزيرة العرب، وفيها يصعد عويل الدين ونحيبه الىٰ عنان السماء، وعند ذلك يمسي باب الهند بين ألسنة النيران من جهتين بل من ثلاث جهات، أيبعد عند العقل وبريطانيا لاهية بانقاذ الباب أن تتقد النيران في البيت، إن الخطر اليوم أشد مما اهتمت بدفعه سابقاً، ماذا أخذت من الوسائل لدفع هذه الغائلة؟

أرسلت جوردون باشا إلىٰ السودان لتفريق كلمة المحاربين ورقية محمد أحمد الحمدانى. السودانيون لم تلتئم جراحهم من ظلم جوردون أيام كان حاكما مستبداً عليهم، وفي علمهم أنه أعدى اعداء الديانة الاسلامية فقد طلب وهو فيهم قسساً من السويس لنشر المذهب البروتستنى بين مسلميهم، فهل تمكنه الفصاحة الانجليزية أن يمحص صدور العرب من الضغينة الدينية والدنيوية، بعد ما رسخت أعواماً ويمحوها في بضعة أيام، وهل يسهل عليه إرضاء محمد أحمد، بعد ما قام بدعوة عظيمة كهذه بمنحه لقب أمير كوردفان، أو هل يقنع صاحب هذه الدعوى بمثل هذا اللقب بعد ما تسنى له من الفتوحات واستولى على تلك البلاد، بدون اذن جوردون. قد يظن هذه الظنون من لا وقوف له على حقيقة دعوى المهدوية وموقعها من قلوب المسلمين، ويكفي لكشف بعض ما في الغيب ما تفقت عليه الجرائد الانجليزية والفرنسية واثبتته المخابرات الرسمية من اخفاق

جوردون في سعيه كما تراه في غير هذا المقام.

ساقت خمسة آلاف وعلى بعض الرويات أربعة آلاف جندي تحت قيادة الجنرال جراهام إلى سواحل البحر الأحمر لاسترجاع شرف بيكر باشا وثار ضباطه من الانجليز (أما هكس باشا وضباط جيشه فلبعدهم عن البحر لا شرف لهم ولاثأر) وغلب هذا الجيش المدرب الكامل العدة الشاكي السلاح من أجود طرز ثلاثة آلاف من عراة العرب السودانيين (بمعنى انه قتل منهم ثمانمائة بدوي) والقبائل على عصبيتها لم تحين بعد. هل بهذا تدفع الغوائل. أيظن ذو عقل أن فاتحاً فتك بعشرة آلاف جندي مرة والفين وخمسمأئة مرة أخرى جميعها تحت أمرة مشاهير من قواد جيش انجلترا يخور عزمه لانهزام شر ذمه من المنتسبين، إليه وهل يؤثر هذا وهنا في اعتقاد المذعنين لدعوته. سبحان الله؟ كان لغلبة هذا الجيش رجة في انجلترا وخيل لحكومتها أنها نجاح في العمل وربما نشأ هذا الخيال من التهنئات التي وردت أليها من الدول وسفرائها مما لم ينله نابليون الأول وغليوم الألماني.

أقول وحق ما أقول ان الضيرم شديد فإن ترك امتد وأخاف الدانية والقاصية وليس في إمكان جوردون ولا احذق سياسي في إنجلترا أن يخمد لهبه والمناوشات البريطانية تحضره فتزيده اشتعالا وانما يتيسر إطفاؤه لأولى العزم من العثمانيين والمصريين لكونهم على شاكلة صاحب الدعاوى وبيدهم عنانها.

كان من حذق الإنجليز لو اكتفوا في حفظ باب الهند بعضد العثمانيين وخضوع المصريين مع القوة البريطانية وإلتفتوا إلى ترميم سياج الهند من الجهة الشمالية. ماذا يفيدهم سد الباب إذا وهى الأساس فتداعت الجدران وخر السقف، إن قبائل التركمان في (مرو) مع شرس طباعهم لحقوا بدولة الروس إختياراً بعد ما كانوا مستقلين في أمورهم لا يدينون لسلطة أجنبية عنهم فأى مانع يمنع تركمان سرخس وهم سنيون من الاقتداء بهم تخلصاً من حكومة فارس

المخالفة لهم في المذهب فإن تم هذا فتح للروس طريق فراه إلىٰ قاين إلىٰ سجستان وأي قوة تصدها عن طمعها وإن حلت في سجستان أو فراه فأية عقبة بينها وبين الهند.

ان قبائل أزبك من سكَان (ميمنة) و (أندخو) و (شيورغان) و (سربول) وسائر بلاد بلخ إلىٰ (وبلميان) في ضجر من الحكومة الأفغانية أفلا يتبع هؤلاء أثر أبناء أعمامهم التركمان فإن غفلوا فتحت لهم روسيا باباً من الملاطفة وذهبت بهم في طرق من سياسة اللين لتشويقهم إلىٰ الدخول في حمايتها والتملص من نير الأفغانيين وليس في قوة حكومة الأفغان كبحهم إن أرادوا لضعفها فيهم.

إن قبائل هزارة من الشيعة الساكنين في الجبال الممتدة من هراة إلىٰ كابول ينتحلون الأسباب للخروج علىٰ حكومة الافغان نفرة من سلطة السنيين وقد كانوا في الحرب الأخيرة بين الانجليز والأفغان متفقين مع الإنجليز فهو لا بعد ما يرون جيرانهم إنحازوا إلىٰ الروس أفلا ينزعون إلىٰ مجاراتهم خصوصاً إذا لمعت لهم بوارق الوعود الروسية. هذا كله يكون فتشرف روسيا بعد على الميدان المتسع الممتد من هراة الى قندهار الى غزنة بل الى كابل من جهات كثيرة فهل بعد هذا يبق للهند سياج وهل يمكن أن يقام في وجه الروسيا مانع من المسير إليه وهل ينفع عند ذلك الوقوف على نافذتي (قناة السويس).

أليس يسهل على الروس عند إشرافهم على تلك المواقع الإيقاع بين قبائل الأفغان وبين المرشحين للامارة ويتخذون منهم أحزاباً كما فعلوا بخوانين القرم.

تقربت دولة الروسيا إلى المانيا والنمسا في هذه الأيام وانعقدت بينهم معاهدة على حفظ السلم في أروبا إلىٰ زمن غير قصير ولم يكن هذا التقرب مبنياً على ما يخيله السياسيون في كل دولة على حسب مصالحهم وإنما رأت الروسيا أن الوقت وقت العمل في آسيا فطلبت الراحة من جهة حدودها الأروبية لتتفرغ

لإجراء مقاصدها في اطراف الهند وأن الفزع من هذا الانتقال الفجائي قد ظهر أثره في جميع الجرائد الإنجليزية.

ليت الإنجليز صرفوا قوتهم ووجهوا عزيمتهم لدفع ما يلم بهم من الخطر القريب ولم يقعوا في شرك المسألة المصرية. فإن ما كانوا يخافونه من مصر كان وهما صرفاً فلما طرقوها أوقدوا فتنة ما كانت تخطر ببال أحد ثم هم في عجز عن علاجها وأننا نظن كما يزعم الوزراء العثمانيون أن الانجليز ليس في إمكانهم أن يكسروا سورتها بأنفسهم ولابد لهم من يوم يلجأون فيه إلىٰ ذوى العزيمة من العثمانيين والمصريين وإلىٰ الله عاقبة الأمور.

مصر

كانت حكومة هذه البلاد في الربع الأول من القرن الماضي (الهجري) تعد من نوع حكومة الأشراف ويحسبها المؤرخون في تلك الأوقات بدرجة لاتعرف هيئتها ولا يصل بحث الباحث الى كنهها وإذا عبروا عنها بالتقريب قالوا طرز قديم كـان معروفاً في أغلب أنحاء المسكونة.

ثم أعجب الدهر فيها بغرائبه بعدما فوضت أمورها لمحمد علي باشا فـلم يمض قليل من الزمن حتىٰ دخلت في طور جديد من أطوار المدنية وظهر فيها شكل بسيط من الحكومة النظامية وتقدمت فيه على جميع الممالك الشرقية بلا استثناء وعد هذا التقدم السريع من عجائب الأمور[1].

هل كان في حسبان أحد أن يستلم زمام الحكومة في مصر رجل من بعض قرى الروملّي لم يتربع في دروس العلم ولم يجبل في مصانع السياسة إلا أن طبيعته الفطرية كانت فائضة بحب الحضارة، وبثّ العلوم، وتأسيس قواعد العـمران، مـع تدفق همته لبلوغ الغاية مما يميل اليه.

تقدمت بعد ذلك فيها الزراعـة تـقدماً غـريباً، واتسـعت دائـرة التـجارة، وعمرت معاهد العلم، وانتشرت في أرجائها مبادئ المعارف الصحيحة، وتقاربت

---

١ ـ ترى ماذاكان يقول الأفغاني لو بعث من قبره ليتحدث عن المآسي التي خلّفها خلفاء محمد علي باشا وماكان من مهازل بلاط فاروق الأول !!

أنحاؤها، واتصلت أطرافها، بما أنشئ فيها من سكك الحديد، وخطوط التلغراف، وتعارفت أهاليها، وائتلف الجنوبي بالشمالي، والشرقي بالغربي، وقوى فيهم معنى الاخوة الوطنية، بعد ان كانوا لبعد الشقة بين بلدانهم كأنهم ابناء أقطار مختلفة، وتواصلوا في المعاملات، وتشاركوا في المنافع، واعتدلت المشارب المذهبية، حتى كان لهم زمن أحس فيه كل واحد بنسبته من الآخر، وارتفعت بذلك أصواتهم، بعدما جالت فيه أفكارهم.

تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة، وعمت بقاعها وطفحت ففاض خيرها على ما يجاورها من الاقطار الشرقية، بل وصل مد نيلها الىٰ أراضي البلاد الغربية، وتوارد اليها الغرباء، وقصاد الكسب، من كل مكان، وما خاب لها قاصد، ولا أخفق فيها سعي ساع، فأثرىٰ في مغانيها الفقراء، وعز بها الأذلاء، وصارت قبلة لآمال كثير من الغربيين، ومحط رحال الراجين من الشرقيين، وكل وافد اليها يجد أهلاً خيراً من أهله، وسكناً خيراً من سكنه، وتكاثرت فيها العناصر الغريبة، حتى كان الداخل اليها يخيل له انه تحت برج بابل يوم تبلبلت الألسن.

وساد بها الأمن وعمّت الراحة، وضارعت في كل أحوالها نوع ما عليه الممالك الأوروبية العظيمة، وكان المتأمل في سيرها هذا يحكم حكماً ربما لم يكن بعيداً من الواقع، أن عاصمتها لابد أن تصير في وقت قريب أو بعيد كرسي مدنية لأعظم الممالك المشرقية، بل كان ذلك أمراً مقرراً في أنفس جيرانها من سكان البلدان المتاخمة لها وهو أملهم الكبير، كلما ألم خطب أو عرض خطر، غير أن الأيام كأنها حسدتها علىٰ ما منحته فعثر العاقل، وفرط المالك وأعثر المعجب، وتهور الغبي، وخار الأفين، فتقرب البعيد، وبعد القريب، ونزل بمصرٍ ما لم يكن له أثر إلا حواشي طوامير الأوهام، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

ألحمت إدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها، وانتفضت منها أصول على وجه غير مألوف، ففتحت للدسائس أبواب وأنساب، بين طبقات الناس، دهاة

سياسة، وطلاب غايات، فتفرق اتصال، وتقطعت أوصال، فضعفت السلطة الوازعة، ونبذت الطاعة، والتهبت نيران الفتن.

قضاء حل بتلك البلاد، فاحتاجت في إعادة شأنها الأول الى رأي قويم، وعزم ثابت، ووازع قوي، تدين لسطوته النفوس، وان من ذوي الحقوق فيها من يجمع هذه الأوصاف، وله من القلوب المكانة العليا، وكان يسهل عليه القيام بما يعهد اليه، لكن تحكم طمع وأخطأ ظن، فتخلفت النتيجة، واشتدت الحاجة.

أشفقت دولة الإنجليز على طريق الهند كما يقال، أو ظنت أن آن التقدم بعض خطوات قد آن، فرأت أن إعادة الأمن وتثبيت الراحة في مصر من فرائض ذمتها، فكان من التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والابعاد والتغريم وما شاكل ذلك مما لا حاجة لبيانه، وعمّ بعض أنواع الهون، حتى لم يبق ممن يعرف اسمه احد إلا مسه ضرمه، ماخلا أشخاصاً قلائل وهذه المرهبات على ما بها من القوة لم تبلغ الغرض من تأمين طريق الهند لإشرافه على الخطر من وجه آخر، ولم تأت بما كان يؤمل منها لنظام البلاد.

أليست المالية هي مرمى أنظار دول أوروبا، وما وضع نظام في البلاد ولا أحدث تغيير بمشورتهم إلا لوقاية الخزينة من العجز عن أداء ما يتعلق بها من الحقوق الأوروبية، اليوم رزئت بالنقص في الإيراد، وحملت من تعويضات متالف الحرب أربعة ملايين من الجنيهات، ورميت بنفقات جيش الحلول، وحرب السودان، ومصاريف اخلائه، وما يضاف الى كل هذا مما يظهره المستقبل، فاختلت الموازين، وبطل قانون الجبايات وأي مصيبة على المالية أعظم من نوازلها الحاضرة.

عقد العزم على الغاء الجيش الوطني، وهو قوة البلاد وبه فخارها، وكأنه لم توجد وسيلة لتنظيم جنود مصر، وقصر الجهد عن محاراة محمد علي باشا، وابراهيم باشا، اللذين دوخا كثيراً من الأقطار بجنود مصرية.

ان كان كل ما تقدم من الشدائد والخطوب وزيادة النفقات والغاء العساكر

الوطنية انما يتخذ سبيلاً لراحة الأهالي، وتحسين أحوالها فنعمت الوسائل إذا أدت الىٰ غاياتها، لكن اين السبيل من المقصد وأين هذه المعدات من تلك الغايات.

وأسفاً علىٰ حالة الأهالي بعد هذا، حكم من لا دافع لحكمه بطرد آلاف من الوطنيين الموظفين في دوائر الحكومة، وما منهم أحد إلا ويتبعه عائلة وأولاد ولا قوت لهم إلا من مرتّب عائلهم، وما مرن على عمل للكسب سوى ما نشأ فيه من خدمة الحكومة، ألم يمس هؤلاء ضرّ الفقر، ألم يعضهم ناب الجوع، ألم يهتك مستورهم، ألم يضق ذرعهم. ألم يصبحوا كساة بسرابيل الكآبة. عراة من أكسية المسرة. ان لم يكن كل هذا فقد كان جله. وإن صدى أنينهم يتلى في صفحات الجرائد الوطنية العربية والإفرنجية وسيتبع السابقين منهم اللاحقون. حتى لايجد وطني في البلاد من المهن إلا ما لا يليق بالإنجليزي تعاطيه من سفاسف الأمور كما هو في البلاد الهندية.

اضطرب ميزان السلطة العامة لتعاكس قواها المختلفة فاشتبه الأمر على العمال، وظنوا ان لا تبعة عليهم فيما يعملون فانطلق ما غل من أيديهم. وحكموا أهواءهم في أداء وظائفهم. فخبطوا وخلطوا. أفعمت السجون بأعيان الرعية. ورفعت أذناب الكرابيج لتشريح أبدانهم واستعملت آلات التعذيب وامتدت مخالب الجور لتجريدهم من بقايا أموالهم. وثمرات كسبهم، وحدث نوع من الحكم المطلق عزيز المثال بعث عليهم عذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم. ولبسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض وما الله بغافل عمّا يعمل الظالمون.

غلقت أبواب العمل من وجوهه الرسمية في الإدارات. وتعطلت أشغال المحاكم وشخصت الأبصار لعاقبة هذا التنازع بين القوى الحاكمة فاتسع نطاق الفوضىٰ وارتفع حجاب المنعة. فإذا الفلاح لا يبالي بعمدته والعمدة لايبالي بمأمور مركزه والمأمور لايحترم مديره. وسرى التهاون الىٰ الدوائر العليا. وعاد الأمر لقوة الساعد. وكثرة الأعوان فعاثت اللصوص، وكثر قطع الطرق، في كل ناحية.

وارتفعت الاصوات بالشكوى منهم في عموم الجرائد الوطنية، فوقفت حركة الأعمال العمومية وبدت للناس شؤون عدلت بهم عن ضرورات معاشهم. وامتنع المدينون من اداء ما عليهم لدائنيهم من التجار والربويين. فقبض المقرضون أيديهم واحتكروا نقودهم لفقد ثقتهم واشفاقهم من الضياع على رؤوس أموالهم وان أصيبوا بالحرمان من الربح وابتلوا بالخسارة في رأس المال من قبيل آخر. واشتدت الحاجة بالفلاحين الى ما يعوض عليهم ماشية فالحراثة بعدما اغتالها التيفوس وما يجددون أو يصلحون به آلاتهم الزراعية. ويستعينون به على نجاحها حسب العادة التي ألفوها. فعميت عليهم السبل. وضاقت بهم المسالك. ولم يجدوا لسدّ حاجاتهم سبيلا. ففسدت الزراعة وانتقصت ثمراتها، وانحطت أسعار الحاصلات لارتباك الاحوال الى حد ما كان يسمع إلا في القصص وروايات القدماء قبل محمد علي باشا. ومطالب الحكومة في ضرائبها ورسومها على حالها الأول مع الأغذاذ في اقتضائها، فعم العسر وأحاط الضنك. وتقوّضت آلاف من البيوت التجارية. وأتربت أيدي ملايين من عمال الصناعة. وأعدم المزارعون قاطبة إلا نزر يسير من حفظة الكنوز أو المستأثرين بأموال الكافة نهباً وسلباً. باع الفلاح أثاث بيته بل وما أبقاه التيفوس من عاملة أرضه، بعدما ذهبت الحاجة بحلي حرمه وبناته ليؤدي ما عليه لحكومته، ولم ينل من غضاره ما يقوم بحفظ حياته وعاد الى الفطرة الأولى يقتات بأقوات البهائم ويسرح مسارح لحيوانات إلا قليلا منهم الله يعلمهم.

وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية، والأخذ بالشبه وان ضعفت، واتباع بواطل التهم وان بعدت، أو استحالت، حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه، وبلغ منها مبلغه، فلا ترى ماراً بطريق إلا وهو يلتفت خلفه لينظر هل تعلق بأثوابه شرطي يقوده الى السجن، أو يقتضي منه فداً، وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر في كل خطوة عثرة، وفي كل نهضة سقطة، وله من كل شاخص دهشة ومن كل طارق لبابه غشية، أي شقاء ينتظره الحي في حياته أشنع من هذا.

هذا ما تنشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصري. هذا بعض ما يضيق به الصدر، وتنقبض له الأنفس، مما رزئوا به بعدما تكفل أحباؤهم الأولون بالدفاع عنهم وتخليصهم من الفوضوية السابقة، هذه طلائع الإصلاح المبشر به من زمان بعيد علىٰ ألسنة رسله. أصبح الأهالي حيارى في أمورهم، تائهين عن رشادهم، لايعلمون ماذا يحل بهم، يذكرون من أحوالهم السابقة ما كانت الدول الأوربية تسميه ضيقاً وعناءً وتمنيهم بالانقاذ منه فيحنون اليه ويودون لو رجعوا اليه، ويحسبونه غاية سعادتهم بعد هذه الحالة التي هم فيها.

أبعد هذا يصح لمصري أن يظن ان تلك الرزايا التي حلت ببلاده من نحو عشرين شهراً كانت مقدمة لإصلاحها وتنظيم شؤونها نعم يمكن ان يخطر بالبال انها تمهيد لعمل صناعي في الأراضي المصرية كتقويم طرقها، وإقامة جسورها، وتكثير جداولها، وتقوية مواد الخصب فيها، حتى تعود بعد مدة جنة من جنات الدنيا، أو روضة من رياض الآخرة، أما الأهالي فليسوا بموضع النظر فانهم إن هلكوا وورث الأرض بعدهم قوم آخرون.

فإن لم يكن هذا فليكن تمام الإصلاح الذي لايمثله الخاطر، في وقتنا الحاضر، ولا يكفي للبداة فيه سنون معدودة على قياس الإصلاح المنتظر في بلاد بنجاب (من الممالك الهندية) فإن الدولة التي تولت إصلاح الشؤون المصرية في هذه الأيام، دخلت بلاد بنجاب بهذه الحجة، واستولت عليها من مدة أربعين سنة، ولم تزل الى الآن حكومتها عسكرية، ولم يشرع فيها بتنظيم مدني فلتنظر إخواننا المصريون فإنا معهم من المنتظرين.

أعجوبة

ظهر لمراسل التايمس بالاسكندرية في هذه الأيام ما كان ظاهراً عند الكافة عامتهم وخاصتهم ولم يخف على غبي ولا ذكي ولا أعمىٰ ولا بصير بل لم يحصل فيه أدنىٰ شبهة في زمن من الأزمان الماضية، فأبرق الىٰ جريدة التايمس يثبت فيه ما يأتي: انه يوجد بين طبقات الأهالي جمهور كثير ينفر من سلطة الانجليز (وخجل أن يقول جميع الأهالي) كذلك وانهم لا يسرون بإرسال العساكر الىٰ توكار بل بلغ الأسف منهم غايته عندما سمعوا بانتصار جراهام علىٰ العربان.

ويقرب من هذه الأعجوبة ما أجاب به غرانفيل موزورس باشا عندما بين له لزوم التداخل العثماني في حوادث السودان حيث قال ان العساكر التركية تلاقي من معارضة المصريين مثل ما تلاقي العساكر الإنجليزية، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

غريبة

روت جريدة التان، عن الجرائد الانجليزية أن الخديو الحالي عقد عزمه على الاستعفاء من منصبه إلا أن حرمه (زوجته) عارضته فيما عزم عليه كل المعارضة وعندما أشار اليها بما في نيته تناولت مقراضاً وجزت شعرها علامة على الحداد وأقسمت ان لا تلبس الجوراب والأحذية حتىٰ توقن بعدوله عن مقصده هذا، وهي من ذاك الوقت تمشي حافية وتنتظر آخر عزيمة من زوجها الخديو.

ولعل هذا من مبالغات الجرائد الانجليزية أو يكون منشاؤه الحاح السير بارين عليه بطلب حماية انجلترا كما رواه كثير من الجرائد أو إجباره على التنازل كما روته جرائد أخرىٰ.

جوردون باشا

إن جوردون باشا بعدما نصب نفسه للمدافعة عن حرية السودانيين زمـاناً طويلاً وكثر ما توسل بذلك لعودته حاكماً للسودان نال في هذه الحـوادث بـغيته، وأرسل من قبل دولته لعمل سوداني فوصل خرطوم وافتتح أعماله بمخالفة مشربه، فأعلن إباحة بيع الرقيق وإلغاء معاهدة سنتي ١٨٧٧ ـ ١٨٧٩ ثم تعدى على حقوق السلطان بدعاوى مختلفة، منها أنه جاء نائباً عنه، وتضاربت أقواله في مأمـوريته، فادعى انه حاكم عام على الأقطار السودانية بأمر دولته والحكومة المصرية، مـع تصريحه بأن الحكومة المصرية لا دخـل لهـا مـن الآن في ادارة السـودان رأسـاً واعترافه بامارة الشيخ محمد أحمد علىٰ كوردفان، هذه كل وسائله لامتلاك قلوب السودانيين، ولم يلبث ان ظهر ضعف سياسته عند جميعهم لعلمهم السابق بأطواره فكان ما أجمعت عليه الجرائد الانجليزية والفرنسية من عدم نجاحه في مأموريته فإن الأخبار الخصوصية الواردة من الخرطوم متفقة في أن ما أُشيع من البهـجة بـقدوم جوردون محى أثره وتحول الى اضطراب وقلق وتشويش في الأفكار، وان القبائل فيما وراء خرطوم تسـخر بمنشوره وتهزأ بوعده ووعيده، وهذا الضرب من السياسة ربما يستغربه من لايعرف حال جوردون، أما المـصريون جمـيعاً والسـودانـيون خصوصاً فلا يعجبون منه لوقوفهم علىٰ أحواله من قبل، وانما العـجب مـن كـون

الحكومة الانجليزية ذهلت عن أن ثورة دينية لايمكن إطفاؤها بيد من يخالف الثائرين دينا وشكلاً ولغة وان كان عاقلاً سياسياً.

يثبت هذا الذي قلناه ما ورد الى «الديلي نيوز» من ان الجنرال جوردون بعث برقية أثبت فيها أنه عاجز عن مساعدة الحامية المصرية في السودان مالم يكن تحت إمرته جيوش على النيل الأبيض والنيل الأزرق، وما جاء من مكالمته لمراسل التايمس حيث صرح له أنه لم يعد في إمكانه ان يفعل أزيد مما فعل (وما فعل شيئاً) لتقرير الراحة بين السكان، وان العزم على إخلاء السودان فتح للشيخ محمد أحمد سبيلاً لإثارة القبائل بين بربر وخرطوم، وفي أثناء المحادثة أظهر احتياجه لفرقتين من العساكر ترسل اليه من جيش الجنرال جراهام. ومما قاله أنه من الضروري تعيين زبير باشا خلفاً له في خرطوم ويفوض اليه إعادة الراحة ومقاومة الثائرين وهذا من عجيب تدبيره فان هذا الباشا ان لم يكن معتقداً بصاحب دعوى المهدوية، فعنده أعظم باعث للاتفاق معه فإنه لم ينس ما حل بأولاده وأقاربه من القتل صبراً، وما سلب من أمواله نهباً وغصباً، فكيف يميل لمساعدة الحكومة المصرية على اخضاع الثائرين عليها.

جراهام وعثمان دجمة

بعث الجنرال جراهام قائد جيش الانجليز في جهة سواكن، بمنشورات الى رؤساء القبائل يعدهم ويمنيهم ويهددهم ويتوعدهم لينفصلوا عن عثمان دجمة، والى عثمان يرعد له ويبرق، ويرغي ويزبد، ويطلب منه التسليم، فورد الجواب من عثمان برفض الطلب والاستعداد للحرب، ووردت الرسائل من واحد وعشرين شيخاً من مشايخ القبائل ناطقة بأنه لا واسطة بين الانجليز ومساعديهم، وبين القبائل السودانية إلا السيف، ثم قالوا ان كل من لا يصدق بدعوى المهدي فانه سيكون لا محالة فريسة للموت وطعمة للهلاك.

فاضطر الجنرال جراهام لإعادة التهديد مرة أخرىٰ على النحو الأول ويغلب على الظن ان الجواب. يكوّن الجواب.

وجاء في جرائد الانجليز ان الشيخ المرغني «وهو شيخ طريقة من المسلمين» بعث الىٰ عثمان دجمة رقيماً يستدعيه للطاعة، ويحذره من مقاومة العساكر الانجليزية، فأجابه عثمان دجمة بأن في عزمه شرب دماء الإنجليز وكل من يساعدهم فإنه يحارب بسيف الاسلام. وفي ختام جوابه نصح للمرغني وطلب منه أن يقوم بإرشاد الانجليز الى ترك الحرب ووضع السلاح وهو أولىٰ له من نصح مشائخ القبائل العربية الاسلامية.

المسألة المصرية

ان المسألة المصرية صبغت في انجلترا عدة صبغات من يوم نشأتها، وكلما عرضت على العقول في لون خيّل لها أنه أجود ما في الدن، حتى إذا مضى عليه زمان خفي وأعقبه لون جديد، وهي في انتقالاتها هذه لاتزداد إلا اشكالا، ولا تزيد انجلترا في انهائها إلا ارتباكاً.

كان بودمستر جلادستون أن ينهج في سياسته منهج سلفائه من الانجليز يحبو الى مقصده بالأناة والتؤدة، ويلتوى في مسيره الى معاطف متخالفة، ويرى ان سلوك الجادة مما لاتقتضيه الحكمة، ولا يسوغه الحذق، حتى يبلغ الغاية ويقطع الخلال (الطريق بين الرمال) ولا يظهر له أثر يقتفى أو كان كما يزعمون أو كما يدعى ونادى به على عهد بيكونسفيلد من أنه لايميل الى الفتوحات، وهمه البعد بانجلترا عن المداخلات في الأمور الاجنبية، بالقوة الحربية، إلا ان الحوادث المصرية ألجأته الى العدول عن مشربه، والتطور بغير طوره، فتضاربت آراؤه وتردد في أعماله، وسار سيرة المتخبط، ونشأ من طلعه في السياسة توعر السبل على حكومته في بلوغ ما تريد، وحدث عنه النزاع بينه وبين بقية الوزراء فيما يجب اتباعه من بعد، وهو الآن في حيرة بين التمسك بمذهبه السياسي، والاستقالة من المنصب، وبين الانفلات منه والتعرض للوم العقلاء والسقوط من منزلته في قلوب أحزابه، وهذه الحيرة

مهّدت لمعارضيه من الحزب المحافظ طريقاً للسعي في اسقاطه من مكانته السياسية واهباطه من كرسي الوزارة.

الذي أباح لمستر جلادستون أن يركب غير طريقه، ويتداخل في مصر بقوة السلاح ما زعمه من احتياج تلك البلاد الى إقرار الراحة، وتخليصها من خلل الفوضى، ومن مصلحة انجلترا ان تتولى إغاثتها مما وقعت فيه، فمد يده لوضع قواعد العدالة، وتخليص الحكومة من الضعف وإعادة الأمن الى البلاد، وكان يظن ان هذا المطلوب يتم بهدم طوابي اسكندرية، والحلول في ثكن القاهرة، فيكون قد كسب أجراً أو نال ملكاً جديداً أو حفظ مصلحة مهمة، بأعمال خفيفة، ونفقات قليلة وكلمات غير طويلة ؛ ولكن مع الأسف لم يساعده التوفيق على نوال البغية.

تتابعت الفتن وعلا لياقها حتى لذعه فنبهه لما لم يخطر له على بال، فاضطر لسوق العساكر، ومداومة الحروب، ومع هذا لم تؤيد الحكومة التي انتصر لها ولم يكف محمد أحمد عن دعوته ولم يهن عزم عثمان دجمة بهذه الصدمات المتتالية، وأجمعت الجرائد على انه نادى بالحرب الدينية وهو يجمع متفرقة العرب ليزيدها الى قبيله، ويهاجم الانجليز مرة ثالثة، وأكد رواة الأخبار ان محمد أحمد أنبأ من قبل انه سيهزم مرتين قبل تمام ظفره بالانجليز، فكانت هذه الهزمات مما يقوى الاعتقاد به ويجمع الكلمة عليه، ولاحول ولا قوة إلا بالله.

فهذه المصاعب شوشت أفكار البرلمان، وحركت الخواطر على الوزارة الجلادستونية، وتخوف رئيس الوزارة من عواقب المداولات في المسائل المصرية، فتأخر عن حضور الجلسات من مدة أيام وقام وزير الحربية مقامه في التعبير عن أفكار الوزارة، وفهم من بعض خطاباته أن من نية الحكومة أن تحفظ الثغور المصرية بعساكرها، وان تحل في شرق السودان، وأن تتولى إدارة الحكومة المصرية كما تراه في غير هذا المحل. فقامت الحجة بكلامه هذا في حزب المحافظين، ووبخوا الحكومة على ضعفها السابق، والتجائها للعدول عن سياستها في هذه الأوقات ولم يكن من

رأي جلادستون أن تصرح الحكومة بمقاصدها، وتظهر مشرعها بوجه جلي، ووقع الخلاف بينه وبين وزير الحربية، وكثير من أعضاء الوزارة، على جملة مواضيع في المسألة المصرية، وزاد الخلاف شدة ميل جلادستون لمرضاة الإيرلنديين وتجافي بقية الوزراء عن رغبته وثبت الرئيس في آرائه وهو يفضل الاستعفاء على التساهل في شيء منها، ومن هذا غلب على الظن أنه سيحصل انقلاب في الوزارة أو فضّ البرلمان، وأكدت قرب ذلك جريدة التايمس وجريدة الديلي نيوز وهي نصف رسمية وجاءت الأخبار الأخيرة متفقة على ان وزارة جلادستون في خطر.

فإذا انقلبت الوزارة الانجليزية، وخلفتها أخرىٰ من أي حزب كان، فما عساها تفعل لحل المسألة المصرية والتخلص من الورطة، أقبل الصيف وصعب على عساكر الانجليز أن تأتي بحركات عسكرية في أطراف السودان الشرقية مدة أشهر ويتعذر حفظ المواصلة بين سواكن وبربر وخرطوم فإن طلبوا عساكر هندية كما أنبأت به البرقية انكشف للهنديين بتكرر طلب العساكر من الهند ضعف القوة البريطانية، واجترأوا على حامية الهند وهناك الهول الأكبر. في هذه المدة وهي غير قصيرة يتيسر لمحمد أحمد ودعاته ان يجمعوا قواهم وينالوا من المنعة ما يتعسر على عساكر الهند مقاواته بل هم الآن على القرب مما نقول. ففي الأخبار الصحيحة أن حالة النيل الأعلىٰ لا ترضي الحكومة الانجليزية، والبلاد المجاورة لخرطوم في ثوران شديد وقد انقطع الأمل من فتح الطريق بين بربر وعاصمة نوبيا، ومحمد أحمد مهتم من نحو شهر بجمع قوة عظيمة يساعده على تنظيمها ضباط من أركان الحرب فيهم اثنا عشر أوربياً وستون ضابطاً مصرياً نجوا من عساكر هكس، ذكرت جميع ذلك جريدة الديلي نيوز واعترف مستشار خارجية انجلترا ان المواصلة بين شندى وخرطوم منقطعة، ولم يصله خبر عن جوردون من حادي عشر هذا الشهر فإذا ترك هذا الخطب الجلل للقوة الانجليزية فلا نظنه إلا يصدع جدار الهند كما بينا في العدد الماضي ويذهب بكل ما يعبر عنه بالمصالح الأوروبية في مصر (وليكن كذلك).

ولا نظن أن دول أوربا تسمح بضياع مصالحها في الأقطار المصرية خصوصاً بعض الدول التي كانت تسابق انجلترا في وادي النيل وانحط مقامها فيه بالتداخل الانجليزي الذي ليست له حدود معروفة، ولا غايات معلومة، والى هذا تشير جريدة التان الفرنسية الوزارية حيث تقول: ان إنجلترا لا يمكنها أن تضع مصر تحت حمايتها حتى تناقش الحساب بين أيدي أوربا، وتنوّه به جريدة سان بترسبورج حيث تقول: ان روسيا ليس في عزمها أن تفتتح بعمل في مصر فان انجلترا اعترفت في جميع الأوقات بأن المسائل المصرية لها هيئة دولية وبناء علىٰ هذا لايمكن القطع في شيء منها إلا باتفاق أوربا، هذا إذا تمكنت انجلترا أن تأخذ على نفسها اطفاء الفتن وإجهاد الثورات، واستطاعت القيام بما تكتب على ذاتها، ففي نهايته تطلب عند أوربا بما تقتضيه مصلحة كل دولة منها، فإن عجزت كما هو الغالب على الظن أو طال عليها الزمان، وهي بين ظفر وانهزام ولا تتجاوز في حركاتها العسكرية شواطىء البحر، فلا ريب ان القلق يستفز الدول لطلب وسائل أخرىٰ سوى ما تهيئه دولة انجلترا، وأنّا نرىٰ وسيحكم الزمان لنا ان شاء الله ان حفظ حقوق الأوربيين، وضبط البلاد المصرية واخماد نيران الفتنة فيها لايتم إلا علىٰ أيدي أهلها ويفعل الله ما يشاء.

الانجليز في السودان

ان البرقيات التي وردت من سواكن جميعها متفقة علىٰ ان العساكر الانجليزية هاجمت معسكر عثمان دجمة في ثمانية منقسمة الىٰ مربعين وبعد أن فارقت زفربا غارت عليها العرب بعدد وافر مع بسالة الأيس ودخلت في المربع الأول وهو المقدمة وكانت فيه مذبحة هائلة، وتقهقرت العساكر الانجليزية وتركت مدافعها بعدما قتل منها جم غفير بأسنة العرب وحرابهم إلا أن فرقة من مشاة البحرية جاءت من القلب وسدت الخلل الذي وقع في صفوف العساكر من هجمات العرب ودفعت قوة المهاجم، ولم تكد المربعات الانجليزية تلتئم وتعود الى الانتقام حتى هاجمتها جيوش عثمان مرة أخرىٰ ببأس شديد وانقضّت عليها من الجناحين والتحمت مقتلة عنيفة وترامى العرب على الموت واستهانوا بالحياة مفضلين الشهادة علىٰ التقهقر والتسليم.

وتضافرت الأخبار على ان العرب أظهروا من البسالة والشجاعة ما لا يوصف، حتى قال الرواة أن ما شاهدوه منهم يعدّ من غرائب الأعمال البشرية، إلا ان الروايات اختلفت في عدد من قتل منهم ومن عساكر الانجليز، فبعضها أوصل قتلى العرب الىٰ ثلاثة آلاف وبعضها الى أقل ثم جاءت الاخبار الرسمية (وما أدراك ماالاخبار الرسمية) وما تبالغ في قتل أعدائها مصرّحة بأنها ألفان أما قتلى الانجليز

فقد بالغوا في قلتها حتىٰ أوصلوها الىٰ مائتين أو ثلثمائة بعدما اعترفوا بأن العرب فتكوا فيهم فتكاً ذريعاً.

وعلى أي حال قد انتهت الواقعة بانسحاب العرب الى جبالهم ورجعت العساكر الانجليزية بغاية السرعة الى سواكن وتركت المواقع التي استولت عليها وتوافد اليها العرب مع قائدهم عثمان واجتمعت له في الموقع الذي هوجم فيه قوة حملته على الشموخ بأنفه والنداء باستعداده لمهاجمة العساكر الانجليزية وانه لايقبل التسليم وانا لنعجب كما يعجب سائر الجرائد الأوروبية من هذه الرجعة العربية بعد الطنطنة بالنصر والظفر والإعلان بأن العساكر الانجليزية نالت من الشرف أعلىٰ ما يناله جيش في قتال، فإن سرعة الرجوع شاهد بيّن على ان هذا الجيش المنظم يقتدر على حفظ مركزه في ساحة الحرب وانه خشى التلف لو بقي فيه فعاد راجعاً الى شواطئ البحر فكأن المقتلة لم تكن إلا كرة اعقبتها قوة حتى عدها بعض الجرائد هزيمة وحسبتها من الخطأ العظيم لأنها تجرئ العرب على البقاء في الطريق الذي يصل سواكن ببربر وقطع الطريق على سالكيه وانا لا نوافقهم على ذلك لكنّا نعدها عجزاً ظاهراً عن مقاومة العربان في جبالهم.

وما أشبه فعلة الانجليز هذه بفعلته من نحو عشرين سنة عندما كان يحارب في حدود الهند سرايا الأمير عبد الله الوهابي واخوندسوات فانه بعدما انهزم في جبال (سوات وبنير) شر هزيمة وترك مدافعه وذخائره رجع ثانية ودخل قرية صغيرة من قرى تلك الجبال.

وفاجأها ليلاً على غفلة وأحرقها فقتل أهلها جميعاً وانقلب راجعاً الى بلاده في الهند من ليلته، وأعلن بأنه قتل وسلب ونهب وظفر وانتصر فليعتبر المعتبرون.

وكان الجنرال جراهام بعمله هذا لم يرد إطفاء الفتنة في الأراضي المصرية، وانما قصد ردّ شرف العساكر الانجليزية والأخذ بثأر بعض من قتل منها سابقاً وإقامة البرهان لأوربا علىٰ أن عساكر الانجليز يقدرون على محاربة العربان

ويستطيعون الهجوم عليهم، نعم إنه لم يغفل التدبير بالكلية فان الجرائد أخبرت أنه وضع رأس عثمان دجمة في المساومة وجعل لمن يأتي به ألف ليراً انجليزية ونعم ما دبر ولكن يخاف ان عثمان عندما يبلغه الخبر يضع رأس الجنرال في المزايدة ويجعل لمن يأتي به مائة قنطار من سن الفيل ويكون الخطر على الجنرال أعظم !!!

ثم ان الجرائد الانجليزية على عادتها من ترويج سياسة حكومتها في الحروب أشاعت أن الجنرال جراهام بعد رجوعه الى سواكن دعا بعض رؤساء القبائل وذكرهم في إقرار الراحة بين سكان البلاد السودانية ورغب اليهم ان يتعهدوا به فأجاب بأنه غير ممكن لهم إلا بمساعدة العساكر الانجليزية وانهم استصوبوا ما نشره الجنرال من تعيين الجعالة على جز رأس عثمان بمبلغ ألف ليرا انجليزية، وهذا مما لا نظنه بالعرب لمخالفته طباعهم وبنوا أخلاقهم على الخضوع للأجنبي عنهم وما عهد ذلك فيهم من يوم نشأتهم العربية الى اليوم. وبعد انهاء الكلام معهم أخذ في ذم عثمان على ما روته تلك الجرائد حيث لم يظفر به بأنه كذاب وخائن لبلاده وابناء جلدته فإنه الذي عرضهم لسفك الدم وإتلاف الأرواح.

وقد ذكرنا هذا بقصة أحد القواد الأفغانيين حيث عرض نفسه لخدمة الانجليز في الحرب الأفغانية الأخيرة فأمدوه بمبالغ وافرة لإعانته على العمل فأخذ ما أخذ ونثره في قومه وهيأهم به للكر على الانجليز والنكاية بهم ونال منهم ما نال. وبعدما ذاقوا منه الوبال أخذوا في نشر المنشورات وتحرير الاعلانات بأن هذا الرجل قليل الوفاء خائن العهود لا يثبت على قوله ولا يفي بوعده مع ان الوفاء هو أداء حق الوطن والمدافعة عنه والقيام بذمامه وكل عهد يخالفه فالذمة تنكره والصدق يأباه كائناً ما كان.

هذه أسطورة أمر الجنرال جراهام، وأما الجنرال جوردون فقد أخبرت بعض الجرائد الانجليزية انه في خطر وانه يوجد قلق عظيم في مصر من جهته، ويثبت هذا الخبر امتناع وزير الحربية في انجلترا من عرض المخابرات التي جرت بينه

وبين الجنرال خوفاً من تأثيرها في الأذهان.

وروت جريدة الديلي نيوز بناء على تلغراف ورد اليها أن زبير باشا صرّح باستعداده لأن يخلف جوردون باشا في السودان وهو يظن انه لايمكن اعادة الأمن الى تلك البلاد إلا بطرق سلمية ولا يستطيع أن يبدي فكره في شأن المهدي قبل ان يخابره وهو في ريب من اعتقاد السودانيين بنبوته (كذا) ومما قال ان تجارة الرقيق يمكن الغاوها بالتدريج عندما يشرع سكان السودان في معرفة فوائد التمدن ومنافعه ثم كذب ما أُشيع عنه من البغض للجنرال جوردون.

نعم ان زبير باشا لا يبغض الجنرال في هذه الأوقات ما دام في القاهرة اما اذا وصل الى السودان فيمكن ان تعود اليه الضغينة التي مازجت قلبه سنين عديدة.

* * *

صدىٰ دعوة السودان

وردت برقية من تاشكند الى جريدة الساندر الانجليزية مفادها أنه حصل اضطراب عظيم في أفكار المسلمين سكنة بخارى عندما سمعوا بانتصار أعراب السودان وظفرهم الأول وظهر فيهم داع جديد يحثّ على الحرب ومقاتلة الذين ينتهبون الأراضي الاسلامية لتوسيع ممالكهم ويهدد صاحب السلطة العامة بين المسلمين بخلعه من مغرسه اذا لم ينشر اللواء الأخضر (المغالبة ومصادمة المتعدي عليهم) هذا برهان جلي على ما أنذر به سابقاً من أن دعوى المهدوية في السودان لهذه الأوقات التي صدم المسلمين فيها أشباه الحوادث الماضية في القرن الخامس والسادس من الهجرة ستدعو الى حركة عامة يصيح فيها الشرقي بالغربي ويصعب علىٰ الانجليز وهو في مجراها ان يتنكب عنها دون أن تعروه هزّة من مفزعاتها خصوصاً والمظاهرة الدينية في البلاد المحكومة بسلطة أقوىٰ وأظهر.

ان بلاد بخارىٰ بينها وبين السودان مسافات متطاولة وأبعاد متنائية ويظن الناظر في لوح الجغرافيا ان المواصلات بينها منقطعة وَمع ذلك سرى التنافس بين القطرين في الغيرة بغاية السرعة فما ظنك ببلاد هي أقرب الى مبعث الدعوى وأدنىٰ منها منالاً، يغلب على الظن ان الروح هبطت اليها ولكن تتحرك بحركة العقل وتنمو على القوانين الطبيعية والشرائع السياسية والاعتقادية، فلا يشعر الأقوياء إلا وقد

بات بحلاقيمهم المستضعفون والأرض أرض الله يـورثها مـن يشـاء مـن عـباده الصالحين.

إذا سهلت الحوادث ظهور الكوامن ومهدت بروز المغيبات مـاذا يمكـن أن يؤخذ به من الوسائل لوقاية العدد القليل من غيلة الجمهور الأغلب الذي لايقاوم وما أمكنت مقاومته في الأزمان الخالية.

نظن ان لا وسيلة لهذا إلا بتسليم الأمر لأربابه والدخول اليه من بابه، وتركه للمسلمين يرضى بعضهم بعضاً ويدافع بأسهم بأس بعض. فان كان هذا هو نهـاية السير، فن الخطأ السياسي أن لا يبدأ به قبل اشتداد الكرب، وعظيم الخطب، والله الهادي الى الطريق الرشاد.

اضطراب سياسة الانجليز في مصر

تشاكلت أفكار السياسيين من الانجليز في لوم الحكومة على سياستها المصرية، قال اللورد سالسبري في بعض الاجتماعات العظيمة ان الحكومة الانجليزية بالتواء سياستها وتذبذبها وضعت من شرف انجلترا وخفضت اسمها، وعرضت أجلّ مصالح الامبراطورية (الهند) للخطر ثم تكلّم في منشور جوردون باشا المبيح لبيع الرقيق فقال ليس من الممكن لمسيو جلادستون أن يبيح تجارة الرقيق على حفافي النيل وهو يحظرها على سواحل البحر الأحمر (والأولى أن يبيحها في جميع البقاع لاستحالة منعها مطلقاً). وذكرت جريدة (البال مال جازيت) أن مستشار جمعية منع الرق في لندن أرسل الى اللورد جرانفيل خطاباً بالنيابة عن أعضاء الجمعية يلقي عليه التبعة في تسمية زبير باشا والياً على السودان الشرقية، وأن الجمعية اتفقت آراؤها على أن مساعدة الحكومة الانجليزية لرجل كزبير باشا تكسبها عاراً وحطة في نظر أوربا.

* * *

وقالت جريدة الديلي نيوز: الصحيح ان الارتباك الواقع في مالية مصر أقلق وزارة انجلترا وبعثها على البحث في ايجاد وسيلة لادخال النقود الى مصر فانها في غاية الحاجة اليها، ويؤكد ان الحكومة الانجليزية ستعرض أفكارها على البرلمان في

هذا الشأن وفي الظن ان ما تعرضه عليه يكون متعلقاً بضمانة القرض المصري (دخول مصر في حماية انجلترا رسمياً) إلا ان عدداً عديداً من الأحرار في البرلمان صرحوا بعدم قبولهم أي فكر يعرض عليهم في هذه المسألة. ومع هذا فقد كذبت هذه الجريدة ما أشيع في الدوائر المالية من أن في عزم الحكومة الانجليزية أن تعد قرضاً للبلاد المصرية مبلغه ثمانية ملايين بفائدة ثلاثة ونصف في المائة.

برلمان انجلترا

انعقدت له جلسة من أيام لم يحضرها المستر جلادستون لأنه كان مريضاً (أو متمارضاً لخوفه من عاقبة المداولة فيها) فناب عنه في الكلام هرتنكتون وزير الحربية وابتدأ يطلب نقوداً لنفقات حلول الجيش الانجليزي في الأقطار المصرية وبين الدواعي الى ما طلب فعارضه المسيو لابوشير (وهو من الحزب الحر الذي يأبىٰ أن تدخل انجلترا في أي حرب كانت) وطلب تنقيص المبلغ الذي طلبه وزير الحربية ثم دارت المباحثة في المسألة المصرية وحمى وطيس الجدال فيها وتكلم الخطباء عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها وبينوا الأغلاط التي ارتكبتها الحكومة في سياستها وماذا يجب الآن إعداده من وسائل الخلاص وقال اللورد نورثكوت «وهو رئيس حزب المعارضين لسياسة الحكومة» ان خطاب وزير الحربية دل على تغيير عظيم في أفكار الوزارة فقد علمنا من كلامه أنها جارت الرأي العمومي في البلاد وأذعنت لمقتضيات الحوادث وعدلت عن السياسة المرتجة المتزعزعة واعترفت بما تعهدت به وقبلت ان تقوم بوفائه بعد أن كانت تحاول التملص منهُ وفهم منه أيضاً أن بلاد السودان اذا تركت لصغار السلاطين القدماء الذين يحاولون استعادة ممالكهم ليقوموا فيها إمارات صغيرة فإن خرطوم تكون مستثناة لأهميتها في راحة البلاد المصرية وان البحر الأحمر لما كان تابعاً لقنال السويس ومرتبطاً بطريق الهند، فصالح

انجلترا تقضي بأن تكون الثغور المصرية «من اسكندرية الى ماوراء عدن فتدخل رشيد ودمياط وبورسعيد وسواكن ومصوع» بيد الانجليز مادام المصريون عاجزين عن الدفاع عنها ووضح في خطابه (وزير الحربية) أن أفكار الوزارة في هذه الأوقات متجهة لأن تحمل عساكرها في مسافات طويلة من السودان الشرقي لعلمها بلزوم اتصال شواطئ البحر الأحمر بالمراكز التي تبقى في السودان وان توصل سواكن ببربر بخرطوم، وهذا الرأي الذي أبداه وزير الحربية يستدعي حلول في مصر الىٰ مدة أطول من المدة التي صرّح بها سابقاً.

كانوا بدأوا في استدعاء قسم من العساكر وصمموا علىٰ استدعاء قسم آخر منها، لكنهم الآن لايريدون إلا تقرير حكومة أهلية (كذا) قادرة ان تقوم بنفسها وتأتي أعمالاً مفيدة لبلادها وبعدما كانوا يستعملون الألفاظ المبهمة في شأنهم مع مصر، صرحوا بالحالة التي يجب أن تكون عليها مصر حتى تتركها انجلترا وشأنها ويريد وزير الحربية بحكومة ثابتة قادرة ما تكون موضع الثقة لرعاياها والأوربيين المستوطنين في البلاد ومحل من النقود التي تحمل اليها (ديناً وقرضاً).

* * *

قالت جريدة التان بعد ذكرها هذه المباحثة أن الوزارة الانجليزية حادت عن منهجها الأول وصرحت بقبول التبعة في مداخلاتها التي كانت تؤمل التخلص منها متى أرادت، إلا أنها الآن حملت حملاً ثقيلاً على ماليتها وسياستها الخارجية. انها لم تصرح بكلمة حماية حتى اليوم ولكنها، المراد من عبارتها، وتزعم انها مساقة اليها قهراً لغرض ان تمنح مصر إدارة قويمة وجهادية منظمة وقضاء عادلا وهذه الحماية تمتد من شمال الدلتا الى خرطوم ومن خرطوم الى البحر الاحمر ولكن يصعب على انجلترا ان تنال هذه الحماية مالم تناقش في الحساب بين يدي أوروبا، وانا لنأسف على فقد اللورد بيكويسفيلد ونتمنى لو كان حياً حتى يذكر المسيو جلادستون بخطبه المشتعلة غيظاً، المفعمة لوماً وتقريعاً على من يميل لسياسة الحروب

والفتوحات.

قالت صحيفة الديلي نيوز وهي شبه رسمية ان الوزارة الحالية (الانجليزية) في خطر وانه في يوم الخميس الماضي كان الكلام دائراً في مجلس البرلمان على تغيير وزاري وعلى حل المجلس وأنه لا يمنع من ذلك رفض اللائحة التي قدمها لابوشير في لوم الحكومة ثم قالت ان البلاد (الانجليزية) لابد لها أن تتهيأ لابداء أفكارها في شأن الوزارة وتصرفها داخل البلاد وخارجها.

ويقال في الدوائر السياسية أن تأخر مستر جلادستون عن الحضور في جلسات المجلس يومي السبت والأحد لم يكن ناشئاً عن انحراف الصحة وانما كان هذا تعللاً ومراوغة ليس إلا[١].

١ ـ ادعاء المرض أو التمارض الديبلوماسي أصبح معروفاً في مصر... فلتبحث بريطانيا عن سلاح آخر !!!

الباب العالي

ان كان البرهان يدفع غارة أو يهزم عسكراً أو يفتح بلاداً فهذا أقوىٰ ما يكون من البرهان على أوضح حق يوجد.

كتب مراسل التان في الأستانة كتاباً مفصلاً عن أفكار أعاظم العثمانيين في المسألة المصرية وما للباب العالي من الحقوق. فما أثبته ان العثمانيين في ضجر من اجحاف انجلترا وجورها عن العدل في معاملة السلطان وعدم الاكتراث بما له من الحق الثابت وتصرفها في مصر بدون مراعاة رضاه وان بعض الرجال العظام بين له حيف انجلترا وتعديها على المعاهدات الدولية والفرمانات الشاهانية وأثبته بأدلة منها ما أجابت به انجلترا عن بلاغ الباب العالي الى الدول من نحو سنتين في بداية الارتباكات المصرية حيث قالت انها ترغب حفظ الحالة المقررة في مصر (الاستاتوكو)[1] علىٰ مقتضىٰ الفرمانات السلطانية والعهود الدولية وأنه لا يسوغ التغيير فيها بوجه ما إلا باتفاق الدول.

ومنها نص الفرمان الصادر بتولية توفيق باشا فإنه صريح في أن مصر بحدودها الطبيعية وملحقاتها تعدّ من الاملاك العثمانية وأنه لا يسمح للخديو ان يتنازل عن قطعة أرض منها صغرت أو كبرت لأجنبي كائناً من كان لأي سبب ولا

---

١ ـ STATUS QUO معناها الوضع الراهن...

بأي وجه ولا يسوغ له أن يتخلى عن شيء من الامتيازات الممنوحة لمصر مهما كانت الأسباب والحوادث ولا يجوز له عقد شرط أو عهد إلا بعد عرضه على الدولة ورضاها ويحظر عليه تجديد قرض مالي إلا فيا يتعلق بتسوية المسائل المالية التي كانت لذاك العهد.

ومنها ان قنال السويس لم يفتح إلا بعد استئذان الباب العالى فكيف ساغ لانجلترا الآن ان تتولى فصل السودان عن مصر وأن تتداول في فتح قنال آخر وأن تتدبر في قرض جديد تحمله على عواتق الحكومة المصرية وان تتناول حماية الثغور بعساكرها بدون الاتفاق مع الباب العالي ولا مشاورة الدول العظمية.

وأنا في حيرة مما أراد هذا العظيم من إقامة الحجج هل أراد إظهار ما كان خافياً على دول أوربا وهم يعلمونه حق العلم أو بيان أن انجلترا أخطأت في فهم هذه الفرمانات وتلك المعاهدات أو حاول إقناعها بالدليل والبرهان. ولكنا نعلم ان حكومة بريطانيا لا تفزع من الاحتجاج ولا ترهب الجدال فإنها تمرنت على ذلك من أزمان طويلة مع الملوك والأمراء الشرقيين وأمكنها في أحوال كثيرة أن تجيب عما يرد عليها من الاعتراضات وان بلغت مقدماتها من الظهور حدّ البداهة ولولا هذا لما احتدت جريدة التايمس عندما بلغها نبأ مؤداه أن جرانفيل طلب من السلطان ان يرسل حامية تركية الى سواكن وبالغت في انكار ذلك بقولها أنه مما لا يخطر بالبال ثم تعللت بما لا يذهب على فطنة أحد حيث قالت ان انجلترا لا تريد أن تحامي عن حقوق السلطان بعدما صارت بضعفه نسيا منسياً.

ايرلندا

في كل يوم يقيم الانجليزي برهاناً منطقياً ودليلاً جدلياً على انه ما ذهب الى مصر إلا بقصد إقرار الراحة ووضع قواعد العدالة، ولكنه كلما رتب مقدماته لإقناع السذج بقضاياه المشهورة عارضه الإيرلنديون ببراهين عملية تنقض ترتيبه وتبطل نتيجته فإنه لا يمضي وقت من الأوقات إلا ولهم فيه عمل لكسر شوكة الحكومة الانجليزية في ايرلندا يضعون الديناميت لتدمير الأبنية وهدم الجسور وتعطيل السكك الحديدية ويفتكون برجال الحكومة ويتضجرون من ظلمها ويطلبون كل وسيلة للتملص من سلطتها وهم في سيرهم لايهنون ولا يفترون.

هيئت وليمة للمستر بارنل رئيس حزب الإيرلانديين حضرها جم غفير منهم احتفالاً بعيد سان بتريس وفيهم كثير من أعضاء البرلمان فألقى عليهم خطاباً أظهر فيه مسرته من تقدم الحركة الجنسية في ايرلاندا وأوصى الايرلنديين أن لا يعتمدوا على حزب من الأحزاب الانجليزية وانما يكون اعتمادهم على نشاطهم واجتهادهم ثم قال ان له في المستقبل أملاً حسناً وختم كلامه بقوله ان اليوم الذي يجتمع فيه الايرلنديون على اختلاف أحزابهم في بسيطة أرضهم هو قريب وسيكونون عما قليل تحت حكم برلمان إيرلندي وفي ذلك الوقت لا قبله ترسل ايرلندا الى انجلترا رسالة سلمية. وعند رفع كؤوس الشراب أبى الحاضرون ذكر الملكة وانما رفع بارنل أول كاس ونادى باسم الأمة الايرلندية وطلب من الحاضرين ذلك.

هكذا يطلب الانجليز ضمّ أراض الى أملاكهم فتنفصل عنهم أراض أخرى والى الله علم العاقبة.

الفرنسيون في التونكين

مضت عدة أشهر والفرنسيون ينتظرون ما تؤدي اليه حركات عساكرهم في بلاد تونكين وكادوا يرتابون من حسن العاقبة حتى وردت البرقية الى وزير الحربية في باريس من القائد العام بأن العساكر الفرنسية دخلت باكنين من طريق يوصل الى لانسون وان الصينيين انهزموا الى نواحي نكبين حيث اشتدت عليهم المهاجمات الفرنسية من جهتي الشمال والشرق وخسروا خسائر جسيمة ولم يجرح من الفرنسيين سوى سبعين رجلاً وحازت العساكر الفرنسية كميات وافرة من الذخائر وبطارية من مدافع الكروب وجدوها في قلعة باكنين ويظن كثير من رجال السياسة الفرنسية أن فرنسا قد أتمت عملها بالاستيلاء على هذا الموقع المهم.

وأكد هذا الظن ما ورد بالبرقية من بكنين الى جريدة الستاندرد ان مملكة الصين عندما بلغها استيلاء الفرنسيين على باكنين عقدت مجلساً حربياً لدراسة الموقف في الأمور الصينية الحاضرة، فقرر الاعضاء وبينهم الأمير كونغ على انه يلزم الاتفاق مع الحكومة الفرنسية بطرق ودية.

وفي حسباننا ان مثل هذه الفتوحات لا تسلي أحزان الفرنسيين ولا تعزيهم على ما خسروه في مصر وان ذاك الضماد لا يقطب هذه الجراح.

منشورات

روت جريدة التان عن جريدة سان بترسبورج ان أمبراطور روسيا أظهر رغبته في السفر الى برلين في الصيف القادم مع الأمبراطورة ولم يعلم تاريخ توجهه بالتحديد الى الآن ويظن ان سفره هذا يكون قبل سفر أمبراطور المانيا الى (أمس) حسب عادته.

وتعد هذه الزيارات من مؤكدات المواصلات بين دولتي الروس والمانيا وهو مما يوسع للروسيا ميدان الجولان في آسيا كما بينا سابقاً.

* * *

وردت الى الديلي نيوز برقية من القاهرة مفادها ان قبيلة تراشي في بربر انضمت الى قبائل كوردفان المعتقدين بمحمد أحمد.. وهذا مما يقنع الناظرين في الحركات السودانية بأن هذه المبالغات التي يذيعها الانجليز في انتصارهم لم تؤثر شيئاً في نفوس القبائل ولم توهن اعتقادهم بذلك المدعى السوداني. ويقيم دليلاً على ما قلناه من أن هذه النيران الملتهبة لا يطفئها إلا رجال من عظماء المسلمين.

* * *

نشرت في عدة مدن من ايرلندا اعلانات ثورية وجدها أعوان الشرطة ملصقة على جدران الشوارع والأماكن العمومية مكتوباً فيها هذه الكلمات : (حرب أهلية في شهر مارس سنة ١٨٨٤) وهو الشهر الحادي فتناول الشرطيون تمزيقها

بغاية السرعة. وكان الايرلنديون من قبل، وضعوا الديناميت في محطات السكك الحديدية من جملة جهات وهذا الإضطراب الداخلي الشديد ثالثة الأثافي للمسألة المصرية ودخول مرو في حوزة الروس، وهذه الثلاثة، ان لم يكن لها رابع، فهي كافية للمتبصر في تقدير الارتباك الذي ألم بالحكومة الانجليزية في هذه الأيام.

* * *

انا لله وانا اليه راجعون لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ورد تلغراف من القاهرة ان جريدة الستاندرد يفيد ان السجون ضاقت بالمسجونين حتى اضطرت الحكومة (المصرية أو الانجليزية) الى اطلاق ألف ومائتي منهم من أرباب الجنايات الخفيفة وسبب هذه البلية عدم قدرة المجالس على محاكمة جميع المتهمين. لهذا تذوب المقل بكاء وتتفتت الأكباد حزناً.

* * *

ورد من سواكن الى الستندارد :

ان المنشور الذي نشره هفت الأميرال الثاني بتعيين جعالة لمن يأتي برأس عثمان دجمه وصل الى مشايخ عرب ثمانية فأحرقوه علامة على رفضه وعدم قبوله.

* * *

برلين في ١٨ مارس :

ان جريدة البوست وهي جريدة لها علاقات مع السفارات في برلين، من فكرها ان استعفاء توفيق باشا وهو قريب الوقوع يفتح للدول الأوروبية باباً لاعادة المراقبة المشتركة في مصر لأن انجلترا لم تنجح كل النجاح في مأموريتها لإقرار الراحة في تلك البلاد.

* * *

باريس في ٢٧ مارس

اشتدت خطوب المسائل المصرية واشتبهت مناهجها وعظمت أخطارها والتبست وجوهها على ذوي الشؤون وأرباب المصالح فيها حتىٰ علىٰ السياسيين من رجال حكومة انجلترا. كل يتصور غاية ويطلب حظاً يناله منها وقد شد رحاله

للوصول اليه ولكن ضل أعلام الجادة وتاه في مجاهيل وليل المشكلات مظلم وديجورها مدلهم وتعاكست مذاهب السالكين هذا يشرق والآخر يغرب وكل في وحشة يطلب المعين ويخاف العادي وكلما فرح لنبأ رمي بسهمه من الجزع لايدري أصاب خصماً أو قتل منجداً.

ان دولة عظيمة كان لها من القوة ما اعترف به دول العالم أجمع، ولها من الحقوق في مصر ما لاينازعها فيه أحد، ترى رجالها اليوم يهتزون لدهدهة الرعود الانجليزية، وان كان سحابها جهاماً، ويفزعون من هزيم تلك الأصوات فيحارون ماذا يفعلون، وربما يأتون ما لايريدون.

إدعت دولة واسعة المطامع انها نائبة عنهم في اصلاح الأقطار المصرية وانقاذها من الاختلال، فتبوأتها بقواها العسكرية وأخذت بزمام الأحكام فيها، تعزل وتولي، وتعطي وتمنع، وتعاهد وتنقض، وتنقص من أطرافها ما أرادت، وتحل بعساكرها من بقاعها ما شاءت وأصحاب الملك الشرعي شاخصة أبصارهم، مشرئبة رقابهم، يبصرون ما لايسر لهم خاطراً، ولا يشرح لهم صدراً، مع خفقان في القلب، واضطراب في الفؤاد، والتهاب في الاحشاء، فزعاً من سوء العاقبة، يحسون بما تقتضيه مواقع الأقطار، والنسب بين بلد وما يجاوره من البلدان، وما يلزم لحمايتها من وسائل الدفاع، فيحكمون بأنه ان دامت الحال على مايرون، أصبحت الأقطار السورية والحجازية واليمنية، على خطر عظيم في زمن قريب أو بعيد، وان تاريخ مصر من عهد الفراعنة الى الآن، ينادي عليهم نداء الناصح، بل ينفث فيهم نفثات الحق، بل يزعجهم إزعاج الحاكم القاهر بأن المحافظة على مصر، من أهم واجباتهم ان لم يكن لذاتها، فلما يتسلط عليه موقعها من الأقطار.

أما ولاة الأمر من المصريين وأولو الرأي فيهم فقد غشيهم من هذه الدهاة ما أذهلهم ؛ عن علم حاضرهم، والفكر في مستقبلهم، طلبوا لهم عوناً قوياً، وركنوا اليه في دفع ما ظنوه غائلة، وتوهموه نازلة، فاستبد بالأمر عليهم، وسلبهم ما طلبوا

المحافظة عليه وهم بين نوم تطيب لهم أوائله، بما يلين لجنوبهم من الوعود الانجليزية، وبين أحلام مدهشة وخيالات مزعجة، تمثل لهم ما سيصب عليهم من حميم العذاب، وما يؤخذون به من عذاب الهوان، وان قليلاً مما يشهدونه حاضر العنوان، على كثير مما يراه بعضهم بعيداً ونراه والعاقلون منهم قريباً.

أما الانجليز، فليسوا في حل مما كسبوا ولم يهنأ لهم ما طمعوا، بل دافعتهم الحوادث وطاردتهم الى مشاكل لم تكن في حسبانهم، وهم الآن بين أمور ثلاثة لا يتيسر واحدها إلا بما ينفي الآخر وهم يريدونها مجتمعة ولن يقدروا عليه إلا بقدر يأتيهم بما يخرق العادة ويفوق الإمكان، إنهاء مسألة محمد أحمد، والوفاء بعهودهم لأوروبا، وما يضمرونه لأنفسهم في مصر، ثم هم يتشبثون لكل منها بوسيلة تضارب ما يتمسكون به في الأخرى تارة يظهرون عزمهم على مبارحة مصر جنوحاً الى الوفاء بالعهد، لكن يتبعون ما يقولون في ذلك بأن أجل الجلاء غير محدود وتارة تنادى بأن ذمة إنجلترا توجب عليها أن تدخل مصر تحت حمايتها وتتولى إدارتها بصفة سيد حاكم لا مستشار ناصح، ويشير بل يصرح وزير حربيتهم بأن الضرورة تلجئهم الى مثل هذا العمل ويعبر عنه أحياناً باسم الحماية وأخرى بما لا اسم له سواها، وطوراً يلقبون محمد أحمد أمير كوردفان ويطلبون من الخديو كما روته جريدة (ميموريال ديبلوماتيك) أن يكتب لهم صكاً بأنه يفوّض الأمر لهم في شأن المدعى يتفقون معه كما يريدون وأنه يسمح لهم بإحلال عساكرهم في سواحل البحر الأحمر وانه لايتولى ولاية خرطوم بعد جوردون إلا شيخ يضمن لهم حسن الاتفاق مع محمد أحمد. فلا الوفاء يروق لهم لمناقضته للغرض ولا الحماية تسهل عليهم لأن دول أوروبا بالمرصاد وبين هذا يأخذ محمد أحمد ما يهيئه له الإمكان من القوة ويثبت دعوته الى سائر الأقطار ويجيش الجيوش ويزحف الى خرطوم وهو اليوم يحاصرها وعلى شرف افتتاحها ومع حرص الحكومة الانجليزية على كتم الاخبار وتلطيف الإشاعات من جهة خرطوم اضطر وزير حربيتها أن

يعترف في مجلس النواب بأن المخابرات منقطعة بين خرطوم ومصر السفلىٰ (الى الاسكندرية) وان الحكومة الانجليزية في مخابراتها مع الجنرال جوردون انما تعتمد علىٰ الصدفة في وجود من يقطع البراري الىٰ عاصمة نوبيا وكورسكو حتى يوصل الخبر اليه وأنه لا علم للحكومة بشيء من أحوال النيل الاعلىٰ من خامس عشر الشهر، ولا تدري ماذا حلَّ بجوردون، وأثبتت جريدة التايمس ان الجنرال في خطر عظيم، وزاد الهول عليهم ان عثمان دجمة لم يتزعزع عزمه بما أصابه في الهزيتين بل لم يزل خصماً قوياً للحكومة الانجليزية، ويدل على ذلك أن الجنرال جراهام يتأهب لمنازلته كما ذكرته جريدة التان وفي أهم الجرائد الفرنسية أن وقوع خرطوم في قبضة محمد أحمد يكون له رجة هائلة وأثر عظيم في تغيير الاحوال الحاضرة في البلاد الشرقية.

نعم اذا حل محمد أحمد في خرطوم سهل عليه جمع كلمة القبائل النازلة ما بين خرطوم واسوان وتتصل أطراف جيشه ببلاد مصر العليا ولا يعدمون من العرب في جهات الصعيد بل وفي الدلتا من يلتحق بهم وتكون الطامة الكبرى. يغلب على ظننا ان هذه النار ليست مما يطفئه رذاذ السياسة الانجليزية، ولا مما تخمده حركات عساكرها البطيئة، خصوصاً وقد وقع الخلاف بين حكومة بريطانيا وبين قواد جيشها في سواحل البحر الاحمر، فمن رأي الحكومة ان تداوم الحرب وتسرع في إنهائها ومن رأي الأميرال هفيت توقيف الحرب الى شهر اكتوبر (بعد ستة أشهر) لئلا تهلك العساكر من الحر، وان في ستة أشهر لسعة لما لا يهجس الآن في خاطر أحد. فلو وكل الأمر في تسكين الثورة وحسم الفتن الى القوة الانجليزية وبروقها الخلب لم نكد نفكر فيما يكون منها حتى تلتهب النيران في أنحاء اخرىٰ ويصعب على أرباب الشأن فيها بعد ذلك تداركها وليس لكشف هذه الخطوب إلا عزائم المسلمين، يلقي اليهم زمام العمل فيها خالصاً من المداخلات الأجنبية التي توغر الصدور وتثير الأحقاد.

وأحست الجرائد الفرنسية بما في نية انجلترا أن تفعله من التصرف في الأراضي المصرية ومنها جريدة (الريبليك فرانسيز) وجريدة (الديبا) وغيرهما، فطلبت من الحكومة الفرنسية أن تحل بعساكرها في جزيرة ديسى المتسلطة على سواحل البحر الأحمر مما يلي مصوع محتجة على ذلك بقولها ان صح ما ادعاه وزير حربية انجلترا من كون شطوط البحر الأحمر تعد من طريق الهند فلنا أن نقول انها أيضاً طريق تونكين وكوشنشين ومدغشقر بل ان الحلول في تلك الجزيرة من أهم الضروريات لمراقبة منع التجارة في العبيد كما تقضي به المعاهدة بيننا وبين انجلترا.

هذا بعض ما أنتجته سياسة جلادستون في مصر وربما يسكن روع أمته ويخفف إنزعاجها من هذه المباراة الجديدة بينها وبين فرنسا على سواحل البحر الاحمر بتذكار ما أعقبته المباراة بين الأمتين في الهند من أزمان ماضية ولكن شتان بين الزمانين فتلك أوقات كانت سياسة انجلترا خافية على أهالي الهند وكانوا ينخدعون لها، أما اليوم فلم يبق فيها خفاء على أحد من سكان الممالك الشرقية ولعل الغيب يوافينا عن قريب بما يكون لفرنسا مع انجلترا في هذه المسائل والى الله المصير.

الشيخ الميرغني

وردت برقية من سواكن في ٢١ مارس مفادها ان الشيخ الميرغني ومعه شيخ آخر يقال أنه من مكة المكرمة ذهبا في ذلك اليوم الى المعسكر الانجليزي ليحضر خضوع كثير من مشائخ القبائل الذين جنحوا الى السلم مع الانجليز. وفي خبر آخر أن هذا الميرغني صاحب فرقة انجليزية تسير الى بيرهندوك ليكون على يديه طاعة بعض القبائل في تلك النواحي، ويقال ان احداها لم تزل مترددة في قبول الطـاعة وعدمه.

هذا مما يعجب منه أن شيخاً يظهر بين المسلمين بمظهر العلم والإرشاد ثم يقود جيشاً إنجليزياً لإذلال ابناء ملته، وإخوان دينه وجنسه، وهو يعلم ان شرفه شرفهم، وسيادته بسيادتهم، ولولاهم ما نال الاكرام والإجلال، وما أغدقت عليه النعمة، وتوفرت لديه دواعي الترف والنعيم، وتمتع بكامل لذاته وشهواته، كيف يسوغ له أن يقدم جيوش الانجليز، قبل الوقوف على مقاصدهم، وماذا يريدون من تذليل جيش العرب وإخضاعهم، هل يصح له ان يأتي أمراً مثل هذا وهو يعلم ما يحذره الشرع وما يبيحه اغتراراً ببعض الأوهام التي لا أساس لها.

وكتب الينا من مصر والحجاز ان جماعة من العلماء في القطرين حكموا بمروقه وقالوا ان هذا من أعظم الزلات التي لم يرتكب نظيرها في الاسلام، على انه ليس من العلماء ولا من العارفين بطرق الارشاد، وانما نال الاعتقاد عند بعض السودانيين وراثة عن أبيه، وانه لم يتميز عن العامة الأميين في شيء، وان كان هذا لايدفع العجب من فعله.(١)

١ ـ هذا النص كما ورد في الأصل ويبدو ان ماكتبه السيد جمال الدين الأفغاني، وهو في عنفه، يمثل صورة من صور الرأي العام حينذاك. ومما لاشك فيه انه قد بنى حكمه هذا مما تجمع لديه من معلومات، ولا يخفى انه كان موجوداً في باريس عام ١٨٨٤. فاذا قدرنا الظروف التي كانت تحيط بالموقف، وبعد الشقة، واستحالة الوصول الى مصادر ثقة يعول عليها لما يجعل الأخذ بهذا الرأي في موضع الحذر والحيطة. ولا ننسى ان الخلافات الطائفية كانت على أشدها في شرق السودان في ذلك الوقت.... (الناشر).

خرطوم

في الجرائد الفرنسية نقلاً عن الإنجليزية أن أشياع محمد أحمد كانوا في مساء الثالث عشر من شهر مارس ثلاثة آلاف على القرب من خرطوم، وفي صباح الرابع عشر وصلوا الى ستة آلاف وهو يدل عن ان الجنرال جوردون عنده شيء من قوة الدفاع حيث لم تقدم تلك القوة على مهاجمة المدينة، لكن ماذا يجبي من طوعه ان يفعل مع هذه الآلاف المؤلفة التي تتضاعف يوماً بعد يوم وهم يحدقون بمحل اقامته من جميع الجوانب، ومما يدل على أنه في أصعب المضايق بل على شفير الخطر اتفاق الجرائد الإنجليزية علىٰ دعوة حكومتها لإنقاذه بغاية السرعة. وفي أخبار الخامس عشر من الشهر أن فرقاً من الثائرين متحصنون علىٰ شواطئ النيل بمقربة من حلفا، على مسافة بضعة أميال من شمال خرطوم، وأنهم أطلقوا النيران على مركب كانت تسير في النيل حاملة ثلاثمائة رجل استقدمهم الجنرال جوردون وقتلوا منهم نحـو مائة إلا أنه تيسر للجنرال استخلاص باقيهم، واستبشرت التايمس بهذا الظفر الذي تسنىٰ للجنرال بتخليص بقية القادمين اليه وان أظهرت غاية الكدر مـن كـونه في خطر عظيم، وثائرة السودان تحيط بجميع أطرافه وتستحث حكـومتها عـلىٰ

إنقاذه ما استطاعت (والله يعلم كم بين ذاك الاستبشار وهذا الإنذار وهما في فصل واحد).

* * *

وفي برقية الى الديلي نيوز أن طرق خرطوم منقطعة، وأن القبائل المذعنة لمحمد أحمد محدقة بجميع جهاتها، وان ثلاثة من تلك القبائل وافرة العدد وعلى مقدمتها جم غفير من المشائخ والدراويش يزحفون قصد الاستيلاء عليها، ويظن عموم الناس ان لا سبيل لمدافعتهم عنها أو تخليصها منهم إلا بإنجاد عساكر انجليزية، وقال مراسل التايمس في ٢١ من الشهر : أن من الواجب على الحكومة الانجليزية إغاثة الجنرال جوردون فإنها قد ألقته في فم الأسد وسيكون فريسة المنية ان لم ترسل العساكر اليه بغاية السرعة.

وجاءت الاخبار مؤكدة إن حصن كسلا تحت محاصرة الثائرين، وان القبائل في جنوب بربر جميعها في هيجان وثورة شديدة.

وهذا كله يؤيد ما قلناه مراراً من أن هذا المدعى يخشى من قوة بأسه وسريان دعوته الى جهات بعيدة، فإنه اذا استقر قدمه في خرطوم لم نلبث ان نسمع بظهور دعواه في أسوان.

تحكم اللورد دوفرين

نهجت دولة الإنجليز في معاملتها للدولة العثمانية منهجاً جديداً بعد حرب الروس، تأخذها بالتهديد والتهويل في كل ما تروم قضاءه من أغراضها في الممالك العثمانية، ولا تراعى فيما تفعل قانوناً دولياً، ولا عهداً سياسياً، وتتحكم بجبروتها في تحديد المواعيد وتعيين الأوقات، وأعظم ما يكون من مرهباتها الوعيد بتغير قلبها عن وداد تلك الدولة أو اشمئزاز نفسها منها ولا تفرق في نهجها هذا بين صغار المسائل وكبارها.

ومن ذلك ما رواه جميع الجرائد من اشتداد اللورد دوفرين سفير انجلترا في الأستانة على سعيد باشا الصدر الأعظم وإغلاظه له في القول عند التكلم في شأن شركة عثمانية تحت رعاية دولتلو بهرام أغا، منحها الباب العالي امتيازاً بتسيير سفن النقل على شطوط البحر الأبيض، وكان هذا العمل في يد شركة انجليزية (لم تأخذ به امتيازاً) فامتعض اللورد دوفرين وطلب من الباب العالي استرداد منحته فلم يجب طلبه فذهب يوم الخميس الماضي الى الصدر الأعظم وخشن له المقال ونسب الى الباب العالي تعمد المراوغة، ولما تنصل له الصدر بأن هذا ليس من خصائصه بل يتعلق بوزير الخارجية، قال انه لا يغاير فيه وزارة الخارجية (وان كان من خصائصها) وانه يلقي التبعة على الصدر الأعظم إذا تأخر الجواب بقبول حجته وان لابد من تعويض لمن أصابته خسارة بسبب هذا الامتياز من الانجليز، مع تحرير اعتذار رسمي وعزل والى أزمير فإذا بلغ أمرنا الى الخضوع بكل تهديد والانقياد بأي إرهاب، وصارت مسائلنا الداخلية تحت اختيار من يستطيع أن يلقي التبعة، ويبالغ في الخشونة، فإنا لله وانا اليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

مقاصد انجليزية في مصر

في كل يوم تلح جريدة التايمس علىٰ حكومة انجلترا بوجوب طرد العساكر المصرية الوطنية، زاعمة انه يحل من الأهالي محل القبول، ويسرون عنه غاية السرور، وتشير على الحكومة أيضاً أن تجهر بحمايتها لمصر وتظهر للدول انها تتحمل كل تبعة تحصل من مداخلتها في تلك البلاد، وان ذلك من مقتضى الحزم فإن الإدارة المصرية وفروعها في حاجة الىٰ اصلاح حقيقي ولن يقوم به إلا رجال الانجليز.

وهذا من تلك الجريدة وغيرها سوق للحكومة الىٰ اظهار ما أكنه من السلطة على البلاد المصرية، وضمها الى ممالكها الشرقية، وما كان ذلك خافياً على أحد وان كان بعض المصريين غالطوا فيه أنفسهم عن علم أو جهل والله أعلم.

وما تطلبه الجرائد من طرد العساكر الوطنية إنما هو مقدمة التملك ورسوخ القدم، ثم هي تموه في تحسين ذلك بدعواها أن أهالي مصر يفرحون منه مع أن أول ثورة عسكرية سر بها المصريون على عهد وزارة ولسون انما كان منشؤها العزم على تقليل عدد العساكر واقفال المدرسة العسكرية، فالمصريون وهم المسلمون لاتعقل مسرتهم من طرد حاميتهم الوطنية بل ينزعجون منه غاية الانزعاج.

حجة نوبار باشا

في برقية من القاهرة بتاريخ ٢٢ مارس أن نوبار باشا أقام الحجة على المستر كليفورد لويد (وكيل الداخلية المصرية) ورفع حجته الى الماجور بارنغ.

* * *

هذا الذي بقي لأولي الأمر من الشرقيين يقيمون الحجج والبراهين ويقنعون بأن برهانهم سالم المقدمات صحيح النتيجة عند العقل إلا أن بعضهم يقيم حجته على بعض الدول عند بعض آخر منها وبعضهم يقيمها عند أوليائه من الأجانب وهو منهم وفيهم. إن هذا لشيء عجاب.

عثمان دجمة[1]

في البرقيات الأخيرة أن فرقة انجليزية ستفارق هندوك وتتوجه الى نواحي ثمانية (محل المعركة الماضية) لتعسكر في تلك الجهات أيظنون أن إقامتهم بها يكفي لخضوع القبائل. غير أن عثمان وعد قومه بأنه سيأتيه أمر إلهي بعد ستة أيام ليبيد بقوته عساكر الانجليز، وأشيع ان محمد أحمد سيبعث اليه بمدد.

---

١ ـ وصحة هذا الاسم كما ينطق به أهله عثمان دقنه ـ دجنة ـ وهو من قبيلة الدجناب غرب السودان.

معاملة محمد أحمد للرسل المسيحيين

جاء الى خرطوم ضابط مصري كان في عبيد، وأخبر أن رسل الكاثوليك في تلك المدينة تحت كنف محمد أحمد على حرية تامة تجرى عليهم الأرزاق من طرفه للواحد منهم في كل شهر خمس تليرات (ريالات) ونصف وان كنيستهم مفتحة الأبواب وان كانت المدارس معطلة للضرورة.

وهذا العمل منه يرشد الى ان له دهاء وذكاء وخبرة بما يجب الأخذ به في معاملة أرباب المذاهب والأديان المخالفة لدينه ومذهبه، وهذا يزيدنا خوفاً من استفحال أمره وانتشار دعوته.

أخبار أخيرة

* كتب مراسل الديلي نيوز المرافق للجيش الانجليزي في سواحل البحر الأحمر أن الجيوش الانجليزية تقاسي مصاعب ومشاق شديدة في قطع الطريق الى حيث تلتقي مع جيوش عثمان دجمة لتلتحم معها في القتال مرة ثالثة، فإن الحر شديد والمسالك وعرة والمياه مضرة بالصحة، مع قلتها ولم يجوزوا الى أول مرحلة إلا وقد أجهدهم التعب، واستولى عليهم الوهن، فأعجزوا أربعمائة منهم عن المسير.

* قالت جريدة التان أن هذا الهجوم لم تتبين غايته، ولما سئل عنه مستشار خارجية انجلترا في البرلمان لبس في الجواب وراوغ في بيان الحقيقة، كأنه يريد التملص مما عساه أن يرد عليه من بعد وإخفاء المقصد، حتى اذا لم ينجحوا فيه ستروا ما يلحقهم من خجل الإخفاق في السعي. وموهوا على ما يمسهم من الشين، ويغلب على الظن ان القصد منه فتح الطريق بين بربر وسواكن لتتمكن حكومة الانجليز من مخابرة الجنرال جوردون من جهة سواكن (حيث تعسرت عليها من طريق الخرطوم بعد محاصرتها بجيوش محمد أحمد من أطرافها المتصلة بالنيل).

* ويقول مراسل الديلي نيوز أن الشدة لو دامت بالعساكر الإنجليزية على حالتها الحاضرة، فلابد أن تصير غنيمة باردة لعثمان دجمة وفريسة ناجزة لأشياعه.

* وفي جريدة التايمس ان القلق في لندن شديد، والاضطراب بالغ فيها حده، وعموم الناس يتطلعون الى الاخبار المصرية دقيقة بعد دقيقة، واتبعت ذلك تلك الجريدة بقولها ان لم يتيسر لحكومة انجلترا فتح طريق بربر بهذا الزحف الجديد،

ضعف الأمل من فتح هذا الطريق في وقت آخر، وعز على انجلترا إجراء فرضته على نفسها في الأقطار المصرية، وقل الرجاء في تسوية المسألة السودانية بطريقة محمودة.

* عزمت حكومة الروسيا بعد حلولها في مرو على أن تجعل وراء بحر الخزر من البلاد الداخلة تحت سلطتها حكومة خاصة بها لها مركز معين وقاعدة ترد اليها أحكام تلك النواحي، حتى تسهل المواصلة بينها وبين مرو، وهذه حركة جديدة لدولة روسيا في أطراف آسيا، وهي وان كانت لا تسر المحبين لانجلترا ولكنها لا تحزن أعداءها.

نصيحة

أشد ما كانت هيبة الانجليز وملكتها على الشرقيين قبل تكتيب الكتائب وعقد الألوية وسوق العساكر لمقاتلة عثمان دجمة على أميال من سواحل البحر الأحمر، وكان يخيل للسودانيين بل يلابس اعتقادهم أن القوة الانجليزية مما فوق الطبيعة وعن مثلها تصدر خوارق العادات، وكان من ظنون الشرقيين في أقطار أخران غرائب القدرة البريطانية بلغت مقالع السحر، تدهش الألباب وتحير العقول، واذا خلج في صدور أمة من الأمم صغيرة أو كبيرة لبعدها عن مركزها أن تغاليها على حق، أو تناوئها في مرغوب، انشقت الأرض وانفطرت السماء، عن كماة من الانجليز يصبون عليها أصوات العذاب، ويذيقونها أليم الوبال، ويخلبون الأرواح من الأجساد، فيغلبون ولا يغلبون، خصوصاً ان كان مغالبوهم لايحملون من السلاح إلا نوعاً من الصنع القديم، مما كان يستعمله أبناء نوح بعضهم في مدافعة بعض.

إلا ان هذه الدولة العظيمة ألجأتها حوادث السودان ان تسوق جيشاً للإيقاع ببعض العرب في نواحي سواكن، فتحركت الجيوش المنظمة لملاقاة عثمان ورجاله وبنى القواد في الزحف قلاعاً «مربعات» من العساكر الباسلة. مدرعة بلوامع من حراب البنادق «السنج» مسيجة بالآلات الجديدة، من صنع (رمنتون وهنري مارتين)، علىٰ أجود طراز يكون منه، وحصنوها بأبراج من المدافع لا تدانيها من سكان تلك القفار قوة، ولا تسمو اليها منهم قدرة، لكن قوة اليقين أو تحكم الجهل

دفع على الصفوف الانجليزية جماعة من عراة العرب وحفاتهم، فهدموا قلاعها ونقضوا بنيانها، وقوضوا أبراجها، وبعد تدافع وتضام وتقدم وتأخر، في موقعتين عظيمتين، كرّ الانجليز الى سواكن «ساحل البحر» وأخلوا ساحات القتال، وتقهقر العرب الىٰ الجبال وعج الانجليز غلبنا وانتقمنا.

ماذا أثرت هذه الغلبة العجيبة في نفوس السودانيين، ثبتت أقدامهم وقوت جأشهم، وجمعت كلمتهم، وذهبت بما كان يخامر قلوبهم من الهيبة والرعب، فجمعوا قواهم واستعدوا للقتال مرة ثالثة، فحرموا لسوء البخت أو حسن الحظ من ملاقاة خصومهم، لأن شدة الحر كانت من أعدائهم أو نصرائهم، حيث ألجأت العساكر الانجليزية للجلاء عن تلك الديار، فأسرعت الى البحر لا يستقر لها قدم إلا في مصر أو انجلترا وما أثارته هذه الغلبة في قلوب السودانيين من ثائرة التهور دعاهم لتضييق الحصر على خرطوم، لما علموا أن ليس في قدرتهم أن يقتفوا أثر الانجليز في البحر، ولا يستطيعون الإيغال في طلبهم وهم على غوارب الموج، ولما اشتد الضيق بمن في خرطوم نهض الجنرال جوردون بشجاعة الأبطال لرفع الحصار فلم تكن إلا كرّة تبددت فيها جيوشه واعقبتها فرّة الى داخل المدينة لينتظر ما يأتي به القضاء.

ولكن ليستر وجه الهزيمة رمى ضابطين عظيمين من ضباط المصريين بالخيانة، وأمر ان يضربا بالرصاص فضربا وماتا، وهما حسن باشا وسعيد باشا «في أخبار البرقيات» أما هذا الغلب في السواحل على هذه الصورة البديعة، وما حل بجوردون فقد أسقط من شأن انجلترا وقوتها في أقطار السودان عموماً، وجعل كلمتها هي السفلىٰ وبعث السودانيين على الاعتقاد بأنه احدىٰ كرامات محمد أحمد، لا حول ولا قوة إلا بالله.

خطب يعقب خطباً، وكرب يحدث كرباً، هذه الصدمات المتتالية كشفت بعض الستار، وشف بها الحجاب وأحدثت هزة في قلوب الهَنديين، فكشر النوابون والرجاوات عن أنيابهم، ومدوا سواعدهم ينظرون الىٰ ما تطول ويراجع كل واحد نفسه ويمنيها بقرب الخلاص من ضيق الاستعباد، ويلمح الفرص من خلال هذه الحوادث، انتشرت أخبار المصائب التي حلت بالجيوش الإنجليزية من مصيبة

هكس الى ما بعدها في جميع أرجاء الهند، وترى الناس زرافات وفرادى يتناجون في هذه المسألة ويرجعوا علىٰ أنفسهم باللائمة فيما فرطوا من قبل وهم علىٰ ربوة الأمل، يستطلعون سوانح الفرص خصوصاً المسلمين فيهم، كما أنبأتنا به الرسائل الواردة الينا من أقطار مختلفة من البلاد الهندية، ونظن ان الدولة الانجليزية وعماد قوتها الإيهام والتغرير يصعب عليها بعد الآن ان تعيد منزلتها الأولىٰ في نفوس الشرقيين، خصوصاً اذا أقضت حوادث خرطوم الى قتل جوردون أو أسره وافتتاح تلك المدينة وهي عاصمة السودان.

يزيد الطين بلة أن يشتد العثمانيون ويأخذوا بالحزم وقوة العزم في صيانة حقوقهم بأي وسيلة كانت، وربما نراه واقعاً فإن العقلاء منهم لايغفلون عن حاجة الإنجليز لمسالمتهم لأن الانجليز يحكمون على خمسين مليوناً من المسلمين جميعهم يعترفون بحقوق السلطان ويجيبون داعيه إذا دعا، وهم له أطوع من الترك أنفسهم، والحذاق من العثمانيين وان كانوا يرون أن انجلترا لا تعامل الدولة إلا بالتهديد والإرهاب، وجعلت هذا طريقاً لنيل أغراضها منها، إلا انهم يعلمون أن من المحال علىٰ انجلترا أن تشهر على الدولة حرباً فان سياسي بريطانيا وهم اشد الناس خبرة بدقائق الأمور فضلاً عن جلائلها، لايخفىٰ عليهم ما تكنه قلوب الهنديين من محبة صاحب السلطة الاسلامية، بل هم على يقين بأنهم لو جهروا بالحرب للعثمانيين لتقوّضت سلطتهم في الهند لأول وهلة، لا علىٰ المسلمين خاصة ولكن يتبعهم الوثنيين وهذا ظاهر عند كل انجليزي وان خفي على بعض العثمانيين ورام ستره عن باقيهم.

الاعتقاد بمحمد أحمد أخذ سبيلاً في قلوب الهنديين حتى كتب الينا أحد أصدقائنا في لاهور أن محمد أحمد لو كان دجالاً لأوجبت علينا الضرورة ان نعتقده مهدياً وأن لانفرط في شيء مما يؤيده.

بعد هذا كيف يمكن للانجليز دفع غائلة محمد أحمد، حر السودان منع وسيمنع من جولان العساكر فيه، وطلب العساكر من كوركوسيك بعد شيوع هذه الدعوة في الهند مما لا تجوزه الحكمة، ولا تظن ان انجلترا تثير حرباً صليبية بحكومة الحبش على

مسلمي السودان، لأنه يفسد عليها أمر الهند ويخالف أحكام المدنية الحاضرة.

فما هي آخر الحيل ؟ أيكتفي بحفظ القنال مع ترك الفتنة يسرى لهيبها الى مصر العليا بل الى السفلى، إني أخشى كما يخشى العقلاء من شيوع هذه الدعوى، وكثرة المعتقدين بها ان يلم منها ضرر بدولة انجلترا وبكل من له حق في مصر، فعلى الانجليز كما نصحنا مراراً أن يصونوا بلادهم، ويحفظوا طريق الهند بتفويض الأمر للعثمانيين، وأولي العزم من المصريين قبل فوات الوقت، والى الله ترجع الأمور.

الدولة العثمانية

قالت جريدة (الميموريال ديبلوماتيك) انه لم يؤخذ عن الباب العالي خبر الى الآن عن المنشور الذي عزم على إرساله للمصريين، إلا أنه محرر تام وفيه أن الدول ستدعى الى المداولة التي قطعها إطلاق المدافع على اسكندرية «المؤتمر» ولن يعدل الباب العالي عن نشره إلا اذا قبلت انجلترا أن تكون مخابرتها معه في تسوية المسائل السودانية المصرية بطريقة جدية «لا هزلية» ولم نزدد يقيناً بما ذكرته هذه الجريدة في ان الدولة العثمانية لا تتساهل في حقوقها على مصر وأنها تبذل ما في وسعها للمدافعة عنها، وكانت لنا ثقة تامة بعزائم العثمانيين وأنهم لابدّ أن يقدموا لصون بلادهم المصرية من استبداد غيرهم فيها.[1]

ولهذا تجزم بأنه لايروق للدولة العثمانية ما ذكرته جريدة «الديلي تلغراف» من أن المستر جلادستون سيجهر عن قريب بحماية حكومته للأقطار المصرية، وأنه سيخابر الدول في تحديد أمد الحماية ولا يكون أقل من خمس سنوات، وفي أمله أن الدول لا تمانعه فيما يريد الاتفاق معها عليه في هذا الشأن بل تعتبره حقاً قانونياً أوجبه بذل الأموال الإنجليزية وإراقة الدماء البريطانية.

وفصلت هذا الخبر بعض الجرائد الفرنسية وبوبته وأشارت الى ما أجابت به بعض الدول.

---

١ ـ هكذا كانت الدول تلعب بمصر... !!

فليس مما يخطر ببالنا ان الدولة العثمانية توافق على ما تطلب انجلترا لو فرضنا ان الدول سمحت للانجليز بحمايتهم لمصر مدة محدودة أو غير محدودة، فإن الحوادث لا تؤمن وتقلبات الأيام لا ثقة بها، فيمكن في خمس سنوات بل في أقل منها أن تتبدل القواعد السياسية، بل ينقلب وجه السياسة انقلاباً لا يعرف، والسياسيون لهم في كل حادث علة لمحو المعاهدات وتأويل الوثاق.

انجلترا في سواحل البحر الأحمر

وقع ما أنبأت به الجرائد الإنجليزية من بضعة أيام، فإن الجيوش البريطانية زحفت لملاقاة عثمان دجمة بعد أن قاست أليم العذاب من وهج الحر ولهيب الشمس، وأصيب منها عدد وافر بالوهن والضعف، حتى عجزوا عن مداومة السير، وصابر بقية العسكر في زحفه وانتظموا على أشكال مربعات تشاكل ما انتظموا عليه في الموقعة الماضية إلا أنهم لم يتلاقوا مع خصمهم، وافاد التقرير الانجليزي ان السبب في عدم الالتحام وصلت العساكر الى قرية ثمانية ولم تجد عنها مدافعاً فأحرقتها، ورجعت الى سواكن ولا يخفى ان جميع أخبارهم قبل هذا الزحف كانت متفقة على ان عثمان يبعد عن ثمانية بتسعة أميال، وأن مسيرهم هذا كام لملاقاته حيث يعتصم فلم يكن هناك داع لحرق قرية ثمانية ولا الأخبار بأنه لم يوجد مدافع عنها إلا ما تعوّد عليه الإنجليز في حروبهم اذا لم يصادفوا ظفراً يحرقون ويخربون وان لم يكن من يصيبونه بأعمالهم محارباً لهم حتى يقولوا ظفرنا وأحرقنا وأتلفنا، وورد الى الجرائد الفرنسية ان تقهقر عثمان إنما كان ليحشرهم بين شعاب الجبال ثم يغير عليهم ويفتك بهم كما فعل رئيسه (محمد أحمد) بعساكر الجنرال هكس ويظهر انهم لما أحسوا بهذه المكيدة ووجدوا من أنفسهم ضعفاً عن مقاومة العرب في جبالهم كروا راجعين الى سواكن ومحتجين بشدّة الحر ستراً للعجز وتقديماً لبارد العذر، والجرائد الانجليزية في قلق واضطراب شديد ولهج أغلبها يحثّ حكومتها على استدعاء العساكر من سواحل البحر الأحمر، متعللة بأنها وان كانت من حامية الهند ولها جلد

على احتمال الحرارة، إلا أن أثر الحر السوداني ظهر فيها بسرعة شديدة ويخشىٰ عليها من التلف الكلي، وأحرىٰ ان يخاف علىٰ سواها ممن لم يفارقوا انجلترا إلا لحرب السودان. ويغلب على الظن أنهم شعروا بقوة محمد أحمد وثبات عثمان والتهاب الحمية في قلوب المسلمين بتلك الأطراف، فاستفزهم ذلك الىٰ إخلاء وجوههم وخوفاً من أن يحل بجيوش السودان الشرقي ما حل بعساكر الجنرال هكس وتستروا بالشكوى من شدة الحر واحتدام نار القيظ، مع ان وهج الحرارة في جنوب الهند حيث كانت تحل هذه العساكر كما ذكرته جرائدهم أشد منه في سواحل البحر الأحمر.

وما قاله الجنرال جراهام والأميرال هفيت ان الحركات العسكرية قد انتهت على شطوط البحر الأحمر، يثبت اعتراف هذين القائدين بعجزهما عن فتح الطريق ما بين البحر الأحمر وبربر، ومساعدة جوردون من هذا الطريق. وبناء على ما أبديناه من البأس صدرت الأوامر الىٰ الجنرال جراهام بإخلاء المواقع الحربية وإجلاء العساكر عنها والخروج من سواكن بما يمكنه من السرعة واعقب الأمر اجتماع العساكر بأسرها في تلك المدينة ويقال ان فرقة منها تسافر في التاسع والعشرين من مارس الى مصر وانجلترا. وهذا الأمر لا ريب يعده أشياع محمد أحمد والمذعنون لدعوته فتحاً إلهياً وتأييداً ربانياً، فيقوى اعتقاد المخلصين له ويقطع شكوك المترددين في قبول دعواه ولربما يذهب الوهم بالسذج منهم الى ان الله أيدهم بالملائكة المسومين، فكشفوا عنهم عدوهم وبعد هذا تجتمع كلمة القبائل وتثبت أقدامهم في مواقف القتال ويزداد حرصهم على تعميم دعوى محمد أحمد، ومغالبة من لم يذعن لها ويكون هذا الظفر الغريب أقوىٰ برهان لهم على صدق دعواهم.

هذا ما أدت اليه سياسة الدولة الانجليزية التي وطئت بأقدامها أرض مصر لإخماد الفتن لم تجلب مداخلها إلا تعالي اللهب وقوة الضرام، وبعدما سقط في يديها وخابت في سياستها تجافت عن تسليم الأمر لأربابه القادرين على تلافيه من المسلمين، حتى يحصل الأمن للأجانب والوطنيين، وتحقن الدماء وتحفظ الأموال، وعمدت الى الاستنجاد بحكومة الحبش لحرب السودان، ولم يأخذها خجل في ذلك

وهي تدعي أنها حاملة لواء التمدن والقائمة بنصرة الإنسانية وتتلو آيات الإنجيل أناء الليل وأطراف النهار، ثم تستدعى حكومة خشنة غير مهذبة كحكومة الحبش لمقاتلة قوم آخرين وان كانوا ليسوا بأقل منهم خشونة لتشتبك حرب بربرية تحرق فيها المدن والقرى، وتسفك الدماء الغزيرة ويفتك فيها بالأولاد والنساء والشيوخ ومن لا جريمة لهم حتى يفنى بعضهم بعضاً، ولم تبال في التماس هذه المساعدة أن تصرح للحكومة الحبشية ان الغرض منها كبح المسلمين في السودان وأضعاف قوتهم لتثير بذلك حرباً دينية تذكر العالم بالحروب الصليبية. فقد جاءت الاخبار الى الجرائد الفرنسية : أن دولة انجلترا تلتمس من يوحنا ملك الحبشة أن يمدها بجيوش للدفاع عن سواحل البحر الأحمر لعجزها عن حمايتها بنفسها وإطفاء ثورة المسلمين وإخضاعهم وبعثت اليه قائد أسطولها ليتفق معه على شروط هذه المساعدة وما يغنمه بعد القيام بها، وفي جريدة (الميموريال ديبلوماتيك) أن من جملة ما تطلبه انجلترا من الحبش فضلاً عن الإنجاد الحربي أن يتخلى لها عن جزيرتين في البحر الأحمر لتحل فيها بعضاً من عساكرها وله من العوض ما يكافي الأمرين جميعاً.

يريد محبنا الصادق ان يقدم للحبش جزءاً من أراضينا مكافأة له على ما يريد منه ولم يغفل عن مراعاة المرابحة التجارية حسب عادته ترغب الى الحبش ان يتنازل له عن أملاك في البحر الأحمر، فليعتبر المعتبرون.

* * *

عودة الىٰ خرطوم

نوهنا مراراً للمسلمين عموماً، والمصريين خصوصاً، من الانقباض عن حرب إخوانهم وإراقة دماء أبناء ملتهم بمجرد أوامر تصدر اليهم من مخالفهم في الجنس والاعتقاد لا يعلمون لها عاقبة، ولا يدرون من يجتني ثمرتها، بل يوقنون أنهم إنما يقتلون إخوانهم ليورثوا أرضهم لقوم آخرين، ربما كانوا أعداءهم أو يكونون أعداءهم، ولهذا لم يأخذنا عجب من خذلانهم هكس في السودان الغربي ولا لباكر في السودان الشرقي ولا مما بلغنا في هذه الأيام من خذلان جوردون في خرطوم، ولم يختلج في صدرنا ولا في خطرات أنفسنا أن انهزامهم في هذه المواقع منشؤه الجبن والخور أو الاختلال والنقص في الآداب العسكرية، ولكن نعلم أنهم يفضلون الموت بيد إخوانهم على الظفر بهم لتكون أموالهم وديارهم غنيمة لصاحب أمرهم من الأجانب. أما الجرائد الانجليزية وقواد الإنجليز فهم يبالغون في جبن العساكر المصرية وإختلالها ليتطرقوا بذلك الىٰ ما في عزم حكومتهم من طرد الجيش المصري الوطني وإقامة جيش انجليزي مقامه، حتىٰ يتمكنوا بجيشهم ان ينالوا ما تطمح اليه أنظارهم في المستقبل.

ومن هنا لايستغرب عارف بحقيقة الأمر ما ذكرَه مراسل التايمس في خرطوم من أن جوردون باشا عندما اشتد عليه الحصر من أشياع محمد أحمد خرج بألفي جندي من الجنود المصرية وبعض العساكر غير المنظمة (الباشبوزق) ليفرق المحاصرين ويبعدهم عن أبواب المدينة فلم تثبت الجنود لأول الملاقاة وانحاز منهم

خمسة ضباط الى قبائل العرب وعمد اثنان من أمرائهم (بشاوات) الى قتل من كان على المدافع منهم ليطلقها على إخوانهم التابعين لمحمد أحمد، ويقال ان جوردون قبض على الأميرين ووضعها تحت المحاكمة العسكرية وآخر الأمر اضطر جوردون الىٰ الدخول وراء الحصون بعد أن تبدد جيشه وقتل منه مائتان علىٰ ماروروا، ولم يقتل من الثائرين إلا أربعة وغنم العرب من ذخائر جيش جوردون مقداراً وافراً، مع ان المهاجمين منهم كانوا فئة قليلة لا سلاح لهم إلا الرماح والحراب، وجيش جوردون كان ألفي رجل شاكي السلاح من الطرز الأوروبي الجديد.

هذا يكون من المصريين لأنهم تحت قيادة أجنبي يأمرهم بأوامر دولة أجنبية، ولو كانوا في أمرة أمير مسلم مصري ولهم ثقة بعاقبة ظفرهم أن تكون لبلادهم وملتهم، لرأينا منهم ما رأىٰ العالم وشهد به الكون لهم من الشجاعة والإقدام أيام محمد علي وابراهيم باشا.

وبالجملة فقد أرجع جوردون بعد تغلب الثائرين حاميته الى مأمنه في خرطوم يوم السادس عشر من شهر مارس (الماضي) ويقول مراسل التايمس انه يمكنه التمنع في الحصون بعض ايام إلا انه لم يجرأ علىٰ الخروج مرة ثانية.

* * *

الجرائد الانجليزية تحكي ما هال أهل بريطانيا من مصيبة جوردون وتنذر بخطر عظيم يحل به وفي جريدة «الديلي تلغراف» أن هلاك جوردون أو وقوعه في أسر محمد أحمد يذهب بالأعمال الحربية التي قامت بها تلك العساكر الانجليزية في السودان، ويجعلها هباء كأن لم تكن ويزيل أثر تلك المواقع الدموية فتكون نسياً منسياً، وقالت جريدة «الستاندرد» ليس من الممكن لنا أن نتأخر دقيقة واحدة إلا اذا أردنا أن نلقي بجوردون الى هاوية الهلاك، وبالسودان الى الفوضى (نعم لابد ان يخافوا على السودان من الفوضى كما خافوا على مصر منها) وفي التايمس لابد لانجلترا انْ تظهر عزيمتها في الاحوال الحاضرة وتأخذ في عملها بالشدة حتى يعلم ذلك منها عند الكافة من الانجليز، ومن آمالها أن الأمة الانجليزية تؤيد الحكومة فيما تعزم عليه وانه لا سبيل لإنقاذ جوردون إلا تصميم الحكومة الانجليزية على ماتريد

(ولم تفصح التايمس عن تلك العزيمة ماهي ولا ما تصمم عليه الحكومة ماهو لعل كل ذلك هو هذا : لابد أن نفعل ولابد أن نترك ولابد أن نكون ولابد أن لانكون).

قالت جريدة التان الفرنسية ان هذاالخطب الجديد أحدث من القلق في انجلترا ما لا مزيد عليه وعموم الناس فيها يعتقدون أنه ان لم ترسل الحكومة جنوداً لإنجاد جوردون فهو هالك لا محالة وجميعهم يعلمون مقدار التبعة التي تحملها الوزارة (الانجليزية) إذا مات أو أسر جوردون فإنها هي التي ألقت به في هذه التهلكة، والجرائد عموماً على اختلاف مشاربها متفقة على القول بأن موت جوردون باشا يكون وصمة في شرف انجلترا لا تمحوها الأيام.

ان وزير الحربية الانجليزية يحاور سائليه من الحزب المضاد في مجلس النواب ويراوغهم في الجواب ويتعلل بأن الحكومة لم تعد المجلس وعداً صريحاً بأن تبين مقاصدها في السياسة المصرية ويزعم انه لايمكن أن يفيده بتفاصيل عن أحوال خرطوم لإنقطاع الأخبار، لكنه يعترف بهزيمة الجنرال جوردون وبما هو فيه من الشدة والضيق، إلا أن اللورد نور ثبورك لم يزل مصراً على طلبه من الحكومة بيان سياستها في المسائل المصرية والسودانية بالتفصيل، وقال للورد جرانفيل في مجلس اللوردات إنه لايرى من السهل في هذه الأوقات أن تفتح الطريق بين سواكن وبربر وخطأ القائلين بسهولته وأفاد المجلس بالفشل الذي حل بالجنرال جوردون.

أماني انجلترا في حركات محمد أحمد

صرح اللورد جرانفيل في مجلس اللوردات بأن المقاومة الشديدة التي لاقوها من قبائل العرب ورئيسهم عثمان في سواحل البحر الأحمر لم يكن القصد منها إلا الرغبة في تمكين سلطة محمد أحمد في البلاد السودانية، يريد من هذا أنه لم يحملهم على الثبات والترامي على الموت عدوانهم للانجليز ولا طمعهم في توسيع الفتح وإنما كان الحامل هو الدفاع عن شوكة محمد أحمد في السودان خاصة . وهذا من اللورد إما غفلة أو تغافل عن لواحق دعوىٰ المهدوية بل لوازمها التي لاتنفك عنها فإن القائم بهذه الدعوى لايقف في سيره عند غاية، ولا يقنع بملك وإنما يريد بسط دعوته في أقطار العالم واحياء الأوامر الالهية التي جاء بها صاحب شريعته الذي يدعي النيابة عنه في تبليغها وصيانتها في نفوس النّاس كافة، وسواء كان صادقاً في دعواه أو كاذباً، فلن يتم له أمر ولن تتمكن له سلطة في بقعة من بقاع الأرض سودانا كان أو مصراً أو غيرها من البلدان إلا بتقدمه الى ماورائها حتى يعلي كلمة دينه، ويرد الى الحق من انحرف عنه، ويكون له التصرف التام في قلوب المسلمين، ويأخذ منها مكاناً عليا يشرف منه على مطامح دعواه في غيرهم من الأمم، وسواء يسّر الله له النجاح في ذلك أو باء بضده، هذا لا كلام لنا فيه الآن، ولكنا نتكلم في الخصائص الطبيعية لهذه الدعوى العظيمة، وبعد الوقوف على ما بينا يسقط من النظر قول اللورد جرانفيل في مجلس اللوردات ان حكومته لم يرد لها خبر يحملها على الظن باستعداد محمد أحمد لقبول امارة كروردفان والاكتفاء بها، ولا يعلم هل قبول محمد

أحمد لتلك الولاية يكون حجاباً بينه وبين التقدم الى سواها، فقد علمت أن محمد أحمد لم يقم بدعوى الملك، ولا طلب حق له في الامارة كان يرثه عن آبائه، وانما قام بدعوى لا نهاية لأطرافها إلا عند حدود السطوة الاسلامية، فليس يكافئ قوة دعوة اسلامية إلا عزم اسلامي، ولن يكافح هذا المدعي ويرده الى قدره إلا رجال مسلمون، يدافعون عن الدعوى بما يقوى على إضعافها أو محوها، فإن لم يرد لحكومة اللورد خبر الىٰ الآن عما ذكره فليطمئن قلبه لعدم وروده في المستقبل، ولا نظن خبراً يأتيه إلا بنقيض ما توهمه، نسأل الله حسن العاقبة.

بعد تحرير هذه الأحرف جاءت الأخبار مصدقة لما قلنا ففي برقية من مكاتب التايمس في خرطوم ان ثلاثة دراويش جاءوا مرسلين من قبل محمد أحمد الى الجنرال جوردون وأرجعوا اليه علامات الشرف التي كان بعث بها الىٰ مرسلهم، وبلغوه ان محمد أحمد يرفض لقب أمير كوردفان وينصح الجنرال أن يدخل في دين الاسلام فهو خير له.

الحزم والعزم

ان أبناء الأمم الغربية إذا عمدوا الىٰ قصد لايفترون في طلبه، وعلو الهمم فيهم تجعل لديهم كل صعب سهلا، وكل بعيد قريباً، يقتحمون المخاطر لاكتساب الشرف، ويتجشمون المصاعب للوصول اليه وبلغوا من محبة المجد حداً لايرونه غذاء لأرواحهم فقط بل عدوه من مادة النماء لأبدانهم فهم يفرقون خوفاً اذا عرض وهم لفواته، خشية من هلاكهم وذهاب حياتهم، لهذا ترى الرجل منهم يجوب فيافي أفريقيا، ويتسنم جبال سيبريا، ويخالط قبائل وشعوباً لايعرف لهم لغة، ولا يألف لهم عادة ولا أخلاقاً، ويتكبد مشاق الحر والبرد والجوع والعطش، وينازل الموت مع من يخالطه من تلك القبائل البعيدة عنه في جميع أوصافهم، وهو في كل وقت يقع بين أنياب المنية منهم، ثم يخلص بما يقتدر عليه من الوسائل. كل هذا ما يحتمله طلباً لشرف يكسبه لذاته، أو ابتغاء مجد يحصله لأمته.

ومن هؤلاء الرجال بل من أحزمهم وأجلهم صديقنا الهمام البطل الشهير المستر أوكلي أحد نواب البرلمان الايرلنديين، جاء الينا من أشهر على عزيمة السفر الىٰ عبيد وسألنا أن نقدم له ما يسهل له الوصول مع الأمن على حياته، فأجبناه بتحرير رقائم الى من لهم اليد الطولى في مساعدته، ووردت منه المكاتيب تبشرنا بنوال مبتغاه، وفي هذه الأيام جاءتنا برقيات بوصوله ومنهم رجال من عظماء الفرنسيين الأحرار ذهبوا الى مثل مقصده وتوسلوا بمثل وسائله وهم اليوم يتوسطون الطريق. ونرجو لهم سلامة الوصول.

ورجاؤنا أن يكون في هؤلاء أسوة للشرقيين، لاتقعدهم الأوهام الباطلة، ولا تنيمهم الأحلام الكاذبة، ولقد كان لهم في اسلافهم أسوة حسنة، ولكن من الأسف نحتاج في تذكيرهم بما لهم من سابق المجد الى ذكر أحوال الحاضرين من غيرهم. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

اسطورة

ذكروا في أساطير الأولين أن هيكلاً عظيماً كان خارج مدينة اصطخر وربما آوى اليه بعض سراة الليل إذا اشتدت بهم وحشة الظلام وما آوى اليه أحـد إلا غالته المنية فيأتي طلاّب أثره لفص خبره فيدخلون الهيكل في ضوء النهار فيجدوا به ميتاً ثم لايهتدون لسبب موته لسلامة بدنه من كل ما يعهد سبباً للموت، واشتهر امر الهيكل بين السابلة والقطان وأخذ كل قاصد حذره من المبيت به حتى ضاقت الدنيا برجل، فاختار الموت على الحياة وصعب عليه انتحار نفسه بيده فذهب الى الهيكلي لعله يصادف منيته فإذا بالقرب منه رجال نصحوه وحذروه عاقبة الهلاك فلم يصغِ اليهم وقال انما أتيت لتلك العاقبة وانفلت من نصحائه الى حـيث يـظن مهلكه، فلما توسط الهيكل فاجأته أصوات مزعجة هائلة كأن جمعاً عظيماً يخاطبه : ها نحن قد أتينا لإتلافك. ها نحن قد أتينا لإزهاق روحك ها نحن وصلنا لتمزيق بدنك وسحق عظامك. فصاح البائس ألا فأقدموا فقد سئمت الحياة، ولم يتم كلامه إلا وقد حدثت فرقعة شديدة وانحل الطلسم وانشق الجدار وتناثرت منه الدراهم والدنانير وتفتحت أبواب الكنوز، فاطمأن الخائف ونام حتى أصبح ولما أضحى النهار، وجاء الواقفون على خبره ليحملوا جنازته وجدوه فرحاً مستبشراً يسألهم بعض الأوعية لحمل ما وجده من الذهب والفضة، فاستخبروه قصته فبعد البيان علموا ان هلاك من هلك انما كان بالفزع من تلك المزعجات التي لا حقيقة لها.

بريطانيا العظمى هيكل عظيم يأوى اليه المغرورون اذا أوحشت مـظلمات السياسة فتدركهم المنية بمزعجات الأوهام، وكم هلك بين جدرانه من لا مريرة لهم، ولاثبات لجأشهم، وأخشى أن يسوق اليأس اليه قوى المريرة، ماقت الحـياة، فـما يكون إلا هنيهة يصعد فيها صوت اليأس، فينقض الجدار، وينحل الطلسم الأعظم.

القوة للحق

أخذت دولة بريطانيا في معاملة الشرقيين هذه الأيام طريقاً غير طريقها المعروف، وهي تعلم ان نجاحها في أعمالها لديهم، وبسطة ملكها فيهم واقتطاف ثمرات جنانهم، انما كان بذاك الطريق المعهود، كأني أراها اليوم اكتهنت حقائقهم، وسبرت خلائقهم، ووصلت الى مكنونات صدورهم، تجاوزت من ظواهرهم الى ضمائرهم، وأدلت بخراطيمها الى قلوبهم، فأحست سكوتاً، فحسبته يبساً، من شدة الجبن وسرت بدقتها في أوعية دمائهم، فشعرت منها بفتور ظنته وقوفاً من شدة الضعف فكان من حسبانها أنهم في نهاية العجز عن أعمالهم، والقيام بشؤونهم ؛ أو أنست منهم الركون الى المراتب التي نقلت عن معانيها الأصلية، وجردت عن مدلولاتها : كناظر. ووزير. ووال. وأمير. وهي أشبه بقباب عالية. إلا أنها خاوية خالية. فكان من زعمها أن أمراء الشرق شغلتهم بهرجة هذه الصور الظاهرية. حتى أنستهم منافعهم الحقيقية. وضرورات حياتهم الجنسية أو الملية. وقنعوا بما يشيده الوهم. ويزينه الخيال. هكذا ظنت كما تدل عليه أعمالها. ولم يكن ذلك معهوداً منها.

دخلت دولة الانجليز بلاد الهنديين ومدت عينها الى ما متعهم الله به من أراضيهم. وطمحت الى اختطافها من أيدي المسلمين. إلا أنها ذهبت مذهب اللين واللطف. وخفض جناح الذل. والظهور في ألبسة الخضوع والخشية. وصابرت على

هذا السير أزماناً تقطع مسافات كثيرة في مدة طويلة.

نعم كانت تتدرج في نقض أساس السلطنة التيمورية حجراً حجراً. وتتملك أراضيها قطعة بعد قطعة. لكن بدون تعرض للسلطنة الظاهرية ولا مس لنفوذها. كانت تغري الولاة من النوابين والرجوات. بالخروج على السلطان التيموري. ثم تنوب عنه بالعساكر الانجليزية والصينية للتغلب على الخارجين تحت اسم الملك. ولا تمس رسومه الملوكية بل تلقب نفسها خادمة مأمورة. هكذا كان سيرها. وهو المألوف من عوائدها.

أما في مصر فقد أظهرت مقاصدها لأول خطوة، باكورة أعمالها بعد دخول تلك البلاد غلّ أيدي الحكومة، ومعارضتها في جميع أعمالها وصدها عن تعاطي شؤونها، وربما كان يخيّل للناظر في حركات تلك الدولة أيام كانت تهيئ أسباب الفتنة السابقة ومساعيها لتقوية ثورة السودان. أنها تسلك سبيلها في الهند، ولكن يرى منعها السلطان العثماني عن المداخلة في إصلاح بلاده المصرية والسودانية. مع ماله فيها من الحقوق الشرعية والقانونية، منعاً صريحاً وفي معارضة ولاة مصر وحكامها في كليات الأمور وجزئياتها انها انحرفت عن مشربها وأخذت مذهباً غير مذهبها.

كليفور لويد مستشار الداخلية في مصر وهو بحكم وظيفته من الطبقة الوسطىٰ في مأموري الحكومة يتحكم علىٰ جميع الوزراء المصريين، ويعارضهم في تصرفهم ويضع للبلاد شرائع وقوانين من تلقاء نفسه، ويخالف توفيق باشا في أوامره (إلا أنه لايحسب عاصياً حتى ألجاوا نوبار باشا رئيس النظار[1] الى تقديم استعفائه بعد العجز عن مقاومته، وضاق صدر توفيق باشا من صلابته في آرائه، ولم تر الحكومة الانجليزية عزله وإبداله بغيره، وزعمت انها لو عزلته لأهانت تاج بريطانيا العظمىٰ ثم عالجت هذا الارتباك بتوجيه أوامرها الى كليفورلويد بأن يقف عند

١ ـ رئيس الوزراء...

حدود وظيفته ولا يتجاوز دائرة أعماله، التي تسمح له بها طبيعة الوظيفة وخصائصها المحدودة، وكان للظنون مجال لحسن الظن بدولة بريطانيا، غير ان جريدة التايمس كشفت القناع، ولم تبال بما يخدش خواطر الأمراء الشرقيين ازدراءً وامتهاناً، ومزّقت الستار الذي أقامته حكومتها حجاباً لمقصدها في إلزام كليفور لويد بما ألزمته فقالت: ان وزارة نوبار باشا مؤلفة من دمى (صور وتماثيل) نظمت في أسلاك أطرافها بيد الحكومة الانجليزية تحركها كيفما شاءت. فعلى كليفور لويد أن يدير الشؤون المصرية بواسطة هذه الألاعيب. تريد ان الحل والعقد في جميع الأحوال انما هو للوزارة الانجليزية لكن من وراء الحجاب.. ثم اعترضت هذه الجريدة على إقامة هذا الحجاب فقالت: انه وان كان مفيداً إلا انّه يضرّ بمصالح انجلترا ومصر معاً (وكان على الحكومة الانجليزية ان تجهر بولاية الأحكام في مصر كما صرحت بذلك مراراً).

أسرعت دولة انجلترا في سيرها الى ماتروم في الأقطار المصرية، بل تهورت على خلاف عادتها وقد يكون مع المستعجل الزلل. لا نظن من الحكمة ما أتته من الاعمال في مصر وربما وجب عليها تدارك ما فرط منها. ان محمد أحمد شمخ أمره وعظم خطره وهو من ورائها لا عائق له في سيره. والقوى تجتمع اليه يوماً بعد يوم. وبعدما تراه في غير هذا المحل من أخباره جاءت أواخر الأخبار بأن المواصلات انقطعت بين القاهرة وبين بربر بالمرة. وان جماهير الثائرين يزيد عددهم حول مدينة بربر وقتاً بعد وقت لقصد محاصرتها. ويغلب على ظن الكافة انهم لابد ان يغيروا على المدينة بعد قليل ويلتحمون مع حاميتها بوقعة يكون فيها الفصل. وان مدير بربر أعياه الالحاح على الحكومة لتنجده بعساكر انجليزية ليفرجوا عن المدينة وينقذوا حاميتها وإلا هلكوا.

فما ركبته انجلترا من طريق التصرف في الادارات المصرية يخلف ظن المصريين فيها. ويقطع أملهم من وفاء وعودها. ويوجد عليها نفوس الأمراء منهم.

ويوغر صدورهم. ويحقق لدى العلماء ان من قصدها التصرف في ولاية بلادهم كما يتصرف الملاك فيلتجئون بحكم الضرورة الى تلبية محمد أحمد في دعوته أو مساعدته علىٰ بعض أعماله. أو تخاذلهم بين يديه وفتح الأبواب له ولا نظن ان انجلترا تخفى عليها ان علماء مصر هم اساتذة لعلماء المسلمين شرقاً وغرباً، وان الجامع الأزهر معهد العلوم الشرعية تسير اليه الركاب من جميع الأقطار. ويقصده المسلمون من كل ناحية لدراسة الدين وروايته. فلو حزبهم الأمر وأعوزهم الصبر ورأو ولاية الدين في قبضة من ليس منهم فمجرد اشارة خفيفة وايماء الى موافقة محمد أحمد سراً كان أو جهراً كاف لإيقاد نار الفتنة في جميع أرجاء البلاد الاسلامية، وتسابق القلوب الى الاعتقاد بالمدعي والتفاني تحت رايته. وليس في استطاعة دولة انجلترا ان تتصرف في أهواء القلوب ولا حركات الأفكار. وان اسلحتها الجديدة لا تبدد جحافل الخواطر. وشتان بين هذه الفتنة وبين التي يسمونها فتنة عرابية. نسأل الله العافية وحسن العاقبة.

الجرائد الانجليزية والعروة الوثقى

لو نادينا الغافلين ان انتبهوا. والنائمين ان استيقظوا. واللاهين بحظوظهم أو أمانيهم أو أوهامهم ان التفتوا. ولو أنذرنا أهل مصر بأن الانجليز لو ثبتت أقدامهم في ديارهم لحاسبوا الناس على هواجس أنفسهم، وخطرات قلوبهم، بل على استعداد عقولهم. ولما عساه يخطر ببالهم. لقال الناس إننا نبالغ في الإنذار. ونغرق في التحذير . ولو بيّنا لهم ان الانجليز يؤاخذون الأبناء بذنوب الآباء. والأحفاد بجرائم الأجداد، ويطالبون الذراري بدفائن أسلافهم. وان لم يكن للخلف علم بما ترك السلف. لعدوا هذا البيان منا شططاً في المقال. وميلاً عن الاعتدال، ولو روينا لهم ان في قلوب الانجليز حقداً وضغينة على كل ايراني سواء كان من الأفراد أو الوجوه. ويسيئون معاملتهم حيثما وجدوا من بلاد الهند. ويمقتونهم مقتاً شديداً. لأن نادرشاه من ملوك العجم جاء الى الهند فاتحاً على عهد السلطنة التيمورية. واستولى على خزائن الأموال في دلهي. وأخذها الى بلاده قبل استيلاء الانجليز على تلك المملكة. بما ينيف عن قرن. ويعضون الأنامل من الغيظ. ويحرقون الأرم من الأسف على ما أخذه نادر من أموال دلهي. وحرمانهم من تلك الأموال. ويحملوا هذا الوزر على عاتق كل ايراني. لحسبوا ذلك منّا تعالياً ولو قصصنا عليهم ما يعامل به الانجليز رعاياهم في الهند عموماً والمسلمين خصوصاً. وانه يكفي لنفي عالم من علماء

المسلمين الى جزائر أندومان ان يعترف بانه معتقد ببعض آيات من القرآن. لأنكروا علينا ما نقول لبعدهم عن تلك الأقطار. وعدم وقوفهم على أحوالها. ولسنا الآن بصدد إقناع المصريين بما نعلم من أحوال الانجليز ولا نريد إقامة الدليل على ما نعرفه من أحكام سلطتهم. فلا نذكر ولا نبين ولا نحكي ولا نقصّ، ولكن نعرض عليهم نموذجاً من المعاملة لعله يكون للمتبصرين مرآة تحكي ما غيب عنهم من لوازم السلطة الانجليزية.

عزمنا على انشاء جريدتنا هذه فعلم بذلك بعض محرري الجرائد الفرنسية، فكتبوا عنها قبل صدورها غير مبينين لمشربها، ولا كاشفين عن حقيقة سيرها، فلما وقف على الخبر محرروا الجرائد الانجليزية المهمة أخذتهم الحدة، واحتدمت فيهم نار الحمية، وأنذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة في سياسة الانجليز. ونفوذها في البلاد الشرقية، ولجوا في إغرائها بها، وألحوا عليها أن تعد كل وسيلة لمنع الجريدة عن الدخول في البلاد الهندية والبلاد المصرية، بل تطرفوا فنصحوها أن تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها، كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا وقبل أن يقف ولا واحد منهم علىٰ مذهبها السياسي، مع ان هذه الجريدة لم تنشأ لإثارة الخواطر ولا لإيقاد الفتن، وانما أُنشئت للمدافعة عن حقوق الشرقيين عموماً، والمسلمين خصوصاً، وتنبيه أفكار بعض الغافلين منهم لما فيه خيرهم. ولقد صدرت سالكة جادة الاعتدال، ذاهبة مذهب الاستقامة والعدل. كما يظهر لكل من اطّلع عليها، فليعتبر المعتبرون بهذا الإجحاف. والاعتداء والقصاص، قبل الجناية ومن كان سمندري الطبع فليهنأ له العيش في ظل ذي ثلاث شعب لا ضليل ولا يُغني من اللهب ولكن فلتعلم الحكومة الانجليزية اننا لا يعجزنا بثّ أفكارنا في البلاد الشرقية، سواء كان بهذه الجريدة أو بوسيلة أُخرىٰ، إذا دعا الحال، فإن أنصار الحق كثيرون.

عجز و مراوغة

طنطنت الجرائد الانجليزية ورجال السياسة في بريطانيا بنجاح الجنرال جوردون في مأموريته بعدما وصل خرطوم بأيام ثم انعكس الأمر عليها وأظهرت الجزع مما حل به من الخيبة في أعماله والإشفاق والارتجاف مما يتوقع نزوله من الخطر وأجمعت على ان ما يصيب جوردون من قتل أو أسر يكون وصمة في شرف انجلترا الى الأبد وعاراً عليها لايمحىٰ ولا مداركة لهذا الخطب العظيم إلا بإرسال العساكر الانجليزية الى خرطوم، إلا أنه في هذه الايام بعد العجز عن إرسال العساكر لم يعدم وزراء انجلترا أو رجال حكومتها عذراً للتملص من هذا العار الذي يلحق بهم فقال المسيو جلادستون وزير الحربية الانجليزية ان الجنرال جوردون لم يؤمر بالإقامة في خرطوم الى أجل غير محدود حتى يحتاج نجدة عسكرية تخلصه مما عساه يقع فيه، بل كان فيما أمر به أن يخرج من المدينة عندما يرى لزوماً لذلك. على ان الجنرال لم يطلب إعانة عسكرية فالوزارة الانجليزية لا تتحمل تبعة ما نزل بجوردون إلا بعد أن تقف على أفكاره ومطامح أنظاره. ولا وقوف لها الىٰ الآن على شيء منها، والأوامر التي أصدرتها اليه في الأيام الاخيرة لم يرد لها خبر عن وصولها.

ومن كلام وزير الحربية ان الحكومة الانجليزية تدبرت من أيام في إرسال

فرقة عسكرية الى بربر وبعد إمعان النظر في لزوم ذلك رأت عدم الإرسال أولى، وانهى كلامه بقوله ان حكومته لم تأخذ على نفسها إعادة السلطة المصرية في السودان، ولا تقرير أي حكومة فيها وانها تلق اليوم على نفسها كل تبعة توجه اليها في شؤون السودان، وأما سواكن فسيقام فيها حامية قليلة العدد الى ان يبرم اتفاق (بينهم وبين مصر) وكلام هؤلاء الوزراء قد لايخلو من غرابة فان منشورات جوردون التي نشرها بعد دخوله خرطوم على قبائل العربان ورسالته الى المهدي لم تنكرها الحكومة الانجليزية بل دافعت عنها ودفعت الاعتراضات التي وجهت اليها، وكان فيها أنه وال على السودان (بل سلطان) من قبل دولته والحكومة المصرية وأنه بما له من حق الولاية يمنح محمد أحمد لقب أمير كوردفان، ويبيح بيع الرقيق، ويدعو العرب الى الطاعة، فتلك المنشورات صريحة في أن بعثته كانت لإقرار حكومة في السودان، والمدافعة عن بعض الولايات فيه، وانه فيا يعمل مؤتمر لحكومته، وإلا كان كاذباً والحكومة دافعت عن كذبه رجاء ان ينجح فيه، فلما أخفق لم تجد بدأ من البراءة منه.

وقالت جريدة التان الفرنسية ان وزير الحربية الانجليزية يدعى في مجلس العموم ان الجنرال جوردون لم يطلب نجدة عسكرية الى خرطوم، مع ان الأخبار التي وردت الى جريدة التايمس من مصدر يكاد يكون رسمياً ونشرناها من قبل تكذب ما قاله الوزير. وتؤكد ان والي خرطوم (الجنرال) كان منتظراً ورود العساكر الانجليزية اليه وقتاً بعد وقت وتحققت حاجته لذلك عند الكافة من أهالي لندن، حتى كان تدبر الحكومة في إرسال فرقة الى بربر، مبنياً على هذا لتفتح طريق مصر العليا، لكن أقعدها تصور ما تكابده الجنود من المشاق والمتاعب، بل ما يحل بها من التلف، وقد عرضت جريدة (البال مال جازيت) بالطعن على حكومة انجلترا ولوحت بلومها على ما اظهرته من العجز والمراوغة حيث قالت : فليعلم الجنرال جوردون ان الحكومة الانجليزية بعد اضرابها عن ارسال العساكر الى بربر يستحيل

عليها ان ترسل عساكر الى خرطوم وقالت ان المسيو بوير قنصل الانجليز في خرطوم كان ينتظر المدد العسكري يوماً بعد يوم وفي ظنه ان حكومته تسعفه بذلك لكنه يجب عليه الآن أن يعلم انها تركته وأصحابه ووكلتهم الى أنفسهم فعليه ان يتدبر في أمره بنفسه موقناً أن الحكومة الانجليزية تفضل اخلاء السودان وتعريض حامية المدن ومن فيها من رجالها لمدى اشياع محمد أحمد تفتك بهم على اعداد أي وسيلة لإنقاذهم، واتبعت قولها هذا بتهكم على الوزراء فقالت : من زعم ان ارسال جوردون الى السودان لم يأت بفائدة فقد أخطأ خطأً عظيماً، فإن أعظم فائدة ترتبت عليه بقاء الوزارة الانجليزية وصيانتها من السقوط فإن حياتها كانت موقوفة على سفره من لندن ولولاه ما خلصت من الخطر الذي كان محدقاً بها ولما بقيت في قيد الحياة الى الآن. وأنعم بها من فائدة جليلة لمصر وانجلترا فكفى الأمتين سعادة ان تهدر شقاشق الوزارة فوق المنابر.

هكذا تعتع المستر جلادستون وزملاؤه في الكلام على المسألة السودانية وسلكوا طريق المواربة وتبرأوا من تبعتها بعدما ساقوا اليها الجيوش والقواد بقصد اخماد الثورة وتقرير الراحة وهو قرار سياسي تبع الانهزام العسكري يكشف لنا عن قوة محمد أحمد ومنعته ويأس الدولة البريطانية عن ملافاة أمره وان نيتها الاقتصار على التحصن فيما دون حدود مصر الطبيعية بل على الحلول في مصر السفلى حتى تحفظ القنال، وتتصرف في أراضيها الخصبة، وتقف على أبواب التجارة، ترقب حركات المارة، وتشيّع الذاهبين والآيبين ما بين الشرق والغرب، وتقنع بالتحكم في بعض الضعفاء من المصريين، وانا لا نعلم ماذا تكون العاقبة اذا أصبح السودان بأسره في حوزة محمد أحمد واعتصم في قاعدة تلك الاقطار الشاسعة، ولا عاصم له إلا بالإيغال في سيره وبثّ دعوته بين جميع القبائل العربية، بما يستطيع من الحيل أو القوة. أفلا ينتهي بعد هذا الى سوق جيوشه الكثيفة الى حدود مصر العليا، ربما، بل يغلب على الظن انه يفعل ذلك، فإن لم يفعل فهي شعلة الثورة تسري

بطبعها وتضطره الى اقتفاء اثرها.

جاءت الاخبار من أيام ان الثائرين قطعوا خطوط التلغراف بين أسوان وكورسكو وأين كورسكو من أسوان. هي على مقربة منها والمسافة بينهما كما بين قنا وأسوان. وفي أخبار أخرى ان للهيجان والتحرش للخروج أثراً ظاهراً في أطراف مصر العليا فإذا قدر الله وصارت حدود مصر العليا معاراً للحركات الحربية وهو مما لاتبعده الحوادث فهل يبق المصريون وقبائل العربان في الفيوم والبحيرة والشرقية وجميع أنحاء القطر المصري علىٰ سكونهم بعدما رأوا من ضعف الانجليز وعجزهم ما رأوا وبعدما يشهدون سيلاً قوياً ماؤه من مائهم ينصب اليهم وبعدما حرجت صدورهم وضاقوا ذرعاً من تصرف الانجليز في حكومتهم، يغلب علىٰ الظن ان مالهم من سرعة الاعتقاد بالظافر خصوصاً ان كان قائماً بدعوة دينية وما ضاقت به صدورهم من الاستبداد الانجليزي وما ذاقوه من آلام الفقر والفاقة والذل والهوان من نحو سنتين وما يتوقعونه من رزايا دينهم ودنياهم في المستقبل اذا رسخت قدم الانجليز في مصر كل هذا يبعثهم على تقبّل دعوة الداعي بقبول حسن وانحيازهم اليه.

اذا جاء هذا الوقت وهو ليس ببعيد فربما نجد انجلترا في مصر أفغاناً أخرىٰ وتخشى من ظهور عجزها فتوارى خلف بعض من الحيل والتعللات وتستدعي من المسلمين من يكون قوّي الشكيمة شديد البأس، لتقرير السلم وتمكين الراحة، وتعود الى جزائرها راضية من السلامة بالإياب، ولعل ذلك غير بعيد على العقل، والىٰ الله المآب.

انجلترا والجيش

وردت الاخبار ان الأميرال هفيت وصل الى مصوع حاملاً هدايا ثمينة الى ملك الحبشة وكنا في العدد السابق بيّنا ماذا يريد الأميرال من مواصلة الملك يوحنا، وان الدولة الانجليزية بعدما فشلت عساكرها في سواحل البحر الأحمر وعجزت عن تجهيز جنود جديدة تسوقها الى أواسط السودان التجأت للاستنجاد بملك الحبشة واستمداد مساعدته على مسلمي السودان، وكان حسن ظننا بدولة متمدنة كدولة بريطانيا يمنعنا من التصديق بعزمها على إثارة حرب خشنة، لكن من الأسف ان الإفادات التي وردت هذا الأسبوع تؤكد ان انجلترا عازمة على النكاية بالمسلمين في السودان، من حيث هم مسلمون لا لإطفاء ثورة، ولا لترويج مدنية، وفي الظن ان هذا هو الذي بسط يدها بالهدايا الثمينة تتحف بها ملك الحبش، وإلا فخلائقها من حيث هي دولة تجارية لا تسمح لها بهذا السخاء، وتنهاها عن البذل إلا أن ينقد لها الربح اضعافاً مضاعفة، أي ربح لها أعظم من توددها الى دولة خشنة ترمي بها طائفة من المسلمين بغية الفتك والنكاية حتى تخيف بذلك بعض من تخشى بأسهم من أبناء ملتهم، على إنا لا نزال في ريب من نجاح مسعاها ولو أنها نجحت في إقناع ملك الحبشة بالتهور في حرب مع السودانيين فما عساها تسمي هذه الحرب، لا نرتاب في انها ليست لكسر شوكة التوحش ووضع قواعد المدنية، فإن أحد

المتحاربين لايمتاز عن الآخر في أخلاقه وعوائده وأفكاره، بل ربما كان السودانيون بما استفادوه من الحكومة المصرية مدة سنين أقرب الى المدنية من الحبشيين، ولا يمكن ان تكون حرباً للفتح وتوسيع الملك فإن الحبشة لا مطمع لها في توسيع ممالكها الى الجهات الغربية من السودان ولم يعهد لها ذلك في التاريخ، وغاية ما كانت تبتغيه أن تكون حدودها الطبيعية محفوظة من تعدي جيرانها عليها، فلا اسم لهذه إلا الحرب الدينية تذكر الملل بما كاد يمحى أثره من المحاربات الصليبية، وتوقد في الأفئدة نار التعصب الديني، فلو فتحت دولة انجلترا باب هذه الفتنة أفلا تحترق قلوب المصريين بهذه النار، وهل ترجو هذه الدولة من بعد ذلك أن يستقر لها قدم بينهم، وهل تأمن أن يثور سكان جزيرة العرب تحت هذا العلم الذي يظل ملايين كثيرة تعلم انجلترا عددها وتحسّ بحاجتها الى مسالمتها، نظن ان حكومة بريطانيا تسعى باختباطها هذا الى ما لا محيد لها عنه، وتجتهد في تقريب البعيد وما كان أغناها عن هذا كلّه.

رأي المستر بلونت في المسألة المصرية

(انجليزي حرّ ينصف المصريين)

ان مستر بلونت الذي اشتهر بمحبة المسلمين والمدافعة عن المصريين، لما رأى ما وصلت اليه المسألة المصرية من الارتباك واشتداد الخطب فيها على حكومة انجلترا وصعوبة تدارك الخلل الذي عرض لها تدبر في حل للمسألة ونشره في التايمس فأحببنا نشره في جريدتنا مجملاً وهو:

على الحكومة الانجليزية ان تتفق مع سائر الدول على جعل البلاد المصرية مستقلة في إدارتها (يريد بذلك ان يكون حكامها منها لا من دولة أجنبية) ويكون الكافل لهذا الاستقلال جميع الدول بدون امتياز قوانين التصفية، واختصاصات الأجانب يجب تعديلها. كل مسألة يقع فيها اختلاف فلا يكون انهاؤها إلا باتفاق الدول الأوربية، تحكم فيها بما تشاء لاينبغي أن يكون في الجندية ضباط من الأجانب وقنال السويس يلزم ان يعتبر طريقاً عاماً يشترك فيه جميع الأمم ويكون تحت رعاية الدول جميعاً. يجب أن تكون إدارة البلاد بيد حكومة يقيمها الأهالي بانتخابهم.

بريطانيا تمسح ظهر توفيق باشا

قالوا ان زنجياً أسود، هائل المنظر، غليظ الشفتين مقلوب المشفرين جاحظ العينين أحمر الحدقتين بشع الوجه، أفطس الأنف، منكر الصورة وكان يحمل ولداً في ليلة مظلمة يسير به في زقاق من أزقة بغداد، والولد كلما نظر اليه يفزع ويبكي وينتحب ويصيح ويعول وكلما اشتد به الفزع مسح الزنجي ظهره وقال له: لا تخف ياولدي فإني معك وأنيسك وحافظك من كل شر، وبعد تكرير هذه الملاطفات من الزنجي للصبي قال الصبي : ياسيدي إنما خوفي وفزعي منك لا من وحشة الظلام !!!

هذا شأن حكومة انجلترا مع المصريين. كلما اشتدت الخطوب وعظمت المصائب وزاد الخلل في البلاد المصرية، مسحت حكومة بريطانيا على ظهر توفيق باشا ووزرائه بيدها الناعمة (وانما هي نعومة الثعبان) وأقبلت على الأهالي تمنيهم بوعودها المرونقة، وتقول لهم : لا تحزنوا فإني معكم وجميع المصريين من توفيق باشا الى وزرائه الى عامة الأهالي يجأرون وينادون إنما خوفنا وجزعنا منك، وراحتنا واطمئناننا بتنحيك عنّا وتركنا وشأننا.

اضحوكة

قال مستشار خارجية انجلترا لبعض سائليه في مجلس البرلمان ان الجنرال جوردون عندما أجاب محمد أحمد على بلاغه الاخير لم يخاطبه بلقب سلطان كوردفان، بل عنون الجواب بلفظ شيخ، وبناء على هذا فقد صار لقب سلطان كوردفان الذي منحه له الجنرال جوردون لاغياً، يعني ان محمد أحمد خلع من سلطنة كوردفان عندما طمح نظره الى خرطوم وطلب من الجنرال ان يدخل في دين الاسلام، لكن محمد أحمد لم يتمتع بتلك السلطنة اللفظية لأنه لم يقبلها عند عرضها عليه فلا يحزن من هذا الخلع الجديد. أليس بعجيب ان يسمع من أفواه رجال سياسة بريطانيا مثل هذه المهملات، بعدما قيل فيهم أنهم من أدهى رجال العالم، ولعل الأضاحيك من أساليب السياسة عندهم.

المسألة المصرية والانجليزية

ان للحكومة الانجليزية شأناً في المسألة المصرية يخال للناظر فيه انها في تردد بين احجام وإقدام وان مقارعة الآراء واختلاف الاهواء، يزداد بين سكان بريطانيا، كلما ازدادت الخطوب شدة في مصر، نعم ان أرباب الرأي في الامة الانجليزية فريقان فريق منهم يدفع حكومته الى الاعلان بسيادتها على الديار المصرية واستلام إدارتها، وبعبارة اخرىٰ الى ضمها لأملاكها ويحملها بذلك على غمط حقوق الدولة العثمانية وأهالي القطر المصري والاستهانة بحقوق الدول جميعاً. وهذا فريق الجمعيات والشركات المالية ويذهب بعضهم بعض الوزراء وينصر آراءهم عدة من الجرائد أشهرها جريدة التايمس واشتدادهم في صخبهم ونعيرهم نبه الأفكار وأقلق الخواطر في الأمة الفرنسية فانطلق لسان جرائدها بالوعيد والتهديد وصرحت الجرائد الوزارية منها وجرائد الأحزاب الجمهورية وهي ذات السلطة في البلاد الفرنسية بأن حكومة فرنسا وان كان غضت طرفها عن أعمال انجلترا في القطر المصري من يوم حملتها عليه الى الآنَ ولكنها لاتهمل شيئاً من مصالحها وحقوقها وجميع الدول الأوروبية تعززها وليس لانجلترا في مصر ما تمتاز به عن بقية الدول، ومن الجهل ان يظن سياسي في المسألة المصرية انها مصرية أو انجليزية أو فرنسية فإنما هي مسألة أوروبية وقد اقتربت الساعة التي تجهر فيها

الدول بالمدافعة عن حقوقها في الأقطار المصرية، ان للدول حقاً في التداخل لحل هذه المشاكل بعدما عجزت انجلترا عن القيام بما تعهدت به من اقرار الراحة في مصر فإن الفوضى في هذه الأيام أشدّ منها في زمن الحركة المعروفة بالعسكرية وفتنة السودان تلاطمت أمواجها على حدود مصر والهواء الأصفر (الكوليرا) أن تكون له رجعة الى تلك البلاد السيئة الحظ وما هذا كله إلا من آثار الحلول الانجليزي في وادي النيل. أما إن أرادت دولة انجلترا ان ترسم بسيادتها أو ترفع أعلام حمايتها على القطر المصري فما للدول من حق التداخل يصير فرضاً لازماً وضربة لازب لا محيص عنها. إلا ان كل هذه التهويلات لم تعدل بذلك الفريق الانجليزي عن مقصده ولم تتحول به عن مشربه فلا تزال جرائدهم تنعق بطلب الحماية على مصر وهم في عمى عن العوائق والموانع التي تصد حكومتهم عن الانصياع اليهم.

أما الفريق الآخر من الأمة الانجليزية ومنهم وزير داخلية انجلترا ومستر جلادستون فيما يقال فيظهرون التعفف والنزاهة بل يصرحون في خطبهم بأن حكومة بريطانيا لاتستطيع احتمال إدارة البلاد المصرية وليس في إمكانها ضمها الى أملاكها ولو همّت بذلك لرأت من الدول أشد الممانعة وربما رجعت بالخيبة ؛ على انها تكون قد سنت سنّة سيئة في نقض العهود، وإخلاف الوعود، وفتحت للدول هذا الباب، باب الشر والعدوان. هذا ما ينطقون به على منابرهم ويزعمونه نبأ عما في خواطرهم، ولكن هؤلاء المتعففون لهم في كل وقت عمل لتمكين أقدامهم في مصر، ولا يخالفون الفريق الأول إلا في شقاشق الألسن، هؤلاء هم الذين حولوا الإدارات المصرية ودوائر حكومتها العليا الى السيرية، واستلما زمام العسكرية والمالية وإدارة الداخلية والمحاكم القضائية وتصرفوا في أعمالهم تصرف الملاك، فاستبدوا على المتوظفين من المصريين، وغلوا أيديهم عن تعاطي أشغال وظائفهم، حتى آل بهم الأمر الى ما صرحت به الجرائد الانجليزية من أنهم اشباح ورسوم تلوح بين جدران الدواوين غدوة وعشيا، هؤلاء هم الذين يحاول نوابهم ومأمورهم في القطر

المصري ان يلزموا أهاليه بتحرير محضر يلتمسون فيه حماية انجلترا وسيادتها عليهم وان لم تنجح الحيلة، هؤلاء هم الذين هموا الآن بتغيير نظام المالية المصرية ورغبوا الى الدول في عقد مؤتمر بلندن لتغيير قانون التصفية ويريدون ان يجعلوا ذلك ذريعة للاتفاق مع الدول على ان تكون الديون المصرية بأسرها تحت ضمانتهم لتقوم لهم الحجة في الاستيلاء على مصر بعد زمن قصير أو طويل أو ليمهّدوا به طريقاً لمن يخلفهم في الوزارات الانجليزية ينتهي بالسير فيه الى تلك الغاية بعينها وما طلبوا الماجور بارين وكيلهم السياسي في القطر المصري إلا ليحضر هذا المؤتمر.

هذا ما يهيئه الانجليز لأنفسهم ولكن ماذا تعده الحوادث لهم، كتبوا على أنفسهم تخفيف مصائب الحكومة المصرية في السودان، وعقدوا لقوادهم الألوية، وأعدوا لهم العدد، وكتبوا الكتائب فسفكت دماؤهم ؛ بعدما ضل سعيهم، ظنوا ان بعض رزاياهم في سواحل البحر الاحمر فرصة للاستيلاء على السودان الشرقية، فبعد الجهد ومعاناة الكفاح من عراة العرب تمكنوا من الرجوع بالخيبة، قنعوا بالاعتصام في حصون القاهرة وما يليها فأزعجهم دوي السيل المندفع عليهم من الجهة الجنوبية، وإغارة ثائرة السودان على شندى وافتتاحها، واشتداد الحملة منهم على بربر وخرطوم، وزادهم خوفاً ورهبة انتقاص كثير من القبائل على مقربة من وادي حلفا وأبي حمد وأوشكت طائشة الفتنة ان تأخذ بقلوب الأهالي فيما تحت أسوان، وأفزعهم ما أحسوه من أهالي القاهرة ومصر السفلى من تحوّل القلوب وضيق الأنفس، حتى اضطروا لزيادة الحرس فيها، مع ان زيادة المعهود في المصريين انهم أهل السلم والراحة. قصدوا بكل هذا حماية طريق الهند خوفاً على الهند فبعدما ورد الينا من أصدقائنا في لاهور ان لدعوة محمد أحمد في قلوب الهنديين منزلة وانه لو لم يكن مهدياً فالضرورة قاضية عليهم باعتقاده كذلك عسى ان يكون في هذا الاعتقاد جمع لكلمتهم على التخلص من رقّ الانجليز، جاءت البرقيات شاهدة على صدق ما كتب الينا، ففي الاخبار البرقية ان رجال الشرطة في سملا وجدوا اعلانات

ملصقة على جدران المدينة مما كتب فيها إغراء المسلمين بإجابة دعوة محمد أحمد والقيام بنصرته، وسملا هي في آخر الممالك الهندية الانجليزية من جهة الشمال الشرقي على القرب من لاهور، وهذا ما كنّا نخشاه ونبهنا عنه مراراً. وربما تكون هذه الصدمات الشديدة التي صدعت انجلترا بعد استفحال أمر محمد أحمد كافية في اذعانها بأن عاقبة الثورة السودانية أشد خطراً عليها من عاقبة الحركة التي سمّوها عرابية.

رام الانجليز بكل هذه الاحتياطات المقيدة ان يقرروا الراحة في مصر فاذا الأموال تنهب، والحقوق تضيّع، والإدارات في فساد والتجارة في كساد، والزراعة في بوار والظلم في اشتداد والأمن مسلوب حتى الأرواح والأعراض كل هذا باعتراف جرائدهم ووزرائهم وشهادة الجرائد المصرية الوطنية وإجماع السياسيين في أوروبا على ان الشقاء الذي ألم بأهل مصر بعد تداخل الانجليز، ناشئاً عن هذا التداخل، لم يرزأوا به في زمن من الأزمان من عهد محمد علي الى الآن. فأنعم بهذه الوسائل التي أعدها الانجليز لتقرير الراحة في مصر وأجمل بالوسائط التي استعملوها لحماية الهند !!!

هذه بدايات القلاقل وبوادر المخاطر التي نشأت من شدة احتراس الانجليز وحرصهم على وقاية أملاكهم أو توسيعها يظهر من جعجعتهم اذا صاح بهم داعي الحرب وحيرتهم من أين يجندون الجنود هل من الهند أو انجلترا ومن موازينهم العسكرية ان ليس لهم قوة برية لحفظ الممالك الواسعة فكيف يستطيعون التصرف في مصر لو سادوا عليها وهي كما قال وزير داخليتهم تحسب مملكة أوروبية لاتسود فيها الأوهام ولا تدوم فيها سلطة الحيل ان لم يكن من المصريين فن الأوروبيين وأي قوة تصون لهم الهند من فتنة اذا امتد زمن الاضطراب في مصر وقد جاءنا من اخبار الهند ان عموم المسلمين في هياج ويخشى ان تثور فيهم ثائرة عندما يتقدم محمد أحمد خطوة أخرى.

هذه العواقب السيئة وما يتوقع من مثلها أو أسوأ منها لدولة انجلترا إنما هي حلقات في سلسلة أغلاطها من استيلائها على قبرص فإنها اختلست تلك الجزيرة لمراقبة طريق الهند فنافستها فرنسا واستولت على تونس فتخوفت على قنال السويس ان يساق اليه جيش بري من أفريقيا الغربية فسعت في الايقاع بين الجند والحاكم في مصر وتذرعت بذلك للغارة عليها فنزل بها في تلك ما نزل.

وبعث ذلك دولة فرنسا على ما بلغنا من مصدر يوثق به الى السعي في طريق يوصلها الىٰ مناكبة الانجليز في مصر على الحدود الغربية وربما جرت هذه المنافسات الى فتح المسألة الشرقية وليس بقليل ما يصيب انجلترا من مضار هذه المسألة فأي ثمرة جنتها انجلترا مما غرسته في هذه السنين الأخيرة، لا هي صانت باب الهند من الخطر كما تروم ولا هي سكنت قلوب الهنديين، وانما طرقت أبواباً كانت مغلقة ويوشك ان تفتح، ولئن فتحت فإنها تحدث زلزالاً في أركان العالم بأسره هذا شأن الانجليز وما يفعلون.

ويوجد اناس لهم مداخل في تقلب الاحوال المصرية ولهم مذاهب مختلفة في ترويج مقاصدهم لدى المصريين يمنونهم بالخلاص من أيدي الانجليز إذا آل اليهم السلطان في مصر، بل يؤكدون لهم أنه لو ثبتت أقدامهم في الديار المصرية لأحبطوا مساعي انجلترا في عموم البلاد الشرقية، وسعوا في تقليص ظلها من المشرق بأسره، أخذاً بثأرهم منها فهؤلاء سنأتي على أحوالهم، ونبين طرق سيرهم في أعمالهم، حتى يكون ذوو الآمال فيهم على بصيرة من أمرهم.

هول الأمر علىٰ جوردون

أخبر مراسل التايمس في خرطوم ان تلك المدينة اصبحت معسكراً لأعوان الثورة ومضاربهم محيطة بها من جميع الجوانب والمقذوفات مـن نـيران أسـلحتهم تنقض على دار الحكومة بلا انقطاع والمؤونة في نقصان والخطر يشتدّ يوماً بعد يوم وبعد افراغ الوسع في اختراق صفوف الثائرين بالمراكب تسير الى بربر لفتح طريق المخابرة مع حاميتها حبط العمل وخاب السعي فإن قوة العربان على شواطئ النيل تصول على المراكب بأسلحتها القاتلة وتفتك بمن فيها، واتبع هذا الكلام بـقوله ان الجنرال جوردون عقد العزيمة على ان ينجو بنفسه من طريق افريقيا الوسطى حيث تحقق ان حكومته غير مهتمة بإنقاذه، ويرى انه لا سبيل الى الاتفاق مع القبائل التي أخذت عليه طريق بربر إلا بمساعدة زبير باشا (اليوم يضطر لمساعدة زبير باشا) وهو من أعدائه ولا نرى الزبير إلا مسلماً لو سمحت ذمته بإنقاذ حياة جوردون فلا تسمح ان يكون السودان ولاية انجليزية وفي جريدة (الأكسترابلات) ان الحكومة الانجليزية ورد اليها كتاب من جوردون.

مفاده : ليس في طاقة أحد من البشر ان ينجينا من الخطر لأننا محاطون من جميع الأطراف بالقبائل الثائرة فلم يبق لنا سوى التضرع الى الله بتبديد شملهم فإن لم تسعفنا العناية الالهية بإجابة دعوتنا فلا ريب ان تلك القبائل تنهب وتفتك بجميع

سكان خرطوم قبل وصول نجدة انجليزية الينا. (وليته سأل الله تعالى حل المسألة السودانية وفوّض اليه الأمر فيها وأراح نفسه من السفر الى خرطوم) وجاءت الاخبار الأخيرة بأن مدينة شندي وهي علىٰ النيل في منتصف الطريق بين بربروخرطوم وقعت في أيدي رجال محمد أحمد، هذا بعد ان طلب الجنرال جوردون من حكومته ان ترسل فريقاً من الجيوش لتخليص حامية تلك المدينة وموظفي إدارتها ؟ ورأت الحكومة من الصواب أن لا ترسل فلما ضاق الأمر على الحامية ويئسوا من القدرة على الدفاع ركن فريق منهم يبلغ ثلاثمائة شخص الى الفرار واندفعوا على صفوف محاصريهم لعلهم يجدون من بينها سبيلا فلم يستطيعوا ونزل بهم من أمر الله مالا محيد عنه. بعث الجنرال جوردون ببرقية الى القاهرة يشكو فيها عدم وصول الأخبار اليه من السير بارين (وكيل انجلترا السياسي في مصر) قالت التيمس ولعل البرقيات التي بعث بها بارين اليه تناولها الثائرون ومن كلام هذه الجريدة ان الحكومة الانجليزية أرسلت الجنرال الى السودان وفوّضت اليه الأمر فيما يفعله ليصيب بتدبيره غاية حسنة ونرى ان هذه الحكومة غلت يديها بترك الجنرال وشأنه مما يلحق بها عاراً عظيماً.

اشتدت حملة القبائل على بربر وخارت عزائم حاميتها وسكانها وأخذ اليأس بقلوبهم. ووردت برقية من مدير بربر الى الوزارة المصرية يشكو بها تلك الحالة ويقول انه لايمضي بضعة أيام حتى يفتحها الثائرون ويحل بها من أيديهم ما حل بمدينة شندي. وبعد هذا جاءت برقية من القاهرة مفادها ان نوبار باشا يخشى ان يمتد لسان الفتنة الى اسوان في وقت قريب وانا نشاركه في هذا الخوف ونزيد عليه الإشفاق من التهاب النيران في القاهرة، وأطراف القطر المصري ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

محاولة في مصر

كل يوم يظهر من انجلترا شأن جديد في معاملة الشرقيين والطرق التي تأخذهم بها لقضاء أوطارها من بلادهم، وتلاعبهم وتداعبهم وتجاملهم وتلاطفهم، وتعدهم وتمنيهم وتخيفهم وتؤمنهم، حتى تشتبه عليهم مسالك الفكر، وتلتبس مسارح النظر، ثم تحملهم بعد الدهشة على قبول سلطتها والرضا بولايتها، بل على طلب ذلك منها، والتماسه من كرمها، وهي في كل أعمالها تهزأ بهم وتحسبهم في عداد الصبيان القاصرين، أو من قبيل البهائم التي لا تعقل. سلكت مسلكها هذا على بعض من أوروبا وانفردت في الأقطار الهندية النائية، وليس لدولة من الدول إحاطة بما تجريه في حكومتها لتلك البلاد، ثم تطرفت في هذا المشرب فعمدت الى استعماله في مصر تحت أنظار أوروبا وقصدت ان تدعو المصريين للاقرار بحمايتها، ورفع التماسهم إليها لعل كرمها يسمح بمنحهم شرف سيادتها عليهم، لكن الحيلة لم تذهب على المصريين ولم تختلس عقولهم تلك الشعوذات، فقد جاء في خبر مؤكد ان مأموري الحكومة الانجليزية في مصر حاولوا تكليف الأهالي بتحرير محضر يلتمسون فيه حماية دولة انجلترا ليكون التماس الاهالي حجة لديها عند الدول تقيم بها عذراً في إخلاف وعودها، حتى اذا حاسبوها على تصرفها في أرض مصر وضمها الى أملاكها تدّعي انها مضطرة فيما تصنع والأهالي هم الذين رغّبوا اليها ذلك وهي لا تأبى قبول رغبتهم رحمة بهم ورأفة، هكذا تحاول ان تفعل في مصر وهي متاخمة لأوروبا وفيها من الأوروبيين المختلفي الأجناس ما يزيد على مائة ألف، ولا تخشى لائمة ولا تخاف عاقبة، وان ظننا بالمصريين على اختلاف طبقاتهم انهم لن يفعلوا ذلك ما دامت أرواحهم في أبدانهم.

رأي الجرائد الفرنسية في الانجليز

ارتفع الستار وانهتك الحجاب عن ضعف الحكومة الانجليزية ووهن عزيمتها في المسألة المصرية، ولم تبق فيه ريبة لمرتاب بين الدول الأوروبية وانطلقت عليها الألسن وسلت عليها سيوف الملام، من ذلك ما هزأت به جريدة (الريبوبليك فرانسيز) وسخرت فيه بدولة انجلترا عند كلامها على فصل نشر في جريدة (البال مال جازيت)، قالت : ان ما تهددنا به الجرائد الانجليزية لا تأخذنا منه رهبة ولا ترعدنا منه خيفة، بعد أن رأىٰ الفرنسيون عجز حكومة بريطانيا عن حماية جوردون وعلموا ان عدداً من عرب السودان اخترق صفوف الجيوش الانجليزية المنظمة وما كان لهم سلاح إلا العصي والخناجر، وان فرنسا لاتزال تطلب من انجلترا ان تعيد اليها ما فقدته من حظ السلطة في شواطئ النيل، وما ظهر من عجز انجلترا وضعفها القاضي بالحيرة والعجب لايخفف سوء تأثيره إلا بمساعدة فرنسا. قعد كليفورلويد من المصريين مصاعد الأنفاس وخنقهم بخناق من الجور وصار فيهم خلفاً لعرابي (كذا) ونعم الخلف والى القوة الفرنسية فك هذا الخناق الضيق الذي كاد يقطع أنفاس المصريين، أما أوروبا فتستريح خواطرها ويسكن اضطرابها بعدما أقلقها ضعف الانجليز الذي لا دواء له ومطامعهم التي لا حد لها... اهـ فهل انكشف للشرقيين ما وضح لدى الأوروبيين أو لايزالون عنه غافلين.

* * *

خديعة جديدة

أقبل الانجليز أيام الحركة السابقة على بعض المصريين وزخرفوا لهم الأماني وزينوا لهم المواعيد، حتى استعملوهم لتذليل المصاعب بين أيديهم، لدخول مصر والاستقرار فيها بعساكرهم، وتم لهم ما أرادوا ثم قلبوا لهم ظهر المجن تحت أستار الحجج والتعللات، وقبضوا على زمام الحكومة المصرية يصرفونها كيف يشاءون : ولما أرادت الدولة العثمانية بما لها من الحق القانوني على تلك البلاد أن تتولى حل المسألة التي كان يعبر عنها بالعسكرية، وان ترسل بعض جيوشها لإقرار الراحة في بلادها طبقاً لرغبة رعاياها، مانعها الانجليز وكفوا يدها عن العمل وسبقوها اليه بدون حق شرعي ولا أصل سياسي ولا رغبة عامة من أهالي القطر المصري، واليوم عند اشتداد الخطب على الجنرال جوردون الانجليزي وعجز حكومته عن انقاذه وتوقيف حركة محمد أحمد ألجأتهم الضرورة الى الرجوع لما نبهنا عليه مراراً من ان هذه الفتن لا يطفئ شعلتها رذاذ السياسة الانجليزية، وتمنوا لو تتداخل الدولة العثمانية ببعض عساكرها في السودان لتنقذ الجنرال جوردون وتأخذ بناصية محمد أحمد وتبدد شمل أحزابه، هكذا رأى الجنرال في هذه الأيام ان أنجع الوسائل لحل المشكل تحسين جيش عثماني وسوقه الى تلك الأقطار فكتب الى صديقه صامويل بيكر يرغب اليه ان يتقدم لأرباب الثروة في انجلترا وأمريكا ويحملهم على بذل مائتي

ألف جنيه ليعرضوها على السلطان العثماني حتى ينفقها على ألفين أو ثلاثة آلاف من العساكر التركية، ويسيرها الى نواحي بربر وشندى، ويكون بهذا إنهاء المسألة السودانية وهدم سلطة محمد أحمد، وقال أنه مما يعود نفعه على السلطان أيضاً.

يريد الجنرال ان يخدع العثمانيين بتمثيل منافعهم، كما خدع أمثاله بعض المصريين وحاشاهم ان ينخدعوا لمثل هذه التخيلات الوهمية، ومن العار عليهم ان يقبلوا ما يتكففه الجنرال جوردون من صدقات أهل الثروة في بلاده للنفقة على عساكرهم، وأشد العار ان يذهبوا بجيوشهم لتدويخ بلادهم وإخضاعها لسلطة الانجليز والعساكر الانجليزية حالة[1] بحصون مصر، نعم لو أذعن الانجليز بما للدولة العثمانية من الحق وتركوا لها بلادها وفوّضوا اليها إعادة الراحة فيها وإخماد فتنة السودان، فلا تخال الدولة تتأخر عن القيام بما يفوض اليها بل هو ما تتمناه وتسعى اليه، ولعل الحوادث تلجئ دولة بريطانيا الى مثل ما لجأ اليه جوردون فتسلم الأمر لمالكه[2]، وما ذلك على الله بعزيز.

---

١ ـ مرابطة في مراكز مصر الاستراتيجية.

٢ ـ يظهر الأفغاني نواياه هنا بجلاء... فهو يطلب الخلاص من بريطانيا واحتلالها لمصر... ويعوض مصر الدولة العثمانية لتحل محل بريطانيا !!... مرة اخرىٰ هكذا كانت الدول تلعب بمصر...

دسيسة أخرىٰ

هيأ الانجليز فتنة فكانت، وأغاروا على مصر بحجة إخمادها وأوثقوا الدول على ان تكون اقامتهم في الديار المصرية الى ان تستقر الراحة فيها ثم يخرجون، لكنهم بعدما حلوها لايزالون يسعون من يوم وطئوها الى اليوم في إيقاظ الفتن ويجهدون لإقلاق الخواطر، ليقدموا ما يكون من هذا عذراً لدى الدول في تطويل مدة إقامتهم بالقطر المصري لعلهم يجدون من تقلبات السياسة الاوروبية فرصة للحلول الأبدي. ومن ذلك ما سولوا للأروام ان يحتفلوا بعيد استقلالهم على نمط لم يسبق له نظير في الأقطار المصرية من قبل، وزينوا لهم ما فعلوا بما يقدرون عليه من طرق الخفية حتى انخدع الأروام لوساوسهم مع أنهم أحق الناس برعاية الأدب وما كان مثل ذلك من مأموري الانجليز في مصر إلا ليقلبوا أفكار المصريين ويحركوا الضغائن في نفوسهم ويذكروهم بما كان بينهم وبين اليونانيين أيام ابراهيم باشا فيوقظوا بذلك الفتنة بين سكان القاهرة وبعض المدن المصرية وبين من يساكنهم من الملل الاجنبية، ويعيدوا تاريخ بعض الحوادث المشؤومة التي كادت تمحى دواعيها بعدما حدث من نحو سنتين ثم يجعلوا ما يحدث من اختلال علة لدوام الاحتلال أو التسويف في الجلاء.

الورطة الجديدة

التوى سير السياسة الانجليزية في المسألة المصرية، وقزلت[1] الوزارة الجلادستونية في المضي الى نهايتها فسقطت مراراً ونهضت مراراً، وآل بها الأمر بعد هذا الى عجز عن اداء ما تعهدت به للدول وللدولة العثمانية من إصلاح الأحوال المصرية، وفزع شديد من عقبى هذه الفتن التي تداعت لها أركان النظام المصري. فلجأت الى الدول الأوروبية تستعين بها على تخفيف الوزر، والتمست منها عقد مؤتمر في لندن وتعللت في دعوتها الى الاشتراك معها في الأمر بفراغ الخزينة المصرية لكثرة النفقات والنقص في الإيراد فلايمكن بقانون التصفية الذي وضع باتفاق من الدول العظام إلا انها شرطت على الدول ان تكون المداولة في المؤتمر منحصرة في المسائل المالية ولا يجوز لهم ان يتعدوها الى ذكر شيء آخر في الأحوال المصرية الحاضرة أو الماضية، أما الدول فقد قبلت الدخول في المؤتمر على شرط مبهم وهو ان نوابهم يبحثون فيما يبحث فيه المؤتمر إلا دولة ألمانيا فإنها لم تجب الى الآن جواباً رسمياً ويغلب على الظن في الدوائر السياسية انها تتبع في جوابها دولة فرنسا واتفقت على ذلك أغلب الجرائد الالمانية وزادت دولة فرنسا في جوابها ان طبيعة المسائل التي يجري فيها البحث ربما لا تقف بالباحثين عند حد النظر في المالية، بل

---

١ ـ قزلت بمعنى سارت كما يمشي الأعرج... أي تدهورت سياستها...

تنجر بهم الى ذكر كثير من المشاكل المصرية الحاضرة.

أما هذا فلم يكن خافياً على انجلترا فإن النظر في المالية مع الاضطراب الواقع في الديار المصرية وتزعزع أركان السلم فيها لا تخلو نتيجته من أحد أمرين : إما تقدير الايراد والمصرف بمبالغ محددة وتخصيص شيء معين من الإيراد لوفاء فائدة الدين مع تخفيض الفائدة مثلاً ثم يوضع قانون تمضي عليه الدول كما فعل قانون التصفية وهذا مما لايتصوره العقل فإن عساكر الحلول الانجليزية لم تزل في أرض مصر ومصاريفها على الخزينة المصرية ولم يعلم أجل إقامتها ولا مبلغ عددها والفتن قائمة في الجهات السودانية والحكومة المصرية مكلفة بتوقيفها عند حد لايخل براحة البلاد ولهذا العمل مصاريف ونفقات لايمكن تحديدها ولا تقديرها، فكيف يمكن للوصول الى تعيين النفقات وإحصائها على وجه منضبط والاضطراب الداخلي والاختلال المتفشي في الإدارات ودوائر الحكومة العليا والدنيا الذي حدث بتخلل الانجليز فيها وقف حركة الاعمال النافعة من زراعة وتجارة وصناعة فكيف يمكن ضبط الإيراد على نمط يعرف ويؤلف فلم يكن غرض انجلترا من الدعوة الى المؤتمر أن يصل الى مثل هذه الغاية التي لا أهمية لها مع بعدها.

* * *

الأمر الثاني ان ينساق البحث في المسائل المالية والنظر في الإيراد والمصرف الى ما يلزم لاستقرار الراحة في مصر من العساكر وتطلبه من النفقات وما يستدعيه إطفاء فتنة السودان وما تحتاج اليه المحاكم الجديدة وغير ذلك مما تعرضه انجلترا وتبين للدول ان مالية مصر ليس في طاقتها ان تفي بجميع هذه النفقات الواسعة ولو كلفت بأداء بعضها فضلاً عن كلها لحق الضرر بأرباب الديون فأحسن وسيلة للتخفيف عن المالية المصرية مع حفظ الحقوق لأربابها ان تكون الديون المصرية تحت ضمانة انجلترا وهي تؤدى فوائدها في أزمانها. تطلب من الدول بعد هذا أن تفوض اليها التصرف في الأقطار المصرية، وتأخذ التبعة على نفسها في بذل الأموال وقتل الأرواح وهذا الذي يمكن ان تفعله انجلترا بعد عجزها وربما مست حقوق

الدولة العثمانية في مطاليبها هذه إلا أن التلغرافات نقلت الينا ما يتحدث به في الدوائر السياسية بالاستانة وهو ان الدولة العثمانية ستشترط لقبول انتظامها في المؤتمر شروطاً صعبة يعز على انجلترا قبولها لينكشف الستار عن مقاصدها في مصر، ومن جملة تلك الشروط ان تستبدل العساكر الانجليزية المحتلة في مصر بعساكر عثمانية لأن نفقات الجيوش العثمانية أقل من نفقات الجيوش الانجليزية وهذا هو ما يؤمل في الدولة العثمانية في هذه الأوقات وأنها فرصة لو فاتت فقل ان يأتي مثلها وللدولة العثمانية بسلطتها على قلوب المسلمين شرقاً وغرباً قوة ترتعد منها فرائص الانجليز فأمل أوليائها اليوم ان تستعمل تلك القوة الفائقة وتجعل لها أثراً في استرداد حقوقها، وعندنا ان رجال الدولة العثمانية لا يغفلون عن هذا. أما الحكومة الفرنسية فقد عقدت عزيمتها على مطالبة انجلترا بإعادة نفوذ الفرنسيين في مصر كما كان قبل المراقبة والجرائد الفرنسية على اتفاق في تبيين خلل السياسة الانجليزية وبيان سوء مقاصد الانجليز والالحاح على حكومتهم ألا تعترف بأدنىٰ امتياز بسبب ما فعلته في واقعة التل الكبير وهذا ما ترتجف منه الجرائد الانجليزية عموماً وتخشىٰ عاقبته ونظنها أسوأ عاقبة عليهم.

هذا ما يتعلق بورطتهم الجديدة التي يظنون فيها خلاصهم وبقي عليهم ما لا نظن ولا يظنون لهم منه نجاة. دخل الثائرون مدينة بربر كما أنبأت به أواخر الأخبار ولعبت عواصف الفتنة بأطراف مصر العليا وأكدت أخبار البرقيات أنها لم تقف عند حدها، بل حركت السواكن في مصر السفلى ووراء ذلك من الويل ما وراءه فأين الخلاص لدولة انجلترا. نعم لمعت بارقة حق في عقول بعض ذوي الرأي من رجالها فطلبوا أن تكون العساكر التي تبعث الى مصر مؤلفة من عثمانية وانجليزية وهو نوع تقرب لما قلناه مراراً من أن هذه الفتن لايدفع غائلتها إلا المسلمون ولكن عليهم أن يخلصوا آراءهم من الشائبة الانجليزية وإلا فلا نجاح، والله يفعل ما يشاء.

* * *

العروة الوثقىٰ توزع مجانا!!!

تأتي في فصولها على أهم ماله أثر في أحوال الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً فلا تلام إذا أطنبت في مسألة شرقية عامة ولا إذا أغفلت ذكر بعض أخبار من أمريكا وجابونيا.

نبهنا في أول عدد صدر منها على ان القائم بها رجال من أهل الغيرة في الشرق هموا بأعمال تفيد أوطانهم وملتهم مع رعاية جانب العدل والسير على وفق الحكمة، ومن ظن ان توزيعها مجاناً يقتضي أن تكون منسوبة لدولة من الدول أو شخص من ذوى المطامع في إمارة أو ملك فإنما نشأ ظنه هذا من اليأس المستحكم في نفسه والقنوط من نهوض همم بعض المسلمين بعمل صغير كهذا، ولا يقنط من روح الله إلا القوم الكافرون.

هذه جريدة لا سعة فيها للتنابذ والتقاذف، ولا يذكر فيها اسم شخص أو لقبه إلا إذا كان له قول أو عمل يفيد البحث فيه فائدة عامة.

رياض باشا والسياسة الانجليزية

نقل الينا وذكرت الجرائد خبر مجلس انعقد في سراى توفيق باشا بـالقاهرة حضره وزراء الحكومة المصرية ودعى اليه شريف باشا ورياض وسـلطان بـاشا وعمر باشا ولطفي باشا وخيري باشا وثابت باشا. وأغلب الجرائد الفرنسية المهمة اتبعت رواية الخبر بالثناء على رياض باشا وأتت من وصفه على أفضل ما يوصف به رجل في أمته. ومما ذكرت من صفاته أنه أقوم أمير في الديار المصرية وأشدهم حرصاً على الاستقامة وانه أبصر أهل بلاده بعواقب الحوادث التي ألمت بمصر وما تؤول اليه. وكان يرى من بداية تلك الحوادث ان سيكون مصيرها الى ما لاخير فيه للبلاد وسكتت تلك الجرائد عما يتعلق ببقية أعضاء المجلس وأننا نذكر الخبر أولا ثم نعقبه بما تدعو خدمة الحق لذكره.

بعد انعقاد المجلس قام نوبار باشا وافتتح الكلام بخطاب وجهه الى الحاضرين فقال : ماذا ترون من التدبير اذا فرضنا ان مدينة خرطوم وبربر ودنقلا دخلت في حوزة محمد أحمد وأشياعه، وأي طريقة يمكن الأخذ بهـا لحـفظ الأمـنية وتـقرير الراحة في مصر العليا (الصـعيد) فأعـجب الحـاضرون بـالسؤال وظـهرت عـلى وجوههم علائم الاستغراب لمفاجأته لهم بما لم يكونوا يتوقعونه ثم أجابوه بصوت واحد ان لا سبيل الى تأمين البلاد من خطر الفتنة إلا باستعمال القوة، فقال نـوبار.

باشا إنّا نروم منكم التصريح بنوع القوة التي يجب استخدامها (أي قوة انجليزية أو مصرية) فأجابه رياض باشا ان تعيين القوة من خصائصكم وليس من شأننا ان نتكلم فيه : فأبدع في الجواب بعض الحاضرين (لا نعرفه وربما يكون من محبي أوطانهم) وأحسن في التشبيه حيث قال الذي نعرفه ان العجة لاتكون بدون بيض (العجة طعام يصنع من البيض مع بعض النبات يعرف اسمه عند المصريين وأغلب العرب، فمادة هذا الطعام انما هي البيض) فأراد العضو المحترم انه لو أُريد استخدام قوة فلا بد ان يكون جوهرها عساكر انجليزية ولا بأس بإضافة بعض من الجنود المصرية لتكون ترساً يدفع به في وجوه المحاربين وتنصب اليه قوتهم فإن حصل العجز ودعت الضرورة للفرار أمكن للجيوش الإنجليزية ان تعود سالمة أو إذا أضيف مصريين فلابد ان يكونوا حمالين وخدماً أو حرساً وحفظة لمن يكون معهم من ساداتهم (هذا ما أراد جناب العضو من تشبيهه البليغ) بعد هذا قال رياض باشا انكم تسألوننا تعيين القوة ولكني أسألكم ماهي القوة الموجودة عندكم وبأي حق يؤدى لكم ٤٨ ألف جنيه في كل شهر، أأنتم حكومة أم لا. أما شريف باشا فقال أنه بذل جهده مدة طويلة في أرضاء الحكومة الانجليزية بأن ترسل جيشاً انجليزياً الى السودان (وهذا مما يقضي بالعجب) ولكنه علم ان نوبار باشا أراد أن ينهي المسألة بإخلاء الأقطار السودانية فقال نوبار باشا ان المباحثة خرجت عن موضوعها وتحولت عن وجهها ولكني أذكر الأعضاء المجتمعين بأنهم ما طلبوا إلا لإبداء آرائهم فيما يجب العمل به، فأجابه رياض باشا ان لكم مجلس شورى فكان أحق ان تذاكروه وأنا للآن لا نعرف سبباً لاستدعائنا مع وجود ذلك المجلس، فحاول نوبار باشا دفع ذلك بقوله ان مجلس الشورى ليس من خصائصه النظر في مثل هذه المسائل. فقال رياض باشا انه لا يرجى اصلاح مادام العمل جارياً على ما وضعه اللورد دوفرين مما سماه نظاماً وانه لا ثقة له بأصل من أصول ذلك النظام وليس في الإمكان إجراء ولا واحد منها وان الأغلاط التي كانت منشأ للضعف والاختلال لم

يرتكبها إلا دولة الانجليز وان ما نراه من الفوضوية وارتكاب المنكرات وكثرة التعدي والسرقات لم تكن له علة إلا السياسة الانجليزية، فعلىٰ انجلترا ان تعالج هذا الداء وليس ذلك علينا ولقد قلت هذا مراراً وبلغته للورد دوفرين وشريف باشا وكنت أود أن أرى اللورد دوفرين مرة أخرىٰ لأذكره بما جرى من الحديث بيننا وأعرض عليه مصره المنتظمة، إلا ان شريف باشا أتى بما لم يكن يرجى منه حيث دافع عن نظام دوفرين بقوله ان الاصلاح يحصل تدريجياً، كأنه يريد بما يقول ان ما حوته شريعة اللورد دوفرين يصلح ان يكون شريعة يعود من العمل بها على أهالي القطر المصري شيء من الفائدة وما كنّا نظن ان مثل شريف باشا يرى مثل هذا الرأي بعد وصول الأمر الى ما وصل اليه. بعد هذا قال رياض باشا اني لا أفهم لفظ بروتكتور[1] (حماية) ولا أعلم ماذا يراد منه ولكني لا أرىٰ وسطاً بين أمرين أما ضم البلاد الى الحكومة الانجليزية فتستلم انجلترا إدارة أمورها وتتولى شؤونها كلية كانت أو جزئية، وهذا هو الذي أفهمه من تلك العبارات، واما ترك البلاد لأهلها فيأخذ بزمام السلطة فيها رجال من أهاليها واليهم الحل والعقد في إدارتها فانتحلوا مذهباً من المذهبين فإن القول بحل وسط بينهما ضرب من الجنون ١ هـ

وليس بعجيب ان يصدر مثل هذا الكلام من رياض باشا فعهدنا به رجل ذو حياة وطنية واحساس بما يلزم لحفظ حياته هذه، وهي أشرف أنواع الحياة، فإن تكلم فإنما ينثر الكلام منه إرادة ناشئة عن فكر تثيره قوة حيوية وكان أملنا ان يوجد من طرازه كثير في الأقطار المصرية يصدعون بما يصدع به خصوصاً بعد ما نزلتهم هذه الحوادث المريعة ومثلت لهم مستقبل بلادهم في حاضرها ولقد أدى الرجل حقاً واجباً عليه والقائم باداء الفريضة قد يشكر اذا أهملها المكلفون بها حتى صارت عندهم من نوافل الأعمال أو في منابذ المكاره، ولكن يأخذنا العجب من بقية أعضاء هذا المجلس الموقر كيف مجمجوا أو تلكأوا أو سكتوا وكيف وسعتهم

١ـ PROTECTORAT

القدرة على إمساك ألسنتهم عن التعبير بما في ضمائرهم. إنا لا نعلم أحداً منهم تجنس بالجنسية الانجليزية وحاشا جميعهم من ذلك، ولا يختلج في صدورنا ان مصرياً أو تركيا أو شرقياً أيّاً كان يميل ميلاً صادقاً الى تسلّط الأمم الأجنبية على بلاده أو يخلص في خدمة الانجليز ومجاراة رغائبهم اخلاصاً صحيحاً خصوصاً أولئك الأمراء المصرح بأسمائهم، بل لو كشف الحجاب عن قلب كل واحد منهم لرأيناه ذائباً من الأسف في ما حل ببلاده وفانياً من الحزن على ما نزل بوطنه من تردد جيوش الأجانب بين أطرافه ومضمحلاً من الكدر على ما عقبه حلول القوة الأجنبية من انقباض الأنفس وانقطاع الآمال وعموم الاختلال وشمول الفقر والفاقة وبطلان حركة الأعمال، بل لو شاء القلم ان يعبر عن حالة الأمير منهم عندما يطرق أذانه أخبار التصرف الانجليزي في إدارات حكومته وكفّ أيدي الموظفين من أبناء ملته من أداء ما يجب عليهم لبلادهم وبسطة أيدي أولئك الأجانب في الإنفاق من ماله ومال عياله وأقاربه وأحبائه وجميع مواطنيه بدون حق شرعي ولا مصلحة وطنية أو عندما يرىٰ غنياً أعدم وعزيزاً ذل وكاسياً عرى وحياً أشرف على الهلاك من ضغط المظالم، ولو نهضت قوة البيان لشرح ما يظهر على وجهه من ألوان الكمودة وفي أعضائه من أنواع الرعدة وما ينبض به قلبه وما يحدثه فكره من هواجس الهموم وخواطر الغموم لما استطاع القلم تعبيراً ولوقفت قوة البيان دون الإتيان على قليل من كثير. هذا هو الذي لا يبرأ منه أحد منهم ولو أقام على البراءة ألف برهان. كيف لا وهم يعلمون أن عزتهم وسيادتهم وما بلغوا من مراتب الشرف والرفعة انما كان بوصف قيامهم على أعمال البلاد وأهليتهم لاستلام مهامها واستعدادهم لإدارة شؤون الرعية وهم على يقين بأنه لو ساد في ديارهم أجنبي فلا داعي يبعثه الى حفظ ما هم من الشرف والسيادة، بل له من البواعث القوية ما يحمله على تذليلهم وإهباطهم الىٰ أحط المنازل ليخلفهم على مثل ما كانوا عليه. فما الذي أمسك بألسنتهم عن الكلام !! هل الخوف. فن أي شيء يخافون وما الذي يخشونه

على أرواحهم أو على بلادهم اذا قالوا حقاً وثبتوا عليه ؟ ماذا يصنع بهم الانجلترا اذا علموا صدقهم في محبة أوطانهم واتفاق كلمتهم على الرغبة في انقاذها، هل علموا من عدل الانجليز انهم يؤاخذون الناس على إبداء آرائهم اذا دعوا الى المشورة. ان كان هذا فما يبتغون من الحياة. هل ظنوا ان الانجليز اذا احسوا باتفاق في الآراء على مصلحة من مصالح البلاد وان كانت في خروجهم من مصر يستطيعون تحت أعين أوروبا أن يوصلوا ضرراً الى المتفقين وهم أمراء البلاد وأعيانها. ان رياض باشا وحده لم يخش من إظهار فكره، فماذا كان يضرّ الأمراء الوطنيين لو عززوه أو كاتفوه على مثل رأيه. قد علم العقلاء من كل أمة ان اشباه هذه الحوادث تكون سبباً في اجتماع الكلمة واتحاد الرأي على مصادمتها وما نراه اليوم من سعادة الأمم العظيمة انما كان منشؤه ملمات الشقاء التي أنستهم الضغائن والأحقاد وحملتهم على ترك المنافرات الخصوصية وأخذ كل بيد أخيه لدفع ما يخشىٰ منه على بناء الأمّة ان ينصدع وأساس الملة ان ينقلع وما سمعنا من أمة اتفقت فخابت ولا ملة افترقت فنجحت.

ألا يعلم أمراؤنا أن أوروبا واقفة بالمرصاد لإنجلترا تترقب لها الزلل وتتمنى لها الغلط وان جميع الأسماع في الممالك الأوروبية مصغية لكلمة يتفق عليها وجهاء المصريين وهي انّا قادرون على اصلاح شؤوننا ولا نريد قوة أجنبية تحل في ديارنا.

امتدت أعناق السياسيين في أوروبا وانحنت الى المصريين ليسمعوا منهم كلمة حتى كلت رقابهم والتوت أعصابهم والمصريون يشحون بها عليهم. ماذا ينتظر الأمراء المصريين في قول الحق ان الأمم لاتطلب منهم اشهار السلاح ولا بذل الأرواح ولكن تطلب منهم قولاً صريحاً لايجلب اليهم ضرراً ولا يقرّب منهم خطراً لا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

السودان

قدمنا في العدد الماضي أن مدينة بربر في حالة يخشى عليها من السقوط في أيدي الثائرين وجاءت أخبار هذا الأسبوع أن حاكم المدينة، بعد إلحاح طويل على الحكومة المصرية في إرسال نجدة عسكرية اليه، لم يحز طلبه قبولا فإن الوزارة الانجليزية لم تر ذلك صواباً وبناء على ما رأته الحكومة الانجليزية صدرت الأوامر الى الحاكم (حسن باشا خليفة) ان يخلي المدينة بما يمكنه من السرعة، فشرع في اخلائها متقهقراً بالحامية جهة الشمال الى كوروسكو وبعث بفرقة من عساكره عددها مائة وخمسون جندياً لتسبقه الى حيث ينتهي في رجعته وبعد أيام يرسل ما بقي منها طبق الأوامر التي وردت اليه وفي الظن أن إخلاء المدينة لايتم بدون كفاح وقتال وسفك دماء ومع هذا كله فن أمل الحاكم أن يتم له إنقاذ الحامية جميعها وإرسالها الى كوروسكو قبل وصول رسل محمد أحمد تحقق أن أربع فرق من العساكر الإحتياطية (باشبزوق) مع خمسمائة عسكري مصري (كلهم من حامية بربر) إنحازوا الى أشياع محمد أحمد ويخشىٰ أن الثائرين بعد استيلائهم على بربر يحاصرون جملة مدن في وقت قريب.

قالت جريدة التايمس الانجليزية : ثارت جميع القبائل وأهالي البلاد فيما وراء بربر ولا يمكن ان يوجد رسل يجرأون على المسير الى خرطوم لتوصيل المراسلات

وان عرض عليهم من النقود أعلى ما يمكن من المبالغ، وقالت تلك الجريدة ان الاخبار الأخيرة الواردة من مصر تؤكد لنا ان قلوب الأهالي (المصريين) طافحة من الغيظ والحنق على الانجليز وانه لا يوجد في مصر من يحب ان يرى انجليزياً يخطر في بلاده (هذا الذي قلناهُ مراراً فالحمد لله أقره الخصم وارتفع النزاع) ثم اتبعت كلامها هذا بأنه لايوجد في مصر الآن شيء يصح ان يخبر عنه سوى (اختلال واضطراب) فما عليه مصر اليوم يمكن ان يعبّر عنه بهاتين اللفظتين وان المخابرات مع خرطوم أصبحت من قبيل المستحيلات، ثم قالت نعم ان الحكومة الانجليزية صرحت بأنه لايمكنها إرسال عساكر الى السودان قبل مضي أربعة أشهر، ولكن عليها أن تنظر في واسطة أخرى لإزالة ما جلبته على مصر من الفوضى.

أنجح الوسائط ترك البلاد لأهلها وتفويض الأمر فيها لصاحب الحق القانوني على تلك البلاد ومن له المنزلة العليا في قلوب جميع الأهالي، فتسكن له القلوب وتخمد نيران الفتن، ولعل التايمس بعد أيام قلائل ترجع الى موافقتنا على تأكيد بغض المصريين للانجليز وقد تنكره علينا من خمسة وعشرين يوماً وتبالغ في ميل الأهالي لسيادة الانجليز عليهم.

* ذكرت الجرائد ان جاسوساً وقف على عزيمة عثمان دجمة في جهة سواكن فجاء وأخبر بأنه مستعد ان يزحف بألفي مقاتل الى هندوب لقطع الطريق وانه بعد ذلك لايقف دون الهجوم على حدود سواكن بشدة عنيفة.

* جاء في جريدة التان ان دخول الثائرين في مدينة بربر وان لم يتحقق الآن بطريقة رسمية إلا ان ما أخبر به وكيل انجلترا السياسي في تلك المدينة يقطع كل ريب ويزيل كل شك في ان الخطر نازل بها لا محالة فإن قسماً من حاميتها فرّ لطلب النجاة والباقي انضموا الى صفوف الثائرين جهرة وأنا نرى حلول أشياع محمد أحمد بمدينة بربر يهيئ لهم أن يطئوا قلب مصر العليا وليتهم يكتفون بهذا ولكن ستطمح أنظارهم الى مصر السفلى. وان ضباط الحامية المصرية في أسوان وردت اليهم مكاتيب من

أحد زعماء الثورة بناء على أمر محمد أحمد ينذرهم فيها بسوء العاقبة ويتوعدهم بالقتل والذبح ان لم يتركوا المدينة قبل عشرة أيام، ثم قالت تلك الجريدة إذا اجتمعت قوة محمد أحمد عند الشلال الأول فلابد حينئذ أن ينظر في كيفية الدفاع عن القاهرة !!!

هذا الذي كنّا نتوقعه ونخشاه من قبل وأشرنا اليه مراراً، جلته الحوادث ونطقت به الجرائد الفرنسية والانجليزية ولم يبق إلا إلتفات تلك الجرائد الى دواء هذه العلة وعلاج هذا الداء الذي كاد يكون عضالاً وتنبه حكوماتها للنظر في ذلك بعين الدقة والتبصر وترشدها الى ان العلاج الذي ليس وراءه علاج انما هو تسليم الأمر لذوي الحق فيه والعارفين بطرق تصريفه من المسلمين، وستراها بعد أيام تتبع هذا السبيل المستقيم.

فرصة سانحة

دخل الانجليز مصر فزعموا أن ما كان موجوداً من الجند الأهلي نفخت فيه روح العصيان فلا يصلح للأعمال العسكرية فطردوه ثم اختاروا من الأهالي جنداً جديداً في عدد قليل واستلم الرئاسة عليه ضباطهم البارعون وبعد أشهر أثنوا عليه بحسن النظام وسرعة النجاح وطنطنت بالإطراء عليه جرائدهم ولم نلبث بعد هذا أن رأيناهم يسارعون الى طرد الجند الجديد، فهموا بذلك مراراً مع العزم على عدم استبداله بآخر من أبناء الوطن وكلما صدتهم بعض الموانع السياسية عن همهم، كتموا أمرهم زمناً ثم عادوا للاشارة اليه تعللاً بما ينسبونه الى بعض العساكر وهو من دسائسهم وآخر الأمر خفتت أصواتهم وأحسوا بعجزهم عن الاستبداد بطرد الحامية الوطنية وعلموا ان لابد فيه من مشورة الدول.

في هذه الأيام رغبوا الى الدول في عقد مؤتمر للنظر في قانون التصفية وتحويره ووضع نظام للمالية المصرية يخفف عنها بعض أثقالها فصرحوا في لائحتهم المرسلة الى حكومات أوروبا بضرورة طرد الجند الوطني رعاية للاقتصاد وبلزوم تخفيض فائدة الديون المصرية.

ان الانجليز من ست سنوات جعلوا بعض الضيق في المالية المصرية ذريعة للانقلاب العظيم الذي حصل في مصر وألزموا الدولة العثمانية بمجاراتهم في ذاك

الانقلاب ودافعوا عن الدائنين وزعموا من المحال تنقيص شيء من الفوائد وطلبوا من الحكومة المصرية إذ ذاك تقليل عدد حاميتها ليتوفر من النقود ما يصرف لحقوق الدائنين واليوم عطفوا على المصريين (عطفة الأب الرحيم) وبسطوا أيديهم الى الدول يلتمسون مساعدتها لتخفيف الفائدة مع محو حاميتهم الوطنية. أليست البلاد المصرية كسائر بلاد العالم تحتاج الى حامية تحفظ حدودها من الخارج وتصون داخلها من الغوائل التي لا يأمن طروقها حكومة من الحكومات. إن في تلك القسوة الأولى والمرحمة الثانية لسراً عظيماً.

للانجليز في مصر مطامع من زمن قديم يعدون سلطتهم عليها من ضروريات شوكتهم في الهند وفي خلدهم أن المصريين لو كانت لهم ثروة مالية وقوة عسكرية عظيمة فإنهم يمانعونهم فيما يريدون ببلادهم، فضيقوا على المالية في تلك الأوقات وألجأوا الحكومة لتمزيق قوتها العسكرية ليحصل الضعف في القوتين المالية والجندية فتمهد لهم طريق ما طمحوا اليه وكان هذا التدبير سبباً في الإنقلاب الذي تبعته هذه الحوادث الهائلة وبعدما فتح لهم بضعف الحكومة سبيل المداخلة في مصر طفقوا يسعون بما جبلوا عليه من الهوينا في المضي الى مقاصدهم لإيجاد عنوان غير التملك يعنون به إقامة عساكرهم ومأموريهم في تلك البلاد زمناً طويلاً، ويكون وضع ذلك العنوان برأي الدول تملصاً من الوعد الذي وعدوها به مع ترقب حوادث السياسة في أوروبا لعل حادثة منها تساعدهم على ابدال العنوان بما هو المطلوب لهم ورأوا من أحسن الوسائل لدعوة الدول اليهم عرض المسألة المالية.

ولما كان من المحتوم في آرائهم بقاء عساكرهم في الديار المصرية فلابد من طلب وسيلة لطرد الجند المصري حتى تكون الحاجة الى عساكرهم قائمة، هذه طريقة ربما خفيت على المصريين وغفل عنها كثير من الأوروبيين إلا أنها من الطرق المتعارفة عند الانجليز وهي التي سلكوها في البلاد الهندية ونالوا بسلوكها السلطة المطلقة على تلك الأقطار الواسعة بدون سفك دماء غزيرة ولا مقاومة فتن شديدة.

دمر الانجليز (دخلوا بلا استئذان) على الهنديين في أراضيهم وانبثوا بينهم فتمكنوا من تفريق كلمة الأمراء وإغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال والانفصال عن السلطنة التيمورية فتمزقت المملكة الى ممالك صغيرة ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه فصارت الأراضي الهندية الواسعة ميادين للقتال واضطر كل نواب أوراجا الى المال والجنود ليدافع بها عن حقه أو يتغلب بها على عدوه، فعند ذلك تقدم الانجليز بسعة الصدر وانبساط النفس ومدوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين وبسطوا لهم إحدىٰ الراحتين ببدر الذهب وقبضوا بالأخرىٰ علىٰ سيف الغلب. بدأوا قبل كل عمل بتنفير أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الأهلية ورموها بالضعف والجبن والخيانة والاختلال ثم أخذوا في تعظيم شأن جيوشهم الانجليزية وقوادها وما هم عليه من القوة والبسالة والنظام حتى اقتنع كل نواب أوراجا بأن لا ناصر له على مغالبه إلا بالجنود الانجليزية فأقبل الانجليز على أولئك السذج يضمنون لكل صيانة ملكه وفوزه بالتغلب على غيره بجنود منتظمة تحت قيادة قواد من الانجليز ويكون بعض الجنود من الهنديين وبعضها من البريطانيين وما على الحاكم إلا أن يؤدي نفقتها ثم خلبوا عقول أولئك الأمراء بدهائهم وبهرجة وعودهم ولين مقالهم حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر لتدفع شرّ بعضهم عن بعض وصار الانجليز بذلك أولياء المتباغضين وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التي أعدوها للحماية عنها ففرقة سموها (عمرية) وأخرىٰ سموها (جعفرية) وغيرها سموها (كشتية) ارضاء لأهل السنّة والشيعة والوثنيين.

ولما فرغت خزائن الحكام وقصرت بهم الثروة عن اداء النفقات العسكرية فتح الانجليز خزائنهم وتساهلوا مع أولئك الحكام في القرض وأظهروا غاية السماحة، فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة وبعضهم بدون فائدة وينتظرون به الميسرة حتى ظن كل أمير ان الله قد أمده بأعوان من السماء وبعد مضي زمان كانوا يومئون

الى طلب ديونهم بغاية الرفق ويشيرون الى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف فإذا عجز الأمير عن الأداء قالوا إنا نعلم ان وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم ونحن ننصحكم أن تفوضوا الينا العمل في قطعة كذا من الأرض نستغلها ونستوفي منها ديوننا وننفق من غلاتها على الجيوش التي أقمناها لكم ثم الأرض أرضكم نردها اليكم عند الاستيفاء والاستغناء وإنما نحن خادمون لكم. فيضعون أيديهم علىٰ غضروات[1] الأراضي وفيحائها وفي أثناء استغلالها يؤسسون بها قلاعاً حصينة وحصوناً منيعة كما يفعلون ذلك في تكن (أماكن إقامة العساكر) عساكرهم على أبواب العواصم الهندية، وفي خلال هذا يفتحون للأمراء أبواباً من الإسراف والتبذير ويقرضونهم ويقتضون قرضهم بالقيام على أراض أخرىٰ يضمونها الىٰ الأولىٰ ثم يحضون نار العداوة بين الحكام لتنشب بينهم حروب فيتداخلون في أمر الصلح فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه ليتنازل لهم الثاني عن قطعة من أراضيه وهم في جميع أعمالهم موسومون بالخادم الصادق والناصح الأمين لكل من المتغالبين.

وبعد هذا فلهم شؤون لا يهملونها في إيقاع الشقاق بين سائر الأهالي لتضعف قوة الوحدة الداخلية ويخرب بعضهم بيوت بعض حتى اذا بلغ السير نهايته واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم وغلبت الأيدي فلا يستطيع أحداً حراكاً. ساقوا الحاكم الى المجزرة بسيوف تلك العساكر التي كانت حامية لهواقية لبلاده وكانت تشحذ لجز عنقه من سنين طويلة وينفق على صقالها من ماله ثم خلفوه على ملكه وكانوا يميلون بقوتهم الى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك فيخلعون المالك ويولون الطالب على شريطة أن يقطعهم أرضاً أو يمنحهم امتيازاً فيحولون الملك من الأب للابن ومن الأخ لأخيه ومن العم لابن أخيه وفي الكل هم الرابحون. هذا سيرهم في الهند وهو على بعد من مراقبة أوروبا. ما فاجأوا أحداً

---

١ ـ معناها أخصب الأراضي.

بحرب وما اختطفوا ملكاً بقوة مغالبة بل ما أعلنوا سيادتهم على مملكة صغيرة ولا كبيرة إلا بعدما أيقنوا أن لا قوة لحاكمها ولا أهليها ولا بما تطرف به أجفانهم.

أولئك الانجليز باقعة[١] العالم وأحبال الحيل يريدون اليوم طرد العساكر المصرية وأرض مصر لا تحرسها الملائكة فلا تستغنى عن حامية فإن تم ما أرادوا زينوا لبعض ذوي السلطة في مصر أن يطلب منهم جنداً انجليزياً يكون خادماً له وحافظاً لملكه فإن لم يقبل داروا بحيلتهم تحت أستار التمويه على كل من له حق في الولاية على تلك البلاد يعرضونها عليه حتى يعثروا بمن يقبل نصحهم أو غشهم ذهولاً عن حقيقة القصد فيقيمونه حاكماً خلفاً لمن لم تسمح ذمته بالقبول وتكون رغبة المغرور حجة لهم عند أوروبا. هذا سرّ انقلاب الإنجليز على الجند الوطني وقدحهم في سيرته بعد الثناء علىٰ حسن استعداده وسعيهم الى طرده بالأدلة الواهية والعلل الواهنة.

أما المؤتمر فالداعي اليه ان العدوان في هذه الأزمان لا يأتيه المعتدون كما كان في الأحقاب الخالية مشوّه الوجه منكر الصورة يعرفه الذكي والغبي بل من أراد عدواناً فلابد ان يحفّه بمواكب من الأدلة وحفال (جمع) من البراهين وهو ما يعبرون عنه بالحقوق والمصالح وما أصعب الوقوف على كنه العدوان وهو في هذه الحيلة وتلك الهيئة الجميلة.

يريد الانجليز عقد المؤتمر ويرغبون قصر المداولة فيه على المسألة المالية ليضمنوا ديون القطر المصري ويكفلوا للدائنين أداء حقوقهم ويأخذوا على أنفسهم عهدة الإنفاق على الإدارات المصرية مدة من الزمان لترخص لهم الدول الإقامة في وادي النيل الى أمد، فيكون تفويض الدول حجة لهم في التصرف وإدارة شؤون الحكومة المصرية ما دام السلم مظلاً بلاد أوروبا فإذا حدث حادث حرب في الدول الأوروبية وما هو ببعيد الوقوع تربعوا في تلك البلاد وأناخوا بكلاكلهم وضربوا

---

١ ـ باقعة بمعنى داهية من الدواهي.

بجرانهم على أراضيها وألقوا عصاهم. هذا سر شفقة الانجليز على المصريين وهو سرّ رغبتهم في وقوف المؤتمر عند شؤون المالية.

هذه المصيبة العظمىٰ والداهية الدهماء التي تتحفز لتنقض على المصريين، هل تمس بحفيفها جانب ألمانيا، كلا. فإن منافع ألمانيا الحقيقية لا تعلق لها بالمسائل المصرية وهي في الشغل بما هو أهم منها وليست دولة استراليا بأقرب المصائب المصرية من ألمانيا على ان كلاً من الدولتين ليس في استطاعتها تأييد فكرها بالعمل، لو مست الحوادث المصرية شيئاً من مصالحها فإن مواقع الدولتين لا تساعدهما على الاضرار بدولة الانجليز أما إيطاليا فهي ساكنة الجأش بما تؤمل نواله في أفريقيابمساعدة انجلترا، نعم لهذا السيل الجارف تدفق على بيت محمد على باشا فيخشى على أركان ذلك البيت لو لم يتدارك أمره !!!

أما الدولة العثمانية فلو حولنا النظر عن حقوقها الثابتة في الأراضي المصرية من وجوه كثيرة فليس يخفى علينا أن الولاية على تلك الأراضي هي الركن الأعظم للسلطة العثمانية في سوريا وقسم عظيم مما يتصل بها من آسيا الصغرىٰ وفي الحجازواليمن. فن المفروض على العثمانيين أن يبذلوا وسعهم لصيانة مصر دفاعاً عن حقوقهم المقررة وحفظاً لشوكتهم في معظم ممالكهم ولا يسوغ لهم شرائع الملك أن يفرطوا في المسألة المصرية لا في جزئي منها ولا كلي فإن مصر عقدة تتصل بها أطراف السلطنة العثمانية، فإذا انحلت، فقد انحلت «والعياذ بالله» سائر العقد.

ليس لعثماني أن يتوسد وسادة السيادة البسماركية الناعمة فإن الحاجات الطبيعية والدواعي الجوهرية هي الحاكمة على الأمم ولا اعتبار في السياسة بالأطوار العارضة ربما يهم بسمارك ان يشتري بمصلحة العثمانيين وداد الانجليز لتأييد سياسته وترك فرنسا منفردة بلا حليف وله أن يلق بمصلحة العثمانيين في أيدي الروس إذا مست الحاجة ليدفع عن نفسه شراً يتوقعه، وليس لبسمارك أدنىٰ غاية في الاتصال بالعثمانيين إلا بهذا المقدار يفدى بهم منفعة من منافعه ومن نظر الى احوال

الأمم بما تقتضيه طبائعها، حكم بذلك حكماً قاطعاً.

نعم من الدول دولة فرنسا كانت لها مزايا في أرض مصر أشرفت على الزوال وليس بالسهل علينا ضياعها ولها أملاك واسعة فيما وراء البحر الأحمر ولا تصان سلطتها علىٰ تلك الأملاك اذا نشبت أظافر الانجليز في أحشاء مصر بأي اسم كان وتحت أي عنوان، فأصول السياسة الفرنسية لا تسمح للفرنسيين بالتساهل في المسائل المصرية. ودولة الروس تسابق دولة انجلترا في النصر والغيب بشرقي آسيا وتنافس الألمان في القوة بأوروبا ولها مع ألمانيا مزاحمات خفية ثابتة في عناصر الأمتين لا يزيلها هذا التآلف الظاهري، فقد يكون من أحكام سياستها الانضمام الى دولة فرنسا لمضايقة انجلترا في البلاد المصرية، بل النظر في طبيعة حال الأمتين يقضي بلزوم اتحادهما في المشاكل الأوروبية أيضاً وربما تكون هذه المسألة بداية الإرتباط بين هاتين الدولتين.

ولعل هذه الفرصة لا تفوت العثمانيين ولا تحجبهم الحوادث الماضية عن إدراك هاته النكتة وهي ان الروسيين هم أشد الناس حاجة الى الاتحاد مع الدولة العثمانية في هذه الأوقات لما فتح لهم من أبواب للغنم في آسيا ويرون الألفة مع العثمانيين أعظم عضد لهم في نيل مطامعهم بتلك الأقطار، بما للسلطان من المنزلة العليا في قلوب مسلميها ولا تأخذ العثمانيين رجفة من ارعاد الانجليز وأبراقهم فليس لهم سلاح يشهرونه على الدولة العثمانية سوى الترهيب. ومن المحال أن يفاتحوها بحرب وإلا تقلصت سلطتهم عن البلاد الشرقية بأسرها فإذا ثبتت الدولة في مطالبها واشتدت في إرجاع حقوقها لجأ الانجليز للخضوع والاستكانة اليها وهذا من البديهيات الجلية عند كل من وقف على أحوال الإنجليز في الهند وعلى مكانة السلطان العثماني في قلوب الهنديين عموماً والحكم لله يفعل ما يشاء.

العروة الوثق

لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحياناً ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم ويتفق معهم في مصالح بلادهم ويشاركهم في المنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما نميل إليه ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً من تطاول الأجانب عليهم والإفساد في بلادهم وقد نخص المسلمين بالذات لأنهم العنصر الغالب في الأقطار التي غدر بها الأجانب وأذلوا أهلها أجمعين واستأثروا بجميع خيراتها وسنكتب مقالة مفردة في هذا الباب إن شاء الله.

اسماعيل باشا

لهج كثير من الجرائد الأوروبية في هذه الأيام بذكر اسماعيل باشا خديوى مصر السابق ومنها جريدة (البال مال جازيت) قالت: إما أن تستولى انجلترا على مصر أو تسلم الإدارة فيها لأسماعيل باشا، ونقل أحد محررى هذه الجريدة عن مدام توفيكوف وهي صديقة شهيرة لمستر جلادستون أنها قالت له أن أحسن وسيلة لتقرير الراحة في مصر وجعل مصر للمصريين هو إعادة اسماعيل باشا إليها وذكرت إحدى جرائد ألمانيا أن كلامها يكاد يكون رسمياً.

أما نحن فسنبين رأينا في هذه المسألة ونبدى فكرنا فيما يتعلق منها بالسلطان العثماني والطريقة التي ينبغي أن يسلك فيها وما يرتبط منها بمصلحة المصريين وما يجب على انجلترا أن تأخذ به لو كانت كما تزعم تريد التخلص من ورطة المسألة المصرية ولا نظنها صادقة.

نجد

كتب إلينا أحد أهالى نجد رسالة طويلة يحكي بها ما فعله قنصل الأنجليز مستر (كورنل بيلى) الذي كان قنصلا لدولته في خليج فارس ومقره ببندرا بوشهر وماتوسل به للمداخلة في بلاد نجد في سنة ١٢٨٠ أيام كان أمير نجد الأمير فيصل، وقصد برواية هذه الحادثة تنبيه إخوانه المصريين لشدة المشابهة بين تلك الوسائل التي تشبث بها القنصل للتداخل في سواحل البلاد النجدية وبين ما اتخذه الأنجليز وسيلة للهجوم على أرض مصر، إلا أننا لا نذكرها الآن لقدم عهدها وسنفرد لها ولأمثالها كتاباً مخصوصاً نفصل فيه ما فعل الأنجليز في البلاد التي حاولوا الاستيلاء عليها ولم يستطيعوا مع استمرارهم في طلب ما يمكنهم من مقاصدهم ونطبع هذا الكتاب ونوزعه مجاناً!!

الصُّحف الهندية

جاءت إلينا الجرائد الهندية فسرّنا اعتدال سيرها في خدمة أوطانها وزادنا سروراً عنايتها بترجمة مقالاتنا المتعلقة بأحوال الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً ونقلها من اللسان العربي إلى اللسان الهندي فلله شكرها على ما صنعت ونخص من بينها جريدة (اخبار دار السلطنة) التي تطبع في كلكته وجريدة (مشير قيصر) التي تطبع في لكهنو وهذا كان أملنا في ارباب تلك الجرائد وليس بغريب على غيرتهم الدينية والوطنية.

هذا ما كان من مسلمي الهند وهم في قبضة الأنجليز من مدة تزيد على قرن وإننا نأسف غاية الأسف مما بلغنا عن بعض المصريين من انهم يمتنعون عن استلام ما يرسل باسمائهم من أعداد هذه الجريدة خوفاً ورهبة. مع أنهم أحق الناس بالأقدام على أمور عظام في هذه الأوقات فإن الآمال في خلاصهم قوية والوسائل إليه قريبة فكيف يصل ببعضهم الخوف إلى الامتناع عن استلام جريدة هم أولى بها من غيرهم إذ أهم ما فيها الدفاع عنهم.

صفقة خاسرة

كتب إلينا صديق فاضل من أخلص المؤمنين بالقطر المصري قال:

إن مأموري الانجليز الآخذين بزمام بعض الوظائف المصرية لا يزالون يسعون في تغرير الأهالي والتحيل عليهم ودس الدسائس بينهم بطرق مختلفة من الترغيب والترهيب كل ذلك ليرضوهم بطلب الحماية الانجليزية إلا أن أولئك الأبالسة لا يلاقون في سعيهم إلا خيبة لأن العلماء وأعيان البلاد قد أحاطوا بغايات الانجليز ومقاصدهم وعلموا أنهم لا يقصدون بالبلاد إلا الشر كما لم ينلها من حلولهم إلا الضر خصوصاً وأن روح الحمية والغيرة الدينية والوطنية صار لها السلطان الأعظم على نفوس أهالى القطر المصري فاشتدت أنفتهم من تسلط الأنجليز في ديارهم وقاوموا مطالبهم بعزائم ثابتة وقلوب غير واجفة وهذا هو ظننا بل يقيننا في أبناء القطر المصري علمائهم وأمرائهم وحكامهم وأعيانهم وأوساطهم بل وسائر طبقاتهم أن لا تسمح نفس واحد منهم بمجاراة الانجليز رغبتهم وأن لا يطمئن قلبه بالدخول تحت سيادتهم، بل ببقاء شخص منهم في بلاده وعلى مرمى نظره فإن وجد بينهم شخص يتخذ إلهه هواه ويميل مع الباطل فهو ممن يعرف المصريون سيرته في إفناء ليله وأطراف نهاره فلا يثقون به، ومما أخبر به الصادق أن كليفور لويد يجتهد لتسليم رئاسات البلاد إلى أناس من طبقة يتوهم فيها سقوط

الهمة وسخافة الرأي ليتمكن بهم من إجراء بعض مقاصده، لكن لم يتسن له نجاح ولئن نجح في تحويل الرئاسات من نصابها فلا يلاقي ممن يسلمونها إلا مثل ما لاقي من غيرهم، فإن الجميع مصريون يفضلون ظلم ابناء وطنهم على عدل الأجنبي، فكيف لو كان الأجنبي لا يقاس بظلمه ظلم، ثم قال صديقنا الفاضل زاد الويل أضعافاً على الأهالي بالمجالس المحلية فإن الانجليز لم يراعوا في تشكيلها مصلحة الرعية وإنما وضعوا في جوهرها ما يضيق عليها سبل المعاملة إخماداً لنفوسها لينالوا حظهم من السيادة عليها ولم يعلموا أن بخس الحقوق من أشد موجبات العقوق وفي الأمثال العربية (زر كلبك للطاق يأكلك) أي ضيق عليه. أما الفلاحون فأحوالهم سيئة ضيق وضنك وفقر وإعدام مما يفتت الأكباد ويذيب القلوب ويفطر الجماد، الحكومة مضطرة لطلب الأموال وملجأة إلى تكليف الفلاحين بدفع ما عليهم، والأجانب قائمون على اقتضاء ديونهم منهم والكساد ورخص أسعار الحبوب وثمرات الزراعة لم يجعل في المحصولات وفاء بضرورات المعيشة فضلا عن اداء المطلوبات فكيلة القمح بستة قروش والذرة بأربعة وعلى هذا يقاس. ومن ثم تسمع كل يوم تنعاب أغربة الدلالين في فناء ديوان الحقانية على خراب بيوت الفلاحين، هذا ينادي على بيع أراضيه بأسرها وهذا ينعق عليه ببيع بعضها، والآخر بالحجر على أملاكه والحكومة لاتني في طلب ضرائبها قبل أوان المحصولات، أما أحوال المدن فليست بأسعد من أحوال الأرياف خصوصاً من تعديات الأجانب على سكانها، فالمنازعات والمخاصمات بين الأجانب والوطنيين يقضي فيها على الوطني بالتغريم والجزاء ولا يؤخذ على الأجنبي في شيء وإن كان هو المعتدي، وإن سأل الوطني اين خصمي فيقال له أنه يحاكم في محل آخر مع أنه لم يذهب إلى مقام المحاكمة رأسا واكتفى في فصل الدعوى بأحد الخصمين وهو طرز من الحكم جديد. هذا بعض آثار العدالة الانجليزية، وجاء في خبر صديقنا هذا رواية كثير من المظالم التي اصيب بها أهل القري من جراء التداخل الانجليزي في إدارات الحكومة ضربنا عن ذكرها

رعاية لجانب الاختصار بعد وضوحها عند أولي الأمر من المصريين. أما الأمن فلم يبق له أثراً وأما النظام فقد انقض بناؤه واقتلع أساسه واخترن الانجليز انقاضه في خزائن الآثار القديمة فقويت عصابات اللصوص وجاهروا بالنهب والسلب وهذا خبر تؤكده روايات الجرائد الوطنية المصرية عربية وأفرنجية فإن جميعها يشتكى الملل والسآمة من رواية أخبار السوء كل يوم. إلا أن من غريب الوقائع هجوم لفيف من السارقين على قرية نشرت ونواحيها من مديرية الغربية وقتلهم واحداً وأربعين رجلا، فإن خبر هذه الواقعة إن صح كان دليلا على بلوغ الاختلال إلى درجة فوق ماكنا نتصور نسأل الله السلامة كما نسأله إبدال عسر المصريين باليسر وهو على كل شيء قدير.

أخبار سياسية

* قبلت الحكومة الفرنسية أن تدخل في المؤتمر لكن على شرط أن لا تذهب إليه مغلولة اليدين غضيضة الطرفين وأن لابد قبل ذهابها إليه من مخابرة بينها وبين انجلترا فيما يلزم أن يكون موضوع البحث في ذلك المؤتمر ـ وقد أجمع السياسيون في فرنسا على ضرورة امتداد البحث إلى ماوراء المالية من إدارة البلاد المصرية وإقرار الراحة فيها.

* الجرائد الانجليزية تظهر خوفها من تشديد فرنسا وتستنجد أوربا وترى أن تدخل الدول جميعها في مصر وإقامة مراقبة دولية لحكومتها لاتمتاز فيها دولة عن دولة خير من مداخلة فرنسا وحدها مع انجلترا وإن عارضت ذلك جريدة التايمس وحدها. وفي بعض الجرائد الروسية أن انجلترا لا يمكنها أن تضع حمايتها على مصر لظهور عجزها عن إدارة البلاد بعد احتلالها سنتين وهي مطلقة التصرف لا مزاحم لها، وبعد العجز لجأت إلى دول أوربا. أما دولة فرنسا فلا يهمها إعادة المراقبة المشتركة بين الدولتين ولكن يهمها أن لا تختص انجلترا بالامتياز في مصر.

* ذكرت كثير من الجرائد الألمانية نقلا عن مصدر يوثق به أن الباب العالي لم يقبل الاشتراك في المؤتمر إلا على شرط أن تكون المداولة فيه غير واقفة عند حد المالية بل من اللازم أن يكون موضوع نظره لائحة جرانفيل المرسلة إلى الدول في

يناير سنة ١٨٨٣ (عندما كان دوفرين في القاهرة) وعلى هذا فالدولة العثمانية تطلب النظر في المسألة المصرية بجميع فروعها لاتصال بعض أجزائها ببعض، وفي جريدة التان أن الباب العالي بعد مخابرة الدول والاتفاق معها خصوصاً دولة فرنسا أرسل تلغرافاً إلىٰ موزوروس باشا السفير العثماني في لندن بأنه مستعد لقبول المؤتمر علىٰ شرط أن يكون بحثه في الشئون المالية والسياسية والإدارية.

في جريدة (جازيت ناسيونال) الألمانية أن سير فرنسا في المسألة المصرية موافق لسير جميع الدول لاسيما ألمانيا وقالت أن انجلترا أصبحت منفردة وهذا مما لا يسر ألمانيا.

استفيد من خطاب المستر جلادستون في مجلس البرلمان أن لنواب الدول عند اجتماعهم أن يبحثوا فيما سوى المسألة المالية إن أرادت الدول ذلك وإن كان هذا يناقض ما صرح به جرانفيل في جلسة أخرى ولما سئل جرانفيل عن هذا التناقض أعرض عن الجواب وقال إن الحكومة مستعدة لإنقاذ جوردون (هذا مما يضحك).

أخبار السودان تشعر بالشدة فقد أخبر الحاكم في دنقلا أن رسلا بعثوا إلىٰ الخرطوم فعادوا ولم يتمكنوا من الوصول وقالو ان الثائرين محدوقون بجوردون من جميع الجهات. في برقية من القاهرة أن الثائرين مجتمعون في عيون ابي سعيد على القرب من أسوان وأن زعماء جيش محمد أحمد طلبوا من حامية دنقلا أن تسلم بعد ثلاثة أيام وإلا فتكوا بهم.

جرت مشاجرة بين بعض العساكر الانجليزية وبين العربان النازلين على شواطيء بحيرة مريوط وقتل فيها عدة أشخاص.

الأخبار متواترة بأن عثمان دجمة يحاول الهجوم على سواكن وينازل بعض القبائل التي لم تذعن لدعوة محمد أحمد على القرب من طمانيب.

* المستر جلادستون وعد بان يرسل جيشاً إلىٰ السودان لكن لابد من مراعاة الفصول والأهوية ثم أظهر تجافيه عن حرب السودانيين الذين يدافعون عن حريّتهم وبلادهم.

المسألة المصرية دولية

إنا أنذرنا الانجليز خطراً قريباً على الهند ونبهنا في أول عدد صدر من جريدتنا على أن تفيؤ التركمان في مرو لظل الحكومة الروسية باختيارهم ربما يحمل تركمان سرخس على الإقتداء بهم وأشرنا إلىٰ ما يتبع ذلك مما عاقبته نكال على الانجليز، واليوم وقع ما توقعناه فاستولت الروسية على سرخس وتاخمت بحدودها حكومة الافغان وارتعدت فرائص الانجليز وغشيهم الفزع والقلق واعولت جرائدهم نحيباً ورددت نشيجاً وأحست بقرب الأجل ولم يسكن روعهم ماذكرته جريدة بترسبرج الشبيهه بالرسمية من أن سرخس اسم يشترك بين مدينتين قديمة وحديثة وإنما دخل في حوزة الروس أولاهما فإن الانجليز يعلمون أن المدينتين متصلتان لا يفصلها إلا ترعة صغيرة (نهر تجند) عرضها عشرة أذرع بالتقريب، على ان سرخس التي حكم مهندسو حرب الانجليز أنها باب الهند من طرف الشمال وأنه ممر فاتحيه من زمان قديم ومن طريقها طرق الهند اسكندر الأكبر ونادر شاه الإيراني، وأن وصول الروس إليها مما يخرق سياج الهند إنما هي سرخس القديمة. ومما زاد الانجليز فزعاً واضطراباً أن التركمان النازلين بتلك المدينة وما يليها هم الذين عرضوا أنفسهم على حكومة الروس طوعا واختيارا وبعثوا وفداً منهم لينوب عنهم في عرض خضوعهم على البرنس دوندكوف حاكم ماوراء بحر الخزر

من الولايات الروسية ووصل الوفد إلىٰ عشقاباد وأقام بها ينتظر قدوم البرنس إليها.

وقع الإنجليز الآن بين شرين عظيمين خطر عاجل وحتف آجل، أما الثاني، فهو أن الروسية إما أن تتحد مع الأفغانيين وتحالفهم على مطاردة الانجليز وهو الأقرب المتوقع فتصير معهم يداً واحدة على هدم أركان الحكومة الهندية الانجليزية وليس بخاف ما يضمره كل أفغاني لكل إنجليزي من الحقد والضغينة والأفغانيون قوم حرب يناطحون الموت بنواصيهم فكيف إن وجدوا مساعداً قوياً. وأما أن تميل حكومة الأفغان إلىٰ الانجليز وهو من فرض المحال فما اسرع أن تنتشب مقاتلات بين القبائل المختلفة ممن تحت حكومة الأفغان مثل جمشيدى و فيروز كوهي وبين قبائل التركمان المتاخمين لهم ويعقبها حرب بين الروس والإنجليز لأن كلا من الدولتين مضطر للمدافعة عن حليفه بل للروس حق المناضلة عن رعاياها التركمان، فإذا زحف الروس إلىٰ الأراضي الأفغانية تقطعت حبال حيل الانجليز وامتنعت عليهم وسائل الدفاع وهذا آخر حياتهم في الهند.

وأما الخطر العاجل فهو أن سماع الهنديين بخبر استيلاء الروس على سرخس يوقد فيهم نار ثورة عامة يلتمسون في أضوائها طريقاً للخلاص من الضيق والضنك الذي شملهم، وسبيلا للنجاة من الويل الذي جلبته عليهم مظالم الانجليز. هذا يكون كما اشتعل لهيب الفتنة سنة ١٨٦٠ عندما وصل إليه الهنديين خبر استيلاء ناصر الدين شاه الإيراني على هراة بل انتقاض الهند على الانجليز في هذه الأيام أقرب فإن خواطر المسلمين من سكانه في هياج شديد بما شاع بينهم من دعوة محمد أحمد السوداني بل بما يمكن في أهوائهم من الميل إلى تصديقه وإن لهذه الدعوة حملة على الهند لا يقاومها تدابير دولة بريطانيا.

تريد دولة انجلترا أن تصد المسلمين عن حج بيت اللّٰه الحرام في هذا العام وربما فيما بعده حتى لا تصل أخبار محمد أحمد وتورط الانجليز في مقاومته إلىٰ مسامع

الهنديين ولكن سيحمل هذه الأخبار إلىٰ تلك الأقطار حجاج الأفغانيين والبلوجيين الذين يسلكون إلىٰ الحج طريق البصرة والكويت بل يبلغونها على وجه أبلغ مما لو سمعوها بآذانهم.

هذا تأييد إلهي للدولة العثمانية فعليها أن تنهض بعزيمة صادقة وجأش ثابت وهمة تليق بمكانتها في المغلوب وعلى السلطان العثماني أن يتذكر أنه خلف لأولئك الأسلاف العظام الذين ما اضاعوا حقاً ولا أهملوا فرضاً ويقتضى من الانجليز حقه ويسترد مصر من أيديهم ويطهرها من جراثيم الفساد ولا يقنع بما دون الحق ولا يدع لهم فيها شأناً إلا بما يساوون فيه غيرهم من الدول ولا تفوتن العثمانيين فرصة هذا الارتباك الذي سقط فيه الانجليز كما فات الإيرانيين الانتفاع بثورة الهند في الأيام الماضية لتأخر خبر الثورة عنهم وإلا لكانوا أوقعوا بالإنجليز ونالوا الغاية من ضرهم. على العثمانيين أن يتلافوا الأمر قبل أن يشب الانجليز حرباً صليبية بين الحبش والمسلمين على نفقه الحكومة المصرية، ليس للدولة العثمانية أن تتهاون في مطالبها أو تتحاشى الدفاع عن حقوقها الثابتة ولا أن تخشى في ذلك تهويل الانجليز وجلبتهم فإن كثيراً من الدول على اختلاف مقاصدها السياسية يوافقونها على تخليص مصر من مخالب الانجليز كما دلت عليه منشورات الجرائد ورواياتها عن مقاصد السياسيين من كل دولة. بل الذي يفهم من جملة مقالاتهم أنه لا توجد دولة من الدول ترضى بأن يكون المؤتمر وسيلة لاستيلاء الانجليز على مصر أو وضعها تحت حمايتهم خصوصاً دولة فرنسا ودولة الروس. وإليك طرفاً من آراء الجرائد وما تنقله عن السياسين. قال مراسل التايمس في باريس أن فرنسا لم تقبل ولن تقبل أن يكون بحث المؤتمر منحصراً في المسائل المالية ولقد أصابت فرنسا في عدولها عن طلب المراقبة المشتركة بينها وبين انجلترا ورغبتها في مراقبة يشترك فيها جميع الدول فإن في ذلك فوائد عظيمة لها ولغيرها ولا أظن أن حكومة انجلترا وافقت على ما ترغب فرنسا كما لا أظن أن فرنسا تتساهل فيما تريد وعلى هذا فأما أن ينعقد المؤتمر

ولا تكون مداولاته مقصورة على مشاكل المالية وأما لا يلتئم أصلا. ولا أمل لانجلترا إلا في التستر تحت حيلتها وهي أن ترغب إلىٰ الدول عقد مؤتمرين متعاقبين أولهما للمالية وبعده ينعقد الثاني للنظر فيما لم ينظر فيه الأول، وقال مراسل الديلى تلغراف في ويانا أن خطاب المستر جلادستون الذي القاه في مجلس النواب حرك دول ألمانيا والنمسا وإيطاليا للاتفاق في المسألة المصرية، فصرحت جميعها بأن مصالحها في مصر تقضي عليها بالعمل في حل هذه المسألة وليس من سياسة واحدة منها أن تنتظر زمناً طويلاً بعد ما مضى من الحوادث مع ما يتوقع نزوله بمصر من النكبات واستقر رأى الدول الثلاث على المداخلة في وقتها المناسب وقد انحلت ثقتها في مسلك الوزارة الإنجليزية.

وورد من فينا إلىٰ جريدة التان الفرنسية الشبيهة بالرسمية من مكاتبها برقية قال فيها أنه اجتمع على رجال عظام في تلك المدينة واستطلع أفكارهم في المسألة المصرية. فإذا هم متباينون في الرأي فمن ظن بعضهم أن الواجب على دولة النمسا أن تأخذ جانباً عن هذه المسألة وتوسع المجال لدولة إيطاليا فإنها إن فعلت ذلك ارضت إيطاليا بدون أن يلحق ضرر بمصلحتها ووافقت رغائب ألمانيا ومن رأى بعضهم أن حكومتهم لا يسوغ لها التخلى عن رعاية مصالحها في مصر مرضاة لإيطاليا، بل لا يمكنها هذا وقد أخطأ من يظن أن ليس للنمسا منافع في البلاد المصرية. ثم قال الكاتب تلاقيت مع رجل سياسي له شهرة بحرية الفكر وإصابة الرأى فمن كلامه أن دولة ألمانيا ربما تجعل المسألة المصرية وسيلة لمراضاة الإيطاليين بأن تعد لهم فيها مقاماً رفيعاً لأن ألمانيا ليس لها قوة بحرية ولا يهمها ما يجرى في البحر الأبيض إلا بطريق العرض. أما النمسا فان لها في ذلك البحر مركزاً مهماً فحالها من هذه الجهة يخالف حال ألمانيا، على أن حركات السياسة البرية لابد أن تقذف بها إلىٰ ذاك البحر وهو مما يزيدها حرصاً على تعزيز جانبها فيه وليست المسألة المصرية إلا مسألة البحر الأبيض فمن له فيه شأن يراعيه فله الشأن في المسألة المصرية وعلى حسب

درجة الأول تكون درجة الثاني. ثم أطال الكلام في بيان المنافسة السياسية بين دولة النمسا وإيطاليا وما يطمح إليه نظر كل منهما، غير أن هذا ليس مما يمنع الدولتين عن الاتفاق في معارضة الإنجليز وخفض منزلتهم في مصر والبحر الأبيض. أما جرائد فرنسا ورجال سياستها فعلى راى واحد في وجوب تحويل المسألة المصرية عن وجه كونها انجليزية إلى وجه كونها دولية أوروبية وارتاحت لهذا نفوس الدول ومالت إليه أفكارهم نسأل الله حسن العاقبة وإليه المصير.

العروة الوثق

مصادرتها في مصر والهند وفرض غرامة على قرائها!!

انعقد مجلس الوزراء المصري في القاهرة واهتم بـالبحث في شـأن (العـروة الوثق) ثم أصدر قراره إلىٰ وزارة الداخلية المصرية قاضياً عليها بأن تشتد في منع هذه الجريدة من دخول الأقطار المصرية وتراقب جولاتها في تلك الديار. فصدر أمر الداخلية إلىٰ إدارة عموم البريد يلزمها بالدقة في ذلك، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر، أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثق يغرم مبلغاً من خمسة جنيهات مصرية إلىٰ خمسة وعشرين جنيهاً (وهي غرامة جسيمة ربما دعا إليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الإنجليز في مصر!!) أما نحن فلا نظن أحداً من الوزراء المصريين له رأى اختيارى في هذا القرار، بل لا نتوهم في المستوى علىٰ كرسى الخديوية ميلا إلى مثل هذا الحكم ولا يختلج في صدورنا أن مصرياً من أى مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم، بل ولا شرقياً ممن يسكن تـلك البلاد يرى فيه جانباً من العدل.

هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم ولها سعى، بل كل السعى لخيبة آمال أعدائهم ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا القدح في عمرو فإن المقصد اعلىٰ وأرفع من هذا وإنما عملها سكب مياه النصح على لهب الضغائن لتتلاق

قلوب الشرقيين عموماً على الصفاء والوداد. تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضوارى التي فغرت أفواهها لالتهامهم. ومن رأيها أن الأشغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروق التأهب. هذا منهاج العروة الوثقى علمه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها إلىٰ الآن فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقياً مسلماً أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره. ولكنا نعلم أن حركات الآمرين في القطر المصري هذه الأيام قهرية لا يخالطها شي من الأختيار، والمدير لرحي القهر عليهم هم عمال الإنجليز.

ولا نريد ان نقول للانجليز انهم ظلموا فى الحكم، فان الجريدة لم يوجد فيها الى الآن ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والاجنبية من كشف مساتيرهم وبيان الرزايا التى اصيبت بها الديار المصرية من حلولهم، لانهم ـ الانجليز ـ الذين احسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين في الهند وإقبال الناس عليه بالاعتبار أسرعوا بجلبه إلىٰ ديوان الشرطة (الضبطية) فعند وصوله إليها يفتح له الضابط مصحف قرآن أو كتاب حديث من الكتب المشهورة ثم يشير إلىٰ آية من آيات الجهاد أو حديث مما يدعو إليه ويسأله هل أنت معتقد بهذه الآية أو الحديث، فإذا قال نعم قال له فبناء على ذلك يكون من رأيک وجوب الجهاد فينا فإذا أجابه: إنني درويش ملازم العزلة عن الناس وليس اعتقادى بهذا إلا لأنه كتاب ديني ضرب له الضابط أجل أربعة أيام أو أقل يبين فيها رأيه في الآية أو الحديث فإن مضى الأجل ولم يحرف العالم دينه ولم يبدل عقيدته ولم يبادر بإرسال تحريفه وتبديله وخروجه عن دينه إلىٰ مطبعة من المطابع ليطبع وينشر، بعثت به الحكومة إلىٰ جزيرة أندومان نفياً مؤبداً ولو رأيت تلك الجزيرة لرأيتها غاصة بأمثال هؤلاء المظلومين، فدولة الإنجليز التي تحاسب رعاياها المسلمين على خطرات قلوبهم وما يمكن أن يهجس في حديث نفوسهم لاريب أنها تعد وجود لفظ الإسلام في جريدة كافياً لمنعها عن الدخول إلىٰ بلاد لها فيها قدم ثابت أو تسعى في تثبيته بل تحسب أن من ألد أعدائها

شخصاً علق هذا الإسم من اى جنس كان. فلا غرابة في صدور مثل هذا الجور منها، غير أننا نعلن لها أن همم الرجال لا تعقدها أمثال هذه المظالم وليس يعجزنا إدخال هذه الجريدة في كل بقعة تحوطها السلطة الإنجليزية الظالمة ذلك بعزائم أولى العـزم الذين قاموا بإنشاء العروة الوثقى.

بلغنا أن بعضاً من الناس يسل سيفه ويشحذ سنانه لمـناضلة الولى الحـميم، ويقابل ثناءه بالذم ومدحه بالقدح وإحسانه بالإساءة ويواجه نصيحته بالظنة ولا نظن أن هذا منه عن عمد ولا إغراء عدو، وإنما هو لشبهة حجبت نظره عن درك الحقيقة، فإذا كشفت له الأيام عن الواقع رجع إلىٰ الندم على ما صدر منه وكانت له مثابة إلىٰ الحق وركون إلىٰ الصواب.

لا يحزنن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عـن الحكـومة المصرية من منع العروة الوثقى من دخول القطر المـصري وليـعلموا أن الحكـومة المصرية لادخل لها في هذا المنع. فإن حكومة شرقية لا تسمح لها غيرتها بمنع جريدة لا شيء فيها سوى الدفاع عن الشرقيين وإنما منشؤه حكومة انجلترا وشأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها.

تصرف الانجليز في الهند

لا أريد بما أكتب في هذا المقال القصير تنفير قلوب المصريين من سلطة الانجليز فإن لى يقيناً بأن المصريين الذين أنبتتهم ارض مصر لا يذعنون لولاية الانجليز عليهم بل يعارضونها بأرواحهم وأموالهم وهم من الغيرة الدينية والوطنية ما يحملهم على ذلك وإن رأوا من عدلها مالا يصل اليه إنصاف أنوشروان ويفضلون ولاية مواطينهم وإن مسهم منها انكئ ما يكون من الحيف اللهم إلا قليل ممن فسدت أخلاقهم وانتكست طباعهم وقليل ما هم، وإنما القصد كشف ما تدعيه هذه الدولة العظيمة من العدالة وما تختص به نفسها من الوصاية على نوع الانسان.

إذا أشرف السائر على أى بقعة من البقاع الهندية الواسعة شخص بصره ودهش لبه بما يراه من آثار عناية اللّٰه بتلك البقاع وما منحتها من الخصب الطبيعي حتى أن الأحجار الصلدة لتنشق عن الأشجار الضخمة العالية الأغصان المورقة الأفنان، تظل الواحدة منها امتداداً واسعاً من الأرض وكأن أديم الأرض بما استوى عليه من أنواع النباتات قد بسط عليه بساط من السندس الأخضر فيخيل للناظر أن سكنة هذه الأراضي في خفض من العيش وسعة من الرزق بل يظنهم أسعد من عمر الغبراء، ولكنه إذا تجاوز السهول والأودية إلىٰ المدن والقرى ضاق صدره وتفطر قلبه من مناظر سكانها. يرى آلافا مؤلفة يعبرون في الشوارع والأزقة جيئة

وذهاباً حفاة عراة بادية سوء آتهم، كاسفة احوالهم، لا يجدون رمقة من العيش. يلتمس الواحد منهم عملا من الأعمال الشاقة يقضي فيه نهاره وبعض ليله ليصيب من الأجر عليه ثلاث فرنكات في الشهر بل فرنكين ونصفاً ولا يتيسر له. ويرى هذه الحال عامة حتى في المدن التي بسواحل البحر على كثرة الأشغال التجارية فيها. ويشتد به العجب عند المقابلة بين خصب التربة وجودة المنابت وسوء حالة القائمين عليها، ويحكم حكما لا ريبة فيه بأن إدارة الحكومة الانجليزية (حامية النوع الإنساني) هي التي حرمت أولئك المساكين من التمتع بما آتاهم الله من فضله. إذا سأل سائل عن حال كثير من أولئك المعدمين الذين لا يملكون نقيراً ولا قطميراً فربما يقف على أنهم كانوا من أرباب الثروة الواسعة والمقدرة السامية وكانوا يسكنون القصور العالية ثم أصبحوا يأوون إلىٰ خصاص بل اقفاص. إذا انتقل الفكر للبحث عن السبب أوصله النظر إلىٰ أسباب كثيرة يرجع جميعها لتصرف الحكومة الإنجليزية وأشدها ظهوراً وفرة الأتاوات (خراج الأراضي) وثقل الضرائب على كواهل الأهالي فإن الحكومة قد فرضت على العاملين في زراعاتهم ولم تجعل الأداء على حسب ما تجود به الأرض كل عام بقدره ولكنها خرصت (حزرت) ما تاتي به كل أرض على درجتها من الخصب وقدرت مبلغاً معيناً تجبيه من العامل في الارض سواء سلم زرعه من الآفات أو اجتاحته الجوائح وقد يستغرق مطلوب الحكومة جميع المحصول بل يزيد عنه وأداؤه حتم لا تردد فيه على أى حال، هذا فضلا عن الرسوم المختلفة التي لا حد لها ولا نهاية وتعرف عندهم (بالتكس) أي الرسوم الغير الثابتة أو الغير المحدودة وربما أتينا على بيانها مع بيان سائر الأعمال بالتفصيل فيما بعد.

في هذا المقام تذكرت شيئاً قد يخطر بالبال، رب غني في مصر يملك مزارع واسعة وإقطاعات كثيرة (أبعاديات وجفالك) فيركن إلى ما تفيض عليه من الرزق ويطمئن قلبه من جهة معيشته ومعيشة أبنائه من بعده فيستوى عنده أجناس

الحاكمين ولا يبالي بولاية الإنجليز على بلاده حيث سلم له قوته، وهنا أشير إلىٰ طرف مما يعامل به الانجليز أمثاله في الهند لتكون له عبرة.

أراد الانجليز أن لا يكون لغيرهم يد على ملك واسع فيما تحت سلطتهم فضربوا على أرباب الاقطاعات رسوماً زائدة يؤدونها عن أراضيهم في أوقات محدودة ثم وضعوا في قانون الزراعة أنه لا يجوز للمالك أن يقيم الدعوى على مزارعيه إذا تاخروا عن تأدية ما شرط عليهم إلا بعد مُضيّ ثلاث سنوات من وقوع موضوع الدعوى وإذا خان المزارعون أو اهملوا في أعمالهم أو استأثروا بمحصولات الزراعة فلا يمكن لصاحب الملك أن يخاصمهم في مجالس القضاء إلا بعد مضى تلك المدة، إلا أنه يؤدي ما عليه للحكومة في أوقاته رغم أنفه وإن لم يؤد إليه العاملون له شيئاً. وفي قانون المرافعات عندهم أنه إذا مضى علىٰ موضوع الدعوى ثلاث سنوات لم تحصل في اثنائها إقامة الدعوى فلا تسمع. فهذا يحمل العاملين في الزراعة على الاضرار بأرباب الأملاك ولا سبيل لهؤلاء إلىٰ استخلاص حقوقهم من أولئك والحكومة لا تترك من فريضتها شيئا ولا تتساهل في طلب ادائها بوجه فيضطر الملاك للتنازل عن أراضيهم للحكومة الانجليزية (العادلة) هذه أعمال من تأخذه ريبة في خبرها فليسأل الهنديين عنها. وأن الجرائد الأنجليزية في الهند تنادي على حكومتها الهندية دائماً بوجوب التخفيف في الوطأة والرفق في السطوة وتنذرها بأن الأعمال الادارية والمالية لو دامت على نمطها هذا لا يمضى قليل من السنين حتى يشتد الضيق والضنك في عموم الأقطار الهندية ويضطر الأهالي لاصلاء فتنة عمومية لا طاقة لدولة بريطانيا بإطفائها ولكن لا يسمع الصم الدعاء.

نصيحة في الأدب

إذا صادفت ظالماً او قابلت فاجراً فلا تقل له أنت ظالم أو فاجر!!

وردت إلينا من حضرة الفاضل مولوى عبد الغفور شهباز بمدينة كلكتا وهذا نصها:

ليس الأدب كما يظن بعض الناس مجموع قصص تتلى للفكاهة أو أساطير تنقل في المسامرات أو منظوم من القريض يمتاز بحسن الاستعارة ورقة التشبيه مع مراعاة المحسنات اللفظية والمعنوية من التورية والجناسات ونحوها من فنون البديع أو منشآت ورسائل تتضمن إطراء في المدح أو مغالاة في القدح فإن جميع هذا بمجرده لا يتصل بمعنىً من معاني الأدب وإنما الادب في كل أمة هو الفن الذي يقصد به تهذيب عاداتها وتلطيف إحساسها وتنبهها إلىٰ خيرها لتجتلبه وإلىٰ ما يخشى من الشر فتجتنبه. فالأدباء في الحقيقة هم ساسة أخلاق الأمم بل هم اجنحتها نطير بهم إلىٰ ذروة فلاحها فإنهم بما يعلمون من طرق التفهيم يمكنهم أن يقربوا إلى العقول ما يبعد عن أدراكها ويسهلوا على الأذهان ما يعسر عليها النظر فيه ويعبروا عن المعنى الواحد بالطرق المختلفة فتستفيد منه العامة ولا تنكره الخاصة. فيأخذون على الظالم ظلمة ويعظونه بسوء عواقب الظلم وينكرون على الفاجر فجوره ويحذرونه مغبة الفجور حتى يردوا كلا عن غيه بما يروضون من طبعه بدون أن يقولوا له أنك ظالم أو

فاجر!! وإذا رأوا في أمتهم عوائد يأباها سليم الذوق أو وجدوا منها أخلاقا وأعمالا لا تنطبق على شريعة الفضل وقوانين الشرع عمدوا إلىٰ تغيير العوائد وتطهير الأعراق وأخذوا في ذلك سبلا متنوعة في إنشائهم تارة بالقصص والحكايات التي تمثل شناعة الرذيلة وبهاء الفضيلة وما إل إليه أمر المتدنسين بالأولىٰ وما ارتقى إليه حال المتحلين بالثانية، وتارة بقريض الشعر يخيلون فيه ما يحرك الهمم ويبعث الأفكار وينبه خواطر الكمال وإحساسات الشرف الصحيح، لا ما يوقظ الشهوة ويقوي الغرور ويخرج الأنفس عن أطوارها. والأخذ به من وجهه والدخول إليه من بابه هو الذي صعدت به الهند الأولى إلىٰ أوج المجد وبلغ به العرب اقصى غايات الرفعة وهو الذي وصل بالأمم الأوروبية إلىٰ ما وصلوا إليه مما لا يخفى على كل ذي بصيرة، وإنا نتأسف على ما نراه من أدباء المسلمين وشعرائهم فإنهم يقصرون منشآتهم واشعارهم على ما يكون عد الصفات، إما مذمومة أو محمودة ونسبتها إلىٰ شخص يريد ذمه أو مدحه، ويحصرون رواياتهم في حكايات مضحكة وقصص هزلية وبعض تواريخ ماضية بدون أن يلاحظوا تأثير ما يكتبون وما ينقلون في أفكار الأمة وأطوارها. ورجاؤنا فيهم أن يسلكوا مسالك أدباء الأمم المتقدمة أو المعاصرة لهم حتى يكون للأمة الاسلامية نصيب من فوائد ذكائهم وفطنتهم وسعة بيانهم وطلاقة ألسنتهم وأن يأخذوا في منشأتهم وأشعارهم طريقاً ينهضون فيه الهمم الخامدة ويحركون القلوب الجامدة ويحيون مكارم الشيم ويوردون الأمة مورد سابقيها من الأمم وإنا نرى بداية هذا المنهج الجديد في بلادنا ونسأل اللّٰه حسن ختامه.

أخبار سياسية

صرح اللورد جرانفيل في مجلس اللوردات بأنه ورد للحكومة الإنجليزية أخبار عن الجنرال جوردون، إلا أنه كتمها عن المجلس ولم يطلعه عليها ومع هذا فإنها مهملة من التاريخ، ولم يعهد أن مأموراً سياسياً لدولة عظيمة يخابر وزراء دولته بلا تاريخ ولعل ما ألفه الوزراء البريطانيون من التمويه على الشرقيين أصبح فيهم عادة تجرى بينهم حتى على ابناء جنسهم وفي مجالسهم العالية.

وردت أخبار إلىٰ (الديلى نيوز) مفادها أن جميع القرى في شمال بربر إلىٰ مراوى جاهرت بالثورة وانقطع الطريق إلىٰ بربر وفي خبر آخر أن من الظنون ميل مدير دنقلا إلىٰ منابذة الحكومة، فقد كان يطلب من ايام مدداً يستعين به على إخلاء المدينة وإنقاذ حاميتها. واليوم يأبي الخروج منها بل يطلب أن تبعث إليه نجدة يفتح بها البلاد السودانية فتحا جديداً، ثم استبد، بما لم يكن من حدود وظيفته، فأرسل بعض ضباط الباشبزوق[1] إلى وادى حلفا ليأتيه ببعض الذخائر والآلات الحربية ونال رسله ألف بندقية وأربعمائة ألف فشك ونهبوا مخازن الحكومة وأحضروا معهم عدداً من المدافع إلىٰ دنقلا. وربما يعاب علىٰ المدير إتيان مثل هذا العمل ويعد من باب الخيانة لحكومته المصرية ولكن ماذا يصنع بعد ما علم أن الحكومة المصرية

---

١ ـ الباشبزوق، بمعنى الاحتياطي.

خرجت عن كونها حكومة وطنية بتصرف الإنجليز فيها وإن حكامها أصبحوا لا يملكون من الأمر شيئاً فإن صدق هذا المأمور في خدمته فلا تكون فائدة الصدق إلا تثبيت قدم الإنجليز في بلاده وتاييد ملكتهم عليها فيكون في الحقيقة خيانة لوطنه وبخساً لحقوقه، فله العذر إذا انحاز إلىٰ الفئة الثائرة مادام الإنجليز حكاماً في مصر.

* يقال أن محمد احمد سار من الأبيض لفتح دكاشيا أو خرطوم ويغلب على الظن أن مسيره لفتح خرطوم فإن حل بها ما حل ببربر وشندى مع هيجان القبائل في الجهات الشمالية ترقبنا عاقبة هائلة أنذرنا بها وحذرنا منها مراراً عديدة.

* من رأي أحد المراسلين لجريدة (الديلي تلغراف) أن الجنرال جوردون سيقيم في خرطوم إلىٰ فيضان النيل، فإن لم تأته نجدة يقوى بها على الفوز بنجاح مأموريته، لزمه أن يصعد على النيل الأبيض إلىٰ خط الاستواء. وانه يمكنه بعد ذلك ان يعمل اعمالا عظيمة في الامم الافريقية القاطنة فيما وراء خط الاستواء. ثم عقب كلامه بأماني وأوهام لا تنقص عن أماني جوردون عند ماسار من القاهرة إلىٰ خرطوم.

* في برقية من اسوان إلىٰ (الديلي نيوز) أن ابن أخي حسن باشا خليفة ومعه شخص آخر فرا من بربر وكانا منطلقين إلىٰ جهة الشمال فاعتقلهما عرب روباتاب بالقرب من أبي حمد.

* يقال أن الحكومة المصرية (أو الإنجليزية) تجتهد بوسعها للمحالفة مع قبائل العرب في جنوب مصر ليكونوا لها عوناً على مدافعة سيل الفتنة إذا ارتفعت غواربها على حدود مصر الطبيعية. ولا نظن أن سعيها ينجح لدى العرب فإن ذمتهم ودينهم لا تسمح لهم بمساعدة الإنجليز في تملك بلاد المسلمين.

* أبى اللورد جرانفيل أن يرخص لنوبار باشا بالسفر إلى اوروبا مدة غيبة السير بارين فإن أصر نوبار باشا على طلب الرخصة فإن اللورد جرانفيل سيطلب من الخديوى أن يستبدله برياض باشا أو شريف باشا.

هذا كله والانجليز لا يريدون أن تكون مصر تحت سيادتهم ولا يحبون أن يرفع عليها علم حمايتهم وليس يدرى ما الغرض من السيادة والحماية سوى التصرف في الادارات والتحكم في أولياء الأمور. هذا وزير مصر الأكبر لاينال رخصة سفر إلا بإذن من جرانفيل ولا يأذن له ويرى أن له أمراً على الخديوى باستيزار فلان، فإن لم تكن هذه سيادة فما هي السيادة.

* في خبر أن الأميرال هفيت وصل إلىٰ أدوفا (من البلاد الحبشية) وأسلفنا أنه كان في نيته إغراء ملك الحبشة بإيقاد حرب صليبية يهلك بها أمم العالم فداء لشهوات الإنجليز إلا أنه جاءت الأخبار بعد هذا أن الأميرال لم يصادف سعة من صدور الحبشيين وأن الملك يوحنا وقف على خديعة دولة انجلترا ولم يظهر عناية بما أتى إليه الأميرال ولم يبعث لملاقاته أحداً بل أظهر الحبشيون غاية الخشونة في معاملة الوفد الإنجليزي حتى أنهم امتنعوا عن بيع المأكولات لهم وقد ذكرت بعض الجرائد صورة المعاهدة التي يراد عقدها مع ملك الحبشة ولا يهمنا الآن ذكرها.

* هجم جماعة من الثائرين على سواكن في التاسع عشر من هذا الشهر وزحفوا إلىٰ المدينة حتى صاروا على خمسين متراً من أسوارها ثم أطلقوا عليها النيران مدة ساعتين حتى أثر الرصاص في كثير من البيوت ولم يتحرك جيش الحامية أدنى حركة لمدافعة هذا الهجوم العنيف. ويظهر من هذا أن انتصار الجنرال جراهام في سواحل البحر الأحمر لم يكن له أثر وإنما هو قول يذكر ورواية توثر وأن غزواته لم تزد الثائرين إلا إقداماً.

* * *

* كتب مراسل التان في القاهرة أن لاصحة لما أشاعته الجرائد من القبض على مسيو أوكلى النائب الإيرلندي الذي حملته همته على السفر إلىٰ الأبيض.

في التواني الهلكة!

هذا ما ساقت إليه الحوادث المصرية وهي مفتاح الكوارث الشرقية وفيها مغلاقها. العظام من الدول في يقظة لا سنة معها، وحركة لافتور فيها مفاوضات متواصلة بينها قبل انعقاد المؤتمر، ومجادلات متلاحقة يدأب فيها السياسيون من كل أمة، بعضها بالمراسلة، وشيء منها بالمشافهة، كثرت خلوات السفراء من كل دولة مع وزراء الخارجية من سواها، يتهامسون ويتغامزون، ويسرون خلاف ما يعلنون، ويذهبون إلىٰ مالا يقصدون، وقد حملق كل بصره للآخر لعله يلمح من كان وجهه ما ينبيء عن مضمرات سره، ويصوب كل فكره إلىٰ ما يريد الآخر من قوله، عسى أن لا يفوته شيء ربما يعتل به، وجل ما انصرفت إليه قواهم تمثيل الرغائب، وتخييل المطامع، في صور أبعدها عن الحقيقة، أقربها إلىٰ الخيال. يعظمون الحقير، ويحقرون العظيم، ويجسمون الموهوم، ويضلون عن المعلوم، ويقربون البعيد، ويبعدون القريب، يذهب كل بصاحبه إلىٰ رياض من الأماني باهرة الأنوار بزهور الآمال، وما نبت بهارها إلا على حبائل من المكر، وفخاخ من الخديعة، حتى إذا راقه المنظر وخطا خطوة سقط من حيث لا يشعر. هذا يسهل صعباً. والآخر يوعر سهلا، وكل يتبع لحاظ رصيفه إذا أحس منه لحا لمقصده أبرز له ألواناً من الفوائد الموهومة ليستلفته عن مرامه، وإذا شعر منه بفكر يوصله إلىٰ ما يمسه، فتح عليه أبواباً من

الفزع ليزعجه عما يطلبه، ويشوش عليه سيره ويقطع سبيل فكره. منهم من يكسب الأصدقاء بمال غيره، ومنهم من يستفيد الرفقاء بكف شره، ومن الناس أقوام آخرون على غوارب أمواج الحوادث نائمون، تقذفهم كريبة وتتلقفهم أخرى، وهم عنها غافلون. زلزلت بهم الأرض زلزالها، ودهمتهم الخطوب بأرزائها، وتوالت عليهم المزعجات، وتناولتهم عواصف المفزعات، وهم في سكنة تخيل لناظرها أنهم على بساط الراحة مطمئنون، والمقبل على الفوز من هؤلاء وأولئك إنما هو أحزمهم رأيا وأثبتهم عزيمة وأشدهم بشئونه بصيرة.

يقول الإنجليز إنا عدونا على الهند من زمان طويل فاغتصبناه وحقت لنا الملكية عليه بما هو مقرر في شرائع القوة وقوانين التغلب. وأين ديارنا من هذا الملك العظيم في شرقي آسيا. المسافات طويلة والشقة بعيدة فلا بد أن يكون لنا في كل مكان موطىء لأقدامنا لنحتفظ بأملاكنا فلنا حق في اغتصاب جل العالم لأجل الهند، خصوصاً القطر المصري، فإن به السبيل التي لا يماثلها سبيل، وليس لنا عنها غنى وكنا في تطلع إليها من زمن قديم وكثيراً ما تمسكنا بحبال من الوسائل إليها فرثت في أيادينا بقوة حكام تلك البلاد حتى هيأت لنا حوادث السنين الأخيرة ما أحلنا دارهم وأقرنا في قرارهم. إنا ذهبنا لتقرير توفيق باشا وتثبيته على كرسي الخديوية المصرية، إلا أنه بقتال ونزال فلا تختلف صورته عن صورة الفتح، فلنا حق التملك في تلك الأقطار وقد فهم الناس أن مسيرنا إلى مصر كان لغاية إقرار الراحة وإزالة الاختلال وكأننا صرحنا بذلك عند عزمنا عليه، لكن الغرض الحقيقي إنما هو تأمين طريق الهند فتسنى لنا ما قصدنا بحلول عساكرنا في وادي النيل. فثبتنا فيما أصبنا وليس لنا أن نتركه بعد الوصول. وحيث أننا عقدنا العزم على البقاء في مصر وأضربنا عن إخلائها لزمنا ضمانت الديون المصرية وحملها ثقيل على كواهلنا فعلى جميع الدول أن تمدنا بالمساعدة وتكون لنا عوناً على تنقيص الفوائد ولا نحب أن تكون مذاكراتها معنا إلا في المالية خاصة فانا لا نرجو من مفاوضاتها فائدة. أما

سائر الشئون فعلينا تدبيرها وإلينا مصيرها. هذه أقوال تصدر عن آمال يمدون اسبابها إلىٰ برلين ويرجون أن تكون مواصلها ومعاقدها في تلك المدينة عاصمة الألمان.

أما البرنس بسمارك وهو مدير السياسة في أوروبا وبيده زمامها فيرى أن هذه فرصة ينتهزها ليستفيد صديقاً وينكى عدواً وليست له علائق سياسية تحمله على المدافعة عن مصر ولا منافسة له مع الإنجليز تبعثه على معاكستهم، بل له إليهم حاجة في ضمهم إليه وإبعادهم عن فرنسا لتكون منفردة بين الدول لا حليف لها وقد تكون له من صلة الإنجليز مآرب أخرى سوى قطع فرنسا من الحلفاء ينالها يوم الحاجة إليها وما هو عنه ببعيد فماذا يضره إذا أدخر عوناً وأساء عدواً والنفقة على خزينة غيره. نعم ربما يظن أن بسمارك يمنعه عن مثل هذه المعاملة رعاية جانب حلفائه من النمسا وإيطاليا لما لهم من المصالح في البحر الأبيض ويصعب عليه أن يصيب بسياسته الجمع بين مراضاة انجلترا لنيل مصافاتها وبين التمسك بعهوده مع ذوى حلفه، إلا أنه قد يسهل عليه التخلص من هذا المضيق بالإشارة إلىٰ طرابلس الغرب وبلاد الأرنؤوط والإيماء إلىٰ الأراضي البلقانية وسالونيك ويجلوها لأنظار معاهديه فيسكن جأشهم ويطمئن خاطرهم فيستثبت بذلك موالاة الدولتين، ويقلم أظفار الروسيا من أوروبا الشرقية ويضيع مصالح فرنسا في بلاد المشرق عموماً ومصر خصوصاً وفي كل ذلك الربح له، والخسارة على غيره، وليست هذه أول فعلة فعلها بسمارك أو يفعلها فهي شرعته التي يرد إليها ويصدر عنها من يوم معاهدة برلين إلىٰ هذا الوقت.

وفرنسا واقعة بين مراوغات الإنجليز ومكائد بسمارك. لها حقوق سابقة في البلاد المصرية كاديمحى أثرها بمداخلة الإنجليز وبها حاجة شديدة لعلو الكلمة في طريق منشآتها ببلاد الصين والبحر الهندي ومدغشقر. لهذا تبذل الجهد لإجلاء العساكر الإنجليزية عن مصر وتخفيض سلطة الإنجليز فيها ويوجد لها عون من دولة الروسيا ولها من المنعة مالو أيدته أفكار المصريين وآراء ذوى العزيمة من رجالهم وميل أفئدتهم لمكنها من تخليص مصر وانتزاعها من أيدى الإنجليز سعياً في حفظ

مصالحها ووقاية حقوقها وهذا مما يؤيد سياسة الدولة العثمانية ويشد عضدها في مدافعة الإنجليز ومطاردتهم من بلادها فللدولة العثمانية أن تظهر عزمها في هذه الأوقات لتستنفذ ممالكها من طمع الطامعين وتعيد ولايتها على الأقطار المصرية خالصة لها من سلطة المعتدين، وأن جميع المسلمين ينتظرون منها الحذق في هذه المسألة ولهم فيها الأمل القوي والثقة الكاملة، ورجاؤهم أن لا تفوتهم هذه الفرصة بدون أن ينالوا بها خطهم من الغنيمة، وليس على الدولة من بأس إذا طالبت الإنجليز برد حقوقها كافة فإنهم بالنسبة إليها أضعف من أن يجاهروها بالعدوان، وإنا نكرر ماقلناه سابقا من أن الإنجليز يستحيل عليهم أن يعلنوا على الدولة العثمانيةحرباً خصوصاً في هذه الأوقات التي أصبحت فيها دولة الروسيا متاخمة للملكة الأفغان فإن أول أشاعة لهذه الحرب توقد لهيب الثورة في عموم الممالك الهندية وهذا جلي عند كل انجليزي أن التغافل والوهن ربما يوسعان مجال الطمع فيفتح باب المسألة الشرقية أو يكون لها استعداد قريب وليس للمصريين في طورهم هذا أن يركنوا إلىٰ من ليس من أبناء جلدتهم فإن الثغرة التي تحمل على الحمية تكاد أن تكون منحصرة بحكم الطبيعة في ابناء الوطن فلا ترجى من غيرهم. فعلى العقلاء من أهالي مصر أن يسارعوا إلىٰ معاضدة الدولة العثمانية والاتحاد معها على تخليص بلادهم مستعينين بأفكار الدولة التي تقضي عليها مصالحها بالسعي في إنقاذها وإعادة شأنها الأول وتحقيق ما يقال من أن مصر للمصريين.

وبالجملة فالأطماع فغرت أفواهها، والأفكار في اضطراب شديد، وظنون الناس شتىٰ فمن قائل أن المؤتمر لا ينعقد لتعسر الإتفاق بين فرنسا وانجلترا على القواعد الأساسية للمداولة فيه، ومن قائل أنه ينعقد على أن يضع مصر تحت حماية عموم الدول ويقرر إنشاء مراقبة دولية مع بقاء العساكر الإنجليزية مدة سنتين، وعلى أي حال فالرزية إنما تصيب الغافل، والسوء إنما يحيق بالمتساهل، والجبان محروم من حقوقه والعامل بيد غيره خاسر، فعلى المصريين والدولة العثمانية أن يظهروا الشهامة والإقدام، ويرفعوا علم الهمة أبقاء لحياتهم، وصوناً لشرفهم، والأمر له يفعل ما يشاء.

منشور انجليزي قديم

نشرت حكومة انجلترا في الهند منشوراً منذ مائة وثمانين سنة وهذا ترجمته:

إذا وجدت في دوائر الحكومة وظيفة لا يقوم بها انجليزى (أي لا تـليق أن تكون بيد أحد من الجنس الشريف) وجب أن يعين فيها أحد الفارسيين الباقين على دين زرادشت (المجوس)، فإن لم يكن منهم مقتدر على القيام بها، أقيم فيها وثـني (عابد صنم) فإن لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء من يؤدي عملها كلف بها مسـلم، فليس للمسلمين في الهند حظ من وظائف الحكومة إلا ما يعافه المجوسى والوثـني وهذا هو عنوان محبة الانجليز وهو برهان دعواهم أنهم أولياء المسلمين وأنصارهم، لا أكثر الله من أمثال هؤلاء الأولياء والأنصار!!

ان في ذلك لعبرة لأولى الأبصار

كيف يمكن لقوة أجنبية تصول على أمة من الأمم أن تسود عليها وتستعبدها وتذللها للعمل في منافعها مع التخالف في الطباع والعوائد والأفكار، ووجود المقاومة الطبيعية، فضلا عن الارادية. إن الوحشة المتمكنة في نفس كل واحد من الأمة، وظن كل فرد أنه في خطر على روحه وماله إذا غلبه الغالبون، تحمله على المدافعه كما يدافع عن بيته وحريمه، فلا يتسنى للقوة المغيرة أن تذل الأمة إلا بافنائها عن آخرها، أو إفناء الأغلب حتى لا يبق إلا العجزة والزمنى[1]. هذا أمر طبيعي وحكم بديهي متى كانت الغارة على الأمة: نعم يسهل للقوة الأجنبية أن تتغلب على أمة عظيمة بدون تناحر إن كان لهذه الأمة حاكم أو رئيس روحي تجتمع عليه قلوبها، وتدين له رقابها، لمنزلة له في افئدة أبنائها، ولمكان آبائه من الكرامة في نفوسهم، فلا تحتاج القوة الغالبة إلا لإيقاع الرعب في قلبه، فيجبن ويقبل ما تحكم به، أو نصب حبالة الحيل له فتخدعه بالأماني والآمال، فيذعن لما تقضى به فاذا خضع للقوة الغريبة خضعت الأمة تبعاً له. ولهذا ترى طلاب الفتح وبغاة الغلب ينصبون قبل سوق الجيوش وقواد الجنود على قلوب الأمراء وأرباب السيادة في الأمة التي يريدون التغلب عليها فيخلعونها بالتهديد والتخويف، أو يملكونها بالخدعة وتزيين

---

١ ـ شخص أزمن أى أتى عليه الزمان.

الأماني، فينالون بغيتهم ويأخذون أراضي الأمم، وهذا الطريق هو الذي سلكه الإنجليز مع السلطان التيموري في الهند، ولو لا ما كان للهنديين من عقدة الإرتباط بسلطانهم التيموري، وقبض الإنجليز أول الأمر على تلك العقدة، لما تيسر للبريطانيين أن يخضعوا الأمم الهندية في أحقاب طويلة.

هذه قبائل الأفغان عند ما انحلت ثقتها بأميرها، وصار الأمر إلىٰ الأمة قامت كل عشيرة، بل كل فرد للدفاع عن نفسه، بعد ماتمكنت عساكر الإنجليز في قلاعهم وحصونهم، واستولت على قاعدة ملكهم، وفتكوا بالعساكر الإنجليزية وهزموا قواتها وأجلوها عن بلادهم، وهي ستون ألفاً من الجيوش المنتظمة، المسلحة بأحدث الأسلحة، واضطر الانجليز أن يتركوا تلك البلاد لأهلها.

لا ريب أنه يسهل على الانسان أن يأخذ شخصاً واحداً وأشخاصاً محصورين بالترغيب والتهديد، ويتيسر له أن يقف على طباعهم، ويدخل عليهم من مواقع أهوائهم، ويأتيهم من أبواب رغائبهم، لكن يتعسر بل يتعذر عليه أن يأخذ أمة بتمامها، وعقولها مختلفة عليه نفوسها في وحشة منهم إلا بالابادة والتدمير. من هذا نجد الملوك العظام لا يرهبون الاشتباك في حرب مع اقتالهم بل ومن هو أشد منهم قوة ولكنهم يفرقون بل تذهب أفئدتهم هواء إذا أحسوا بميل الأمة عنهم، وماهذا إلا لأن قوة المغالبين داخلة تحت الضبط، وأما آحاد الأمم وقواها فلا تضبط ولا يمكن مقاومتها إذا تغاضت وشحت بنفسها عن الذل لسواها.

إن الأمراء كما يكونون في دور من أدوار الأمة قوى فعالة لنموها وعلوها وعظمتها واشتداد عضدها، كذلك يكونون في بعض أطوارها علة فاعلة في سقوطها وهبوطها وانحلالها، وإنا نخاف ولا حول ولاقوة إلا بالله أن يكون أمراؤنا والأعلون منا آلة لاضمحلالنا وفنائنا، لما غلب عليهم من الترف والانهماك في اللذائذ، والانكباب على الشهوات، مع سقوط الهمة، وتغلب الجبن، والحرص والطمع على طباعهم إنا لله وإنا إليه راجعون.

هجوم على السودان عبر النيل!!

جاء من لندن لإحدى وكالات الأنباء ما ملخصه: لا يظن أحد من الناس هنا (في لندن) أن الجيوش التي عزمت حكومة انجلترا على سوقها إلى السودان يقصد منها إنقاذ جوردون. فإن جوردون معزز برجال من الوطنيين (المصريين أو السودانيين) أولى عزم وقوة، ولهم سطوة تدفع بأس الذين يبغون به البشر. وإذا مست الحاجة إلى تخليه عن عمله وتركه لمركزه فلا يعدمون وسيلة لخلاصه، أما القصد الحقيقي من بعث الجنود إلى السودان فإنما هو افتتاحه تحت العلم الانجليزي وهو وإن كان يحتاج إلى زمن طويل إلا أنه قليل الخطر ولا توجد في سبيله عقبات سياسية حيث تنازلت الحكومة المصرية عن سياستها في تلك الأقطار.

يسهل على العساكر الانجليزية أن تسير إلى خرطوم على طريق النيل وأن سلكت سبيلا من الأرض اليابسة فلا تبعد عن شواطيء النهر (لتكون تحت حماية المراكب وترافقها في السير مراكب تعد لقطع النيل والصعود إلى الشلالات فإذا وصلت العساكر والأساطيل النيلية إلى خرطوم واستولت عليها اعتصمت فيها حكومة عسكرية تمد نفوذها إلى قلب السودان ويكون في هذا عوض للإنجليز عما يخسرونه في مصر لو ألزمهم المؤتمر بالتنازل عن شيء مما يطمحون إليه فيها.

وقالت جريدة (الريبوبليك فرانسيز) إنا نذكر هذه الرسالة على أنها شبه

حجة على مقاصد الانجليز وإلا فإنا نعد ما تحتويه من قبيل الأوهام والخيالات اه.

أما نحن فنقول من أمعن النظر في أعمال الانجليز وتتبع سيرهم في افتتاح المالك الشرقية، علم صحة ما روته وكالة الأنباء. فإنه منطبق على قواعد السياسة الانجليزية وآت على أساسها الذي بنوا عليه فتوحهم من أزمان طويلة وهو أصل تعارفه الانجليز حتى صار كخصية لازمة لطباعهم، ترد إليه جميع أعمالهم من حيث يشعرون ولا يشعرون، وعليه كان بناء ملكهم في الهند.

إن الانجليز أول ما خطوا خطوة في الهند وجدوا مملكة (أود) من الممالك الواسعة وأغلب أهاليها على مذهب الشيعة ولها نواب (حاكم) عظيم من أهل ذلك المذهب، فرأوا أن يحملوه على الاستقلال وزينوا له الطمع فى لقب شاه لينفصل عن الملك التيمورى. وفي التنازع لنيل هذا المطمع يصيب كلا من الطامع وصاحب الملك سهم من الضعف والوهن فيتهيأ كل منهما للوقوع في مخالب الانجليز وقد حصل.

وأول ما حلوا مصر ولحوا شرارة في السودان أدنوا منها وقودها لتكون ناراً مهلكة فبعدما ما طردوا الجيوش المصرية إيذاناً بالغضب عليهم. جمعوهم ليسوقوهم إلى السودان تحت قيادة أعداء لهم من الانجليز فذهبوا وهم موقنون أنهم يساقون إلى الموت ليذوقوا وبال الانتقام فقلوبهم منكسرة وعزائمهم واهنة وعقائدهم لا تسمح لهم بالانقياد لرؤسائهم الأجانب، وأحس السودانيون وهم مسلمون أن قواد الغارة عليهم ليسوا على شاكلتهم، فزادهم حمية وإقداماً، فكان هذا وذاك سبباً في استفحال أمر السودان بعدما هلكت رجال وأنفقت أموال وساءت أحوال من السودانيين والمصريين، كل هذا ليتوسل به الإنجليز لفصل السودان عن مصر بعد خراب الدارين وكأنهم عندما أرسلوا جوردون باشا وأدنوه أن يمنح محمد أحمد لقب أمير كوردفان قصدوا أن يتمموا عملهم ولكن لم ينجحوا.

وعندما كانت الحرب قائمة بين دوست محمد خان أمير افغانستان وبين (رانجيب سنك) البنجابي تخوف الإنجليز من تسلط الأفغانيين على بنجاب فتداخلوا

في الصلح وسحروا قلوب الأفغانيين بلين القول ولطف الوعد حتى أرضوهم بترك مدينة بيشاور وما يليها لرانجيب سنك وانعقد الصلح على هذا وأجلى الأفغانيون عن مملكة بنجاب ورجعوا إلى بلادهم. وبعد عشر سنين من تاريخ الصلح زحف الإنجليز إلى بنجاب وافتتحوها لأنفسهم واستولوا على مدينة بيشاور فقال بعض أمراء الأفغان إن ذاك الصلح كان مقدمة لهذا الفتح وأن الإنجليز في تعيينهم للحدود إنما كانوا يحددون بلادهم ولكن كنا عنه غافلين.

ومن نحو سنة ونصف أومأ اللورد دوفرين في تقرير كتبه بالقاهرة، إلى أنه لا حاجة بالحكومة المصرية إلى السودان بل لا فائدة لها فيه، وفهم الغرض في ذلك الوقت من أصابه، وغفل عنه قوم آخرون اغتراراً بظواهر العبارات ثم لم يلبث الإيماء أن صار تصريحاً رسمياً وإلزاماً للحكومة المصرية أن تتخلى عن السودان. فلم يكن التلميح والتصريح ثم الإلحاح والإلزام إلا ليهيئوا البلاد السودانية للدخول تحت سلطتهم في وقت من الأوقات لسبب من الأسباب التي لا يعجزون في اختراعها متى شاءوا!! هذا سر يعرفه من قرأ صفحة من تاريخ الإنجليز في الممالك الشرقية.

تريد حكومة انجلترا إذا عارضتها الدول في السيادة على مصر أن تنشيء لها سلطة في خرطوم يمتد حكمها إلى جميع أراضي السودان وعساكرها الآن حالة في سواكن وما أسرع أن تصل بين المدينتين بالسكة الحديد فتكون القوة الإنجليزية بعد هذا محيطة بمصر من جميع الجوانب. وقفت على بابها من طرف الشمال في قبرص وطوقت حدودها من الغرب إلى الشرق في السودان وتحكمت في منابع النيل وتصرفت في اعلاه وأخذت كل طريق يمكن منه الاستيلاء على الديار المصرية، وهنا لك يرصد الانجليز حركات الدول في اوروبا. فكلما أضاءت لهم بارقة فرصة مشوا فيها، وإذا أظلمت عليهم قاموا فيتقدمون إلى مصر خطوة بعد خطوة ولا يبالون، طال الزمان أو قصر، فإنهم يعرفونها لهم على أي حال، ولكنهم يتقون

معارضة الدول في هذه الأوقات. هذه غايات سير الإنجليز في الحوادث المصرية وهي كما قالت (الريبوبليك فرانسيز) خيالات وأوهام إذا اشتدت الدولة العثمانية ورجال مصر في المطالبة بحقوقهم الشرعية والمحافظة على شئونهم وأخذوا بالحزم وعقدوا العزم على مقاومة سعي الانجليز في أوطانهم وديارهم بعد ما ظهر لهم ماذا يقصدون بهم، فإن تهاونت الدولة العثمانية أو تغافل المصريون حسبها الإنجليز طريقاً مطروقة وسبيلا مسلوكة وعدوا مطامعهم حقائق ثابتة ومطالب مقررة لا نجح سعيهم، ولا صدق ظنهم.

السودان والمصر

نشرت جريدة البوسفورأجيبسيان، التي تطبع في القاهرة، خبراً ـ مصدره توفيق باشا نفسه ـ وهو أن الجنرال جوردون أنذر حكومته الانجليزية بأنها إن لم تمده بجيش ينقذه من الضيق الملم به فإنه يرفض الدين المسيحى ويدخل في دين الاسلام!! وضمنت جريدة البوسفور صحة هذا الخبر العجيب (كذا وصفته الجريدة بالعجب) وغرابة الخبر إن كانت من جهة أنه تهديد بما لا يهم الحكومة فنحن نعلم أن الانجليز يفزعهم خروج أحد منهم عن دينهم وإن كانوا يرشدون الناس إلى ترك الدين ويعيبون على المستمسكين به، لكنهم أشد الناس تعصباً فيه فلا محل للغرابة، وإن كانت من جهة أن جوردون، وهو من أشد قومه تمسكاً بدينه، كيف يجنح للاسلام فهو إنجليزي الطبيعة كما هو انجليزي الجنس يتلون ظاهره بأى لون ويبرز في أي ثوب لإصابة غرضه مع المحافظة على ما طبع اللّٰه على قلبه فلا عجب إن قال وفعل!!

في خبر أن محمد أحمد طلب إلى أعوانه المحاصرين لخرطوم أن يأتوا إليه بجوردون حياً ولا يمسوه بسوء إذا وقع في أيديهم.

وفي برقية من أسيوط إلى جريدة التايمس أن مركباً من مراكب البريد وصلت إليها تحمل ثلاثة أشخاص مرسلين من طرف زبير باشا لاستكشاف حالة جوردون

وتوجهت في الحال بمن فيها إلى أسوان. هكذا الدهر أبو العجب، من سنين قليلة فتك جوردون بأولاد الزبير وذوي قرابته وأفسد عليه شئونه وأخرجه عن جميع أمواله واليوم راينا كدر الضغينة في صفاء المحبة يبعث الزبير على الرأفة بجوردون وتوجيه الرسل للسؤال عن صحته والاستخبار عن سلامة حاله.

جاء الخبر أن أهالي جرجا (مدينة من مدن الصعيد مركز مديرية في جنوب أسيوط) في هياج شديد يشبه أن يكون ثورة، وورد إلى تلك المدينة رجل من أشياع محمد احمد قادماً من القاهرة ودعا الأهالي للأخذ بطريقته فإذا بيتهم جم غفير يجيب داعيه ويذهب مذهبه وهو مما يدل على أن القائم السوداني مهتم بنشر دعوته محتاط لنفسه حاذق في عمله وله دعاة في ارجاء الديار المصرية حتى في عاصمتها (القاهرة) فإن ثبت في هذا السير حل بالحكومة المصرية منه ما كنا نخشى أن يقع بها ويشتد الخطب ولربما صار له بقوة ميل الأهالي إليه منعة يصعب على حكومة غير إسلامية أن تقارعها. أما ما ذيل به خبر الهياج في جرجا من وجود عداوة بين المسلمين من أهاليها والمسيحيين فهو مالا نصدقه ولا ينطبق على الواقع لأن الأيام السابقة شاهدة على حفظ كل من الفريقين زمام الآخر في جميع الأحوال التي عرضت على بلاد مصر. المسلمون والمسيحيون فيها على وفاق تام في جميع نواحيها والمقاتل التي وقعت أيام الحرب الماضية إنما كان منشؤها إفساد المفسدين على أنه لم يمس فيها قبطي بسوء، والأخبار الصحيحة تؤيد ما نقول.[1]

وأرسلت الحكومة المصرية الآلاى السابع من المشاه إلى أسوان مع جملة من المدافع الجبلية وعدد وافر من الجمال.

---

١ ـ شكراً لله فما من زعيم أو مصلح شهدته أرض الكنانة إلا وقد كانت رابطة محبة الأديان رائده... فالتعصب سرطان يفتك بأبناء الوطن الواحد ويشل نشاط أبنائه... فتنفتح ثغور.. تتسلل منها نفوس عفنة تهدم في الظلام ما تبنيه الأمة في أجيال. وقد حذر الأفغاني مسلمي مصر ومسيحييها من شر هذه الفتنة وهو في باريس، فنعم الرجال ونعم الأخلاق.

وفي برقية من سواكن إلى جريدة الديلي تلغراف أن مناوشات وقعت من أتباع محمد أحمد بالقرب من سواكن، وفي جريدة التايمس أن الثائرين أطلقوا مدافعهم على تلك المدينة في الساعة الثانية صباحاً من الثامن والعشرين من شهر مايو، إلا أنه لم يصب أحد من الحرس وتقهقر المهاجمون بسرعة.

عثمان دجمة ـ مع ألف من رجاله ـ نازلون على القرب من طمانيب ومعظم قوته حالة بتلك البلدة ويقال أن بنفوس عساكره كدراً من قلة الأزواد[1] وهو من أخبار العدو يسمع وقد لا يصدق.

وإن الأميرال هفيت المبعوث من طرف انجلترا لخديعة الملك يوحنا ملك الحبشة لم يحظ عند الملك بقبول.

أراد رجال الانجليز أن يخففوا على القلوب المنخلعة من أبناء أمتهم أهوال السودان وما يتوقعونه من مصائبه فأشاعوا ظهور شخص يدعى المهدوية في دار فور ويقول أن محمد أحمد ليس إلا تلميذاً له من قدماء تلامذته، وكان الانجليز يستبشرون بتفريق كلمة السودانيين كما يسرهم تخالف المسلمين أجمعين.

---

١ ـ يقصد عدم زيادة المرتبات.

فرية دنيئة على الاسلام!

في برقية وردت لجريدة الديلي تلغراف من القاهرة في ٢٧ مـايو ١٨٨٤ أن زبير باشا طلب إلى سراى توفيق باشا، بناء على إشارة الحكومة الانجليزية، والتمس منه المستر أجرتون أن يجد وسيلة لإرسال مندوب إلى جوردون باشا يأمره بالعودة حالا. واتباعاً لأمر توفيق باشا بعث الزبير باحد خدمه لأداء هذا العمل وكـان فرصة انتهزتها حكومة فرنسا لاستدعاء قنصلها في خرطوم. وقـد ضـمن الزبـير وصول المندوب وعودته بالجواب في خمسين يوماً اهـ.إن صح هذا دلنـا عـلى أن جوردون ليس معززاً برجال أولى بأس وشدة كما جاء في البرقيات وأن الانجليز عجزوا عن إنقاذه بقوة حربية وإن كانوا ربما يقصدون الحرب لغاية أخرى.

ونقلت الجرائد الأوروبية ما يعجب من نسبته لزبير باشا. ذلك أنه أشخص ثلاثة من أولاده إلى رؤساء الثائرين ومع كل واحد منهم كتاب إليهم وهذا مفاده نذكره ترجمة من تلك الجرائد بلا تصرف في عباراته:

شكراً للخديوى ولدولة بريطانيا العظمى وللجنرال جوردون. كل أملاكـنا التي انتزعت منا سترد إلينا. يا أحبابى ويا أهل وطـنى إنى أبـعث إليكـم أولادى الثلاثة مصحوبين برقيم إلى الجنرال جوردون فدعوهم يصلوا إليه وسهلوا سبلهم وأقسم عليكم باسم النـبي وأسماء أجـدادي الذيـن أكـرموا الأسراء أن تـرافـقوا

جوردون إلى كورسكو وأن تعاونوه حتى يعلو متن النيل. كل معاملة تسيء الجنرال فهي تكسر خاطري الى الأبد. وأنا وعيالى هنا رهن الى أن يعود الجنرال جوردون فإن عاد صحيحاً سالماً فحمد يحفظكم أبد الآبدين اها!!

وأنا أتبرأ ما في هذا الرقيم[1] ونسبته لزبير باشا فإنا نعرف الرجل مسلماً فقيهاً في دينه عالماً بفروضه وهو من سلالة العباس عم النبي صلّى الله عليه وسلم وفي نفسه حزازات مما نكاه به الجنرال جوردون عندما كان حكمدار السودان، وليس من أحد يحفظ تاريخ جوردون ويحصي سيئاته كزبير باشا، علمنا ذلك منه وهو يتنفس الصعداء من ذكرى مصائبه أيام كنا في مصر، فكيف يمتدح الانجليز ويشكرهم وكيف يقوم بعمل يعود بالمنفعة عليهم اغتراراً بما وعدوه من رد أملاكه إليه وهو يعلم أن كل ما يفيدهم لا يزيد قدمهم إلا رسوخاً في أوطانه ومن لاحظ أسلوب الرقيم تبين له أنه ليس بأسلوب عربي خصوصاً ما جاء في خاتمته من الدعاء فإنه لم يعرف في عبارات المسلمين ما يشابهه. فحمد لا يحفظ أحداً بل الله على كل شيء حفيظ. فلا يبعد أن عدو الزبير أراد أن يشوه سيرته فرماه بهذه النسبة أو أن يكون الرقيم من مخترعات بعض الجرائد الأوروبية للتلميح!!

---

١ ـ الرقيم: الخطاب.

صراع بشأن تثبيت الاحتلال!!

وجاء في برقية من برلين إلى جريدة (جازيت دوكولونى) ثبت أن من عزم دولتي فرنسا وانجلترا أن تتفقا قبل انعقاد المؤتمر على موضوع البحث فيه كما اتفقت دولتا الروسيا وانجلترا على مدار النظر في مؤتمر برلين قبل انعقاده بواسطة اللورد سالسبورى والكونت شوفالوف. كل من الدولتين المتفاوضتين تمد نظرها إلى ماعسى أن تؤول إليه مداولات المؤتمر وتحدده وتقدره (ثم تدخل فيه على ان تكون ألغاية ما قدرت).

ربما حلت الدعوة إلى المؤتمر محل القبول عند بعض الدولة إلا أن رضاء الباب العالي شرط في قبول حكمه والتسليم لقضائه ولو أن دولتي النمسا وألمانيا أو الدول جميعها قضت بأن يكون من قواعده الأساسية إجابة جميع الدول التي دعيت إليه مؤقتاً لم يكن قاضياً بوجوب الإذعان لما يبرمه وهذا هو شأن المؤتمر بالنسبة إلى الباب العالي على أي حال.

وقالت جريدة التايمس، تيسر لوزارة انجلترا أن تتغلب على مجلس النواب لكن ليس لها أن تعتمد على هذا الظفر الهين وعليها أن تستفيد في مدة البطالة لعيد العنصرة فتنجو بما تستفيده من الخطر العظيم الذي ربما يحيق بها من المفاوضات الجارية بينها وبين وزارة فرنسا، وتساهلت الوزارة في عقد عهدة تخالف مصالحنا

مع شركة قناة السويس ثم نجحت في التملص من قيودها ومزقت المعاهدة وتركت مسيو ديلسبس على أرض قفراء وليس بالسهل عليها أن تسلك اليوم ما سلكت في تلك الأوقات. فلو رفض البرلمان ما انتهت إليه المفاوضات في المسألة المصرية لما أمكن للوزارة أن تبقى في مساندها. وإذا تعذر الوصول من هذه المفاوضات إلى غاية صالحة أمكن الوزارة أن تتنحى عن العمل، أما فرنسا وسائر الدول فليس لها أن تطالب مجلس العموم في انجلترا بمنحة شحت بها نفوس أهالي بريطانيا كافة ورفض السماح بها عموم الآراء في بلاد الإنجليز (يريد بالمنحة ما تفضل به وزراء انجلترا على الدول من دعوتها للمباحثات في أحوال مصر).

الثبات الثبات

حملت قوة الثائرين على مدينة بربر فافتتحتها بعد مافتكت بجميع حاميتها ولم يبق موضع للريب في استيلاء أعوان محمد أحمد على تلك المدينة وبعد تمكنهم فيها. زحف منهم ثلاثون ألفاً لمهاجمة دنقلا، وفي برقية من كورسكو إلى التايمس بتاريخ ١٣ يونيو أن محمد أحمد يزحف بنفسه مع خمسة وثلاثين ألفاً لفتح دنقلا وله أمل في الفوز قبل أن يهل رمضان، وقد بعث برقيم إلى مديرها وسماه أميراً عليها سنة السلطنة فيها مع ما يليها.

وانقطع الطريق بين دنقلا ووادي حلفا وامتنع سلوكها وأيست الحكومة المصرية من صيانة تلك المدينة فأصدرت أوامرها بتمهيد سبيل لرجوع حاميتها إلى مصر وشعرت حكومة انجلترا بتعاصي الفتنة فعملت على إرسال نجدة لإمداد حامية خرطوم كما أكدته جريدة (المورننج بوست) الإنجليزية قنوطاً من نجاحها، وعثمان دجمة يشتد عضده يوماً بعد يوم وله في كل ليلة هجمات على مدينة سواكن بل وعلى بعض المراكب في البحر.

أُخبار ما نزل ببربر وما يتوقع نزوله بدنقلا وغارة الثائرين على معسكرات الحكومة في وادي حلفا كل ذلك أحدث اضطراباً شديداً في أسوان وهيجاناً في خواطر الكافة من أهل الصعيد وربما يخشى من وقوع مالا تحمد عاقبته على

الناكثين.

هذه مرابك الإنجليز في مصر وهم في أوحالها لا يفترون عن السعي إلى ما يثبت قدمهم فيها. وجاء في برقية إلى وكالة هافاس أن الجند المصري دخل بأسره تحت إمرة الجنرال استفانوس (قائد جيش الإحتلال الإنجليزي) فصار الجنرال كأنه وزير الحربية وتحول الجند الوطني الى انجليزى وجيش الاحتلال إلى حامية مصرية ثم هم يسعون لالزام توفيق باشا بنصب ثلاثة مفتشين من الانجليز أحدهم في القاهرة والثاني في مصر السفلى (مفتش وجه بحرى) والثالث في مصر العليا (مفتش وجه قبلى) على انهم لا يعزلون إلا بأمر من انجلترا فتنقلب الادارة انجليزية محضة لا يبقي فيها لحكام مصر إلا نهاية حال الذليل. الامتثال والطاعة. تصرفوا في الأراضي المصرية العثمانية تصرف المالك فنحوا منها بقاعاً وفرضاً على البحر لملك الحبشة، وحالفوه على أن يسوق جيشاً ينازل المسلمين في اراضيهم، رجاء تذليلهم وإخماد أنفسهم وفي أثناء هرولتهم إلى مطامعهم يثيرون في أعين الدول غباراً، ويرفعون جلبة، ويصيحون بأن لا غرض لنا إلا إقرار الراحة وإعادة النظام، ويقيمون الحجة على إخلاصهم برغبتهم إلى الدول في مساعدتهم على حل بعض المشاكل المالية، مع أنهم لا يرغبون عقد المؤتمر إلا لينالوا منه ما يزيد قدمهم رسوخاً في مصر. وعلموا أن لفرنسا مصلحة في مناواتهم فطفقوا يهددونها بالتحالف مع ألمانيا أو التقرب إليها إن لم تتساهل معهم ليحملوها بالتهديد على الرضاء بإبقاء عساكرهم في مصر إلى سنة ١٨٨٨ تحت اسم إقرار الراحة، على شرط أن لا يكون بعد مدة إلا بإجماع جميع الدول التي يكون لها نواب في المؤتمر، بحيث لو وافقهم إحداهن على إطالة المدة فيما بعد، لكفى في تمديد الأجل أو إطلاقة وليس يخاف ما يقصدون من هذا الشرط. فإنهم يعلمون في اختلاف مصالح الدول وتضارب السياسات ما لا يعدمون معه وسيلة لارضاء دولة واحدة في زمن من الأزمان بالموافقة على مد الأمد، ولا نخال دولة فرنسا يقف نظرها دون هذا الحجاب الرقيق وهو يشف عن ملم عظيم لا تسلم

منه مملكة من ممالكها في المشرق، ولا نظنها تذعن لقبول هذا الشرط، وان قبلته دولة لا مصلحة لها في مصر ولا يهمها لا معاكسة فرنسا.

فكأنما سلك تصرف الانجليز من خمس سنوات في سلسلة من الألاعيب نهايتها للتسلط على مصر في هذا المؤتمر بدعوى، ثروة المالية المصرية، وأن عجزها من الخيانة فيها وتوسلوا بذلك لانقلاب في هيئة الحكومة ثم الجاءوا عرابي للدخول في العصيان ليعتلوا به في الزحف لتأييد الحاكم ثم وسعوا دائرة الخلل ليكون وسيلة إلى سلطة لا تحد يؤملون نيلها في هذا المؤتمر. زينوا للدولة العثمانية أن تصول على السودان مع وجود عساكرهم في مصر، ثم تخرج وقد مهدت لهم مصر والسودان معا. فلما لم تنخدع لهم وحق لها أن لا ترضى شدوا عليها بالتهديد قائلين أنهم لا يسمحون لعسكري تركي أن يذهب إلى السودان من بعد ولو لم تقبل الدولة العثمانية حضور نائب لها في المؤتمر على أنه منحصر في المالية فإنه سينعقد بدون رضاها. ولئن كان الإنجليز صادقين في طلبهم، إقرار الراحة في مصر، لو كلوه إلى عساكر العثمانيين وفوضوا الأمر لحازم حاذق من أمراء المصريين فإن في ذلك إطفاء للفتن وتثبيتاً للسلم ولا خوف من الدولة على الإستقلال المصري فليس من شأنها أن تنقض عهد دولة واحدة في هذا الوقت فضلا عن عهود الدول ولكن لا يهولن الدولة هذا التهديد فدعوة محمد أحمد بلغت في الهنديين وتغلغلت، وخبر قرب الروس منهم ملأ آذانهم، والإنجليز يتوقعون الفتنة فيهم ساعة بعد ساعة، والقوة الإنجليزية قاصرة عن مدافعة محمد أحمد، فلو ثبتت الدولة العثمانية لخضع الإنجليز لقوة الحوادث رغماً عنهم، فإنهم يفرقون من أن يشاع عنهم أنهم مضادون للدولة العثمانية فالثبات الثبات والله المستعان.

برهمن لاهور

قد انكشفت (لفندت اللاهورى صاحب جريدة أخبار عام) أن ما أنذرنا به عند دخول الروسية في مرو من وشك دخولها في سرخس ليس من قبيل كان ويكون وسيكون، فقد دخلت الروسيا مدينة سرخس برضاء من التركمان كما قدمنا في العدد الماضي فليس له أن يستبطىء سير الهول الشمالي ليد كدك أسوار الحكومة التي يظهر المدافعة عنها (وهي الحكومة الإنجليزية) فعما قَريب تظله هبوة الزحف في أرض بنجاب تحت جدران وله بعد أن رأى ما رأى من صدق ما نقول أن يطمئن إلى ما نبيء به فيما بعد فإننا نحكى عن طبائع الأمم وحقائق السياسة ومقتضياتها وليس يغنى ظنه من الحق شيئاً.

هذا

سررنا بملاقاة أفاضل من أرباب الجرائد في مصر أتوا إلى أوروبا ليحضروا مؤتمر في لندن ويقفوا على دقائق المفاوضات التي تجرى فيه متعلقة بالمسألة المصرية وينشروها مع ما تجود به قرائحهم من الرأى الصحيح في جرائدهم تنويراً للأفهام، وتنبيهاً للأفكار، فحمدنا سعيهم، وشكرنا صنيعهم، وأعظمنا همتهم، في خدمة البلاد المصرية، قياماً بما فرضته عليهم الجامعة المشرقية، وما أوجبته ذمة الجوار، وإن لم يكونوا ممن نبت في تراب مصر، ولا جبل من طينتها، ولكننا أسفنا غاية الأسف على احتمالهم لهذا العمل العظيم أفذاذاً بلا معززين لهم من أبناء الديار المصرية لا من المسلمين، ولا من المسيحيين، أولئك الذين حفت بهم المكاره، وداهمتهم مغيرات الرزايا من كل جانب، ولهم في البلاد نسب صريح، وورثوا ما أقاموا فيه عن آبائهم وأجدادهم، من أجيال طويلة، وفيهم عارفون باللغات الأجنبية على اختلافها، ومنهم من نال شرف المعرفة على نفقة بلاده، وإنما كانت تعده البلاد لمثل هذه المهمات. الا يوجد بينهم شاب يغلى دمه وتجيش أحشاؤه لما نزل بدياره، وبني وطنه، مما يتألم له العالم أجمع، أو إن لم يكن هذا ففتى يعظم همه، ويسمو عزمه، فيطلب ذكراً رفيعاً، وثناء باقياً، فتنهض همته للشكاية من مصابه ومصاب إخوانه، أو لارشادهم إلى ما به النجاة، وما يتوسلون به إلى الخلاص، ألا يوجد شيخ قضى

وطره من الدنيا وفاضت عليه البلاد بخيرها يتذكر نعم الأوطان عليه، فينبعث لأداء شكرها بما يستطيع من خدمتها، ألا يوجد من هؤلاء وهؤلاء أغنياء لا يخافون إعداماً فيتسامحون في بذل شيء من فضل ما لهم ينفقونه على أنفسهم في طلب الانصاف لدى الدول التي يهمها النظر في شئونهم، ألا يوجد فيهم من ورث عن آبائه ثروة واسعة وهو يبددها فيما لا يعود عليه بمجد ثابت ولا شرف دائم، فيجعل الانفاق على نفسه في السفر لهذه الغاية المحمودة داخلا في دائرة إسرافه.

يا عجباً ما هذا الخمول، ولم هذا الانزواء للذهول، عما رزئت به أوطانهم، كيف وأسنة الحوادث مصوبة إلى أفئدتهم، وألسنتها تلغ في دماء قلوبهم، العوز والحاجة، كيف وإنا نعرف فيهم الأغنياء الموسرين، ومن لا تنفد ثروتهم إلا بأيدي أعدائهم المتغلبين، إذا استمروا في تماديهم هذا، الشح والحرص؟ كيف وفيهم الأسخياء ومن أشرفوا في البذل على الاسراف والتبذير، فيما لا ينالون منه إلا مدحه في الوجه، ورفعه لا وجود لها إلا في الوهم، الخوف والجبن؟ كيف وقد بداهم أن الخطر في سكوتهم أشد من الخطر في عويلهم وصياحهم، الراحة مفقودة، والنظام مختل، والحقوق ضائعة، والفتن محدقة بهم. والأجانب ضربوا خناجرهم على حناجرهم، فلو لم يتداركوا أنفسهم بالسعي في كشف هذه البلايا لأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم بل الخطر كل الخطر إنما هو في اهمال مصلحة الوطن وليس على ساع في خير وطنه وملته في خطر. إذا أتى البيوت من أبوابها، وطلب الغاية بأسبابها، فمن أي شيء يخافون، وأي سلطة يرهبون، إن لم يكن لجراح الوطن أثر في أفئدتهم، فاين الاحساس الطبيعي المودع في نفوس البشر، الباعث على المباراة والمنافسة إنا للّه وإنا إليه راجعون.

العدالة الانجليزية!

الركون إلى العدالة والسكون إلى الأمن والراحة من الأمور الطبيعية في الإنسان وهذه حقيقة أدركها الجنس الإنجليزي الشريف لهذا تراه يجوب الأقطار ويتقلب في الأمصار حاملا على أحد عاتقيه علم العدالة وعلى العاتق الآخر لواء الأمن والراحة رجاء أن يملك أهواء العالم أجمعين وينال الكرامة في جميع أنحاء المسكونة.

إلا أنا نعجب غاية العجب لجفلة الناس من ألوان هذه الأعلام وفزعهم من الاستظلال بظلها ومن تفيأه يوماً فزع للانتباذ عنه في آخر ولو لفحه لهيب جهنم، هؤلاء الإيرلنديون من جنس الإنجليز وعلى دينهم وينطقون بلغتهم ولا يوجد بينهم وبين سكان بريطانيا العظمى فرق إلا فيما لا يعد الاختلاف فيه خلافاً حقيقياً من عقائد المذهب الكاثوليكي والبروتستنتي ويصح أن يقال أنه خلاف في فروع الدين لا في أصوله. وجزيرة إيرلندا تعد جزءاً أصلياً من مملكة بريطانيا وسكانها يعدون عنصراً داخلاً في قوام الأمة وعليهم بسط جناح المرحمة الإنجليزية من أجيال طويلة حتى حسب الجميع أمة واحدة، ومع ذلك ترى الافاً مؤلفة من الإيرلنديين يهجرون أوطانهم ويهاجرون إلى أمريكا ويتخذونها سكناً لهم فراراً من عدالة الإنجليز، وكل يوم ترى المحترقين بنيران الحمية منهم يخاطرون بأنفسهم

في أعمال يقصدون بها هدم السلطة الإنجليزية وإهلاك القائمين بها، وفي كل يوم يخدون الأخاديد ويدفنون المواد الملتهبة (الديناميت) في أماكن مختلفة من مراكز الحكومة وطرق مسير الكافة من الإنجليز تارة تحت قصر الملكة وأخرى في مقاعد الوزراء وطوراً تحت دار الندوة وآخر في جسور السكة الحديدية ليدمروا كل مكان بمن يقله، وزاد ذلك حتى أفزع الحكومة في هذه الأيام وما من مدة تمضي إلا وتسمع بمواقع بين عساكر المحافظة الإنجليزية في إيرلندا وبين الأهالي، ومنها ما حدث في ثامن هذا الشهر (يونيو) من معركة بين العساكر والعامة جرح فيها كثير.

هل جلاء الإيرلنديين وتهافتهم على الموت وسآمتهم من الحياة في معاندة السلطة الإنجليزية ناشيء عن نفرتهم من العدل وكراهتهم للراحة والميل إليها طبيعي في فطرة البشر، أظن لو كان عدلا حقيقياً يعرفه بنو الإنسان لما نبت عنه الطباع، ولا آثرت الأنفس الموت على التمتع به، ولا طلب الخلاص منه أقوام يتحدون مع أرباب السلطة في الجنس واللغة والدين، ولا فضلوا على مهاجرة الأوطان واحتمال آلام الغربة، ومشاق التطوح في أراضي لا يجدون فيها من العيش إلا الماجا (أدني ما يؤكل) ولكنه عدل تفرد به الإنجليز من بين الحيوانات الناطقة من أحكامه أن توضع الجزية على كنائس الكاثوليك تؤديها إلى كنائس البروتستانت عن يدوهي صاغرة، واستمر ذلك إلى عهد قريب، ومن مقتضياته أن يكون الإيرلندي خادماً بل عبداً رقاً لأمراء البريطانيين لا يتركون له من لوازم الحياة إلا ما يشتغل به لتنمية ثروتهم وتوفير لذتهم ـ إن كان هذا العدل لا يوافق أذواق المتفقين معهم في الصفات السابق ذكرها فكيف ترجى ملاءمته لأذواق الذين لا نسبة بينهم وبينهم ولاصلة تجمعهم معهم لا في لغة ولا جنس ولا دين ـ هذا النوع البهيج من العدل ظهرت له إثار في البلاد الهندية ـ دخلها الانجليز وهي أغني أرض في العالم، وأخصب تربة في المسكونة، وسكانها أنعم الناس عيشاً، وأوسعهم ثروة، فإذا هي اليوم بسر العدالة كأنها صفاصف وأمرات (أراضي لا نبات بها) أهاليها

حفاة عراة أذلاء، رضوا من المعيشة بالشظف، ومن القوت بالعلف، وما يجدون ما به يقنعون، تراهم بعد ما سلبوا أملاكهم، وابتزوا ثروتهم، واستأثر الأنجليز بجميع ما كان لهم يطلبون التعيش في المهن الدنيئة ولا يصلون إلى ما يطلبون، يكون منهم الكاتب المنشيء البليغ الحاسب يقطع الأرض سعياً من بلد إلى بلد ومن ولاية إلى ولاية ليحصل خدمة ينال من أجرها ثلاثين فرنكا في الشهر ولا يسعده الحظ بنوالها ـومن سنتين دخلوا مصر وهي ارض الراحة والسلام واهلوها فى رغد من العيش، وآمن من الغوائل، فإذا هى اليوم ببركة العدل الانجليزي، وحسن الادارة البريطانية، أرض الفتن، ومجالات الحروب، ومضارب الخلل والفساد، قضت العدالة بحرمان آلاف من الوطنين وطردهم من وظائفهم في الحكومة، وهم ذوو أهل وعيال لا عيش لهم إلا من رواتب الخدم الوطنية، وحل محلهم في الوظائف أخلاط من الانجليز وكسدت أسواق التجارة وغلت أيدي الزارعين عن العمل في الفلاحة بفقد الأمن وعموم الاضطراب وامتنعت الأرض عن الانبات بإهمال الأعمال العامة واستولى الفقر على الفلاحين حتى عجزوا عن وفاء ديونهم وقصرت أيديهم عن أداء ما عليهم من الضرائب لحكومتهم.

ومع كل هذا ترى الانجليز لا تأخذهم ريبة في أنهم عادلون قوامون بالقسط، وإن حلولهم في أي قطر وسلطتهم على أي شعب مقرونة بالسعادة والرفاهة والأمن والراحة ويعجبون كل العجب من انحراف المصريين عنهم ونفرة قلوبهم منهم ويقولون يا سبحان الله كيف يوجد بين جمعيات سرية أو جهرية تتخالف على بعضهم وتجتمع الألفة من العبودية لهم وكيف يختلج في خاطر مصري أن ينقم على الانجليز.

ولما أحسوا بحركة الخواطر واشتعال الحمية في نفوس بعض المصريين وتوجسوا الخيفة من إقدامهم على كلمة الحق وهي بلادنا لنا، ونحن أعلم بمصلحتنا من غيرنا، ولا نريد أن نكون طعمة للانجليز، أرادوا أن يقيموا برهاناً على عدلهم

ويوطنوا النفوس على الرضا بحكمهم ويمحوا كل ضغينة من قلوب المصريين بالقوة العسكرية، كأنهم بإطلاق النيران وسل السيوف يودعون في القلوب محبة، وفي النفوس رضاية، وهي طريقة جديدة في إزالة التنافر وإيجاد التآلف وربما كانت سنة قديمة عند الانجليز.

وجاء في برقية من مراسل التايمس في القاهرة أن العساكر الانجليزية انتشرت في شوارع القاهرة شاكية السلاح لتعزيز قوة حفظ الأمن، والحامل على ذلك ما تأكد عند حفاظ الأمن من الانجليز أن في تلك المدينة جمعيات جهرية أو سرية أو أن فيها أشخاصاً مصريين يحبون بلادهم ولا يودون أن يكون السلطان في حكومتها لأجنبي عنهم خصوصاً إن كان ظالماً فيهم، أو أن في تلك المدينة من يخطر بباله أن يقول كما يقول أدنى رجل من الانجليز أن مصلحة وطننا مقدمة على كل مصلحة، أو أن فيها من يحدث نفسه بأن الانجليز لا خير في ولايتهم، ويرى شقاء بلاده في سوء إدارتهم، فهاج غيظ مأموري الانجليز وبعثهم على الشدة في طلب الوقوف على مكامن اولئك الذين لا يميلون إليهم ليؤاخذوا كما ذي سريرة بما اختلج في صدره من الانتقاد على أعمالهم، ومن عزمهم أن يستعملوا من أجهزة الإضاءة ما يشرق به النور ليلا في كل شوارع المدينة وأزقتها من القلعة إلى أضيق حارة فيها ليحققوا ما ظنوه ويكشفوا ما توقعوه (وهم في عملهم هذا يراعون مصلحة المصريين ويأسفون على حالهم حيث كفروا نعمة النظام ولم يعترفوا للانجليز بهذا الاحسان الذي تفضلوا به عليهم من مدة سنين ويأسفون) ويرون من العدل أن تشرب قلوب المصريين مودتهم بقوة السلاح حتى تكون سيئاتهم حسنات، وربما لا يتم لهم من ذلك ما يقصدون.

انجلترا وفرنسا

اصغت آذان الراغبين في الوقوف على نهاية الحوادث المصرية لاستماع ما يتحدث به بين الحكومات الأوروبية من يوم دعت انجلترا جميع الدولة العظام للاجتماع في مؤتمر ينظر في بعض المسائل المصرية. إلا أنها منعت دون حجاب الكتمان وإنما كانت تصل إليها دندنة أو جلبة أو غمغمة أو جمجمة وكل حس يصلها يثير رواكد الأوهام فتهيج فيها غرائب الصور والاشكال والمذاعون من أرباب الجرائد في أوروبا وهم أشبه بالداعين إلى الألاعيب والكموديات كانوا يذهبون من الكلام وجوهاً مختلفة ويتنافسون في التمثيل والتصوير للتغرير والتهويل حتى أبرزوا الارض في صورة السماء والسماء في صورة الأرض خصوصاً فيما يتعلق بالمفاوضات التي كانت جارية بين وزارتي فرنسا وانجلترا، فكان يخيل لمتصفح جرائدهم أن البحار غاصة بالمراكب والمدرعات يصادم بعضها بعضاً وأن فضاء البر أعضل بالجيوش المتلاحمة لا يجد السالك من بينها سبيلا وتجسم الخيال لأرباب الاذهان الحادة فكان منهم مهندسو حرب يعينون مواقع العساكر وطرق المصاولة وجموع المتلاحمين تجول في أذهانهم يميناً وشمالاً ويموج بعضها في بعض وكأنما كانت مخيلاتهم معرضاً لجيوش العالمين وكان في كل فوج داعياً وفي كل قبيل منادياً يقول حق هذا، فهيعات تتعالى وزفرات تتصاعد وأرغاء وأزباد وتقطب في الوجوه وشزر في

المناظر وفي كل ذلك هول يأخذ بالألباب.

والعارفون بقوة فرنسا البرية والبحرية والذين يقدرون حقوقها حق قدرها كانوا يعتقدون أن تمثال العظمة البريطانية أصبح منكس الرأس منحني الظهر قد هوى بهامته إلى ركبته يتوارى من الناس خجلا بما ظهر من ضعفه وعجزه وأن حكومة انجلترا ستعود بالخيبة (وإن أعدت فيالق من التهديد وجحافل من الأوغاد) وتقوت هذه الأوهام بما يطنطن أرباب الجرائد وولعت النفوس بالوقوف على الحقيقة وانبعثت رسل الأفكار تجوس خلال الشئون والأطوار، لتصل إلى شيء من هذه الأسرار، واجتمعت الأرواح في الاذان لعلها تسترق سمعاً عن تلك المداونات، وكمنت كل نفس في مشكاة باصرتها لعلها تستشف من وراء الحجاب ما ينبيء عن الحقيقة أو يقربها من الفهم، والجميع واقفون وراء حجاب هذا الملعب الشائق وبعد طول الانتظار كشف الستار.

فإذا عائدة الانجليز جالسة في هيكل آمون وبيدها تاج يحكي رأس الثور (تاج الفراعة) متهيئة أن تضعه على رأسها والملوك العظام وقوف بين يديها مستعدون لتهنئتها كأنما كانت هذه المفاوضات والمخابرات إعداداً وتجهيزاً لإجلاسها على كرسي ميناس الأول ورمسيس الأول لا حول ولا قوة الا بالله.

قام رئيس الوزراء الفرنسي في مجلس النواب خطيباً لبيان الإتفاق الذي عقده مع حكومة انجلترا ليرى النواب رأيهم وقبل ذكره أنفق ما لديه من البلاغة والفصاحة وحسن البيان لإقناعهم بقبول ما أجراه تلطف في الكلام وأبدع وصوب وصعد وأتى على ترغيب يشوبه ترهيب ويأس يحوطه أمل وأدرج في طي خطابه أن فرنسا قبل هذا العهد الجديد لم تكن على شيء، وبه نالت أشياء وأومأ إلى أن وزارته لو طلبت أزيد مما حصلت لأدى الأمر إلى ممانعة الحكومة الإنجليزية وأفضى الخلاف إلى انقلابها وربما يخلفها وزارة تطمح إلى الإستيلاء على مصر. وجاء في نطقة بما حرك الطباع ومال بالأسماع حيث قال يلزم لسياسي قبل إبرام حكم أن

يلاحظ جميع أطرافه ولواحقه فهذه الكلمة الرفيعة جددت في السامعين آمالا وظنوا أن المراقبة الثنائية قد أعيدت أو تقرر اشتراك فرنسا مع انجلترا في الاحتلال العسكري أو إبرام الحكم بخروج الإنجليز من مصر وبالجملة أنهم فازوا فوزاً عظيماً وبعد مقدمات طويلات[1] بين الاتفاق فاذا هو بعد إمعان النظر على هذا النحو، أن الإنجليز سادات مصر يفعلون فيها ما يشاءون وليس لنا أن نعارضهم فلا المراقبة الثنائية عادت ولا الإشتراك في التداخل العسكري أو النظر الإداري حصل ولا قررت حرية القتال على أصل ثابت ولا تحقق جلاء الإنجليز على صورة قطعية ولاتأصلت مراقبة دولية كما كان يتوهم بعض السياسيين بل كما كان يلجأ إليه الإنجليز عند نهاية العجز على ما أشار إليه كثير من سياسييهم. فانقبضت صدور النواب فلما رأي[2] شدة تأثرهم دفعة واحدة وأحس منهم القنوط حاول إحياء آمالهم بقبوله إنا سلكنا في إتفاقنا هذا مسلك سائر الدولة ومن السنن المتبعة فيها تنازل كل من طلاب الإتفاق عن شيء مما عليه الاختلاف حتى يتقاربوا ويتعادلوا فيسهل اتفاقهم ـ يوهم بهذا أنه وأن ترك كل حق لفرنسا في مصر إلا أن الإنجليز أيضاً تساهلوا معه في أمور... هذه المسامحة التي لم تكن منتظرة من حكومة فرنسا ذهبت بالظنون إلى ماوراء الظاهر المعروف ومنه ما بعث مراسل جريدة (التاجبلات الألمانية) في فينا على قوله يظن ههنا (في فينا) أن الدول ستعارض هذا الإتفاق رغماً عن كل وهم اهـ وليس ببعيد أن يكون نعير الإنجليز وهديدهم وإرهابهم للوزارء الفرنسية بالميل للألمان هو الذي دعاها لهذا التساهل الغريب، بل حملها على ترك الحق بالكلية أو ربما ظن رئيس الوزراء أن إشتداده في اقتضاء حقه أو حق من له بهم علاقة صحيحة يوجب تغيراً في وزارة جلادستون فيقوم خلفها على الاغتصاب بالقوة وانتهاك كل حق فتضيع الحقوق الفرنسية بلا منة من فرنسا

---

١ ـ هكذا ذكرها الأفغاني وقد راعينا بقدر الإمكان الابقاء على روح الأفغاني في كتاباته!!

٢ ـ يقصد رئيس الوزراء الفرنسي.

في ضياعها. فسارع الى موافقتها على ما تشاء وطرح مصلحة فرنسا في مصر بين يديها لتكون المنة في استيلاء الإنجليز على مصر للفرنسيين. ولكنا نظن أن هذا النوع من المعاملة لا يفيد فرنسا أكبر مما يجلب عليها من الضرر فإن التساهل وسوء السياسة الذي كان من الحكومة الفرنسية مع بريطانيا في الهند عندما كان للأمتين منافسة فيه آلت إلى تغلب الانجليز على جميع الممالك الهندية ورجع الفرنسيون بخف حنين ولم يمح أثر ذلك الخسران من خواطر الأمة الفرنسية إلى الآن والمستقبل أشبه بالماضي من الماء بالماء. وقد يقال أن الحكومة الفرنسية حولت نظرها عن مصر إلى جهة أخرى. وبقي رجاؤنا في نواب الأمة الفرنسية فانهم وإن أظهروا ثقتهم بالوزارة بعد مجادلات طويلة إلا أنهم شرطوا عليها أن لا تبرم حكماً في المؤتمر إلا بمشورتهم «اللّهم حقق الرجاء» وإنا في عجب من حرص مجلس البرلمان الإنجليزي حيث يعارض جلادستون في هذا الإتفاق مع أن اقرب نتائجه الاستيلاء وقد طلب البرلمان من جلادستون مثل ما طلب نواب فرنسا من وزيرها. أما حقوق العثمانيين والمصريين فلم نرى لها بين المتفقين ذكراً اللّهم إلا أن يقوم أربابها على المطالبة بها. وعند ذلك نرى لها فصلا بين هذه الأبواب.

الاتفاق

عهد بين وزارتي فرنسا وانجلترا تواطأنا عليه ليكون موضوع البحث في المؤتمر، وأشرنا إلى أن غايته تنازل فرنسا عن جميع حقوقها في مصر ونفض يديها من كل مصلحة لها فيها والاعتراف لإنجلترا بالسيادة عليها وإن لم تذكر حروف السيادة وهذا ما يحتوى عليه من المواد.

الأولى: أن يستمر حلول الجيش الانجليزي في الأراضي المصرية إلى أول يناير سنة ١٨٨٨ (ثلاث سنوات ونصف) ثم لا يخليها إلا بعد انعقاد مؤتمر جديدة من نواب الدول العظام يتفقون فيه على أن الإخلاء لا يضر بالنظام الداخلي لمصر ولا بالعلاقات السياسية بين الدول، فإن حصل اختلاف ولو من دولة واحدة ترى ضرورة إطالة المدة كان الخيار لدولة انجلترا في الجلاء أو البقاء.

دولة انجلترا هي الدولة التي أطلقت مدافعها على مدينة الأسكندرية والمؤتمر منعقد[1] في الاستانة من رجال الممالك العظيمة وفيهم نائب لفرنسا ولم توقر المؤتمر ولم تراع حرمة الدولة ولم تتفق مع واحدة منها على العمل الذي باشرته، فهل

١ ـ أعاد التاريخ نفسه بعد ٧٤ عاماً وأطلقت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل جحيم قنابلهم على مصر لينالوا مأربهم ويحققوا غايتهم وقد نجحوا في قتل إبرياء وتحطيم مبان ولكنهم فشلوا في القضاء على معنويات الشعب وروحه في حياة حرة كريمة.

يعجزها فى خلال هذه المدة الطويلة أن تستميل دولة من الدولة إليها حتى إذا انعقد المؤتمر بعد ثلاث سنوات ونصف ذهبت إلى أن إخلاء القطر المصري من العساكر الإنجليزية يخشى منه على نظام البلاد، أو سلم أوروبا فيكون حجة لانجلترا في إطالة المدة وإن خالفها بقية الدول ومنطوق الشرط يؤيد حجتها ـ وكيف يمكن لبقية الدول إذا خالفت إحداها ان تلزم دولة بريطانيا بالخروج من ديار مصر بعد ما غلت أياديها بتقرير هذا الشرط وكتبت على نفسها أن الجلاء لا يكون حتما إلا إذا اتفقت عليه جميع الدول!! السياسات في اوروبا سريعة الانقلاب والمنافسات لا تقف عند حد يحيط به النظر ومطامع كل من الدول لا تنتهى عند غاية فليس ببعيد بل هو أقرب من كل قريب أن توجد دولة في دول أوروبا تشد عضد انجلترا على دعوى أن إخلاءها لمصر يحدث هزة في سلام أوروبا وربما تكون تلك الدولة هي الدولة القوية التي يصعب على سائر الدول مخالفتها ولا تجد فرنسا عند ذلك موئلا تلجأ إليه سوى الرضاء والتسليم. إذا فرضنا عجز انجلترا عن استهواء دولة أوروبية توافقها على المكابرة في أحوال مصر وأن سياسة أوروبا وقفت على حالتها في وقتنا الحاضر وأن جميع الدول تحالفت على قول الحق فهل تعجز دولة بريطانيا وهى هى عن أن تثير شغبا فى بعض الأرجاء المصرية بأن تغرى مالطيا بقبطى أو روميا بفلاح أو حمار فتسيل قطرات من الدماء تخيل كل قطرة منها بحراً وتنادى أن للفتن مثارات وللعصيان أمارات والنظام في خطر ولها حق المحافظة عليه إلى أن تنقلب أرض مصر جنة يكون فيها أمم العالم إخواناً على سرر متقابلين. ولو اعتبر المسيو جول فرى بالمعاهدات التي عقدتها انجلترا مع السلطنة التيمورية وغيرها من ممالك الهند وكيف أقدمت تلك الدولة على نقضها ولم تبال فيه بعهد ولاذمة لظهر له أن نقض روسيا لعهدها مع بولونيا ليس شيئاً يذكر بالنسبة إلى حفظ انجلترا لذممها مع تلك الممالك العظيمة. لو تأمل هذا الوزير في الأعمال الإنجليزية للام نفسه في الاحتجاج بشرف انجلترا على خلو غرضها واخلاصها فيما واثقته عليه. إن لم يكن فى خاتمة الشرط سر فلم اهتمت بها الوزارة الإنجليزية وألحت على تثبيتها. إن لم يكن لها

غرض في استعمالها وقتها، فلم أصدرت أوامرها بمد سكة الحديد من سواكن إلى بربر على نفقة الحكومة البريطانية. إن كان لمسيو جول فرى ثقة بمسيو جلادستون واعتماد على عفته وطهارة ذيله، فمن يضمن له بقاءه في رئاسة الوزارة إلى نهاية المدة حتى يوفى بعهده. فإذا استعفت وزارة جلادستون لعلة داخلية أو أزمة خارجية وخلفتها وزارة تحت رئاسة اللورد تشرشل أو اللورد سالسبورى وهما من الطالبين الاستيلاء على مصر أو إعلان السيادة الانجليزية عليها فاى مانع يمنعهما من الاستفادة من هذه الخاتمة السيئة في مقصدهما المعروف.

المادة الثانية ألغيت المراقبة الثنائية وسيعوض عنها بتوسيع السلطة لقوسيون الدين العمومي فيمنح حق الاطلاع على مصاريف الحكومة والاعتراض على ما يزيد منها عن المقرر في الميزانية ويكون له ذلك ابتداء من سنة ١٨٨٥ وميزانية تلك السنة تحصرها حكومة انجلترا وتعرضها على المؤتمر الدولى ليقرر ما تحويه على أن يكون قانوناً للنفقات لا يخالف إلا لضرورة تخرق النظام وفيما بعد سنة ١٨٨٥ يخول لصندوق الدين حق مساعدة الحكومة المصرية على تحضير ميزانيتها السنوية بمعنى أنه تعرض عليه قبل تقريرها ليبدى فيها رايه. إلا أن ما يكون له من الرأى في جميع الأحوال ليس إلا استشاريا محصاً لا ينقض ولا يبرم فاذا انجلت العساكر عن مصر يكون له حق المراقبة على تحصيل الايرادات جيمعاً وضبطه على قواعد صحيحة وطرق منتظمة وبهذا يحوز حقوق المراقبة الثنائية ما عدا الحضور في مجلس الوزراء ورئيس القومسيون في جميع الأحوال يكون انجليزياً ـ إن كانت مراقبة قومسيون الدين على تحصيل الايرادات لا تكون إلا بعد انجلاء الجيش الانجليزي. أفلا يكون هذا أملا من الآمال ربما لا ينال وهو يكون فيه عرض حقيق عن المراقبة وهو من رسوم الخيال وبينه وبين الثبوت أمد غير قصير. إن رضيت الأمة الفرنسية بتنقيص فائدة الدين لهذا الأمل الموهوم فقد خسرت كما قالت جريدة (لا جوستيس) خسارة محققة لوعد لا كافل لها بوفائه.

المادة الثالثة إحماء مصر والمكافلة لها «ما يعبر عنه بالحياد) بأن تجعل حكمه

في أفريقيا على أصول حكومة بلجيكا في أروبا وتحرير القناة أى إباحته ممراً لجميع مراكب الدول من أي نوع كانت فإن كانت الدولتين متحاربتين ضرب لبقائها فيه مدة لا يسوغ فيها إنزال عساكر أو ذخائر علي حافتيه ولا تباح المناوشة فيه ولا على القرب منه ولا فوق شيء من المياه المصرية وإن كانت الدولة العثمانية احدى المتحاربتين إلا أن شيئا من هذه القيود لا يحذر أخذ الاحتياط للدفاع عن مصر نفسها إذا دعت إليه أحوال وإذا ألحقت مراكب دولة من الدولة ضرراً بالقناة ألزمت بتعويضه وعلى حكومة مصر أن تهيىء مايمكنها من تنفيذ الشروط على المراكب الحربية مدة الحرب ولا يجوز أن يبنى على حافات القناة ولا على مقربة منه معاقل وحصون وهذه الشروط جميعها تقرر ويجرى حكمها بعد جلاء العساكر الانجليزية عن وادي النيل ـ وفاتحة هذا الفصل تنطق بأن الانجليز إن قصر بهم السعى عن التملك فى الأراضى المصرية فقد هيأوا كلاليب لاختطافها من أيدي المسلمين والانقلاب بها إلى قوم آخرين كما أشرنا إليه في موضع آخر. هذا الذي صرح به من تشكيل الحكومة في مصر على مثال حكومة بلجيكا هو الأمر العظيم الذين نوهه مسيو جول فرى وقال أنه من أجل أحكام السياسة وأسماها وصحيح العقل يرتاب فى كونه حكما سياسيا فضلا عن كونه ساميا لما يلاحظ فيه من عواقب المكالبة والشحناء بين الامم الأوروبية إلى أجيال بعد ما تقرر لديهم أن الشرقي لا يليق به أن يستقل بحكم نفسه!! فأن خدعه الظاهر فربما يرى فيه خيراً لفرنسا أو لاوروبا بمعنى أنه أفضل لها من التملك الانجليزي. أما المسلم فيراه نكاية لملته والشرقي يجده خراباً لبلاده. هذا الأود الذي ظهر في سياسة مسيو جول فرى لا يقومه إلا حمية الدولة العثمانية واشتدادها في حفظ مكانتها السياسية وحرص مجلس النواب الفرنسى على حماية المصالح الفرنسية التي يسهل صونها بشيء من العزيمة وبصيص من البصيرة ولله الأمر يفعل ما يشاء.[1]

---

١ ـ تأميم قنال السويس، وسده بقنابل الأعداء، واستئناف الملاحة فيه بادارة مصرية، خير ما يمكن أن يعتزا به الأفغاني ومحمد عبده، لو بعثا من عليائهما.

الباب العالي

روت جريدة الديلي نيوز خبرا يسر كل مسلم يهمه نجاح الدولة العثمانية ويرى عزته في عزتها وذلك أن الباب العالي يأبي أن يرى جيشاً انجليزياً يحتل مصر ويرغب إذا اشتد العصيان أن يفوض الأمر إلى الخديوى الذي يتبع نصائح الدولة العلية صاحبة السلطة الشرعية عليه، وكل شرط يرمى إلى جعل مصر تحت حماية أجنبية فليس عند الباب العالى في موضع القبول لأنة يكون تمهيداً لاضعاف سلطة السلطان على تلك البلاد ويمكن أن يقبل الاتفاق الفرنسي الانجليزي في غير هذين الأمرين (الاحتلال الانجليزى والحماية الاجنبية).

وورد فى رسالة من مراسل جريدة نوفل بريس ليبر الفرنسية مناقشة جرت بينه وبين أحد السياسيين الروس نقلتها جريدة التان جاء فيها أن دولة الروس ستقاوم دولة بريطانيا فى مطامعها وتؤيد الدولة العثمانية في مطالبها رعاية لمصالحها المرتبطة بمصالح العثمانيين في المسألة المصرية وفي الاتفاق المنعقد بين دولتى فرنسا وانجلترا.

الانجليز والاسلام

الحكومة الانجليزية عدوة المسلمين عداء شديدا لالتهامها الممالك الاسلامية، تغذ المسير إلى آرابها منها سالكة جادتها المعهودة من اللين والمواربة والخديعة والمخاتلة، فان بلغ بها السعى حداً من الغرض فذلك، وإن عجزت أخذت طريقاً آخر لا نتزاع قطعة من أيدى المسلمين بأية وسيلة وتسليمها لقوم من سواهم أياً كانوا كأن لها لذة في نكاية أهل الدين وكأنها تبتغى السعادة في تذليلهم ومحو ما يكون من ملكهم. وكمال بهجتها في أن تراهم أذلاء عبيدا لا يملكون من أمرهم شيئا وفي تصانيف جلادستون وخطبه الضافية أيام الحرب العثمانية مع الروس ومقالات أشباهه نبأ بل أصدق الأنباء عما تكنه صدور الإنجليز من العداوة للمسلمين.

لهذه الحكومة طمع التمكن في أرض مصر ولها من كل جبل قبضة وفي كل سبيل خطوة لتنال مطمعها. وهمتها اليوم في إرضاء بعض الدول على استبدادها بالأمر فى مصر بما تسول لسياسييها من أوهام المنافع وخيالات الفوائد وفي تثبيط بعضها بالمراوغات والتهديدات. فان بلغت همتها مبلغ القصد فهو خير ما تطلب وإلا عقدت عزمها على نقل الولاية في مصر من أيدى المصريين والعثمانيين إلى أيدى أقوام آخرين. هذا ما تشير إليه جريدة الديلى نيوز الوزارية «الانجليزية» عند كلامها عن قناة السويس حيث تقول: يمكن القطع بحياد القناة على الاساس

الموضوع في برقية اللورد جرانفيل المرسلة إلى الدول في ٣ يناير سنة ١٨٨٣ وليست تلك الحيدة إلا حكما من أحكام النظام الذى وضعته الوزارة الإنجليزية ليكون قاعدة تقوم عليها هيئة الحكومة المصرية بعد جلاء العساكر عنها. ولكن لا يرى الإنجليز في حيدة القناة وحدها ضمانا صحيحا لوقاية مصر من غارة دولة أجنبية عليها، ولا كفالة كافية لاستقلالها بل يمكن أن يذهب الرأى إلى ضرورة حيدة مصر نفسها بأن تحول حكومتها إلى حكومة سويسرية أو بلجيكية فى أفريقيا وتوضع تحت حماية الدول عموماً فتؤمن الإغارة عليها من إحداها إذا آل الأمر إلى هذه الحالة «والعياذ بالله» فهل يسمح أرباب الحماية أو السيادة بتفويض أعمال الإدارة والقضاء والمالية للمصريين العارفين بشئون بلادهم: كيف نظن هذا وقد سجل عليهم الإنجليز أنهم أضعف من أن يقوموا بعمل جزئي أو كلي في خدمة أو طانهم وأن من الضرورى لحياتهم أن يكونوا آلة صماء في أيدى غيرهم من الأوروبيين. قد يعقب ذلك لو حصل تشكيل مئات من المجالس في القطر المصرى كلها تشبه المحاكم المختلطة أما مجالس الفصل والقضاء ابتدائية واستئنافية، فالأمر فيها بين، وأما إدارة الداخلية والمالية وفروعها فلا تستقل بها دولة من الدول فان طبيعة الأمر تأباه فلا يتولى أعمالها إلا مجالس مؤلفة من أقوام مختلفة الاشكال واللغات متبائنى الحكومات. ولو تفضل السائدون على المصريين عند بداية العمل لسمحوا بأن يكون في كل مجلس واحد منهم إلى زمان محدود.

أولئك الأعضاء الأجانب وهم نواب دولهم لا يكون سيرهم إلا كما سار إخوانهم من قبل. كل منهم يستدعى من أبناء جلدته من يستخدمه في وجه من وجوه الأعمال التي يولى النظر فيها وتقع بينهم المنافسات ثم تكون المحاباة كل يتغاضى عما يأتيه الآخر ليتغاضىٰ الآخر عنه فلا تكون مدة حتى تضيق أرض مصر بالأجانب ولا يعود فيها مقر لوطنى، هذا إلى ما يتبعه من إقامة عسكر مختلط للمحافظة فى المدن والأقاليم، فلا يبق للمصريين إلا خسائس الأعمال يفلحون الارض ويعانون

الأعمال الشاقة ولكنهم أجراء عسفاء لغيرهم يودون ثمرات ما يكسبون إلى من لا يعرفون يخرجون عن جميع ما كانوا نالوه في الأزمان الأخيرة من عهد محمد علي إلى الآن، ولا يمر زمن طويل إلا يصبحون كسكان الأمريكتين ينحسرون إلى بعض الأطراف القاصية عن العمران أو يندمجون مع الأجانب فلا يوقف لهم على أثر صحيح وتصير الأراضي المصرية مأهولة بأخلاط مختلفة كما في أراضي أمريكا الجنوبية والشمالية ويقوم لفيف أولئك الأغراب مقام أبناء الأرض الصادقين وهذا مما لا يسر عاقلا «وأن راق في نظر بعض المباركين» وأملنا في الدولة العثمانيةأن تقوم على قدم، ثبت عليها الأسلاف الأولون وتقدم بعزيمة ثابتة على المطالبة بحقوقها في مصر وإعادتها إلى حالتها الأولى قبل التدخل الانجليزي ثم تلق بزمام الحكومة فيها إلى ذوى عزم من المصريين صيانة لحوزة الاسلام. وفي الظن أن دولة الروسيالا تفوتها هذه الفرصة لمساعدة العثمانيين لتستميل إليها قلوبهم ولا تختلف عنها دولة فرنسا فان مصالح الدولتين في فتوحاتهما بالبلاد الشرقية تقضى على السياسيين فيهما «إن كانوا كما يقال سياسيين» بالاتحاد مع العثمانيين.[1]

---

١ ـ مرة أخرى هذا هو المأخذ الوحيد على الأفغاني فهو لا يزال يصر في صراعة الصحفي على طرد الإنجليز والأجانب واستبدالهما برمز الدولة العثمانية لأنها على حد قوله صاحبه الحق الشرعى مع المصريين في إدارة البلاد!!

الباب العالي والانجليز

يهتم المسلمون في كل أرض بأمر ما يجرى فى مصر، بل تذهب نفوسهم حسرات كلما رأوا أو سمعوا أن جنديا أجنبيا يجول في نواحيها مقاتلا أو حامياً وليس شأن مصر عندهم كغيرها من البلاد فإنها بهرة الإسلام وباب الحرمين الشريفين فكل نازلة بها ترزأ الدين وتصدع من أركانه والمسلمون في قلقهم هذا ينظرون إلى الدولة العثمانية ويقلبون وجوههم في سماء سلطتها الحسية والمعنوية يرجون منها عزمة ثابتة تنقذ بها الأراضي المصرية من تبوىء الأعداء ويحفظ بها شرف المسلمين ومكانتهم بين الأمم، وتصان بها ولاية الإسلام من السقوط في حبائل هذه الدولة الداهية «دولة الانجليز» التي أخذت على نفسها أن تبيد ولاية هذا الدين وتحول حابله على نابله، هذا فضلا عما يراه كل مسلم من أن عزة الدولة العثمانية وشوكتها ليس إلا بسلامة ملكتها على مصر فإن قضى فيها الأمر لغيرها «والعياذ بالله» أصبحت حقوق العثمانيين في جميع ممالكهم معرضة للخطر، فهذه دولة الإنجليز كمرض الآكلة يظهر أثره ضعيفاً لا يحس به عند بدئه ثم يذهب في البدن فيفسده ويبليه بدون ان يشعر المصاب بالألم هكذا شأن الانجليز في لينهم وتلطفهم وحلاوة وعودهم وتملقهم وخضوعهم يسلبون المالك ملكه بل الحي حياته وهو مأخوذ بما يشعذون له ولا ريب في أن الإهانة التي تمس الدولة العثمانية تنال جميع

المسلمين في الشرق والغرب فإن كل مسلم وله الحق بعد هذه الدولة دولته ولو تباعدت الأقطار. إن الهنديين إلى اليوم وما بعد اليوم يباهون بها ويحسبون أنفسهم في عداد الأمم التي لم تذهب سلطنتها ويعتقدون أن لهم سلطاناً قوياً في الدولة العثمانية بل يرون أن خلاصهم من قيد الرق الانجليزى لابد أن يكون يوماً ما بسعيها وقد أظهرت أيام الحرب الأخيرة آثار لحمتهم معها باللحمة الملية بما لم يبق ريبة لمرتاب في شدة صلتهم بها.

لهذا كنا نعجب لسكوت الدولة العثمانية في هذه الأزمان الأخيرة عندما اشتدت مقارعات السياسيين من كل دولة وتصارعوا في المفاوضات والمجادلات محاماة عما لهم من المصالح في مصر مع ان الدولة كانت أحق وأولى من جميع الدول بالاهتمام وبذل الجهد للمناضلة عن حقوقها الثابتة إرضاء لخواطر المسلمين عموماً واستبقاء لحسن عقيدتهم فيها وحماية عن ممالكها وأهم مملكة منها إلى أن اطلعنا على إعلان بعث به الباب العالى إلى الدول بطريق التلغراف فيما يتعلق بالاتفاق المنعقد بين فرنسا وانجلترا في المسألة المصرية أتى فيه على بيان العواقب السيئة التي تنشأ من طول مدة الاحتلال الانجليزى في مصر وأظهر أن مجرد تحديد المدة لا يكف الانجليز عن حرصهم وغاية مافيه انه يستتبع مداعاة الدول والدولة العثمانية مع الإنجليز وبرهن على أن بقاء العساكر الانجليزية في مصر ليس بضرورى في حل المسألة. فإن كانت الدول لاترى في العساكر الأهلية كفاية لصيانة البلاد من الخلل، فالباب العالى مستعد لإرسال العساكر إليها على ما تقتضيه حقوقه فيها كما عرضه على الدولة البريطانية وجرى البحث فيه ولكن حال دون الاجراء موانع سياسية. فإن لم تقبل الدول أن يستقل الجيش العثماني بحل هذا المشكل فإنه يعرض عليها أن يحتل مصر جيش مختلط يولف من عثمانيين وفرنسيين وانجليز وإيطاليين وأسبانيين وإلى الدول تعيين الأجل في الوجهين وزاد الباب العالى في إعلانه هذا خدشاً لخواطر الانجليز حيث قال إن الانجليز قد أنهوا أعمالهم في محو العصيان وتثبيت سلطة الخديو إلا أنهم

لم يأتوا في تحسين حال مصر وتقويم نظامها إلا بما فيه إجراء بعض مقاصدهم السابقة.

وإنا نقول كما يهتف به كل مسلم أن من فروض الدوله العثماينة أن لا تدع وسيلة للذود عن مصر وكف يد الانجليز عنها وأن تكون همتها في ذلك كهمتها في الذود عن نفس الاستانة وليس لها أن ترهب هذه الرعود وتلك البروق التي لا تعقب مطراً، ومن الحق أن نقول أن في مكنة العثمانيين أن يقوضوا هذا البيت البلوري «بيت العظمة الانجليزية» بحجر واحد فإذا اشتدت الأزمة تيسر لهم السعي في الوئام بين الايرانيين والأفغانيين والبلوجيين ولا يكلفهم هذا إلا كلمتين يستندان إلى أصل ديني قويم، وعندها يعرف الانجليز مقام أنفسهم في الأقطار الهندية والممالك الشرقية. هل تسلط الانجليز في الأراضي الهندية الواسعة إلا بسبب المخاصمات المذهبية التي كانت بين الافغانيين والايرانيين، ولو نظرنا إليها نظر التحقيق لما رأيناها مما يوجب شق العصا وتفريق الكلمة ولا ريبة عندنا أن رفع الشقاق وتجديد الوفاق بين تلك الأمم أيسر شيء على الدولة العثمانية لما لها من المكانة العليا في نفوس المسلمين قاطبة. ولا يظن أن اعتصام الانجليز في جزائر بريطانيا والهند يقصر بالعثمانيين عن النكاية بهم لانقطاع السبل بين هؤلاء وأولئك وانسداد المسالك بين الممالك العثمانية والانجليزية. فإن الظن يختلف عند وجود الاتفاق بين الأفغان والايرانيين واتحاد كلمة الفرس مع العثمانيين، هذه طريق محمرة وبندرعباس إلى بلوجستان مفتوحة للسالك مطروقة للسابل وهى الطريق التي سلكها أول جيش إسلامي بعث به الحجاج بن يوسف لفتح السند إن هذه لجولة لو كانت لأثارت في وجوه الانجليز غبرة يضلون فيها عن رشادهم.

ومعلوم أن الحي لا يسلم نفسه للموت بلا مدافعة مدام قادراً عليها. يكفي لقيام مليون من المقاتلين الأفغانيين والبلوجيين، تحرك خمسة آلاف عثماني إلى أحيائهم. لست أبالي أن أقول الحق إذا حصل التساهل في أمر مصر وانفتح باب

المطامع لكل دولة صغيرة أو كبيرة وعزت بعد هذا وسائل التلاقي فلتأت الدولة العثمانية على ما في الوسع، ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم.

* * *

أسف

غالت نائبة الدهر طراز العرب، وزهرة الأدب، صفينا أديب أفندى اسحق. قضي نحبه في شرخ الشبوبية، وعنفوان الفتوة، وترك لنا قلوباً آسفة، وشؤونا فائضه، إنا لله وإنا إليه راجعون.

حرية الصحافة والاستعمار!

أسف يصهر الجسم ويذيب الفؤاد وحسرة تفلذ الأكباد على قبيل من أمة أو شخص منها ذى همة يستعين اللّه في عمل ينقذ أمته من ضعة أو يرجع إليها بمنفعة ثم يوجد له في وجهة عمله من تلك الأمة من ينجم كقرن المعز ليفقأ عين العامل الفاضلة فيقطع عليه أسباب العمل ويعرقله عن القصد ليكسب مدحة باطلة أو منفعة عاجلة وإنما مثل من يكون على هذه الصفة في الأمة كمرض السكتة في البدن أو الصدع في الرأس أو الخبل في العقل أو الشجى في الحلق أو القذي في العين. هؤلاء هم الذين يقعدون بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل اللّه والحق ويبغونها عوجا.

لو كان في هؤلاء العصال الطباع «الأعصل المعوج في صلابة» بقية من الانسانية أو أثر من العقل يدركون به ما ينشأ من أعمالهم الجزئية من المضار الكلية ويشعرون بهذا الجرم العظيم الذي يدك الرواسي ويهد الشامخات، لذا بوا خجلا واستتروا عن الناس بحجاب العدم وتمنعوا لو محيت أسماؤهم من لوح الوجود. ولكن يظهر من جرأتهم على خطيئتهم أنهم ذهلوا عن أنفسهم فلا يعلمون ماذا يعملون، هذا العمل الصغير الذي يجلب على الأمة شراً كبيراً أو يحرمها من خير عام ليس في وسع حكيم من البشر أن يحدد درجته من الخسة والسفالة ولا في طوعه أن يحيط

بكنه الفساد الذي ضرب في طمع شخص يقدم على مثله ولا توجد كلمة ولا جملة ولاكتاب يفي ببيان حاله سوى أن يقال خائن ملته ووطنه.

أولئك أشخاص كثيراً ما يوجدون في الأمم المعتلة يشبه أن يكون فمنهم صاحب جريدة «أوده أخبار» التي تطبع في «لكنهو» من بلاد الهند انفض رأسه ورفع عقيرته على جريدة «اميرتابازار برتركا» التي تنشر في بلاد ـ بنجاله ـ كتبت هذه الجريدة «البنجالية» فصلا بينت فيه سوء معاملة الحكومة الانجليزية الهندية وخشونتها على الهنديين وإهانتها لهم واجحافها بحقوقهم وحرمانها لهم من خدمة أوطانهم وأثقالها عليهم بالضرائب الباهظة واستئثارها بجميع مايكسبون من كدهم وتعبهم مع احتكارها جميع ينابيع الثروة مما أوجب شدة الضيق والضنك في عامة الأقطار الهندية وكان سبباً في انحراف قلوب الهنديين عن الحكومة ونفرتهم منها. ثم انبعث هذا بقولها فليس لحكومة الهند بعد ذلك كله أن ترجو مساعدة رعاياها لها عند وقوع حرب بينها وبين الروس ولا أن تؤمل في العساكر الهندية بذل أرواحهم في الدفاع عنها فإن الجند يشركون الأهالي فيما ألم بهم ويألمون كما يألمون، وليس من الحق لحكومة بريطانيا مع سلوكها هذا أن تلوم الهنديين إذا آثروا عليها دولة الروس واختاروها حاكمة لهم، هذا مجمل ما قالت وأقل ما كان يترتب على هذا الكلام وأمثاله من الفوائد هو تنبه الحكومة الانجليزية لما خرجت به قلوب الأهالي وأحرجت صدورهم فتعدل مشربها وتقوم منهجها مع الهنديين وترفع عن كواهلهم بعض الضرائب الثقيلة وتمنح الوطنين بعض الوظائف في الدوائر الملكية أو العسكرية وتكف عن إهانتهم وتذليلهم ليكون لها عدة إذا دهمتها أم صبور «الداهية أو الحرب الشديدة» من جهة الشمال.

وكان على الهنديين خصوصاً أرباب المعارف منهم أن يؤيدوا القائل في قوله أو يحمدوا له سعيه أو يتركونه وشأنه لعل يستتبع ذلك خيراً كثيراً أو قليلاً لأوطانهم وأبناء أمتهم، ولكن وآسفاً بدل هذا يلتوى صاحب جريدة (أوده أخبار) ويجور

عن جادة الصواب في تقريع الجريدة البنجالية وتعنيفها ثم يطلب من الحكومة الانجليزية أن تمحو حرية الجرائد من بلاد بنجالة، وهذه الجريدة وأن وصفها مقوم الجرائد في الهند (مدير المطبوعات) بأنها متملقة معممة للحكومة، إلا أنه ماكان يخطر ببالنا أن تنحط وتسفل إلىٰ هذا الدرك ولا أن ترتكب في تملقها هذه الجريمة العظمى وهى طلب محو الحرية في البنجالة وصد أبناء وطنها عن التنبيه على بعض حقوقهم وشكاية شيء من أرزائهم لا حول ولا قوة إلا بالله.

تركيا

ليس فى التعلات أعجب مما يتعلل به الإنجليز ولا فى المحاورات أغرب مما يستدلون به. لا مقدمات بينة ولا حجج قيمة وأقوى ما يكون من أدلتهم أولى به أن يكون فى معرض الهزل من أن يكون في جانب الجد. ولكن أغرب من جرأتهم على الجهر بداعبة الأمم بما هو أشبه بالترهات أصغاء الآذان. لما يقولون وانصراف الأذهان عن بيان الهجو فيما يوردون وإظهار الوهن فيما به يتعللون ليتهتك الستار عن أغراضهم وتظهر خفيات مقاصدهم وترتفع الريبة عمن يخدعون بملاعباتهم.

إن الإنجليز ساقوا جيشاً إلى مصر وبوأوه أرضها مدة لا تزيد على سنتين فكان حلول جيشهم سبباً في انحلال النظام واختلال الأحكام وعموم الفساد في أرجاء البلاد حتى صار الناهبون وقطاع الطرق على نحو الجيوش المنظمة سرايا وكتائب تزحف للغارة على القرى والبلدان ضاحية بلا استتار وسرى الاختلال في عموم الأعمال الإدارية والقضائية ففقدت الأمنية على الحقوق كافة وسقطت البلاد بسبب ذلك إلى درك من الضيق والعسر لم يكن يخطرَ على بال ـ وما كان شيء من تلك الفظائع ولا واحد من هذه المفاسد ولا قليل من هاته الشدائد موجوداً أيام الحركة التى سموها فتنة عسكرية واخترعوا منها دليلا على الفوضى وزعموا فيها وسيلة للتداخل بعساكرهم.

حالة مصر شاهدة على أنه لم يكن للاختلال فيها اسم ولا للفوضوية أثر إلا بعد ما وطيء الإنجليز أرضها ومع ذلك يزعمون أنهم ما أتوها إلا لتقرير الراحة وإصلاح النظام وإزالة الفوضى ويريدون أن تمتد إقامتهم فيها إلى أجل بعيد ليتمموا القصد الذي أتوا إليه وشرطوا جلاءهم عنها برسوخ الأمن وانقطاع شأفة الاعتداء واجتماع خواطر الأهالي على الرضى بما يرسم عليهم من السائدين في ديارهم والتسليم لما يقضى به فيهم ـ ألا يعجب من هذه التعلة ـ هل يوجد أبله في أي أمة يظن في المصريين الركون إلى السكينة مادام الجيش الأجنبي متبوئاً ديارهم، أليس وجود عسكر أجنبي تحت أنظارهم كافياً في نفرة قلوبهم وازدياد شغبهم ـ الطبيعة تحكم باستحالة ما يطلب الإنجليز منهم، والتجربة من مدة سنين طبقت بين الحكم العقلي وبين الواقع الحقيقي ـ هل يمكن سلامة خواطر المصريين من القلق بعدما علموا أن الإنجليز لم يفتتحوا بلداً من بلاد الشرق إلا تحت راية هذه الحجج وعلى هذه الطريقة التي يسلكونها في مصر وهل كان لهم سلطان في جهة من جهات الشرق إلا بدعوى أنهم يريدون فيها الإصلاح ثم ينجلون عنها أتقياء الرحات أعضاء الذيول.

ماذا يريد الانجليز من تقرير الراحة بعساكرهم في مصر؟ هل يريدون مكافحة اللصوص حتى يقهروهم على طرح السلاح ويقوا الأهالي شرهم، إن كان هذا قصدهم فياخيبة الأمل فان شيئاً من هذه الفظائع لم يكن إلا وجيوشهم نازلة بالبلاد، فكأنما كانت تلك الجيوش مثاراً لهذا الفساد مضى عليها سنتان وهي في معاقل مصر وهبت أعصار السوء بقدومها وكلما طال الزمن زاد الخطر وقويت عصابات الشر فماذا قيل يكون منها في ثلاث سنين ونصف إلا مثل ما كان من أثرها في سنتين أو أشد فتنة. فكيف يعقل أن يكون بقاؤها في مصر مفيداً لرد الأمن إليها، وهل تكون علل المفاسد مجلبة للمصالح. نعم يكون هذا إذا قيل أن حصو الرمضاء يطفئها أو أن وقود النار يخمدها، هل يقصدون من تقرير الراحة إخماد فتنة

السودان. إن صح هذا القصد منهم فتى سعوا إليه وأي جيش ساقوه وأي قوة وجهوا بها لتكسر سورة الثورة وتمحو أثرها. تهافتوا بجيش عظيم على منازلة رجل من رجال محمد أحمد (عثمان دجمة) في سواحل البحر الأحمر فما كانت الا مهارشة هرت فيها العساكر وبلغ صوت وقوف القواد إلى أقاصي المسكونة وارتد بهم الذعر إلى البحر وقفلوا إلى ديارهم يتلفتون إلى ماوراءهم خوفاً ورهبة. كان الواجب أن يتبعوا عثمان دجمة إلى بربر والخرطوم حتى يبددوا جنده ويلحقوا به صاحب الدعوة. فان عجزوا عن الكل فلا أقل أن يأتوا على البعض فما الذي صدهم عن سبيل القصد، لو كانوا فيه من الصادقين رجعوا وتركوا جوردون باشا فى فم التنين ثم التجأوا إلى ملك الحبشة ليثيروا به حرباً صليبية تسود بها وجوه الكاذبين الذين يزعمون أنهم دعاة الإنسانية ورعاة التمدن. فماذا يكون من عساكرهم لو أقامت فى مصر أضعاف ما أقامت، أظن لا يختلف المستقبل عن الماضي إلا بعظم خطوبه واشتداد نوبه.

هل يبتغون المحافظة على حدود مصر الأولى وحمايتها من هجمات السودانيين ويقفون عند حد المدافعة ولا يذهبون إلى ماوراء ذلك، إن كانت بغيتهم، فهى بغية البقاء في مصر مادامت مصر أو السودان سودانا، لأن صيال الثائرين يتوقع في جميع الأطراف من حدود مصر وأداموا قائمين بنشر هذه الدعوة بل كلما طال الزمن اشتد خطرهم وقويت أعضادهم وكل كرة لهم أو فرة تقوم بها للانجليز حجة في ملازمة الحدود المصرية للدفاع عنها فلا يكون لحلول الجيش الانجليزى بأرض مصر أمد ينتهي ولا أجل ينقضي. فما لهم ينبسون على الدول والدولة العثمانية والمصريين بتحديد مدة الحلول إلى ثلاث سنوات ونصف مع سرد الألفاظ المبهمة كتقرير الراحة وحفظ النظام وإعادة الطمأنينة ألخ مما يسمع ولا يفهم.

وليس من المبالغة أن نقول أن حلول الجيش الانجليزى كان وسيكون من أعظم الأسباب لقوة محمد أحمد ولولا وجود العساكر الإنجليزية في مصر ماتمكن

الرجل من الجهر بهذه الدعوة العظيمة ولقد كان يتبرأ من نسبتها إليه أيام كانت الحكومة المصرية خالصة للمصريين بل ما كان يجد أحداً يلبي دعوته أو يدخل تحت رايته. هذه تواريخ الأمم وهذا سير طبيعة الكائنات ترشد المستبصرين إلى أن مثل هذه الدعوة لا يقوم قائمها في أمة الا عند اشتداد الخطوب عليها وزحف الأغراب اليها. أي حجة لمحمد أحمد في دعوة الناس إليه وأي نفثة تجمع القلوب عليه أقوى من أن يقول أن الانجليز من نيتهم الاستيلاء على ارض مصر وهي في عداد الأراضي المقدسة وباب الحرمين الشريفين ومهد العلوم الدينية ودعامة القوة الإسلامية فمن كان يؤمن بالله رسوله فليجب داعي الله في مدافعتهم وانقاذ البلاد من رجسهم. وهذا الكلام مما يزعج قلب كل مسلم ويبعثه على الاتفاق مع صاحب النداء. هل يتوهم بعد سقوط خرطوم وجيش الإنجليز حال بأرض مصر أن تقف دعوة محمد أحمد عند تخوم محدودة وهو الزاعم أنه منقذ المسلمين. هل يبعد عند العقل أن يمتد لياق شعلته إلى أقطار إسلامية يخشى الإنجليز منها غائلة الفتنة كما يخشونها في الهند. قد نرى الحالة أقرب إلى المخافة منها إلى الأمن وسيعلم الانجليز انهم كانوا أحوج الناس إلى السلم وأفقرهم إلى القناعة.

أي قوة تقف هذه الدعوة وتحجبها عن الانتشار بل تردها على قائلها وتذهب بها كأن لم ينطق بها لسان أو يذعن لها جنان. ليس لقوة أن تأتي بهذا الأثر على أحسن وجوهه إلا قوة العثمانيين وأولى العزم من المصريين ـ هل تظن دولة بريطانيا أن عقد مؤتمر لتصفية الدين المصري يبطيء سير محمد أحمد أو يخفف من وطأته أو يرده على عقبه فتنال مقصودها وتصبح آمنة مطمئنة في ديار مصر. إنها إلى الآن في عجز عن إرضاء الدول بقبول الأصول الابتدائية التي تحب أن تكون موضوعاً لبحث المؤتمر ـ إن تصفية الدين المصري يهم انجلترا وحدها ولا نظنه يهم الدول ولا يهم محمد أحمد. وإنا نرى الدول خصوصاً دولة الروسيا والنمسا والأمة الفرنسية مهتمة كل الاهتمام بكشف مقاصد الانجليز والنبش عن غاياتهم فيما كانوا

شرطوه من تخصيص البحث بالمسائل المالية حتى أن شدة المعارضات وكثرة المفاوضات والاشتداد من الدول في طلب تعميم البحث فى المؤتمر ليحيط بجميع فروع المسألة المصرية أحدث شكا عند صاحب جريدة التايمس فى انعقاد المؤتمر ودفع بالمسيو جلادستون إلى ربكة شديدة فهو من أمره فى حيرة لا يهتدى إلى ما يسكن به خواطر الدول بل ولا مايقنع به أودآءه المخلصين بل ولا ما يوفق به بين زملائه فى الوزارة لتفرق كلمتهم وتباين آرائهم. أما قائم السودان فهو فى اعراض عن كل هذه المجادلات واغضاء عما يكون فى عرضها من المحاولات. سواء عنده إنعقد المؤتمر على رغبة الانجليز أو على وفق الآراء العمومية. وهو مغذ فى سيره ذاهب وراء فكره ولا يمر يوم من أيامه إلا ونسمع فيه بخبر فتح أو حديث زحف حتى جاءت الأخبار الأخيرة بدخوله عاصمة السودان (الخرطوم).

* وورود فى برقية من القاهرة إلى (الديلى تلغراف) بتاريخ ٣ يوليه أنه وصلت رسائل من بعض عساكر السودانيين وهم فى مدينة خرطوم إلى أناس يوثق بهم فى القاهرة ذكر فيها أن حامية المدينة ضعفت عن دوام المدافعة وأعلن محمد أحمد بتأمين جميع السكان على أرواحهم وأموالهم وأخذ على نفسه وقايتهم من كل ضرر يتوقعونه فبضعف الحامية وثقة الأهالى بوعد الفاتح فتحت المدينة بغاية السهولة فى نهاية شهر مايو بدون سفك دم وأن كثيراً من الأفرنج أسلموا وأن جوردون مع كونه مستمسكا بدينه ولم يبدل دخل فى أمان الفاتحين وسيق إلى محمد أحمد محفوظاً لم يمسه سوء.

* وفى خبر آخر بالتاريخ عينه أن القسيس (سوقارو) وكهنة الرسالة الكاثوليكية فى السودان وردت منهم اخبار من أهالى خرطوم تفيد أن المدينة فتحت ووقع جوردون أسيراً ولم يزل إلى الآن على قيد الحياة. ونقلت جريدة (الديلى تلغراف) أن تاجراً في القاهرة أتاه كتاب من جنوب بربر يخبره أن الخرطوم مفتوحة الأبواب لمن يقصدها بالتجارة وإن كانت فى قبضة جيوش السودان، وفى

رسالة في مكاتب التان بسواكن ان جماعة من الوجهاء في مدينة خرطوم دفعتهم الحمية للانتقام من جوردون أخذاً بثأر الضابطين الذين قتلهما بتهمة الخيانة (حسين باشا و سعيد باشا) فهجموا عليه وقتلوه ثم اتفقوا مع المحاصرين على تسليم المدينة فدخلوها آمنين، ويزعم المراسل أن للحكومة البريطانية علماً بهذه الحادثة من زمان طويل إلا أنها كتمته خفية هيجان الأفكار عليها ونحن لا يهمنا موت جوردون ولا حياته ولا راحته ولا عناؤه وإنما يظهر من كل هذه الأخبار أن خرطوم أصبحت سودانية لا انجليزية ولا مصرية فإن تمكنت وزارة مسيو جلادستون من تفنيد المستفيض من هذه الروايات فربما يصعب عليها المكابرة فيما يعقبها، إن شوكة الداعي تقوى بعد فتح خرطوم وتمهد له سبل عديدة للوصول إلى مصر العليا أو السفلى وإن تأثير دعائه يقطع مسافات بعيدة في هنيهات قصيرة.

* * *

ماجت خواطر المصريين واهتزت قلوبهم لسماع هذه الأخبار وربما نسمع بعد اليوم أن ريح الجنوب حملت قسطلا تثيره سنابك خيل الفتنة وجاوزت به حدود مصر فإن كان هذا شأن الحركات في بلاد السودان فتعليق الانجليز جلاءهم على انقطاعها يشهد برغبتهم في الاحتلال الدائم ما بقي محمد أحمد و مابقيت له خلفاء، على أننا نرتاب في قدرة عساكرهم على صيانة التخوم المصرية فقد ظهرت نهاية قوتها على سواحل البحر الأحمر. نعم ربما يختلج بخواطر الوزراء البريطانيين أن يخدعوا الدولة العثمانية ويحملوها على الحكم بعصيان محمد أحمد وتضليله ليحولوا القلوب عنه ثم يجنوا الثمرة كما جنوها من الحكم بعصيان أحمد عرابي ولكن قد تبين الرشد من الغي وظهر للدولة العثمانية سوء طوية الانجليز وعدوانهم على حقوقها فليس من المحتمل أن تنخدع لهم مرة ثانية ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، كما أنه يشبه المحال أن عثمانياً يجوز سوق الجيوش العثمانية إلى السودان لتذليله وعساكر الانجليز في القاهرة ثم ينتظر العثمانيون بعد انقضاء الفتنة نهاية المراوغات الانجليزية

حتى تؤول مسألة مصر إلى مثل ما آلت إليه مسألة بوسنة وهرسك مع دولة النمسا، فعلى العثمانيين وأصحاب العزيمة من المصريين أن يجمعوا أمرهم على كشف هذه النازلة صوناً لأوطانهم ولا تقاء شر ربما يحدث في جهات اخرى، فإن قضى حرص دولة الانجليز بصد أرباب الحقوق الشرعية عن أداء المفروض عليهم جهلا منها بمصلحة نفسها وبمصالح تلك البلاد فعلى العثمانيين أن يقيموا الحجة بسيوفهم وجيوشهم لا بالرقائم والأوراق فإن هذا فساد لو أهمل لعم وعمت زواياه ولا نظن أن دولة بريطانيا تثبت على نفختها هذه فإنها ستشتغل بداخل البيت عن خارجه بعد قليل.

لسنا نقول، ما نقول جزافاً، ولكن دعوة القائم السوداني أشربت قلوب الأكثرين في الهند وبلوجستان وأفغانستان وقد علق شرر الثورة بأهداب الخواطر فلا تلبث أن تلتهب فللدولة العثمانية أن تمد نظرها إلى أعماق المسألة وتقدر قوة الانجليز وأهبتهم العسكرية مع ملاحظة ارتباكاتهم في ممالكهم وظهور عجزهم وضعفهم في الحوادث الأخيرة ومراعاة آراء الغالب من الدول العظيمة وبعد الإحاطة بهذا كله وهي أسهل من كل سهل تظهر عزماً ثابتاً وبأسا قويا يليق بدولة عظيمة كدولة آل عثمان طالما ظهرت على يديها خوارق العادات ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الباب العالي

ذكرت جريدة استنداران معارضة الباب العالى لمطامع انجلترا ليست قاصرة على الممانعة فى جعل مصر حكومة بلجيكية فى أفريقيا تحت حماية الدول كما فى عزم جلادستون أن يعرضه على المؤتمر. بل صرحت الدولة العثمانية لسفيرها في لندن مرزروس باشا بأنه متى وضعت لائحة جلادستون موضع البحث فى المؤتمر بعثت إليه بتعليمات للمعارضة الشديدة في هذه المادة وكل ما يكون من قبيلها (ما يمس حقوق الدولة والمصريين) ولا نرتاب في أن الدولة العثمانية بعزمها هذا قد قامت بفريضة شرعية ومثلها من يقوم بها في مصر وفي سائر الممالك العثمانية فإن كل ذى بصيرة يدرك أن صيانة جزء من ممالكها موقوف على صيانة الأخر والتفريط في شيء منها يحدث الخلل في الباقي. وكفانا عبرة أن مجرد طلب جلادستون لحرية قناة السويس حمل دولة الروس على طلب بوغاز البوسفور كما ذكرته الجرائد الروسية ودعا بعض سياسي الروس أن يقول أن المسألة المصرية قد صارت الآن مسعراً للمسألة الشرقية. ولا نظن شيئاً من هذا يخفى على عقلاء العثمانيين.

يقظه من سنة

(ربنا أتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا) ربنا اشرح صدورنا لما فيه خيرنا وخير أهل ملتنا أجمعين. اللهم إنك تعلم خيرنا وفلاحنا في اجتماعنا وائتلافنا، وارتباطنا بعلائق ديننا، واعتصامنا بحبلك المتين، اللهم كفر عنا سيئآت التفريط فيما أوجبت علينا من ذلك بالهداية إلى الإنابة والإعانة على تلافى ما فرط والقيام بالمستطاع مما فرضت.

مضى زمان فرط فيه الهنديون عند تداخل الإنجليز فى شئونهم فتدابروا، وحول كل وجهه عن الآخر، ولم يصغوا لدعوة اللّٰه فى طلب الاعتصام بحبله، فذاقوا وبال أمرهم، وسقطوا جميعاً تحت سلطة الدولة الانجليزية، وسادت عليهم واتخذت السادات منهم خدما لرجالها وخولا بعد أن كانت تدعى أنها خادمة لهم أمينة فى الخدمة، ولم يهن لها أن تكون سيدة عادلة، بل تجاوزت فيهم حد العدل، واستبدت عليهم ظالمة جائرة، فلما لفحتهم نيران القسوة، أقبل بعضهم على بعض ونهضوا جميعاً للتملص من أغلال ظالميهم، من نحو أربع وعشرين سنة إلا أن إخوانهم الأفغانيين والبلوجيين والإيرانيين كانوا فى غفوة عما نهضوا إليه ولم يمدوا لهم يد المساعدة، بل كان الإيرانيون فى حرب مع الإنجليز ولكن لم يواصلهم الهنديون ولم يرتبطوا بهم فى التعاون على شأنهم كما أنهم لم يرتبطوا فى ذلك مع العثمانيين، فاهمال

جيرانهم، ورسوخ أقدام العدو بينهم، كان سبباً فى تغلب الظلمة الأغراب عليهم، ولو عقل المهملون لعلموا أن العدو إذا تمكن في الهند قويت شوكته ثم كر عليهم، واوقع بهم ما أوقع بأخوانهم.

بعد هذا زحف العدو الغريب على بلوجستان واشتغل معها بالمنازلة، وفرط الأفغانيون والإيرانيون فى تعضيدهم، فتم له بذلك أن يسود فى جزء عظيم من اراضيهم ثم انقلب على الأفغانيين وكانت بينه وبينهم حرب هائلة، امتد زمنها نحو سنتين وما نبض فى الهنديين عرق، ولا امتد من الإيرانيين ساعد، ولا كانت بينهم وبين العثمانيين وصلة، ولو كان لجميعهم بصر بالعاقبة لأدركوا أن حياة كل منهم معقودة بحياة الآخرين، وبالغ الخصم في تطاوله حتى اعتدى على الممالك العثمانية بسوق جيوشه إلى الأقطار المصرية التي هي اعظم إيالة من إيالات العثمانيين، بل اهم أقطار المسلمين، وهو الآن فى محاولة الاستيلاء على تلك البلاد، والاستبداد بالحكم فيها غير مبال بحقوق الدولة العثمانية، ولا محترم ولايتها الشرعية، وكان المسلمون لبداية الأمر على مثل تفريطهم السابق غير ملتفتين إلى ماحل بهذا القطر الإسلامى العثماني، ظناً منهم أن العدو يصدق مرة في وعده أو يخشى عاقبة السوء من طمعه، فلما رأوه غريقاً فى غيه، متغلغلا. فى سيره، مغروراً بقوته، ناصبا لحبالته، اهتزت رواسيهم، وتحركت ثوابتهم، وتنبهوا من سباتهم، وندموا على ما سلف من سابق التفريط، وأحسوا أن ما أصاب اليوم بعضهم فلا بد أن يمس يوماً جميعهم، فصارت المسألة المصرية سبباً فى إحياء الأخوة الدينية، كما بشرتنا به الرسائل الواردة إلينا من فارس والهند وأفغانستان، فلو تمادى الإنجليز فى حرصهم، وحملهم الشره على غمط حقوق العثمانيين، وثبتت الدولة العثمانية في المدافعة والمطالبة، لوجد لها من المسلمين القادرين على نكاية الإنجليز من يقوم بنصرها أداء لما أوجب الله عليه.

وإنا بعد اداء الشكر لأولئك المؤمنين الصادقين، على ما أظهروا من حميتهم

الدينية، التي أشارت إليها رسائلهم، نرغب إليهم أن يحافظوا على وحدة العقيدة العامة وجامعة الشريعة الحقة وان يصغوا الى اصوات الغيلان التي تناديهم في الليالي المظلمة، بما يحاكى اصوات الإنس وإنما هى أصوات مردة الشياطين، يبتغون تفريق الكلمة، وتشتيت الشمل وإخماد الغيرة، ونسأل اللّه تعالى ثباتاً للمسلمين على أصول الاتحاد، وقواعد الألفة؛ وأن لا يميل بهم الهوى إلى جعل الاختلاف في المسائل الثانوية، سبباً في حل الجامعة الإسلامية، التي قوامها الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن لا يجعلوا هذا الخلاف ذريعة العدو الى محقق ملتهم وإفساد ولايتهم، واللّه يهدى من يشاء إلى سواء السبيل.

* * *

حيلة انجليزية

ذكر كثير من الجرائد الهندية، وفيها جريدة (أخبار عام) أن عدداً وافراً من الإنجليز يدخلون في دين الاسلام، لهذه الأيام، وكثرت الظنون في هذا العارض الجديد، الإجماع على أن ليس الباعث عليه حسن العقيدة في هذا الدين، والإذعان لأحكامه القدسية، وإنما القصد منه أن يخدعوا المسلمين بمشاكلتهم، ليركنوا إليهم، ويحسنوا الظن بهم، فيبيحوا لهم بما تكنه صدورهم، من خواطر الميل إلى دعوة محمد أحمد السوداني، وهذا يدل على أن هذه الدعوة أخذت من قلوب الهنديين، وعظمت منزلتها فيهم، وتوقع الانجليز شراً من فشوها، وامتداد شهرتها، بين مسلمي الهند، وطلبوا للاحتياط هذه الوسائل، وقالت بعض الجرائد: أن الخشية من الإذعان لدعوة السوداني قد انضم إليها الرهبة من قرب الروس لتخوم الهند، فكان من مجموعها فزع شديد حمل الانجليز على التودد للمسلمين، والظهور في مظاهر العدول المنصفين، بل الأصفياء المخلصين، حتى أن الإخلاص والعدالة تحمل الكثير منهم على التدين بالدين الإسلامي ليملكوا بذلك قلوب السذج، ويمحصوا بعض الصدور من الحقد عليهم، ويتقوا به شراً عاجلا أو آجلا، ولكن الصيف ضيعت اللبن.

كان يمكن لهم ذلك بالاعتدال في السلطة، والأخذ بشيء من النصفة، قبل اقتراب النكبة، أما الآن وقد أوغرت الصدور غلا، ووقرت القلوب أحقاداً، وتحقق

عند الكافة من المسلمين، بل وغيرهم من الهنديين، أن الانجليز هم فى كل مصلحة مفسدة، وفى كل حسنة سيئات، وفى كل صفاء دخل، فهم الخادعون الخائنون، بل هم الكاذبون المنافقون، هذه صفاتهم لم يبق فيها ريبة عند مسلم فلا تفيدهم الحيلة أدنى فائدة، ولا تعود عليهم إلا بأسوأ عائدة، ولا ينالون منها إلا وقوف المسلمين على غاية سيرهم عند عجزهم، وازديادهم بصيرة فى أمرهم، ويقينا بضعفهم، حيث لم يبق لديهم من الوسائل إلا خلع دينهم، والدخول في دين المسلمين إرضاء لخواطرهم، ولسنا فى حاجة لتحذير المسلمين منهم، فإن لنا يقيناً بأنه لا يوجد مسلم فى أقطار الهند جميعاً إلا وهو على علم تام بما يريد به حاكموه من الانجليز، فما هو بمؤمن لهم حتى ولو كانوا صادقين.

وداد الانجليز للمسلمين

يظهر من الرسائل والبرقيات الواردة من القاهرة أن الإنجليز وفقوا لإلهاب حرب صليبية بين الحبشة ومسلمي السودان، والله يعلم ماذا تكون العاقبة إذا طار شررها. ربما لا يوجد مسلم يعتقد بدين محمد إلا ويسعى ببذل روحه وماله لإحباط أعمال الإنجليز ورد كيدهم خصوصاً مسلمي الهند المغرورين بخديعة حكامهم، ودعواهم أن دولتهم نصيرة الإسلام، وحليفة الدولة العثمانية، فما نقلته الأخبار بتاريخ ١٩ يونيو سنة ١٨٨٤، أن من أحكام الاتفاق الذي عقده الأميرال هفيت مع ملك الحبشة أن تكون مصوع مباحة لإرساء المراكب الحبشية ابتداء من شهر سبتمبر. فإما أن يكون هذا بنزعها من أيدي المصريين، بل العثمانيين، بل المسلمين وجعلها بلداً أنجليزية يبيحها الإنجليز لمن شاءوا ويمنعونها من أرادوا، وإما أن يكون بتقديمها أقطاعاً لملك الحبشة، ومن أحكامه ان يأذن الملك للحامية المصرية أن تقيم حصوناً على حدود مملكته حتى إذا هجم السودانيون عليها باعتبار أنها حصون مصرية تذرع الملك لمواثبتهم بدعوى أنها في حدود بلاده، فتشب الحرب ويحمى وطيسها بين مسيحي الحبش ومسلمي السودان، ولما كان غرض الحكومة البريطانية أن تضم مصر وملحقاتها إليها كما يدل عليه اهتمامها بمد سكة الحديد بين

سواكن وبربر، أخذت على الملك عهداً بقبول ما تحكم به ملكة انجلترا عند عروض مشاكل بينه وبين الحكومة المصرية وإن جرى الحكم على العرف ولم تلاحظ فيه الأصول السياسية، هذه هي الدولة التي بلغ الخافقين صوت دعواها أنها حامية الإسلام والمسلمين، وظهيرة للعثمانيين فليعلم كل مسلم أن من نيتها انقراض هذا الدين وأهله من وجه الأرض وإن لم يكن ذلك عليها بيسير.

التهتك في الحيلة

اشتهرت دولة الإنجليزية بخلابة الشرقيين، وأخذهم بالرُّويغة[1] حتى وضحت سبلها من كثرة ما طرقت، وانقلب وجه الحيلة فظهر مستورها، وعادت تشبه أُهيّات الصبيان، وألاعيب الأطفال، يدرك سرها الذكي والغبي، من يوم كان الورد دوفرين في القاهرة لكشف حالة مصر وتقرير نظام لحكومتها (كما يزعمون) لوح للحكومة بترك السودان ثم جاء بعده الماجور بارنج وألزم الحكومة بالتنازل عن حقها فيه، لأنه يكلفها نفقات وافرة ليس لها عوض من الفائدة، فامتثلت الحكومة أمر غالبيها وهمت بإخلائه ولم تلابس عملها حتى صدرت أوامر الدولة البريطانية بتعيين الجنرال جوردون للقيام بتخلية السودان، فتكون المنة على السودانيين في استقلاهم (الموهوم) لدولة بريطانيا، وتكون الصلة بينهم وبينها خاصة، وما وصل خرطوم إلا وأقام محمد أحمد أميراً على كوردفان، وأخذ في إرجاع الولايات السودانية لملوكها الأقدمين أو أبنائهم، ولم يكن القصد من هذه الزغزغة إلا أن يكون السودان بعد تنازل المصريين فراطة لا حق لأحد فيه فيأخذه السابق إليه بدون أن تعترض فيه المشاكل السياسية ليتيسر للانجليز عاجلا أو آجلا أن يستولوا عليه وينزعوه من أيدي أمرائه الصغار، ويكون فيه بعض العوض عن مصر لو صدتهم مقاومات الدول عنها كما اشرنا إلى ذلك في أحد الأعداد. وفي هذه الأزمان

---

١ ـ الرُّوَيغة : المكر و الحيلة.

الأخيرة أخرجت حكومة انجلترا من جرابها العوبة أخرى، ومثلت من ضيق جوردون في خرطوم سبباً عظيماً لتمهيد طريق يوصل الجيوش لتخليصه، فاصدرت أوامرها إلى أحد المصانع الكبيرة بإعداد الآلات، وتعيين المهندسين والصناع، ليسيروا إلى سواحل البحر الأحمر ويباشروا مد سكة حديد من سواكن إلى بربر كما ذكرت ذلك جريدة (البال مال جازيت) وتزعم أن لا باعث لها على ذلك إلا الرغبة في تخليص جوردون، إن كان جوردون في خطر ويحتاج في إنقاذه إلى إرسال الجيوش، فهل يبقى حياً إلى أن تمد سكة الحديد وتخرق الجبال والأودية وتسير عليها العربات حاملة للجيوش، مع أن الأخبار قد أشارت إلى وقوعه اسيراً أو هلاكه قتيلا - إذا فرضنا هلاك جوردون (كما هو الغالب) أو خلاصه فهل تهدم دولة انجلترا طريق الحديد، وتنقض بناءها بعد إنفاق النفقات الواسعة عليها، أو تتبرع بهبتها للحكومة المصرية سخاء وجوداً، كلا والله لا هذا ولا ذاك ولكن أخذت أقرب الطريقين للاستيلاء على السودان، فإن مد الطريق الحديدية في تلك الجهة يسهل لها الولاية على السودان الشرقي، فإذا استقر لها الأمر فيه وصلته بالغربي ولم تلاق في ذلك صعوبة، على أنها في خلال المدة بعد مد السكك الحديدية تستفيد أعظم فائدة جوهرية من مواصلة البلاد السودانية، فإنها تفتح للتجارة الإنجليزية باباً وتغلق بصفته باب المنفعة عن مصر فتأتي بضائع البن ونحوها مما يحتاج إليه السودانيين من انجلترا إلى سواكن، ومن سواكن تذهب إلى السودان، بدون أن تصل إلى ايدي المصريين، وتنقل الأصناف التجارية السودانية من داخل السودان إلى بربر ثم تحمل إلى سواكن وتصدر إلى أوروبا ولا يراها مصري. فإذا تولى الإنجليز مصر (لاقدر الله) حرموا الوطنين من الاشتراك معهم في تجارة السودان «وهي من أغزر ينابيع ثروتهم التجارية» وإذا ألجأتهم الحوادث للجلاء عنها فقد اختصوا بمادة المنفعة التي يمكن أن تأتي من أقطار السودان وبذلك يتقوض كثير من بيوت التجارة في الأقطار المصرية، ويعدم بخرابها إلاف مؤلفة من النفوس فليس حقيقة الغرض

من مد سكة الحديد من سواكن إلى بربر إلا التوصل إلى ينبوع متدفق من ينابيع الثروة المصرية، وتحويل مجراه عن مصر إلى جزائر بريطانيا. وسنأتي على تفاصيل الخسائر التى تلم بأهالي مصر من مد هذه السكة في عدد آخر.

هذه إحدى خطيئات الإنجليز الذين بعد استيلائهم على الهند حظروا على الأهالي في جميع ممالكهم أن يعالجوا زراعة الأصناف التجارية كالنيلة ونحوها واختصت الحكومة الإنجليزية بزراعتها وزادوا في المظلمة فحكموا على جميع الحكومات المستقلة التى يتولاها النوابون والرجوات أن لا تزرع الأفيون بحجة أن الحكومة الهندية الإنجليزية تزرعه فلا يجوز لغيرها العمل في زراعته كيلا تقل الفائدة أو لئلا يستفيد شيئاً مما تستفيد. هذه إثار جورها يثبتها خراب البيوت القديمة. وفاقة العائلات الشريفة. فى كل بلد لها فيه أمر ونهى. ولا تزال ترد شرعتها هذه في كل قطر تطأه أرجل رجالها قريباً كان أو بعيداً. فعلى البصير أن ينظر وعلى اللبيب أن يحذر.

فرصة يجب ان لا تضيع

نشرت الدعوات وطلبت الدول العظام لعقد مؤتمر في لندن بعد مفاوضات طويلة بين حكومتي فرنسا وانجلترا. ماذا كان المؤتمر وماذا نوت الحكومة الإنجليزية بالدعوة إليه. وماذا كانت تقصد الدول من وجود نوابها فيه. وأية غاية كان يطلبها خرّيت السياسة البرنس بسمارك. انعقد المؤتمر ثم صار عقيما. وبقيت تلك المقاصد مكونة فى صدور أربابها كانت حكومة انجلترا تطمح للاستيلاء على مصر باسم أمير مصري. وحالت دون مطمحها المصاعب أزمانا حتى سنحت لها الفرصة المشئومة بتشوية وجه الحركة العرابية فتيسر لها بتلك الحركة إرضاء الدول. واستئذان الدولة العثمانية بالتداخل فى توقيفها. فسهل لها دخول مصر على نية أن لا تخرج. وهل يمج الظمآن بارد الزلال من فيه!! ظنت أنها ملكت ارض مصر ووجدت عليها ديناً ثقيلا فرغبت تخفيفه لأنها ترى ما ينفق من خزانة مصر إنما ينقص من خزائن انجلترا. ولم تقصد بتخفيفه رحمة الفلاحين. ولم يبعثها عليه الشفقة على المصريين. وعميت بصيرة من ظن بحكومة انجلترا قصد المرحمة في هذا أو في غيره من الأعمال.

قصدت تعمية الأمر على الدول لتنال منهم تصديقاً على أعمالها فيتسع لها المجال فيما بعد، وبدأت باستمالة فرنسا وعقدت معها اتفاقاً يوطن نفوس السياسيين

على الرضاء بما تريد ثم أنشأ السير بارنج لائحة للمالية أثبت فيها عجز مصر عن أداء ديونها. إلا أن رجال الدول كانوا أحذق من أن ينخدعوا لعلمهم أن وادى النيل أحوج إلى العدالة وحسن الإدارة من تخفيف الدين. لم يخف على السياسيين أن مصر لو سلمت إدارتها لحاكم نافذ الكلمة قوى العزيمة واسع الخبرة بأحوال البلاد لوسعت قدرتها أداء ما عليها بل وما يزيد عليه. وإن كان يثقل على دولة تجارية. قررت فى الاتفاق الفرنسي إطالة مدة حلولها العسكرى إلى ثلاث سنوات ونصف ثم تخرج على شرط اتفاق جميع الدول على خروجها فعلقته بما يشبه المحال لتسهل عليها المراوبة ولكن لم يذهب على رجال السياسة في سائر الدول أن بقاء انجلترا في مصر لا يزيدها إلى خراباً.

ولما انعقد المؤتمر كشف مسيو دبلنيير الفرنسى ما في لائحة بارنج من الأغلاط فشرعت انجلترا فى تهديد فرنسا بالميل إلى ألمانيا. إلا أن السفير الألماني وهو تلميذ البرنس بسمارك ولا يعمل إلا بإشارته كان أميل إلى فرنسا فإن سياسة البرنس مبنية على التفريق بين فرنسا وانجلترا (وقد حصل) فحصل اليأس لحكومة انجلترا من تخفيف النفقة على الملك التي زعمت أنها ملكته، فحلت المؤتمر أو انحل بطبعه. وصارت الدول الأوروبية فى جهة، وانجلترا وحدها فى جهة أخرى[١]. ولم يكن من رأي الدول أن يقعوا آلة بيد انجلترا تستعملهم في قضاء أوطارها فطاشت جرائد الانجليز غضباً على ألمانيا وأخذت تذكرها بأن استيلائها على الألزاس واللورين انما كان بمساعدة انجلترا المعنوية، وهاجت الجرائد النمساوية والألمانية، وصالت بالطعن والتجريح في السياسة الانجليزية، واتفقت حكومة ألمانيا والنمسا على إلزام إنجلترا بتحديد أجل لدفع الخسائر التى نشات عن ضرب الاسكندرية.

---

١ ـ ما اقسى التاريخ وما أعظم دروسه. فيوم أممت مصر قناتها وثارت ثائرة فرنسا وانجلترا وغيرهما انعقد مؤتمر لندن عام ١٩٥٦ ليسترد القناة من أبنائها... وكتب لهذا المؤتمر الفشل، ولاصحاب القناة الشرعيين النصر المبين.

الحكومة الانجليزية في رجفة شديدة، وخيفة من سوء العاقبة، إلا أنها على عادتها تظهر الاقدام وتنطق بالحماس وتوهم أنها غنية عن العالمين. عمدت إلى الاستقلال بتدويخ مصر، وتقرير سلطتها فيها وإخماد فتنة السودان، وظنت أنها قادرة على كل ذلك، فجهزت القواد وعينت اللورد نورثبروك أعدى أعداء المسلمين، ومخرب بيوت الشرقيين ليتولى العمل لدولته في القطر المصري. ولكن هيهات وهيهات، نترك الآن بيان ما يترتب على انفراد الانجليز عن سائر الدول في أمر مصر إلى عدد آخر ونقدم كشفاً لجوهر حالهم العامة.

أولا: إن الانجليز على عادتهم المألوفة إذا قصدوا الاستيلاء على قطر لا يصرحون بقصدهم حتى يتمكنوا فيه، ولا يبق لهم منازع لا فى الداخل ولا في الخارج، فلو فرضنا أن المصريين والدول أجمعين اتفقوا الآن وطلبوا من انجلترا أن تعلن بتملكها لمصر لا متنعت الحكومة الانجليزية وأظهرت العفة والقناعة، ولظهر المستر جلادستون فى دلوق الزهاد ولصالح جميع الانجليز من جميع الأحزاب أستغفر الله لا نريد سوى إصلاح البلاد وتوفير خيراتها!! وتحت هذا الحجاب يتصرفون تصرف الملاك، يختصون بالوظائف العالية، ويديرون حكومة البلاد على رغبتهم، وينقلون ثروتها إلى جزيرتهم، ويمزقونها قطعاً يهبون منها مالا يهمهم لأعداء البلاد، ليعينوهم على تذليلها واستعبادها.

وثانياً: إن حكومة الانجليز من أضعف الحكومات فى القوة العسكرية البرية، وأحد سلاحها التهديد، وأكبر قوتها التهويل، ووضع الامور الصغيرة، تحت النظارات المعظمة، لترهب بذلك كل جاهل، وتخيف كل غبي، لهذا لا تتمكن بدسائسها في قطر إلا عند سكون أهاليه، فاذا نبذ الأهالي طاعتها، وعارضوها فى أعمالها، سترت ضعفها بترك البلاد لأهلها، فان مقاومة الأهالي أشد بأضعاف مضاعفة من القوة العسكرية المجتمعة فى أماكن مخصوصة تحت قيادة روساء معينين، تنهزم بانهزامهم، وما جرى لحكومة انجلترا مع الافغانيين أعظم شاهد على ما نقول

دخلت الحكومة الإنجليزية ارض الأفغان بستين الف عسكري واستولت على المدن وكاد قدمها يرسخ فى البلاد، فلما قام الأهالي من كل صقع. والتحمت المقاتل فى جميع أنحاء أفغانستان، عجز الستون ألفاً عن الوقوف موقف الدفاع، واضطرت حكومة انجلترا بعد تسلطها سنتين، وبعد صرف ثلاثين مليون جنيه استرليني أن تطلب الأمير عبد الرحمن خان من روسيا بعد ما أقام عند الروسيين أثنتى عشرة سنة معززاً مكرماً وأن تقدم له أربعة ملايين من الجنيهات لينفقها في إدارة بلاده وتركت له البلاد وولت.

حكومة الإنجليز إنما تخضع للضرورة وللضرورة أحكام ـ فعلى قبائل العرب فى مصر وشمائخها أن يتذكروا شهامتهم العربية، وحميتهم الدينية ويقتدوا بالأفغانيين، لينقذوا بلادهم من أيدي أعدائهم الأجانب الذين لو تمكنوا فى البلاد لمحقوهم وأذلوهم، وليس من الفتنة أن ندعوهم إلى طلب الحقوق والدفاع عن الدين والوطن كما يظن بعض المتطفلين على موائد السياسة، فانما ننادى على صاحب البيت أن يدافع عن حريته وماله وشرفه، وأن يخرج مخالب عدوه من أحشائه، وهي سنة جرى عليها دعاة الحق، فى كل أمة، وتاريخ أوروبا القديم والحديث، وتواريخ الأمم الشرقية أو لها واخرها تنطق بصدوق مانقول وعلى المصريين عموما والفلاحين خصوصاً ان يجمعوا أمرهم على أن يمنعوا الحكومة كل ما تطلب منهم وأن يرفعوا أصواتهم بنداء واحد قائلين لا نطيع إلا حاكما وطنياً مسلماً نافذ الكلمة حازم الرأى قادراً على إدارة البلاد بقوة وطنية، وليستصرخوا فى ذلك جميع الدول ويبرهنوا على قدرتهم، ويقيموا الأدلة على أن مصلحة الدائنين، لا يمكن حفظها إلا بإجابة طلبهم فإن فعلوا هذا وجدوا لهم من الدول أنصاراً، بل ومن الجنس الإنجليزى نفسه!!

على الدولة العثمانية أن تتذكر أنه لو لا فرمانها بعصيان عرابى لما سهل للانجليز

أن يدخلوا أرض مصر (١) ولا أصابوا هذه الغنيمة باردة فلتنظر إلى قوتها ونفوذها. وتلاحظ أن الحل على من عقد. والعقد على من حل. ولا تنس أن مصر حبكة الممالك العثمانية كما بيناه مراراً. ولا تغفل من النمسا وشرهها. والروسيا وطمعها. وفرنسا وآمالها. فمن الأمور الطبيعية أن المنافسة أو الموازنة تدعو الأقران إلى التسابق في الأطماع. وإذا فرط متساهل في أهل ملته فلن يجد منهم فيما بعد عوناً. لو تحرك العثمانيين لرأوا عونا من جميع المسلمين خصوصاً وقد حصلت كدورة بين أمارة الأفغان وحكومة الإنجليز. بل نكرر ما قلناه مراراً من أن نفوذ العثمانيين فى الهند يمنع الإنجليز من الجهر بعداوتهم البتة. فهذه فرصة الإقدام فان ولت الفرصة فربما يصعب التلافي، ولا يبقى إلا الندم، حيث لا ينفع الندم، وفق الله الدولة العثمانية إلىٰ مافيه خيرها وخير المسلمين. وبصرها بالرشد وكفاها شرور المفسدين.

---

١ ـ هذا هو أول هجوم يشنه الأفغانى على الدولة العثمانية لأنها أصدرت فرمانها الخاص باتهام عرابى بالعصيان ونكست حركته مما أدى تسلل الانجليز واستعمارنا ٧٤ عاماً!!

تنبيه

طلب إلينا أحد الاعاظم من ذوي الحل والعقد فى المسلمين أن ننشر الجملة الآتية بنصها فها هي:

(وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله)

(وبشر الذين كفروا بعذاب أليم)

ملعون من يخون بلاده لمرض في قلبه، ملعون من يبيع أهل ملته بحطام يلتذبه. ملعون من يمكن الأجانب من دياره. محروم من شرف الملة الحنيفية من يعظم الصغير. ويصغر العظيم. ويمهد الطرق لخفض كلمته. إعلاء كلمة الأغراب. ملعون من يختلج في صدره أن يلحق عاراً بأمته. ليتمم ناقصاً من لذته. عجباً عجباً. لا حول ولا قوة إلا بالله. هل صحيح أن خمسة ملايين سابقة وخمسة ملايين لاحقة تمكن الأجانب من مصر. وهى مفتاح الحجاز وباب الأقطار الشامية. هيهات هيهات. أيظن مريض القلب أن يترك حتى يأتى هذا المنكر، أيظن أنه يعيش حتى يتمتع بما تكسب يداه، أيتوهم أنه يبق حيا على وجه الأرض وفيها مسلم، لا أظن أن يكون له حظ من البقاء، ولو كان في أبراج من الفولاذ اهـ

مطلوب من توفيق باشا أن يموت شهيداً!!

يتوكأ الإنجليز عن توفيق باشا فى حركتهم بمصر. ويتخذونه آلة لتخريب بلاده. وهدم ملكه. وما يكون من شر ينسبونه إليه. وما عساه يوجد من خير يصلون نسبته بهم. ويردونه إلى أنفسهم، وفيما بين ذلك يبغضون إليه الولاية الإسلامية: ويحببون إليه إغفال الأصول الدينية. وهو يميل معهم ويعدهم فى مقاصدهم ويطوع البلاد لهم. بما بقى له من السلطة الصورية كما يتظاهر بالتدين والمحافظة على الصلوات. فإن كان باطنه يطابق ظاهره، وكان معتقداً بدين الإسلام، فعليه أن يتنحىٰ عن الأمر ويترك الملك لمن يستطيع إنقاذه مما هو فيه فتبرأ ذمته من العار الذى يلحقه ويلحق بيت محمد على من تصرفه، فان لم يكن هذا فعليه أن يجهر بعقيدته، ويقاوم الإنجليز بما فى جهده، ويموت شهيداً في سبيل دينه ووطنه، وإلا فليس يعضىٰ عنه من الله شيئاً أن يظهر عند أهل خاصته وحاشيته أنه ناقم على الإنجليز كاره لوجودهم فى بلاد مصر ويودلو يخرجون كما أنبأتنا به الأخبار الخصوصية من القطر المصري.

إذا تمادى توفيق باشا فى سيره الملتوي فعلى المصريين أن لا يقعوا صيداً فى يد الإنجليز بهذه الحبالة البالية وهذا الفخ الواهن، وليتنظروا في شئونهم وما توجه عليهم فروض دينهم وإلا فما الله بغافل عنهم.

هؤلاء رجال الانجليز وهذه أفكارهم

تأخر صدور الجريدة أياماً لضرورة ما مسنا من ضعف في المزاج مع مصادفة رداءة الهواء في البلاد الفرنسية هذه الأيام. والحمد للّه على زوال المانع. إلا أننا مع ذلك لم نقصر في أداء الواجب من العمل الذى قمنا به فى المدافعة عن حقوق المسلمين. فقد خلقنا والشكر للّه لهذا العمل وطبعنا عليه ونرجوا ديان السموات والأرض أن نموت في هذه السبيل وأن نبعث فى زمرة السالكين فيها.

رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الأول لهذه الجريدة) إلى لندن إجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لملتنا، ومن يؤمل فيهم صدق النية، في رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الإنجليزية. وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية التي مامرت قدم شرقي إلا سقطت منها فيما يعسر الخلاص منه، وليسبر أغوار المطامع الإنجليزية التي لا يدرك منتهاها. تلك المطامع التي بعد ما التهمت ثلث المسكونة وطوقت كرة الأرض بالفتح والاستملاك لم تزل فى مد لا جزر معه. ولا يزال رجال حكومة بريطانيا فى نهم شديد لا بتلاع ممالك العالم وكلما أساغوا قطراً طلبوا إليه آخر. وليستطلع خفايا المقاصد من اثناء الأفكار وغضون الأقوال. وليقف على الطرق المألوفة بين أولئك السياسيين فى التلوين. ويتبين كيف يتمكنون من إبراز محاسن الأعمال في صفات رديئة يستنكرها كل ناظر إليها وإظهار السيئات

فى ألوان بهجة تسر الناظرين حتى يمكن بعد ذلك وضع ميزان قسط يتميز به الزيف من النضار الخالص، كيلا يغتر الجاهل، ولا يزل العالم.

لاقى (محرر الجريدة) كثيراً من رجال السياسة الإنجليزية وأنفذ الناس. رأيا فيها، وقد جرت بينه وبينهم محادثات طويلة فى الأحوال المصرية، ومن محادثاته التمهيدية ما نشر فى بعض الجرائد الإنجليزية كجريدة (البال مال جازيت) وجريدة (التروت)، التي يحررها النائب الشهير مستر لابوشير وجريدة (التايمس) وسيذكر شيء مما جرى بينه وبين بعض الأكابر من رجال الحكومة مما يستفيد منه الشرقيون عموماً، والمصريون خصوصاً، وستأتي جريدتنا على بعض ما استنبطه من فحوى أقوالهم وأدركه من مرامى أفكارهم. أما الآن فنأت على جملة واحدة من محادثة طويلة كانت بينه وبين اللورد (هرتنكتون) وزير الحربية الإنجليزية. ليأخذ كل مصري منها حظه. ويصيب كل شرقي سهمه. ويقف جميعهم على مواقع الشرقيين من انظار الحكومة الإنجليزية.

سأل اللورد هرتنكتون وزير الحربية الإنجليزية، ألا يرضى المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الإنجليزية وألا يرون حكومتنا خيراً لهم من حكومة الأتراك، وفلان باشا وفلان باشا؟ فأجاب الشيخ (محرر جريدتنا) كلا إن المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون إلا قليلا، وفيهم من محبي أوطانهم مثل ما في الشعب الإنجليزي، فلا يخطر ببال أحد منهم الميل إلى الخضوع لسلطة من يخالفه في الدين والجنس، ولا يصح لحضرة اللورد وهو على علم بطبائع الأمم أن يتصور هذا الميل فى المصريين، فقال الوزير هل تنكر أن الجهالة عامة في أقطار مصر، وأن الكافة لا تفرق بين الحاكم الأجنبي والحاكم الوطني، وأن ما ذكرته من النفرة من سلطة الأجانب إنما يكون فى الأمم المهذبة، فاحتد الشيخ حدة تليق بمسلم لا يتهاون في أداء ما فرضه الدين، وأوجبته حقوق الشريعة، وقال: أولا إن النفرة من ولاية الأجنبي ونبذ الطبع لسلطته، مما أودع في فطرة البشر وليس بمحتاج للدرس

والمطالعة، وهو شعور إنسانى ظهرت قوته فى أشد الأمم توحشاً كقبائل الزولو الذين لم تنسوا ما كابدتموه منهم فى الدفاع عن أوطانهم ـ وثانياً أن المسلمين مهما كانوا وعلى أي درجة وجدوا لا يصلون من الجهل إلى الدرجة التي يتصورها الوزير، فان الاميين منهم، ومن يقرأون ولا يكتبون، لا يفوتهم العلم بضروريات الدين، ومن أجلاها ومن أظهرها عندهم أن لا يدينوا لمخالفيهم فيه وأن لهم في الخطب الجمعية ومواعظ الوعاظ فى مساجدهم ما يقوم مقام العلوم الابتدائية وأن جميع ما يتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لا يوافقهم ويحدث فيهم من الإحساسات الشريفة الإنسانية مالا ينحطون معه عن سائر الأمم خصوصاً المصريين الذين ينطقون باللسان العربي ويفهمون دقائق ما أودع في ذلك اللسان وهو لسان دينهم، وثالثاً أن أرض مصر من زمن محمد علي قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ما هو موجود فى بلاد أوروبا، وأخذ كل مصري نصيباً منها على قدره، ولا تخلو قرية من القرى الصغيرة من أن يكون فيها قارئون كاتبون، والأخبار العمومية توصلها إليهم الجرائد العربية، ومن لم يقرأ يستنبىء الأخبار من القارئين، فبهذا أضافوا إلى الشعور الطبيعى والتقليد الديني، محبة وطنية منشؤها التهذيب العمومي قوى بها الميلان الأولان، ولا أظنهم يخالفون فى ذلك سائر الأمم اهـ

أين العلماء الأذكياء أين الجهلة الأغبياء، أين الأباة الأعلياء، أين السفلة الأدنياء، ليرى كل واحد منهم منزلة الشرقيين عند رجال الحكومة الإنجليزية، كل ذى شكل إنساني، وصورة بشرية، يدرك ما وراء هذه الأسئلة، وما تشف عنه هذه الظنون العجيبة. هذا اللورد هر تنكتون وزير الحربية الإنجليزية يظن أن الجهل بلغ من المسلمين عموماً، والمصريين خصوصاً، إلى حد سلب عنهم كل إحساس إنساني، وأنهم فى حضيض من الجهل، لا يميزون فيه بين الغريب والقريب، ولا بين العدو والحبيب، هذا دليل على أن الإنجليز (إلا من أنار الله بصيرته ووفقه لفهم

الصواب) يعتقدون أن الأمم الشرقية، والأمة المصرية، في درجة الحيوانات السائمة، والدواب الراعية، لا تتألم إلا من الجوع، وفواعل الطبيعة المادية، وليس لها من الاحساس إلا نوع من الانفعالات البدنية، ولا تعرف من شئونها إلا ما به تقوم حياتها الحيوانية، فتألف راكبها، والعامل عليها ومستخدمها، في أي عمل من الأعمال الشاقة، مادام يقدم لها طعاماً وشراباً، وأنها تهش وتبش لرؤية من يقدم لها غذاءها وعشاءها، وإن كان من أشد البلاء عليها، بما يسومها من مشاق الأعمال، فإذا عجزت عن العمل ذبحها وتغذى بلحومها، ألا فأعجبوا. إن كانت هذه عقيدة رجال الحكومة الإنجليزية في الأمم التي يتسلطون عليها، فأى معاملة تكون منهم لها الا يعاملونهم معاملة العجموات والحيوانات الرتع، بلى، وهكذا يعاملون، وهذا تصرفهم فى البلاد الهندية، يشهد بأفصح لسان على ما يعملون.

فالمصريون الآن بين أمرين أفضلهما أيسرهما، إما أن يتناكفوا ويتضافروا ويبذلوا أموالهم وأرواحهم في حفظ شرفهم الإنساني، ومكانتهم العربية، وأداء حق عقيدتهم الدينية، ويخلصوا أنفسهم من عبودية قوم لا ينظرون إليهم إلا كما ينظرون إلى البغال والحمير، وإن هموا بذلك وجدوا لهم من إخوانهم المسلمين أنصاراً ينتظرون الآن حركة منهم وهذا أشرف الأمرين وما هو عليهم بعسير، وإما أن ينسلخوا عن جميع الخصائص الإنسانية، ويخلعوا حلية الإيمان، ويتبرأ منهم شرف العرب، وليحملوا ناف العبودية على أعناقهم، وليقاسموا الحيوانات في حظوظها، وليستعدوا لكل ذلة، وليقبلوا كل ضيم، وهذا أعسر الأمرين وأدناهما وما أظن مصرياً يختاره لنفسه ولئن اختاره «معاذ اللّٰه» فيسذهب اللّٰه بهم ويورث الأرض قوماً آخرين، فإن اللّٰه غيور على دينه، غيور على العدل، منتقم من الضالين، وإنا للّٰه وإنا اليه راجعون.

اللورد نورث بروك حاكم مصر الجديد

كثيراً ما أتينا فى جريدتنا على بيان مسالك الإنجليز فى تملك الهند وتذليلهم لأهاليه، وذكرنا أن سيرة الحكومة الإنجليزية فى افتتاح البلاد لا تشابه سير الفاتحين الذين يزحفون بخيلهم ورجلهم على الأقطار، فيقتلون ويقتلون، حتى يتغلبوا على من يريدون. وقلنا أن الإنجليز ملكوا نحو ثلث العالم بلا سفك دماء غزيرة، ولا صرف أموال وافرة، وإنما ملكوا ماملكوا بسلاح الحيلة، يدخلون في كل بلد أسود ضاربة، فى جلود ضأن ثاغية!! يعرضون أنفسهم فى صورة خدمة صادقين، وأمنة ناصحين، طالبين للراحة، مقومين للنظام. نادينا مراراً بأن الإنجليز إذا أرادوا التدخل في ملك للشرقيين، ورأوا أن القائم به رجل حاذق بصير، وأن وجوده في الملك يبطيء سيرهم إلى ما يقصدون. بادروا إلى التشويش عليه، فإما أن يفسدوا عليه قلوب رعيته. ويثيروا عليه أحقادها، أو يغروا أحد أعضاء العائلة المالكة بالعصيان وطلب الملك ليجدوا فى ذلك وسيلة للدخول فى الأمر، أو يتفقوا مع الوزراء على خلع صاحب السلطة. ثم ينصبون بدله إما ضعيفا أحمق، وإما صبيا لم يبلغ الرشد، إما من أبناء المالك أو أقار به ليتمكنوا من بلوغ مقاصدهم تحت علمه، ويبلغوا غاياتهم باسمه ويقطعوا المسافة الطويلة فى مدة قصيرة، بلا ممانع ولا عائق، مع إصابتهم جزيل الأجر، على ما عملوا فى بداية العمل.

هذا كما فعلوا من مدة غير بعيدة مع «راجا برودا» خلعوه بدعوى باطلة، لما احسوا فيه البصيرة والحزم، وأقاموا بدله ولداً صغيراً من عائلته، ثم انتصبوا له أوصياء، فوضعوا أيديهم على جميع خزانته، وتولوا إدارة ممالكة، واستلموا قيادة عساكره، ولم يبق له إلا الإسم، يذكر ولا يشكر، كل هذا تحت راية العدالة والإصلاح، وحفظ الراحة وتقرير النظام، ولم يساقوا إليه إلا بباعث المحبة والإخلاص «ولا يذكر هناك اسم التملك والاستيلاء». نعم ولهم الحق في استبقاء اسم، والسكوت عن آخر، فإن أمراء الشرقيين لا يبالون بما دلت عليه الأسماء، وإنما يهمهم طنطنة الألفاظ وضخامة الألقاب!!

إذا سلب الأمير الشرقي ملكه وماله، وجرد من جميع حقوقه، وبقي له لقبه ولواحق لقبه، فهو فى سكرة من لذة ما بقي له، وفى ذهول عما سلب منه، هذه خلة عرفها الإنجليز فى كل أمير شرقي، فلم لا يقرون أعينهم بحفظ هذه الأسماء، بعد ما جردت عن معانيها، وأى داع يدعو رجال الإنجليز لإزعاج قلوب الأمراء، بنزع هذه الالقاب، إن اللقب الضخم حصن حصين، يسجن فيه الأمير الشرقي، أوجب عميق يلق فيه، وهو يظنه جنة عرضها السموات والأرض، فليعش أمراء المشرق متمتعين بنعيم ألقابهم، وسعادة أسمائهم، ويكفهم من المجد أن يقال لهم بين خدمهم وخاصتهم، فى داخل دوائرهم «نواب صاحب» «راجا صاحب» «خديوى صاحب» «سلطان صاحب». واخجلتاه» هذه الالقاب كانت تشير إلى ملك فسيح، ومجد شامخ، وشوكة قوية، وسطوة تخضع لها الشم العوالى، فكيف طابت نفوس أمراء المشرق بقبولها عارية من كل شرف، لم يبق من معناها إلا سلطة على الخدم والحشم، وما هم فيها بأحرار، بل لا بد أن يوافقوا فيها رضاء الأجانب.

من أدق رجال الحكومة الإنجليزية في فن الحيلة، وأمهرهم فى صناعة الخدعة وأطولهم باعا فى النفاق، وأحذقهم فى اختراع الوسائل لسلب الأملاك من أربابها، وأشهرهم فى عداوة المسلمين، ذلك اللورد المحترم (نورث بروك). كان هذا الرجل

البارع حاكما في الهند فأذاق أهاليه مر العذاب، فى كؤوس المحبة والوداد. كم خرب بيوتاً، وقلب عروشاً، وكم خفض رفيعاً، وأذل عزيزاً، وهو فى جميع سيئاته يبكى بكاء الشفقة، ويسكب دموع المرحمة على الهنديين، ويقول اننى اول انجليزى تهمه رفاهة اهل الهند، وانى وحيد بين الانجليز بمحبة الهنود، والسعى فيما يعود عليهم بالصلاح والنجاح، وأننى استغفر الله إن كنت قصرت فى عمل يؤمل بهم إلى الفلاح، وينادى فى الهنديين بقوله واأسفاه إنكم إلى اليوم ما عرفتمونى، ولا احطتم بما حواه ضميري، من إرادة الخير لكم، هذا هو الكاهن الحاذق فى وعظه «ودونه في النفاق عبدالله بن أبى سلول رأس المنافقين فى الإسلام».

إن الحكومة الإنجليزية عرفت قدره فى براعته، ومعرفته بوجوه المكر، وخبرته بأحوال الشرقيين، وسعة علمه بكيفيات التصرف فى عقولهم وأهوائهم، وطرق أخذهم من حيث لا يشعرون، واعترفت له حكومته بصدق الطوية فى معاداة المسلمين، لأجل هذا قررت أن تبعثه إلى مصر، وعزمت على إرساله إليها مفوضا من قبلها يفعل ما يشاء ولكن لا نظن حبالته الخداعية تصرع فطانة المصريين وتأخذ عقولهم، فان تسنىٰ له النجاح، ورضى المصريون على أنفسهم عار الذل، ووصمة الضيم، فلا يكون إلا باستعمال توفيق باشا آلة فى جميع أعماله، يستخدمه لإدخال مصر فى ملك الحكومة الإنجليزية، يلقنه الأوامر السامية، ويلهمه الإرادات السنية، لتذليل أهل بلاده وسوق المصريين لقتل إخوانهم وفتح البلاد الثائرة وإقرار السلطة فيها للحكومة الإنجليزية، فان تم له ما يريد من تسكين الفتن وتقريب المصريين للرضاء بحكومة تنفر منها طباعهم عمد إلى خلع توفيق باشا بأية علة وطلب تولية إبنه عباس لكونه ولداً صغيراً لم يبلغ الرشد واستند فى ذلك إلى الفرمانات السلطانية «يحترمونها إذا وافقت أغراضهم» وجعل نوبار باشا ديواناً له «الديوان وزير يعينه الإنجليز من طرفهم فى الممالك التي تبقي في الهند تحت أسماء الأمراء الذين لا يعرف فيهم الرشد ولا يجوز عزله إلا بأمر من الحكومة الإنجليزية»

نوبار باشا لا يقصر فى هذا العمل ولا يالوا جهداً فى إبلاغه إلى نهايته، نوبار باشا رجل لاهو مسلم فيغار على دينه، ولا هو مصرى فيحتمى على وطنه، ولا هو عربى فتأخذه النفرة على جنسه، وبهذا الطريق ينال سلطة فى القطر المصري مدة لا تنقص عن الباقي من عمره، ويكون فى أمان من العزل، تحت ظل الحكومة الإنجليزية.

هذه مقاصده التي بلغتنا من مصدر يوثق به ولا نظنه ينجح فيها فإن صلاح الأمر فى مصر لا يقوم به إلا من هو أعرف بحال المصريين وأقرب إليهم من «نورث بروك» هذا اللورد يسلك فى سيره على ما جرى عليه فى الهند، إنا نذكر طرفاً من أعماله عبرة للمعتبرين، إن (جيرت ستك» كان راجا على ممالك (جنبه) الواقعة في جنب (عنبر سر) من طرف (همالايا) فلما مات هذا الملك تولى إبنه (سرسينك) وهو ولده من الملكة ثم مات وتولى شقيقه (سوجت سنك) على طبق قانون الوثنيين فلما ذهب (نورث برك) حاكما فى الهند قصد إلى تنفيذ حكمه فى تلك المملكة واستملاك أراضيها حسب المألوف بين أمثاله من رجال حكومته، فطلب من (سوجت سنك) أن يتنازل عن الملك لأخيه (قوبال سنك) وكان وليداً من جارية ولا يجوز فى قوانين الوثنيين أن يتولى الملك أبناء الأماء مادام من أبناء الأحرار حى، فلما تمنع (سوجت سنك) من التنازل اعتماداً على قانون بلاده، أنزل بحكم اللورد جبراً بعد ما ضربت زوجته التي كانت ملكة تلك البلاد (لكونها زوجة الملك) ونهب جميع ماكان فى بيت الملك من الخزائن والتحف والجواهر الثمينة والمخلفات القديمة (أنتيكات) التي كان يتوارثها الملوك من أجيال طويلة (فان عائلة الملك كانت من قدماء العائلات الملكية) ثم نصب بدله (كوبال سنك) وبعد مدة قصيرة عزل (كوبال سنك) ونصب ولده الصغير (سيام سنك) ليكون الأمر والنهى حساً ومعنى بيد أمراء الإنجليز، وتحت تصرف الديوان الذي أقاموه من طرفهم. هذا مثال لما يطول عده من أعمال اللورد نورث بروك فى الهند.

ثم أن (سوجت سنك) المخلوع ظن أن نورث بروك وحده هو الظالم، وأنه لو

رفع أمره للحكومة العليا فى لندن يجد لديها عدلا ويصادف منها إنصافاً فجاء من مدة ست سنوات وعرض حاله على الحكومة فاذا القلوب متشابهة، والنفوس متوافقة، والآراء متألبة على سلب الحقوق، والغلو فى العدوان، وفى خلال هذه المدة أنفق كل ماكان عنده فى المطالبة بحقه، والمرافعة مع ظالمه. حتى أصبح صفر اليدين، لا يملك قوت يومه، ولا يجد له منصفاً، هذا الملك السيء الحظ مع ماكان له من رفعه الشأن، وارتفاع نسبه في الملك إلى أجداده الأقدمين، من نحو ألف سنة تراه الآن يتضور من الجوع فى بلاد أوروبا رث الثياب حقيراً ذليلا، هذا الذى احترمه اللورد نورث بروك الذى تريد حكومة انجلترا أن ترمي به مصر وهذا هو الإصلاح الذى يقصد إجراءه فيها، لكن رجاؤنا فى المسلمين وأملنا فى المصريين، وقوة إيماننا بوعود الله، وصدق النبأ عما تكنه الحوادث المصرية، وتالب الدول على معاكسة الحكومة الإنجليزية، واضطرار الدولة العثمانية للدفاع عن مصر، كل هذا يبشرنا بخيبة هذا الغادر فى قصده، والله لا يهدى كيد الخائنين.

نكته!!

عندما كان الشيخ محمد عبده يحادث أرباب السياسة فى لندن كان أغـلبهم يقول له كثيراً ما سمعنا من الأجانب الذين ينتمون إلى البلاد المصرية أخباراً متعلقة بها، لكنا لا نحلها محل الاعتبار، لما نعلم عن بعدهم عن الشعب المصرى الحقيق، أما أنت فلكونك عريقاً فى المصرية، وعالماً من علماء المسلمين فنحب أن تبين أفكارك، وما تعلمه من أحوال الأهالى المصريين، وشئون أمرائهم واستعداداتهم، وما يليقون له، وما يليق بهم، فإنا نرى ذلك منك حاكياً عن حقيقة الأمر فيهم، وكاشفاً عـن افكار أهالي مصر عموماً، وقد أشارت إلى هذا المعنى جريدة (البال مال جازيت).

معارضة الانجليز

تنبهت أفكار الدول الأوروبية فى هذه الأيام، إلى ما يمسها من إيغال الإنجليز فى طمعهم، وأن ظفرهم فى أعمالهم المشرقية لما يخمد أنفاس أوروبا، ويسد عليها أبواب التجارة، ولو نجح الإنجليز فى سيرهم إلى ما يطمحون إليه، لم يبق موضع قدم للتجارة الأوروبية، فيضرب الفقر فى غالب أقطار أوروبا التى قوام معيشتها التجارة، وأن الدول لتعجز بعد هذا عن حاجاتها، هذا فزع ألمت بدايته بنفوس الدول من صيحة الطبيعة، وزاد عليه ماخدش خواطرها من الإهانات المتتابعة اللاحقة بها من غرور الإنجليز، دولة انجلترا هى التي تركت الدول تاتر فى الأستانة، واستبدت بإطلاق النيران على مدينة الإسكندرية، هذه الدولة هى التي دعت الدول العظام إلى مؤتمر للمداولة فى مسألة مصر، معترفة بحقوقها فيها، فلما لم تجبها الدول إلى مطلبها الباطل، صرفت نوابهم، وانطلقت فى أعمالها غير مبالية بهم، وعزمت على إرسال (اللورد نورث بروك)، (والجنرال ولسلى)، فى آن واحد إلى مصر.

هذا كله حرك خواطر الدول، وصار من أعظم البواعث على اجتماع الاباطرة الثلاث فى شهر سبتمبر كما أنبأت الجرائد، وأكدت أن موضوع المداولة بينهم، هذه المسألة المهمة: لهذه المسألة كانت مدينة وارزين دار ندوة سياسية، وبها وجد البرنس بسمارك مجالا واسعاً للسياسة، تلاقى الكونت كالنوكى مع البرنس بسمارك،

وطالت مدة الاجتماع ولحق بهما مسيو دى جيرس وزير دولة روسيا، وكان البحث فيما ألم بالدول بعد مؤتمر لندن، ثم عقب ذلك سفر مسيو كورسيل سفير فرنسا فى برلين إلى وارزين لملاقاة بسمارك (وإن أولت بعض الجرائد الانجليزية حركة هذا السفير بمقصد آخر). فهذه الزيارات المتتالية بين هؤلاء الوزراء العظام، بعد خيبة المؤتمر تفتح للمتأمل باباً واسعاً من الفكر، وتشف عن أمور عظيمة سيكشفها الزمان عن قريب هذا إلى الأمر الجديد الذى صدر من دولة ألمانيا وهو تعيين وزير فى سفارة مبجلة لدى شاه إيران وفى أعضاء سفارته، بروكش باشا المشهور بعلم الخط المصرى القديم، وهى أول مرة كان لهذه الدولة سفير عند الشاه، ثم ذهاب ميرزا خان سفيراً خصوصياً من الدولة الفارسية إلى الدولة الروسية، ونيله غاية التبجيل والتكريم.

كل هذا ينبئنا أن فى كمين الغيب مصيبة كبرى ستنقض على دولة الإنجليز. إن الأحقاد قد أخذت بقلوب الأمم الاوروبية وامتلأت الأفئدة غيظاً حتى طفحت، ولهذا لا ترى جريدة ألمانية أو نمساوية أو فرنسية أو روسية إلا وهى مشحونة بالطعن والتنديد، والوعيد والتهديد، والإنذار بسوء عاقبة حكومة الإنجليز، ليس ببعيد على عدل اللّه أن ينكس أعلام العاتين. الذين يعبثون في الأرض مفسدين. ويسلبون ممالك العالم غيلة، ويهضمون حقوق الأمم بغيا وعدواناً، ويسيمونها عذاب الرق والعبودية عتواً واستكباراً، أظلم جو السياسة على سابلة الانجليز، وزأرت عليهم ضارية الويل من كل جانب، وهم فى هذه الأهوال حركة الخابط، إما ستراً لضعفهم، أو غروراً ببأسهم، ويتعلقون بحبال الوسائل لامتلاك مصر والسودان، اللورد نورث بروك وسميع اللّه خان، الدهرى يذهبان إلى مصر لتأليف القلوب، وجميع الخواطر على ولاء الحكومة الانجليزية، وأن ولسلى بعد مانال من حسن الصيت بصرف الدنانير فى التل الكبير، عزم على أن يفتح فتحاً آخر بمثل تلك الوسيلة، ولكننا لا نظن فى السودان مثل شهيد الخيانة وأبى سلطان باشا اضرابه.

وهذا من جهة أخرى يسعون لإجبار الحكومة المصرية على إعلان الإفلاس وإشهار العجز عن القيام بنفقات الحكومة. ليجدوا فى ذلك وسيلة لتقرير حمايتهم على القطر المصري، وتخفيض فائدة الدين والاستبداد بشئون المملكة. أنهم نالوا فى الحرب المصرية من الدولة العثمانية فرمانا سلطانيا بعصيان عرابى، فحقنوا به دماء رجالهم، وصانوا كثيراً من أموالهم، واليوم يسعى اللورد دوفرين بمواعيده العرقوبية، وإيماناته الكاذبة عند الباب العالى ليحمله على إرسال عشر مدرعات إلى الإسكندرية، وسوق جيش إلى سواحل البحر الأحمر ليكون هذا بدل الفرمان بعصيان محمد أحمد، ويفوز الإنجليز بالتسلط على مصر والسودان، ويحلفون وهم الكاذبون، إنهم لا يمسون حقوق السلطان (هل أبقوا حقوقاً تمس) حتى إذا ثبتت أقدامهم تحت ظل العلم العثمانى، قلبوا للعثمانيين ظهر المجن واجابوهم بهز الرؤوس وكشرة الأنياب، ولا نظن أن الدولة العثمانية تغتر بوعود الإنجليز مرة ثانية، فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، وقد جربت منهم حلاوة الوعد، وذاقت فى أخلافه مضاضات الإهانة، ومرارات التحقير.

نعم هذا وقت يتسنىٰ للدولة العثمانية أن تتفق مع سائر الدول لصون مصالحها، ولا يخطر ببال عثمانى أن ينال خيراً بالاتفاق مع الإنجليز، إن حكومة بريطانيا ما عاهدت عهداً إلا ونقضته، بعد ما جنت ثمرته، فربحها فى العهود خاص بها، لا يشركها فيه غيرها، لم يخف على الدولة العثمانية أن الانجليز تصرفوا فى الأراضي المصرية تصرف المالكين بلا مشورتها، وهبوا قسما عظيما من السودان الشرقى للحبشة وأثاروا حربا صليبية بين الحبشيين ومسلمى السودان، نزعوا إلى الاستيلاء على زيلع وهرر وبربر، هل كان شيء من هذا بإذن الباب العالى، فعلى أي وجه تثق الدولة بانجلترا، بعد ما جربت من غدرها ماجربت ورأت من عدوانها مارأت، لو تساهلت الدولة مع الانجليز فى مسألة مصر فسنسمع عن قريب بأمور فى الحجاز وسوريا واليمن وبغداد وكلها من دسائس الانجليز، أما لو أقدم العثمانيون بعزيمة ثابتة

وأقبلوا على شأنهم فى مصر، مع هيجان الأفغانيين وانفراد انجلترا عن سائر الدول، لوجدوا لهم أنصاراً من جميع المسلمين فى الشرق، ومن المصريين والسودانيين، ولأرغموا الانجليز، واسترجعوا ما فقدوه من المكانة أيام حرب الروسيا، ولأعادوا عزتهم الأولى. هكذا ينبغى أن يساق الجيش العثمانى لصدمة الانجليز لالخدمتهم فان لم تفعل الدولة العثمانية، فعلى الدنيا العفا وعلى الاسلام السلام!!

وليعلم المصريون من الفلاحين والعرب أن الانجليز لا يقصدون إلا استعبادهم واستخدامهم كما يستخدم الأرقاء وأول نير للذل يوضع على أعناق أمرائهم، فعليهم ألا يكونوا آلة فى تمكين العدو من رقابهم، وأن لا يكون بعضهم فخالصيد باقيهم، لعمر الله إنا لفي عجب من الذين يحفظون القلاع فى السودان، ومن المصريين الذين يزحفون لمقاتلة السودانيين، هل يعلمون أى أمة يخدمون، بلى إن حامية كسلا حافظت عليها حتى تسلمها للحبشة، وأن حماة القلاع فى السودان يحفظونها حتى يسلموها لقواد الانجليز إن استطاعوا، نعم كنا نحب أن نرى هذه الشهامة من العساكر المصرية، لكن إذا لم يكونوا فى تصرف دولة اجنبية أما اليوم فثباتهم هو العار بعينه، واللهلا أظن شخصاً فى قلبه ذرة من الايمان تسمح له نفسه بهذا العمل، فان لم يسعوا فى إخراج عدوهم من ديارهم، والظن بهم أن يسعوا، فلا أقل أن يكفوا عن مساعدته فى تملكها. ألا يعلم المصريون أن حركة خفيفة منهم فى معارضة الانجليز فى هذا الوقت تجلب تدخل الدول وتكون سبباً لانقاذهم من هذا العدو الذى لا يكتفى بأكل لحومهم حتى يهشم من عظامهم فليعلموا ذلك وليعملوا، والله لا يضيع أجر العاملين.

الدهريون فى الهند

دخل الانجليز بلاد الهند ولعبوا بعقول أمرائها وملوكها على نحو يضحك العقلاء ويبكيهم، وكانوا يوغلون فى أحشاء الهند ويتخطفون أراضيه قطعة بعد قطعة، كلما سادوا فى أرض أدلوا على سكانها وأظهروا الضجر والسآمة من الإقامة بينهم قائلين أن الانجليز لا يشتغلون إلا بالأعمال التجارية، أما مقارفة الادارة والسياسة فليست من شئونهم إنما يدعوهم إلى احتمال أثقالها الشفقة على الملوك والأمراء العاجزين عن سياسة ممالكهم، ومتى قدر الأمير او الملك على ضبط بلاده فلا يبقى أنجليزى فيها لأن لهم اشغالا مهمة أخرى تركوها لمحض المرحمة. وبهذا سلب الإنجليز كل مالك ملك بحجة أن العمل فى الملك ثقيل على النفس متعب للفكر والبدن فالأولى لصاحب الملك أن يستريح وأن يموت فقيراً ذليلا تخلصاً من عناء التدبير وينادون بأنه متى سنحت الفرصة وجاء الوقت الذى لا يكون للأعمال المعاشية ولا المعادية تأثير على الأبدان ولا على الأفكار فانهم مستعدون لترك البلاد (يوم الحشر)، واليوم يقولون نفس هذا الكلام بعينه فى مصر!!

* * *

ولما استقرت أقدامهم فى الهند وألقوا به عصاهم ومحيت أثار السلطنة التيمورية نظروا إلى البلاد نظرة ثانية فوجدوا فيها خمسين مليوناً من المسلمين، كل

واحد منهم مجروح الفؤاد بزوال ملكهم العظيم وهم يتصلون بملايين كثيرة من المسلمين شرقاً وغرباً وشمالا وجنوبا، وأحسوا أن المسلمين ماداموا على دينهم، ومادام القرآن يتلى بينهم. فمحال أن يخلصوا فى الخضوع لسلطة أجنبى عنهم، خصوصاً إن كان ذلك الأجنبي خطف الملك منهم بالخديعة والمكر تحت ستار المحبة والصداقة. فطفقوا يتشبثون بكل وسيلة لتوهين الاعتقاد الإسلامي وحملوا القسس والرؤساء الروحانيين على كتب الكتب ونشر الرسائل محشوة بالطعن فى الديانة الإسلامية، مفعمة بالشتم والسباب لصاحب الشريعة (برأه الله مما قالوا) فأتوا من هذا العمل الشنيع، ما تنفر منه الطباع، ولا يمكن معه لذى غيرة أن يقيم على أرض تنشر فيها تلك الكتب، وأن يسكن تحت سماء تشرق شمسها على مرتكبي ذلك الأفك العظيم، وما قصدهم بذلك إلا توهين عقائد المسلمين، وحملهم على التدين بمذهب الإنجليز، هذا من جهة، ومن جهة أخذوا فى تضييق سبل المعيشة على المسلمين، وتشديد الوطأة عليهم والإضرار بهم، من كل وجه، فضربوا على أيديهم فى الأعمال العامة، وسلبوا أوقاف المساجد والمدارس، ونفوا علمائهم وعظمائهم إلى جزائر (أندومان) و (فلفلان) رجاء أن تفيدهم هذه الوسيلة إن لم تفدهم الأولى فى رد المسلمين عن دينهم، باسقاطهم فى أغوار الجهل بعقائدهم حتى يذهلوا عما فرضه الله عليهم، فلما خاب أمل أولئك الحكام الجائرين فى الوسيلة الأولى، وطال عليهم الأمد فى الاستفادة من الثانية، نزعوا إلى تدبير آخر فى إزالة الدين الإسلامى من أرض الهند أو إضعافه، لأنهم لا يخافون إلا من المسلمين أصحاب ذلك الملك المنهوب: والحق المسلوب، فاتفق أن رجلا اسمه أحمد خان بهادور (لقب تعظيم فى الهند) كان يحوم حول الانجليز لينال فائدة منهم، فعرض نفسه عليهم وخطا بعض خطوات لخلع دينه والتدين بالمذهب الإنجليزى، وبدأ سيره بكتابة كتاب يثبت فيه أن التوراة والإنجيل ليسا محرفين ولا مبدلين لينال بذلك الزلفى عندهم، ثم راجع نفسه فرأى أن الإنجليز لن يرضوا عنه حتى يقول إنى نصرانى وأن هذا العمل الحقير

لا يؤتى عليه أجراً جزيلا، خصوصاً وقد أتى بمثل كتابه ألوف من القسس والبطارقة وما أمكنهم أن يحولوا من المسلمين عن الدين أشخاصاً معدودة فأخذ طريقاً آخر فى خدمة حكامه الإنجليز بتفريق كلمة المسلمين وتبديد شملهم.

فظهر بمظهر الطبيعين (الدهريين) ونادى بأن لاوجود إلا للطبيعة العمياء وليس لهذا الكون إله حكيم (إن هذا إلا الضلال المبين) وأن جميع الأنبياء كانوا طبيعيين لا يعتقدون بالاله الذى جاءت به الشرائع (نعوذبالله) ولقب نفسه بالنيجرى (الطبيعى) واخذ يغرى أبناء الأغنياء من الشبان الطائشين فمال إليه أشخاص منهم تملصاً من قيود الشرع الشريف، وسعياً وراء الشهوات البهيمية،فراق لحكام الانجليز مشربه ورأوا فيه خير وسيلة لإفساد قلوب المسلمين، فأخذوا فى تعزيزهُ وتكريمه وساعدوه على بناء مدرسة فى (على كده) وسموها مدرسة المحمديين، لتكون فخاً يصيدون به أبناء المؤمنين ليربوهم على أفكار هذا الرجل (أحمد خان بهادور). وكتب أحمد خان تفسيراً على القرآن فحرف الكلم عن مواضعه، وبدل ما أنزل الله، وأنشأ جريدة باسم تهذيب الأخلاق لا ينشر فيها إلا ما يظل عقول المسلمين، ويوقع الشقاق بينهم، ويلق العداوة بين مسلمى الهند وغيرهم، خصوصاً بينهم وبين العثمانيين، وجهر بالدعوة لخلع الأديان كافة (لكن لا يدعو إلا المسلمين) ونادى الطبيعة!! الطبيعة!! ليوسوس للناس بأن أوروبا ما تقدمت فى المدنية، وما ارتقت فى العلم والصنعة، وما فاقت فى القوة والاقتدار إلا برفض الأديان، والرجوع إلى الغرض المقصود من كل دين (على زعمه) وهو بيان مسالك الطبيعة قد افترىٰ على الله كذباً). ولما كنا فى الهند أحسسنا من بعض ضعفاء العقول اغتراراً بترهات هذا الرجل وتلامذته فكتبنا رسالة فى بيان مذهبهم الفاسد وما ينشأ عنه من المفاسد وأثبتنا أن الدين أساس المدنية وقوام العمران و طبعت رسالتنا فى اللغتين الهندية والفارسية. إن أحمد خان ومن تبعه خلعوا لباس الدين وجهروا بالدعوة إلى خلعه ابتغاء الفتنة بالمسلمين وطلبا لتفريق كلمتهم وزادوا على زيفهم

أنهم يزرعون الشقاق بين أهل الهند وسائر المسلمين، وكتبوا عدة كتب فى معارضة الخلافة الإسلامية، هؤلاء الدهريون ليسوا كالدهريين فى اوروبا، فان من ترك الدين فى البلاد الغربية تبق عنده محبة أوطانه ولا تنقص حميته لحفظ بلاده من عاديات الأجانب، ويبذل فى ترقيتها والمدافعة عنها نفائس أمواله، ويفدى مصلحتها بروحه. أما أحمد خان وأصحابه فإنهم كما يدعون الناس لنبذ الدين يهولون عليهم مصالح أوطانهم ويسهلون على النفوس تحكم الأجنبي فيها ويجهدون فى محو آثار الغيرة الدينية والجنسية وينقبون على المصالح الوطنية التى ربما غفل الانجليز عن سلبها لينبهوا الحكومة عليها فلا تدعها. يفعلون هذا، لا لأجر جزيل، ولا شرف رفيع، ولكن لعيش دنيء ونفع زهيد. (هكذا يمتاز دهرى الشرق عن دهرى الغرب بالخسة والدناءة بعد الكفر والزندقة).

أحسن الانجليز إلى أحمد خان بتوظيف ولده مولوى محمود عضواً فى مجلس قرية من قرى الهند لا تزيد عن (شبراخيت) فى مديرية البحيرة، ومن حبائله لصيده الضعفاء من المسلمين، أنه يعدهم ويمنيهم بأنهم لو تبعوه لأدخلهم فى وظائف الحكومة، بما له من الجاه عند جائرة الانجليز. وحكومة الانجليز لم توظف من أصحابه إلا أربعة أعضاء فى مجالس القرى ولا يوجد وطنى هندى فى مثل هذه الوظائف سواهم، هذا هو المجد الذى ناله أحمد خان ثمناً لدينه ووطنه. فهو كما قال صديق نواب حسن خان ملك بهوبال صاحب التصانيف المشهورة أن (أحمد خان) دجال آخر الزمان، نعم ساعده حكام الانجليز على استخدام بعض من يقدمهم، لكن لافى الحكومة الانجليزية الهندية ولا على الخزينة الانجليزية وإنما يلزم الحاكم أحد النواب الباقين على صورة استقلالهم أن يوظفوهم فى بعض الوظائف الدانية.

راق هذا المشرب فى أعين الحكام الانجليز وابتهجوا به وظنوه موصلا إلى غايتهم من محو الدين الاسلامي من البلاد الهندية، هؤلاء الدهريين ساروا جيشاً للحكومة الانجليزية فى الهند يسلون سيوفهم لقطع رقاب المسلمين، لكن مع البكاء

عليهم والصياح بهم، إنا لا نقتلكم إلا شفقة عليكم ورحمة بكم وطلباً لإصلاحكم ورفاهة عيشتكم ورأى الإنجليز أن هذه أقرب الوسائل لنيل المقصود من ضعف الإسلام والمسلمين».

كان التلميذ الأرشد لأحمد خان والوزير الأول والمدير له فى جميع شؤونه رجلا إسمه سميع اللّٰه خان.

سميع اللّٰه خان هو أعظم الدهريين دهاء، وأشدهم اجتهاداً فى تضليل المسلمين، وأدقهم حيلة وأقواهم مكراً فى إيجاد الوسائل لتفريق شمل المؤمنين، وتمكين الحكومة الإنجليزية فى أرض الهند، يقوم هذا الخادع خطيباً فى محافل المسلمين فتسبق دموعه كلامه، ويأتى بغاية ما عنده من الفصاحة لهدم أركان الديانة الإسلامية، وإبطال عقائدها الأصلية، ويتجرأ على حضرة الألوهية، ويطعن فى الرسالة وصاحبها، كل ذلك وهو ينتحب كأنما يرثى الدين وأهله.

إذا دخل فى بلد من بلدان لأداء هذه الخدمة واظب أياماً على دخول المساجد، وحضور المحافل الدينية، واستدرج الناس بعذب الكلام، ولطف الوعد، وجذبهم إليه من حيث لا يشعرون، فاذا اجتمع عليه بعض من الناس اغتراراً بطلاوة ظاهره بدأ فى دعوتهم إلى مشربه الكدر (خلع الدين).

هذا العدو المبين للاسلام والمسلمين قد نال بمساعيه هذه، وظيفة قاض (فى الشريعة الإنجليزية) فى بلدة (أكره) وهى بلدة لا تزيد عن دسوق فى مديرية الغربية، قالت جريدة التايمس بعد ما مدحت سميع اللّٰه خان بكل ما يمدح به أن هذه الوظيفة (قاض فى بلد صغير) هى أعلى وظيفة ينالها هندى وطنى (أيحتاج لاثبات العدالة الإنجليزية إلى شاهد أكبر من هذا).

نورث بروك اللورد الإنجليزى الذي اشرنا إلى طرف من تاريخه فى الهند فى العدد الماضي، عرف سميع اللّٰه خان حق المعرفة عند ماكان حكمداراً فى الهند ووقف على أنه أصدق الناس فى خدمة الإنجليز وأقدرهم على أدائها. ولهذا طلبه ذلك

اللورد ليكون كاتم سره في مصر ليستعمله في تنفير المصريين من الدولة العثمانية، وفي إقناع المصريين بأن حكومة انجلترا تريد بهم خيراً، ويستخدمه في استمالة قلوب العلماء لأنه واحد منهم (على دعواه) وقد يكون من نيته أن يدخل الجوامع ويعظ ويخطب ويروى عن عدل الإنجليز مالا صحة له وما تكذبه المشاهدة، ولكن رجاؤنا في نباهة المصريين وصدق عقائدهم الدينية وشدة ارتباطهم بالدولة العثمانيةأن لا ينخدعوا لهذا الراكس الهندى (الراكس بلسان السنسكريت الشيطان المريد) لا نجح الله له مقصداً ولا أنا له مبتغى.



جريدة الاهرام

اشتد غضب نوبار باشا على جريدة الاهرام فاصدر امـره بـتعطيلها شهـراً وقفل مطبعتها. وقيل فى السبب أنها نشرت رسائل مدير الجريدة وهو فى لندن على ما فيها من بيان بعض مساوىء السياسة الانجليزية عـلى خـلاف رغـبة سـعادة الباشا!! وقيل إن السبب لنشر الشكر الذي قدم إلى المدير والمحرر من أعيان البلاد دلالة على استحسان مشرب الصحيفة «استقباح سياسة الانجليز» ولكن كتب إلينا من مصدر خاص أن هذه المسائل العموميه لا تهم نوبار باشا إلا إذا مست مصلحته الخاصة، فالسبب الحقيق هو أن المنهج المستقيم الذى سلكته «الأهرام» دعا إلى ذكر بعض الرجال الوطنيين مثل رياض باشا وشريف باشا مع وصفهما بالوطنية وعلو الهمة وكمال الغيرة. نوبار باشا ساع إلى أمر مهم وهو ماذكرناه في العـدد السـابق ونشرته بعدنا جريدة (الديبا) وسائر الجرائد الإنجليزية وهو أن يكون ولي القاصر «عباس» بعد خلع أبيه فينال بسطة فى السلطة وإطلاقاً فى الأمر والنهي. وعلم أن هذا وقت الفرصة لحرص الحكومة الانجليزية على تملك مصر وهي محتاجة فى ذلك إلى كل من ليس له وطن ولا دين ولا جنس فى مصر، فهى فى شدة الاحتياج لنوبار باشا، وتوفيق باشا قبة جوفاء لا يرجع منها إلا صدى الأصوات، إن قلت لا فلا، أو

قلت نعم فنعم فهو فى غضبه ورضاه تابع لما يلق إليه. فعلم نوبار باشا أن خديوياً مثل هذا يمكن أن يكون واسطة فى تمكين الانجليز من مصر من حيث لا يشعر و بتقديم هذه الخدمة لهم يبنى لنفسه من العزة قصراً شاهقاً.

فكيف يطيب لنوبار باشا مع هذا السعى أن يسمع ذكر رياض باشا وشريف باشا مع وصفى الوطنية وعلو الهمة. ربما الإكثار من ذكر هؤلاء الرجال يحرك الخواطر الوطنية فيندفع منها سيل يهدم كل ما يبنيه. إن صاحب الأهرام أكثر من ذكر الوطن والوطنين، ونوبار باشا أبعد الناس عنهما لهذا أغضبه ذكرهما. كلما ذكر لفظ الوطن أو الملة أو الجنس أو الأمة سواء كان فى مقال عام أو فى جانب شخص خاص، حسب نوبار باشا أن فى الكلام تهكما عليه واستهزاء به ولا عجب من نوبار باشا أن ظن ماظن أو فعل مافعل، فالرجل ليس بمصري ولا عربي ولا مسلم فاذا باع مصر بأبخس الأثمان فهو الرابح لأخسر ملة ولا وطنا ولا جنسا.

وقيل أن نوبار باشا يطلب إبعاد الزبير باشا من مصر فإن نال مطلبه لم يبعد أن يطلب لشريف باشا ورياض باشا وكل ذى شهامة أو فكر فى مصر مثل ما طلب للزبير وتكون الحكومة النوبرية حكومة هندية وهل يبعد مثل هذا على من يسعى لخلع الخديوى!! إن الذى يؤيد ما روى لنا فى سبب تعطيل الأهرام هو أن نوبار باشا ما تحرك لحجز العروة الوثق عن دخول مصر إلا عندما ذكر فيها رياض باشا مع ذكر بعض أوصافه، وإلا فان كان السبب ذكر الإسلام والمسلمين فيها فذلك ينذرنا بقفل الأزهر بأمر نوبار باشا!

إني أتعجب وكل ذى إحساس يتعجب من سكان الديار المصرية من المصريين والأتراك والحجازيين واليمنيين. ألا يوجد بين هؤلاء فتى يشمر عن ساعده ويتقدم بصدره ويخطو خطوة إلى هذا الوزير الأرمني فيبطل هذه الصفة وينقض هذه البيعة ويكشف له وللمغرورين من أمثاله حقيقة الوطنية ويرفع

الحجاب عن واجبات الملية لا حول ولا قوة إلا بالله.

إن المولعين بحب الحياة يقضونها من خوف الذل فى الذل، ويعيشون من خوف العبودية فى العبودية، ويتجرعون مرارات سكرات الموت، فى كل لحظة خوفاً من الموت. لا الدين يسوقهم إلى مرضاة الله، ولا الحمية الوطنية تدفعهم إلى ما به فخربني الإنسان!!

* * *

لاهور

جاءتنا رسالة من لاهور باللغة الهندية (ورجاؤنا أن تكون المكاتبة فيما بعد باللغة الفارسية) فرأينا أن ننشر ملخصها: قال الكاتب:

إنا نسمع صاحب جريدة (أخبار عام) اللاهورية ينادى من صميم قلبه بأن الانجليز سلاطيننا، خصوصاً عند كلامه فى الانتقاد على العروة الوثقى،ومن غريب كلامه قوله أن غرض العروة أن تفصم رابطة الاتحاد بين الرعايا الهنديين وسلاطينهم الانجليز. ولا يخجل من قوله أن سلاطيننا الانجليز هم الذين زينوا الهند بإصلاح طرقه ومد السكك الحديدية فى أنحائه ووصل أرجائه بأسلاك التلغراف. كأنما الانجليز من سلالة بكر (ماجيت) أو من جنس (الجهترى) أو من أحفاد (أكبر شاه الهندى) وإذا سمع سامع صوت هذه الجريدة على بعد يظن أن هذه الأعمال التي زينوا بها الهند (على رأى الجريدة) ماقام بها الانجليز إلا لمنفعه الهنديين ويتوهم أن الهنديين جنوا من ثمرتها شيئاً وأن ضجرهم من سلطة الانجليز ونزوعهم إلى التملص منها إنما هو من كفران النعمة، يا عجبا من هذا الباندِيت اللاهورى أنه يرى فقر أبناء وطنه ومسكنتهم ويشهد بعينه أنهم لا يجدون ما يسدون به رمقهم، وأن أسعد الناس منهم من يحصل عشر روبيات فى الشهر بعد أن يبلغ درجة عالية من الكمال ومن جملتهم نفس صاحب الجريدة. فكيف يطيل لسانه بشكر هذه الحكومة ويضع على

ظهور الهنديين حملا ثقيلا من المنة لمد سكك الحديد وخطوط التلغراف. إن كـانت حكومة الانجليز تسوس الهند بالعدل فأين ذهبت ثروة أهاليه مع خصب الأرض ووفرة الثمرات ولأى سبب ابتلى الناس بالفقر حتى لا يجدوا قوتاً.

إن الجرائد الانجليزية فى الهند تنذر حكومتها بأنه لو استمرت الإدارة الهندية على حالها هذا فلا يمضى عشر سنوات إلا وتكون فتنة عمومية تأخذ بجميع أطراف الهند ويكون منشؤها الجوع.فإذا أنشأت الحكومة الانجليزية سكك الحـديد لنـقل بضائعها وترويج تجارتها وحمل العساكر لقتل أبناء البلاد وليس عند الهنود الآن ما يباع ويشترى حتى يستفيدوا من سهولة نقله، فلأى شيء تكون المنة على الهنود!!! وإذا مدت خطوط التلغراف لاستطلاع ما يجرى فى ممالكها وتسهيل المخابرة بـين رجالها، فأى منفعة فى هذا توجب مسرة الهنود.

* * *

إن رجال الانجليز بعد ما دخلوا البلاد على هيئة تجار وكانوا يخضعون للصغير والكبير أزيد من قرن، بلغ من أمرهم الآن أن لا يعدوا الهنود من فصيلة البشر. إذا أراد حكام الإنجليز أن يجمعوا أعيان البلاد لإلزامهم بأداء ضريبة جـديدة هـيئوا مكاناً عليا يرتفع عن الأرض نحو ثلاثة أذرع لتوضع عليه كراسى سادة الانجـليز ويجلس الهنود فى منخفض من الأرض إظهاراً للامتياز مع أنهم ما جمعوهم إلا لسلخ ما بقى من جلودهم وامتصاص ثملة دمائهم. أى أمة متوحشة أو متمدنة تعامل أمة أخرى بهذه المعاملة، احلف بالله أن جنس الهندو (قوم برهما) حين ما قدموا من إيران وفتحوا الهند ماعاملوا السكنة القدماء بهذه المعاملة مع أنهم كانوا يعتقدون أنفسهم سماويين وما أذلوا جنس (الباريا) بهذه الدرجة مع أنهم كانوا يزعمون أنهم أبناء الآلهة. قبلوا جنس (التلنكان) فى مصافهم وأشركوه فى حقوقهم مع كونه مغلوباً لهم، فتح المسلمون أرض الهند فعاملوا الوثنين كمعاملتهم لبنى ملتهم وما حرموهم من الوظائف السامية، وما من سلطان مسلم تسلط فى الهند إلا كان له من الوثنيين

عمال ووزراء، كان المسلمون يسيرون مع الوثنيين سيرة الأخوة حتى أوقع الانجليز بينهم الشقاق في بنجاب وأطراف مدراس. يزعم الانجليز أن المسلمين أولوا تعصب ديني يجور بهم عن العدل مع إنا نرى إلى الآن فى الهند حكومات صغيرة يحكمهم راجوات ونوابون من أهل السنة والشيعة ونرى للراجا الوثني وزيراً مسلماً وعمالا مسلمين وللنواب المسلم وزيراً وثنياً وعمالا وثنيين وهكذا السنيون مع الشيعة والشيعيون مع أهل السنة ولا نرى فى الملايين الكثيرة المحكومة بالانجليز رجلا هنديا في وظيفة شريفة. إن هذا الانديت (صاحب أخبار عام) لا يخجل من قوله أن الإنجليز سلاطيننا، أى سلطان يستكشف من شرف رعيته ويعدهم فى عداد البهائم!!

إن اللورد ريبون لما صار حاكما على الهند ورأى أن الروسية وصلت إلى مرو وأحس بنفرة الهنود من الحكومة الانجليزية واستعدادهم للثورة أراد أن يطيب قلوبهم بأمر حقير يسخر منه الأبله فضلا عن الحكيم وهو توظيف (رام جندر متر) ومولوى محمود بن أحمد خان فى وظيفة القضاء ببلدة صغيرة وهما ممن تعلم الشريعة الانجليزية فى بلاد الانجليز (انظر كيف يطيب قلب أمة عظيمة مجروحة الأفئدة ساقطة فى جحيم الشقاء بمثل هذه المنحة المضحكة) وهذا الالتفات من اللورد لكمال سياسته وحذقه، فماذا يكون موقع الهنود من نظره إذا كان يظن أن الأمم العظيمة المحترقة بنيران الظلم من أزمان تعترف بعدالة الانجليز لمجرد توظيف شخصين في وظيفة صغيرة.

إن هذا مما عده اللورد الانجليزى أمراً لازماً لصون سياسته مما عساه يطرأ عليها ومع ذلك قام الانجليز فى الهند ورفعوا شكواهم إلى لندن من تصرف اللورد ولا يزالون يرفعون ويقولون كيف يجلس (كالا) أى الهندى الأسود على منصة القضاء وربما يأتى وقت تقام فيه الدعوى بين يديه على انجليزى فيصدر الحكم منه عليه (كيف يصدر الحكم من هندى على انجليزى)، فليعتبر من يعتبر، إن الانجليز لا

تسمح نفوسهم أن يعترفوا بانسانية الهندى ولو للضرورة، أيحب الباندیت اللاهورى ان يلق غشاوة الغش على عينيه وأعين إخوانه ويفترى الكذب بقوله أن بين الهنديين وحكومتهم نوعا من الالتئام، وهل مثل هذه الحكومة يلتئم معها ذو إحساس، إن البندت يقول فى جريدته وفى اثناء انتقاده على العروة أن سلالة الأمراء وأبناء العائلة التيمورية (ملوك الهند) عراة فى الأسواق يتضورون جوعا ولا يجدون خصا يأوون إليه، فإن كان هذا حال الأمراء باعترافه فكيف يكون حال سواهم وكيف طوعت له نفسه أن ينطق بكلمة تشعر بالرضاء عن حكومة الانجليز. إنه يتملق للحكام ولكن لا أظنه ينال على التملق أكثر من عشر روبيات فى الشهر فليس له أن يتعب لسانه ويجهد نفسه مجانا. لا ينكر الباندیت أن الانجليز إذا خاطبوا هنديا لا يكلمونه إلا بالعصا وإذا اعتدى انجليزى على هندى فقتله حكم أطباء الانجليز بأن القتيل مات بالسل المزمن أو داء الكبد أو بمرض عياء ورثه عن آبائه كيلا يقاص انجليزى بدم هندى، فيذهب دم الهندى هدراً. إن ظلم الانجليز وجورهم يظهر لكل قاري من تلك الورقة الصغيرة (أخبار عام). وإني أقول بلسان كل هندى وثنيا أو مسلما سنيا أو شيعيا أن الباندیت لا يمكنه بورقته هذه أن يقطب جروح الهنديين ولا أن يطفيء لهيب أحشائهم مما يرونه كل يوم من سلب الأملاك وإهانة الأديان وتضييع الحقوق وحرمان الأهالي من خدمة أوطانهم وليس فى طاقة قلمه أن يرفع شيئا من الواقع ولا أن يحدث خاطر محبة الإنجليز فى قلب هندى إلا من خربت ذمته ومرق من عهود دينه ووطنه، وإن الباندیت يعرف هذا ولكنه يسعى لعله يحصل شيئا زهيداً ويقنع به بعضا منا وكثيرا من الشرقيين صارت حوصلتهم كحوصلة العصفور يملؤها حبتان من الحنطة!! وسنكتب إليكم عن تفصيل الأعمال الانجليزية عندنا ان شاء اللّٰه. اهـ

الانجليز والدول

ما للحكومة المصرية لاهية عن شأنها، ماذا تبتغي من سكونها وميلها مع ريح الحكومة الانجليزية، ماذا تنتظر الدولة العثمانية بعد انحلال المؤتمر على غير طائل. أتظن الحكومة المصرية أن خضوعها لأوامر بريطانيا، واهتمامها بخدمة عساكرها الزاحفة إلى السودان، مما يوجب الخجل لحكومة الإنجليز، فتستحى بعد ذلك أن تكفر نعمة الصداقة وترعى سابقة الخدمة، فتترك مصر نقية الراحة، بريئة الذمة، وتمكن الأمر للحكومة المصرية، وتشيد الخديوية لتوفيق باشا. إن خطر هذا الوهم ببال الحكام فى مصر فقد خرفوا فليس يحوم مثل هذا الهاجس فى فكر إلا وقد مسه الخبل، ولا يختلج فى صدر حتى يختم عليه بطابع العمى.

حكومة بريطانيا انتحلت لنفسها أسباباً للدخول في وادي النيل، وأنشأت له عللا فغايتها من كل أعمالها أن تكون لها سلطة ممتازة فيه سواء تأيد توفيق باشا أو تأود، ولما أحس رجالها أن بحث المؤتمر ربما ينجر إلى ما يمس غايتهم هذه تملصوا منه واستبدوا بأعمالهم وأخذوا على أنفسهم تسكين عاصفة الثورة السودانية. فان تم لهم ما أرادوا واستقلوا بالعمل فى السودان فهل يرجى منهم أن يخلوا مصر بعدما فتحوا من ورائها ما فتحوا. إن هذا إلا خيال باطل. هل تهورت انجلترا وأغاظت جميع الدول العظام وهيأت نفسها خطر تألبهم عليها حباً فى توفيق باشا ورغبة فى حفظ

مسنده. هذا مما لا يعقل. ربما تكون الدول العثمانية والحكومة المصرية في رجاء أن الدول الأروبية يستفزها الغضب فتندفع بقواها على دولة الإنجليز فتكبلها فى سياستها وتلجئها للجلاء عن مصر فتتركها لأهلها وكفى الله المؤمنين القتال، إن كان ذلك سبب الفتور فهو ثقة فى غير محلها ونوع من الطمع غريب. قد يكون اتفاق الدول على معاكسة الإنجليز متعلقا بجهات أخرى ولا يكون إخلاء مصر من مواضيع الاتفاق كما أشار إليه كثير من الجرائد حيث ذكرت أن من المقاصد التي يجتمع لها القياصرة الثلاث كف روسيا عن مطامعها فى أوروبا وإطلاق العنان لها فى آسيا والأقطار الهندية. أليس من الممكن أن مناوأة الدول للأنجليز تنتهى بسلب جزء أو أجزاء من أراضى المسلمين فى مقابلة تمكن الإنجليز في أرض مصر.

نبهت بعض الجرائد المهمة على شيء من هذا وصرحت بما لا ينطلق اللسان بذكره. أن للدول اهتماماً بنكاية الإنجليز ومن أعظم البواعث على اجتماع القياصرة خروج انجلترا عن حدها فى الاستئثار بالمنفعة على غيرها لكن أليس من الواجب على صاحب البيت أن يبدأ بعمل فى الذود عن بيته قبل أن يساعده الجيران خصوصاً إن كان للجيران أطماع متنوعة بعضها يمنع عن المساعدة وبعضها يحمل على التوانى وتأجيل العمل لأوقات أخرى وما يدرينا لو حولنا الأمر إلى الجار لينقذ المغصوب من يد الغاصب لعله بعد استخلاصه يختص به نفسه فما الذى جنيناه من ثمار مساعيه وآية فائدة حصلناها. لو شحت الحكومة المصرية بحياتها، وأبصرت أن بقاءها فى إبائها، وترفعت عن هذا الخضوع البارد، وتجافت عن تسهيل الطرق، وتمهيد السبل، لمسير العساكر الإنجليزية، ثم قامت الدولة العثمانية على المطالبة بحقوقها، وذهبت فى الطلب مذهب العمل، ولم تكتف بلوائح تسطر، وحجج تنشر، ولم تستند على سفرائها الذين ليس لهم خوض حقيق إلا فى ملاذهم وشهواتهم، لو كان كل هذا لشاركت الدولة العثمانية ومعها حكومة مصر سائر الدول فى معاكسة انجلترا، وحيث ان للدولة العثمانية والحكومة المصرية الحق الأول

والملكية الشرعية في تلك الأقطار فما يكون منهما من الأعمال يكسبهما تخليص البلاد، فإن الدول تكون فى عونهما ولا حق لواحدة منها فيما بعد أن تستأثر عليهما.

إن إقدام الدولة على العمل وعدول الحكومة المصرية عن مسلكها المضربها مما يقرب المسافة ويقصر المدة ويقوى حجة الدول فى مطاردة انجلترا ـ لو تساهلت الدولة العثمانية واطمأنت الحكومة المصرية لحالتها الحاضرة فبأى وجه تؤمل الحكومتان نفعاً من معارضة الدول، على فرض لواستخلصت مصر من ايدي الانجليز ماذا يبعث الدول على مقارعة دولة عظيمة كدولة بريطانيا لتسلبها ملكاً عظيماً ثم تسلمه للدولة العثمانية او الحكومة المصرية. لا نتحاشى أن نقول أن الدولة العثمانية والحكومة المصرية واقعتان بين خطرين عظيمين، إن فاز الإنجليز فى السودان فقد ضاع القطر المصري، واستقرت فيه السلطان لحكومة انجلترا سواء عارضت الدول أم لم تعارض، وضياع القطر المصري هو ضياع الكل كما أشرنا إليه مراراً وكما يشهد به موقع البلاد المصرية من سائر بلاد المسلمين، وإن خاب الإنجليز في منازلة الثائرين فليس يخفى على عقل عاقل ما يترتب على هذه الخيبة وما ينشأ عن غلبة محمد أحمد وأتباعه وانهزام العساكر الإنجليزية، وربما كان هذا الأمر الثاني، سبباً لمداخلات أجنبية في جميع أقطارنا.

ليس من الصعب على الدولة العثمانية ولا على الحكومة المصرية أن تظهرا شيئاً من الشدة وتاخذا بجانب من القوة، وتقفا على قدم الثبات ودولة انجلترا فى تخبط مع الدول وارتباط بالسودان، والمسلمون من جميع الأقطار فى هياج شديد، لو قامتا بما يسهل عليهما لحفظ لهما الموجود ورد المفقود، وسدت أبواب المطامع، وأخذت الدولة العثمانية مكاناً من القوة تخشع له قلوب الجبارين، ولازدادت بذلك ثقة المسلمين وانبعثت آمالهم. سلكت جريدتنا مذهب الصدق في بيان حال الإنجليز مع الدولة العثمانية، وأثبتت عن بصيرة وكمال خبرة أن الإنجليز يهابون منافرة الدولة ويخشون سوء مغبتها. جريدتنا تنادى بذلك من يوم صدورها بينا أن للدولة سلطة معنوية في

الهند لم تبلغها حكومة الإنجليز بعد إفراغ جهدها. هذه حقيقة الأمر ومع ذلك لا ندري سر هذه السياسة اللينة التي لا نرى لها أثراً إلا في الأوراق وتحت أسنة الأقلام والإنجليز يقاتلون ويتملكون وتزداد أقدامهم رسوخاً يوماً بعد يوم وانطلق بهم الغي إلى أن أطالوا أيديهم إلى الأوقاف. المصرية يطلبون التصرف في خزينتها والقيام على إدارتها، نعيد الكلام مرة اخرى ونقول أن جميع المسلمين في الأقطار الهندية وما يتاخمها قائمون على قدم وساق متهيئون لمواثبة أعدائهم وسالبي حقوقهم فبثبات ما من الدولة العثمانية يظهر له أثر عظيم يضطر الحكومة الإنجليزية إلى ترك مصر، ليس للدولة أن تضيع هذه الفرصة فقلما يأتي الزمان بمثلها، الدول متألبة على الإنجليز وروسيا مشرفة على الهند، والهنديون في هياج، وخطب السودان غير يسير، فإن لم تأخذ الدولة حقها من الإنجليز في هذا الوقت، فمتى؟!

تعظيم توفيق باشا لنورث بروك!

ورد خبر من القاهرة بوصول اللورد نورث بروك إليها وتمت المقابلة الرسمية بينه وبين توفيق باشا وقدم إليه رسالة من اللورد جرانفيل يخوله فيها (نورث بروك) وكيلا للحكومة الإنجليزية فى القطر المصري ويطلب من الحكومة المصرية أن تساعده فى حل المشاكل الحالية خصوصاً المالية. فأظهر توفيق باشا غاية المسرة من تعيينه بهذه الوظيفة وأكد له خلوص الوداد وكمال الرضى بجميع مطالبه اهـ

ويظهر أن توفيق سر بقدوم اللورد نورث بروك، وإن لم يكن بينه وبينه معرفة شخصية ولا له سابقة علم بأحواله ولا بما يريد أن يعمله فى بلاده، هذا يمكن، وليت شعري ماذا يجنى هذا الخديوى الشاب من مرضاة هذا الخادع، وماذا يصيبه من سهام حيله. ولقد بينا في بعض الأعداد الماضية بعض صفات هذا اللورد وطرفاً من أعماله فى الهند ونذكر الآن عملا آخر منها ـ طلب وهو حكمدار الهند أن يمكن السلطة الإنجليزية فى مملكة (كابورتال) وهى مملكة واسعة تتاخم (لاهور) و (بتيالة) فادعى على مهراجها (ملكها) أنه مجنون وهو فى رشاد عقله واعتدال مزاجه وخلعه بهذه الدعوى وسجنه فى (بكسو) حتى مات حتف أنفه وقيل بالسم وكان هذا الملك المخلوع ابن (راندهير سنك) ونصب بدله ولداً صغيراً من أولاد كاتب من كتاب ذلك الملك ليعد المملكة بذلك للدخول فى حوزة الحكومة الإنجليزية

وكانت الحكومة الإنجليزية قد تركت لبعض الرجوات المخلوعين غابات صغيرة من بقايا أملاكهم للصيد فكان أولئك المساكين يسلون أنفسهم على ضياع ممالكهم بصرف بعض الزمان فيها، فلما جاء اللورد نورث بروك حاكما في الهند رآها كثيرة عليهم فنزعها من أيديهم وحرمهم من هذه المنفعة الزهيدة. هذا هو اللورد الذى طلب سميع اللّٰه خان الدهرى ليكون معيناً له في مصر على إرضاء المصريين بحكومة الإنجليز وهو الذى أعطى المبالغ الوافرة للمعلم (بالمر) لينثرها بين العرب حتى يثوروا فى أراضى الدولة العثمانية أيام الحرب المصرية كما أخبرنا الثقة الصادق من لندن ولكن العرب قتلوا رسوله هذا وشنق به أشخاص في مصر بلا جرم. هذا اللورد هو الذى يبتهج توفيق باشا بقدومه!! صان اللّٰه الأراضي المصرية المقدسة من شر هذا المحتال ومن شر صاحبه سميع اللّٰه خان الدهرى.

فرنسا وألمانيا

جزمت جريدة (نوفيل بريس ليبر) أن الباعث على سفر البارون كورسل (سفير فرنسا فى برلين) إلى وارزين هو أهم حدث سياسي، وفي ظنها أن الحديث بينه وبين البرنس بسمارك انتقل إلى موضوع الحرب الصينية ومسألة الكونجو. قالت الجريدة: أن بسمارك قد غير منهجه السياسي الذي سلكه من سنة ١٨٧٠. كان مضطراً لإبعاد فرنسا عن سائر الدول واليوم وجه عزيمته لإبعاد انجلترا. ولما اجتمع الأباطرة الثلاث في سنة ١٨٧٢ اضطربت خواطر الفرنسيين وكان كل منهم يحدث نفسه هل ينتظر اتفاق بين الأباطرة على مناوأة الجمهورية. أما إذا اجتمعوا فى هذا العام فلا يخالط الريب قلب فرنساوي بل تكون النفوس ساكنة مطمئنة. ولا يوجد فى دولة أوروبية ما يوجب حدوث قلق فى باريس بأي وجه كان، بل يوجد ما يثبت الطمأنينة فإن من نية البرنس (بسمارك) فى وارزين أن يقرب فرنسا إلى سائر الدول البرية، وأن زيارة البارون كورسل للبرنس تعدأكبر شاهد على ما تقول اهـ

كيد الانجليز في مصر

أرسل الإنجليز مراكبهم إلى ثغر الأسكندرية سنة ١٨٨٢ بلا سبب أو لقصد تهييج الخواطر الساكنة، ثم أطلقوا نيران مدافعهم على ذلك الثغر فكان عملهم الأول والثاني سبباً فى خسارات جسيمة نكب بها سكان البلاد ثم كان الضمان عليهم. هذا، إما من سوء حظ المصريين أو لضعف الحكومة أو خرقها. لا ريب أن خزانة الحكومة المصرية فى عجز عن أداء هذه الغرامة الثقيلة التي هي في الحقيقة قصاص بلا جناية. ولكن مع ذلك للمصابين حق فى المطالبة بخسائرهم وليس لهم صبر على الإمهال فيها، فحدثت ربكة وحكومة الإنجليز كالصياد الماهر لا يطلب السمك إلا عند تعكير الماء!! رأت أن تصيد صيداً أو تخطو خطوة أخرى إلى مقصدها في مصر بعد خطواتها السابقة أو تمكن مخالبها فى أحشاء مصر بل يصح أن نقول أن الحكومة الإنجليزية بحيلتها التى أشرفت على تتميمها تريد أن تقبض على زمام البلاد المصرية فتكون بأسرها فى تصرفها.

من المعلوم أن عمار المساجد والمدارس الدينية إنما هو بالأوقاف التي أنشأها صلحاء الملة من أزمان مديدة ولا يزال ينشئها المقتفون لآثارهم، وقيام الدين الإسلامى إنما هو بعمار المساجد والمدارس الدينية. فلأوقاف عماد عظيم يقوم عليه عرش الديانة الإسلامية. فقصد رجال الحكومة الإنجليزية بكيدهم أن يجعلوا العلماء

الذين يعمرون مساجد الله ومعاهد العلوم الشرعية خاضعين لأحكامهم، مرتبطين بعمالهم حتى يستعملوهم، (وإن طلبوا محالا) فى جلب قلوب الأهالى إليهم وتأليفها على ولائهم وربما نالوا بهم حجة عند دول أوروبا، يثبتون بها رغبة المصريين فى بقائهم تحت سلطة الحكومة الإنجليزية واطمئنانهم إلى ما تقتضى به فيهم.

هكذا رأى اللورد نورث بروك أن يحل مسألة التعويضات بأن تدفع الحكومة الإنجليزية قرضاً للخزينة المصرية تؤدي به تعويضات الخسائر التي حدثت من ضرب الاسكندرية على شرط أن تكون الأوقاف العمومية كافلة للقرض وفوائده وتكون إدارة الأوقاف فى تصرف رجال من الإنجليز.

ألا أيها النائمون تيقظوا ألا أيها الغافلون تنبهوا، يا أهل الشرف والناموس، ويا أرباب المروءة والنخوة، ويا أولى الغيرة الدينية، والحمية الإسلامية، ارفعوا رؤوسكم، تروا بلاء منصباً على أوطانكم، وما أنتم ببعيد منه، ولا معزل عنه، إن لم يكن أصابكم اليوم، فسيصيبكم غداً. تساهلتم فى الذود عن حقوقكم المقدسة، ولهوتم عن ما أضمرت لكم هذه الحكومة من الإهانة والتذليل، وسوم الخسف وتعللتم بالأوهام. فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني، حتى جاء أمر اللهوغركم بالله الغرور. أصبحتم على شفا جرف المذلة، ويخشى أن يقذف بكم بعد قليل فى جحيم العبودية.

إلا أن وقت التدارك ما فات، فالأرواح في الأجساد، والعقول في الرؤوس، والهمم فى النفوس، وإقدام العدو في زلل، وشئونه فى خلل، فاثبتوا ولا تهنوا، ولا تحزنوا وأنتم الأعلون، إن كنتم مؤمنين، لا ترضوا بالدنية، خوفاً من المنية، واعلموا أن ثباتاً قليلا اوإقداماً خفيفاً، فى هذا الوقت يفعل ما لا يفعله الجيش العرمرم نعم فإن الدول متفقة على معاكسة الإنجليز، والإنجليز في شغل شاغل بالمسألة السودانية، وقلوب رعاياهم في الشرق خصوصاً المسلمين، منحرفة عنهم، وكوامن الأحقاد متهيئة للوثبة عليهم، فعمل صغير فى مناوأتهم من أهل مصر يوجب بعون الله

سقوطهم، وتنكيس أعلامهم، ورجوعهم بالخيبة خاسرين، فالثبات الثبات وحذار حذار من التواني والتقاعد، هذا وقت يتقرب فيه المؤمنون إلى ربهم بأفضل عمل شرعي، هذا وقت تنال فيه سعادة الدارين، للعامل فيه خير الدنيا وله فى الآخرة الحسنى وزيادة، هذا وقت تظهر فيه ثقة المؤمن بوعد ربه، هذا وقت يشكر فيه العامل على بسيط الأرض، ويحمد له عمله فوق سبع سموات، إلا أن الشيطان يخوف أولياءه. فلا تخافوا أعداءكم ولا تكونوا كالذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، إن اللّٰه تعالى قد جعل من علامات الايمان حب الموت اختياراً لرضاه وإعلاء لكلمته، كونوا مع اللّٰه في نصره ينصركم ويثبت أقدامكم، ثقوا بوعد اللّٰه فلن يخلف اللّٰه وعده، إن أخلصتم له فى العمل سلوا قلوبكم، وامتحنوا أيمانكم، ولا ترتابوا في وعود ربكم، فلن يرتاب فيها إلا القوم الكافرون.

الصراع بين:

انجلترا وفرنسا

أظهرت جريدة استندارد عند كلامها على السياسة الفرنسية حدة زائدة وقالت إنا وإن كنا لا ننصح حكومتنا (الإنجليزية) بمعاداة دولة فرنسا ولكن علينا أن ننهج الطريق الذى يوافقنا بدون أن ننتظر فضلا من الأمة الفرنسية ولا أن نخشى غائلتها فإن كل عمل لا يبنى على هذا الأساس لا تكون غايته إلا الخيبة ولا عاقبة له إلا الخسارة وأن تباين المصالح بين فرنسا وانجلترا في درجة لا يمكن معها وفاق بين الدولتين اهـ

ولم تنفرد جريدة استندارد بهذا القول ولكن على شاكلتها جميع الجرائد الإنجليزية المهمة وليست جرائد فرنسا بأقل حدة من جرائد انجلترا فى تسوئة السياسة الإنجليزية وهذا مما يرشد إلى تمكن النفرة بين الدولتين، وربما ذهب بهما التباغض الذي يزداد يوما بعد يوم إلى مقارعة أشد من مقارعة الكلام، والسياسيون في انجلترا يرون أنهم يخسرون في ذلك اليوم أكثر مما تخسر حكومة فرنسا، فان انفرادهم عن الدول وضعفهم فى القوى العسكرية، وجفول أمتهم من الحرب خارج بلادهم، إذا امتد زمنها أو كان المنازل فيها أمة قوية حربية، كل هذا سيوقعهم في فشل لا يسهل عليهم النجاة من عواقبه، نسأل الله تحقيق ما يخافون.

نكاية الانجليز

حركات العقلاء على حسب المقاصد، ومقدرة نقدرها وأولاها بالاعتبار ما يصدر عن كبار الرجال الذين يدبرون شئون الممالك على قواعد العقل وأصول الفكر. وعلى رعاة الأمم فى كل دولة أن يكونوا بمرصد لكل حركة سياسية وبمرقب للنظر فى غاياتها والبحث عما بعث عليها. رب نهضة من سياسي عظيم تميد لها الراسيات فى كل دولة وتضطرب لها الروابط العامة بين أمة وأمة. فليس لمحنك في السياسة أن يقصر نظره على ما عنده ويرد كل حادث سياسي إلى ما رسم في مخيلته واعتقده موافقاً لمصلحته فيضل عن الرشد بالقصور ويغيب عنه الصواب بالغرور، بل عليه أن يطالع مقاصد السياسيين في لوح الإمكان ويتلوها في صفحات المنافع والمضار التى يحمل على جلبها أو يدعوا إلى دفعها طبائع الأمم ولوازم مليتهم ومواقع بلدانهم وعلائقهم مع من سواهم حتى يمكنه أن يكون بين هذه الجواذب والدوافع حافظاً لمداره، واقياً لنظام سيره. يكون على غوارب أمواج الحوادث كالملاح الماهر، يضرب بسفينته عروض البحار، فى أمن من الأخطار، يستفيد حتى من العواصف، وينجو حتى من القواصف.

كانت حكومة فرنساشد الدول فى دفع انجلترا عن مطالبها المالية وبهذه الشدة سقط المؤتمر، بعد هذا بذل البرنس بسمارك جهده فى اجتماع القياصرة الثلاثة

فاجتمعوا فى (اسكيارنيافيس)، ثلاثة ملوك عظام تلاقوا بعد طول المخابرة ومعهم وزراؤهم، رجال تميزوا بين السياسيين بعلو الرأي وبعد الغاية. هل كان هذا التلاقى لإطفاء لوعة الشوق وإجابة داعى المحبة الشخصية؟! هل كان كما ذكرته الصحف للتداول فى الوسائل التى يجب استكمالها لقهرالفوضويين. كيف يكون هذا وليس اعوان الفوضى الا كلصوص تقمعهم السطوة الداخلية ويكفى لسد ابواب الفرار فى وجوههم مخابرات خفيفة بين اولئك الملوك كما هو الشان فى امثالها من المسائل الجزئية. ان ما تقوله الجرائد من هذا القبيل انما يقصد به التعمية وصرف الاذهان عن النظر فى الحقيقة ـ اى غرض عظيم دعاهم للاجتماع ـ لم يجتمعوا لنفع دولة واحدة فان حكم المنافسة محى فضيلة الإيثار. قد انضم لهذا الاجتماع تعدد الملاقاة بين البرنس بسمارك بهذا الاتفاق الامبراطوري ان يجعل لفرنسا ركناً شديداً في معارضة انجلترا حتى يستحكم الشقاق ويفضى الى حرب توهى القوة الفرنسية ويصيب منها ما يحب، هذه فائدة خاصة بدولة الالمان لو قدرت على نيلها فماذا ينال الدولتين المنافستين لها من الاتفاق معها. او يريد البرنس مجرد المجاملة لفرنسا وتقطيب جراحها بتاييدها في رغباتها فتكون المصافاة بينها وبين المانيا وتنسى الاحقاد بينهما غاية لا تطلب والشان فيها كسابقتها، يقصد البرنس مجرد الانتقام من وزارة بريطانيا تشفيا من غيظ الإهانة التي لحقته فى المؤتمر. إن كان هذا، فما بال الدول تتفق معه على انتقام شخصي لا يمس المصلحة المشتركة. هل هذة الحركة الشديدة موجهة إلى ما يقصده بسمارك من التملك والفتوح فى الشرق وإلى هذا القصد تنتهى؟! أيصح أن يكون ذلك الأمر الكبير وسيلة لهذا الغرض الحقير. على أن انجلترا كانت أقرب إلى ألمانيا في هذه الوجهة وأجدر بأن يميل اليها البرنس ويتحالف معها لنيل هذه البغية.

هل أراد البرنس أن يحتل الروسيا ويلهى فرنسا بالمسألة المصرية لتنام الأعين عن دولة النمسا فتتقدم من طرف هرسك و بوسنه إلى ماشاء اللّٰه و وسعت

القوة، شفقة في غير موضع وصنيعة فى محل القطيعة. هل أحب البرنس أن يمتع نظره بشهود الفتوحات، فبعد مافتح للنمسا بابا فى الشرق من جهة هرسك رسم للروسيا طريق هراة وقندهار، ومد لفرنسا خطاً فى حدود تونس وهو قرير العين بما يرى ويسمع من توسع هذه الدول في فتوحاتها وإن لم تعد من ذلك فائدة على الامة الألمانية. شيء لا يأتى عليه الفكر ولا يصيبه النظر. هذا ولا يصح لنا أن نقول أن الحلف العظيم بين القياصرة واهتمامهم بتأكيد الروابط بينهم لمجرد كف يد الإنجليز عن مصر وإبقاء فائدة الدين ومبلغ الاستهلاك على ماكانا عليه، وحفظ قانون المالية المصرية كما ظن مراسل (التان البرليني) قال أن فى عزم البرنس بسمارك تأييد الحجة الفرنسية بثبات شديد وإرادة صحيحة، وسيكون مع فرنسا يداً واحدة في إبقاء الحالة المالية فى مصر على ماكانت عليه، وفى زعم المراسل أن هذا كان باعثاً لسياسي انجلترا على بذل الجهد لحل عقدة الاتفاق بين ألمانيا والنمسا وفرنسا. فإن المسألة المصرية بمجردها ليست مما يدعو إلى حملة عمومية.

إنى أرى تحت هذا النفع جحافل أهوال، ووراء هذا الغيم وابلات أرزاء، أرى تنقلا قريباً فى حدود الجغرافيا السياسية، وتغييراً عظيما فى الخطط الدولية، وانقلابا فى هيئة الروابط العمومية، نعم قد يكون من المباديء الأولية هذا العمل أن يتفق البرنس بسمارك مع فرنسا فانه لم يجد خيراً فى مناوأتها زمناً طويلا. وكلما رام الوضع منها زادت علواً وارتفاعا فيريد أن يجرب صداقتها، كما جرب عداوتها، وأن يدفع البرنس دولة الروسيا إلى آسيا فهو أسلم للدولتين الألمانيتين، ثم يبعث النمسا على التقدم خطوات حيث تولى وجهها وفيما تخلفه ورائها فائدة البرنس المالية، ـأرسل البرنس ولده الكونت هيربرت بسمارك سفيراً فى لندن ليكون حفيظاً لسره أمينا على عمله، حتى إذا فاته مايرجو من العزيمة الأولى، لم يخجل من الإنقلاب عنها إلى الأخرى، وربما يرى الارتباك الذي يؤدى به إلى ما يريد إنما يكون بعقد مؤتمر جديد باسم المسألة المصرية، ويقال أنه سيثبت على شدته فى هذه المسألة إلى حد كما

روته الجرائد المهمة ـ وقضت الحوادث أن تكون الدولة العثمانية والحكومة المصرية التي هي جزء من أجزاء الدولة في مهب رياح مختلفة فعليها التيقظ التام، والاحتراس الشديد كي لا تكون خسارتها في استفادة غيرهما. إذا قامت الدولة بعمل كما يليق بها حفظت حقوقها وصانت بقية ممالكها، الحكيم اليقظ يستفيد من كل حادثة وإلا خرق الغافل عرضة لكل خطر. الدول تطلب نكاية الإنجليز من كل وجه فما الذي يمنع الدولة العثمانية من مجاراة الدول العظام وهي أقدرهن على الإضرار بهم فإنهم في بلادها، يعبثون فيها مفسدين وسكان البلاد لا ينتظرون إلا خطوة من دولتهم إليهم فيقيمون القيامة عليهم.

اسف..

أنبأت الأخبار الأخيرة بحدوث ثورة في دارسين من بلاد أرمنستان قصد الإخلال بالسلطة العثمانية في تلك الأقطار ومهب ريح هذه الثورة من جمعية الأرامنة في تفليس، والأسلحة والذخائر تنهال على الثائرين من تلك الجمعية. هذه هي الأمم الخاملة التي لم يكن لها في الكون مكان، ولا على صفحة الوجود أثر، ولا في صفوف الأمم العظام قدم، أصبحت يطلب اسماً رسميا وشأناً علياً، تنفق أموالا، وتبذل أرواحاً، ولا تبالي بأغوال المنايا، فما بال المسلمين في بعض الأقطار وقد كانوا هامة العالم، نراهم اليوم في قنوط ويأس، تتخطف الدول الأجنبية ممالكهم، وهم في سكون يكتفون باسف العجائز، وتحسر الزمنى، مع أن لهم دولا عظاما، وعددهم يتجاوز مائتي مليون من النفوس، إن هذا لشيء عجيب حقا!!

اسماعيل باشا يحن إلى مصر!

عظم على الخديوى السابق أمر ما نزل بمصر، وعز عليه اشتداد الأزمة فى داخليتها، وعسر ماليتها، واكتنافها بالفتن الخارجية، وارتباكها فى المشاكل السياسية، فحن اليها (وله أن يحن). وأراد أن لا يدع للانجليز موضعاً للتعلل (فى تأمين الدين وإطفاء الثورة) فأظهر من سريرته ماذكرته جريدة الروبيبليك فرانسز وهو أنه يتبرع بالتزام أداء ما يطلبه حاملوا الأوراق المصرية مع استعداده لأن يقود جيشاً لمغالبة محمد أحمد!!

* * *

ورأينا فى جريدة الماتان أن مسيو كورسيل سفير فرنسا فى برلين أخبر حكومته بوجه رسمى أن القياصرة الثلاثة استقر عزمهم أن يبعثوا إلى الخديوى (توفيق باشا) بلائحة مقتضاها أن منصبه سيكون فى خطر إذا استمر زمنا طويلا على الركون لانجلترا فى الدسائس المالية بالقطر المصري. وأن السعى فى عودة اسماعيل باشا إلى مصر سيكون مؤيداً من وزارات برلين وستراسبورج وفينا وباريس وأن مسيو هربرت بسمارك يأخذ على نفسه أن يشهر الدوائر السياسية بلندن مايترتب على عودة الخديوى السابق من الفوائد حيث يعلن رسميا أن عودة اسماعيل باشا هى أفضل فى نظر الدول من الأعمال التي تصدر من انجلترا متعلقة بمصالح أوروبا ومنافعها فى البلاد المصرية اهـ

إنا نعلم أن اسماعيل باشا لو رجع إلى مصر لا يكتفى بتخفيض سلطة الإنجليز فى وادى النيل، بل يبذل جهده فى محو النفوذ الإنجليزى بالمرة، وربما مد بحباله إلى سائر البلاد المشرقية الداخلة فى سلطة الإنجليز ليحبط أعمالهم فيها، ويهدم أركان سلطتهم عليها، لأنه يعلم أن الدولة الإنجليزية هى السبب فى كل مصاب نزل به وكان الإنجليز أحسوا بذلك منه على ما روته بعض الجرائد فدفعوه عن نيل مقصده ولا يزالون يدفعونه ـ لكن لو اتفقت بقية الدول مع الدولة العثمانية على إرجاعه لم يبعد وقوعه غير أن إحدى الجرائد ذكرت مانعا قوياً وعائقاً شديداً يحول دون نجاح هذا المقصد وهو امتناع الذات الشاهانية عن إصدار الفرمان لاسماعيل باشا بخديوية مصر أيا كانت الحالة، واستعظام هذا المانع مبنى على ما تراءى للسلطان من أن اسماعيل باشا وهو فى اوروبا أعزل فاقد السطوة لا حول له ولا قوة، كان مهتما للتشويش على الخلافة العثمانية ومعارضة الذات الشاهانية وأن الرسائل الكثيرة والمقالات المتعددة المطبوعة بالألسن المختلفة المشحونة بما يمس الخلافة وقد وصل إلى علم السلطان أن الحامل على تحريرها هو اسماعيل باشا، فهذا الظن هو الذى يمنع السلطان من تسهيل الطريق لعودته لحسبانه أنه لو صار له نفوذ وسلطة فى مصر فربما صدرت عنه أعمال لا توافق مصلحة الدولة. فعلى رأى صاحب الجريدة أن عود اسماعيل باشا إلى مصر بعد اليأس من انجلترا لا يكون إلا باصلاح الصلة مع السلطان واستمالة سائر الدول ـ هل يمكن هذا ـ ربما يمكن إذا وثق السلطان بما يطمئن به ووضح للدول ما يصح الركون إليه. هذا إذ لم تراع الدول ولا الدولة العثمانية حركة الأفكار العمومية فى مصر فان جعلت هذا أساس العمل زادت المسألة صعوبة فان الرأى فى هذه الأيام مختلف بالديار المصرية. فمن الناس من سبقه ميله لتوفيق باشا ومنهم من قام يدعو إلى حليم باشا ويطلب من الناس أن يوقعوا على محضر بطلبه كما جاءنا به خبر الثقة، ومنهم من هو ممسك عن الرأى صامت عن القول، وسنأتى على بيان هذه المسألة فيما بعد إذا دعت الحوادث حقيقة للكلام فيها.

الفرصة!

إذا تليت سطور الحوادث الأخيرة وأعطيت حقها من الاعتبار ولوحظ ماوصلت إليه هيئة السياسة فى اوروبا لهذا العهد القريب وما يشف عنه اجتماع القياصرة الثلاثة وما يرشد إليه تداول الزيارات بين البارون دى كورسيل سفير فرنسا فى برلين، وبين البرنس بسمارك. ولو تبصر متأمل فيما يتبع ذلك لصح له الحكم بخطر الحالة فى مصر على انجلترا وأنه لم يبق لتخليصها من يديها إلا شيء واحد وهو قيام العثمانيين على حقوقهم واشتدادهم فى طلبها وعدم اطمئنانهم لأعمال وكلاء الإنجليز فى الاستانة، خصوصاً فى هذا الوقت الذى همت فيه الدول بتخفيض السلطة الإنجليزية ونزع مصر من يد انجلترا ويرى السياسيون أنه لا شيء أشد تأثيراً وأجمل عائدة فى تلطيف المسألة المصرية من مداخلة الدولة العثمانية.

وأخبر مراسل صحيفة التان فى فينا بناء على ما وصل إليه من مصدر موثوق به أن دولة ألمانيا والنمسا والروسيا من رايهم أن تداخل الدولة العثمانية وتجديد سلطة السلطان فى وادى النيل يوجب تعديل الحالة السياسية وليس الغرض من هذا إلا كف أيدى الإنجليز عن تلك الأقطار. فليس من الرأى أن تصغى الدولة العثمانيةلنصائح انجلترا ووكلائها وهى ترى أن جرائد الإنجليز تنادى بلسان الأمة الإنجليزية على حكومة بريطانيا طالبة منها إعلان الحماية على مصر بل والتمكين فى

خرطوم بعد رفع الحصار عنها وتنصحها بمد سكة الحديد من سواكن إلى مدينة خرطوم. فلو تساهلت الدولة فى هذا، فقد فرطت فى جزء عظيم من ممالكها، وأضاعت حقاً ثابتاً وأى دولة سواها تهتم بإخراج الإنجليز من مصر، فهى صاحبة الحق فيها فلا يكون للدولة نصيب من ملكها إذا أضاعته بالتفريط.

اللورد ثورت بروك وزبانيته يسعون لجلب قلوب الأهالى بتزيين الأمانى وتخييل الآمال «يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا» ليتخذوا من ميل المصريين حجة يجادلون بها الدول ويثبتون لأنفسهم حقاً قانونياً فى الإقامة بمصر، ثم من جهة أخرى يحشدون قوة عظيمة إلى مصر استعداداً لتلق الحوادث المنتظرة لكن تحت إسم إنقاذ جوردون، فلو وجد الإنجليز برهانا من الحيلة ومنعة بالقوة وحملهم الغرور والكبرياء على مشاورة الدول اعتماداً على عدم الاتصال فى البر وتمكنهم من المراكز الحربية فى البحر كمالطة وقبرص، وأن تحارب الدولة العثمانية، فهم أقدر الناس على محاربتها من جهة العريش وفى عموم السواحل، فماذا تكون العاقبة؟ هل تكظم الدول غيظها وتترك الإنجليز وشأنهم. لا نظن ذلك ولكن إذا حالت الموانع دون نكاية الإنجليز فى مصر عمدت الدول إلى نكايتهم بالحصول على غنيمة تعادل مصر ولا تكون إلا من بلاد المسلمين، فتساهل أصحاب الحق الشرعى فى وادى النيل يضيع لهم حقوقاً أخرى فى غيره.

إن الدولة العثمانية أولى من سائر الدول بالعمل فى المسألة المصرية وأجدرهم بالاهتمام بها، ومن الواجب أن تكون اشد حرصاً على الظفر بالإنجليز فيها. إن الدولة فى مقام المدافع عن حياته وهو بحكم الطبع أقوى باعثا وأدنى للعمل من طالب الفائدة، إن شر يقع أولى بالتلافى من شر يتوقع وأن خطراً عاجلا أحرى بالإلتفات من وهم باطل ـ نفوس المصريين فى هياج فان ما أفسد قلوبهم على الإنجليز من سوء التصرف فى الحكومة واستلام إدارتها وإبطال الحقوق الوطنية وحشد الجيوش إلى البلاد لقصد التمكن فيها، كل هذه سهام خرقت شغاف القلوب وزاد الجراح نغراً

ما اعترفت به جريدة التايمس من اشتداد الارتباك وتعطل أسباب المعيشة ووقوف دولاب التجارة وإشراف العائلات الكثيرة على الافتضاح خصوصاً الذين كانوا فى خدمة أوطانهم وحرموا منها. فلو أحس المصريون وهم فى هذه الحالة بحركة خفيفة من دولتهم (العثمانية) لكفوها شر الإنجليز وقليل من العمل فيه الكفاية. واليوم يتوجه الإنجليز إلى السودان، فلو لحوا ثباتاً من العثمانيين لوقفوا وقفة الحائر بل سقطوا فيما لا منجى لهم منه. إن الخطر كل الخطر فى سكوت العثمانيين. عن طلب حقوقهم، وليس من الرأى أن يخاطروا بأنفسهم ثقة بمواعيد الإنجليز وفى علمهم أن لا وفاء لها. فهذا هو الوقت الذى يتمكنون فيه من إعادة سلطتهم فى القطر المصرى إلى أعالى السودان. وفى ذلك صيانة ممالكهم من العدوان ولا يرضى بفوات هذه الفرصة إلا من أسلم نفسه للموت وألق بها إلى التهلكة. هذا ما يثبته العيان ولا يختلف فيه أثنان، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل.

جلادستون

قامت الدول الأوروبية كافة على المطالبة بحقوقها وإعنات الإنجليز فى مصر خصوصاً دولتى فرنسا وألمانيا وجميعهم يطالبون انجلترا بانجاز وعودها ويقيمون الحجة عليها فى أعمالها بمصر على كيفيات مختلفة ومن وجوه متعددة.

ومحمد أحمد وأتباعه قد فرغوا من أعمالهم الزراعية وأحرزوا غلتهم وهيئوا مؤنهم وجندوا الجنود الكثيفة وقصدوا أطراف دوصد وبربر وفى الأخبار الأخيرة أنهم سيروا جيشين على طريقين أحدهما يزحف من الصحراء والآخر على خط النيل. والقلق والاضطراب وضيق الحال واختلال الأمن يزداد فى مصر كل يوم حتى صار يخشى من فتنة عامة، خصوصاً بعد ما أحس الناس بسوء نية الإنجليز، ويمد هذه الأفكار ما فشى بين العساكر والعامة من أن السلطان غير راض عن أعمال الإنجليز فى مصر ولا هو مرتاح لزحفهم على السودان، وبوده لو يصادفون مقاومة لا يخطون بها خطوة، ونزول ماء النيل وفقدان وسائل النقل ووعر الطريق وبعد المسافة، كل هذا أطفأ تلك الحرارة، التى كانت تطير بالعساكر الإنجليزية إلى خرطوم بأسرع من حركة البخار لإنقاذ جوردون كما يزعمون أو تملك خرطوم كما هو حقيقة القصد. وانقلاب قلوب الهنديين على حكامهم الإنجليز وظهور تلك الضغائن مع العجز عن سترها خصوصاً من النوابين والرجوات الذين يتوجسون

الشر من وثبات الحكومة الإنجليزية عليهم وهم الآن فى ضجر شديد من تضييقها وتشديدها فى مراقبة أعمالهم وهم على صورة الاستقلال، حتى أن بعضاً منهم ومن أعيان الأهالي الهنديين بعثوا بأناس الى سرخس ومرو وآشقاباد على ما بلغنا ليعرضوا إخلاصهم ويتبينوا يوم خلاصهم، ذلك كله أحدث قلقاً واضطراباً فى أفكار سياسي الانجليز وتخبطاً فى سيرهم. فمن جهة يريدون ستر خجلهم من الأعمال المصرية مع قضاء بعض أوطارهم فيطلبون إلى الدول تشكيل مراقبة عمومية وترك مصر وشأنها مع بقاء شرذمة من عساكرهم فى وادى حلفا لصيانة الحدود المصرية بعد طرد الجند الوطنى (كما صانوا سائر الممالك الهندية بأمثال هذه الشرذمات!) ويتوهمون أنهم يلهون الدول بهذه الأضحوكة، ومن جهة أخرى يبتغون إقناع أنفسهم وإقناع الأمة الإنجليزية باوهام خيالية وترهات صبيانية يجعلونها اساساً لسياستهم فى الممالك الهندية. من ذلك ما اعتمده اللورد دوفرين (ذلك السياسى المشهور الذي أفسد شئون مصر) قاعدة متينة لصون الممالك الهندية. بعد أن عين حكمداراً عليها، قال فى مقال ألقاه فى (بال فاست) أنه يعد نفسه سعيداً بمعرفته الخصوصية لمسيو جيرس وزير خارجية الروسيا ثم أثنى عليه بجدة تنبىء عن الإخلاص وقال إنى أرى لمسيو جيرس رغبة صادقة فى حصول المصافات بين الروسيا والانجليز ورفع الشقاق بينهما وبالغ فى القول حتى قالت جريدة (الميموريال دبلوماتيك) بعد ذكر تهنئة الروسيا للورد دوفرين على الوظيفة الجديدة، أن اللورد مكلف بعقد وفاق تعين به مهلة لتلاطم الدولتين المتنازعتين في آسيا الوسطى بعد تحديد تخوم أفغانستان من طرف الشمال. هذا ما اندفع إليه جناب اللورد بقوة الاضطراب وشدة الشغف بتسكين خواطر الشعب الإنجليزى وتغرير العقول فى الهند وإرضاء القلوب عن سياسة الحكومة وربما إرضاء نفسه أيضاً، والقارىء يعلم من هذه الحالة مقدار العجز الملم بسياسي بريطانيا حيث طفقوا يجعلون من مبانى سياستهم فى الشرق معرفة شخصية بين حاكمهم فى الهند وبين

وزير الروسيا الذى لم يخط خطوة فى الشرق إلا وغايتها الهند ولم تتقدم قدماً إليه إلا بعد عهد ينكث وميثاق ينقض. فإن حلف وزير الروسيا للورد هذه المرة لا يختلف هذا اليمين عن اليمين السابقة، على أن المحبة الشخصية لا قيمة لها فى السياسات الكلية وما سرور الإنجليز بها إلا من آثار الذهول وسر سام العقول.

وأعجب من هذا أن جلادستون يرفع صوته بين شعبه بقوله أن من ضعف العقل أن يظن الوهن فى امبراطورية الإنجليز أو يترقب بها الضعف فى المستقبل وأن بسطة الدول مما يوجب بسطة انجلترا. عجبا!! فإذا انبسطت الروسيا إلى الهند فالى أين تنبسط انجلترا، أظنها تنقبض، لا تنبسط، ويقول أن يوما تشعرون فيه بالخوف لبعيد وليس بقريب سبحان الله. الروسيا وضعت يدها على باب الهند (سرخس) وشهرتها عمت أنحاوه وقلوب أهاليه ميالة إليها وهى لا تهاب الإنجليز ولا تتوانى فى سيرها فأى يوم يشعر فيه بالخوف بعد يومه هذا، كأن الوزير لا يحس بالخطر حتى تحل الروسيا فى بنجاب أو تصل إلى نهر السند.

لا جرم أن الارتباك يضل بالإنسان عن رشده، ومن المضحكات ما ذهبت اليه جريدة البال مال جازيت من أن هذا الكلام من جلادستون يدل على ثقة جديدة منه بالدول بعد مفاوضات حل بها المشكلات، وأن من له أدنى إلمام بحال الإنجليز فى ممالك الهند وضعف عسكريتهم وتوزع أساطيلهم لحفظ سائر أملاكهم ونفرة الرعايا الشرقيين منهم مع تألب الدول عليهم وتقدم الروسيا إلى الهند يوما بعد يوم يحكم بأن قد حل أجلهم وقرب يوم يهدم فيه سلطانهم ويتقلص ظل سلطتهم فى المشرق ويهزأ بما يقول جلادستون (أن أمبراطورية انجلترا تزداد قدرتها بتجدد الأيام) ومن رأى العقلاء أنه لو تقدم محمد أحمدِ وساعده أهل الشهامة من الصعيد والشرقية والبحيرة فى مصر وخاب أمل الإنجليز فى حملتهم وقامت الفتنة فى الهند وتقدمت الروسيا وخلصت النفوس من رق العبودية وقضى الأمر وقيل بعداً للقوم الظالمين.

عماء بعض الناس فى مصر
أو تعاميهم عن مقاصد الانجليز فيها

تسعى حكومة بريطانيا بكل ما فى وسعها لوقف دفع الاستهلاك وتـنقيص فائدة الدين المصرى ويعترضها فى ذلك سائر الدول الأوروبية العظيمة. هل الدولة الانجليزية أشد الدول رحمة على العالمين عموماً وعلى المصريين خصوصاً فدعتها الرحمة للقيام على هذا العمل قصداً لراحة المصريين وتخفيفاً لثقل الدين على الخزينة المصرية وتوصلا لرفاهة الأهالى وتوسيع دائرة ثروتهم. أو أن هذه الدولة لم تبالغ فى الشفقة وهى على حد الاعتدال فى الحكم ولكن الدول تجاوزوا القسط فى القسوة خشونة وغشمرة أو لعداوة خصوصية بينهم وبين المصريين، لهذا لا يريدون تخفيف شيء من أثقالهم. أو أنها اطلعت على احوال المصريين وكشف حقيقة ما هم عليه وعلمت عجزهم عن الوفاء مما عليهم وخفيت هذه الحقيقة على سائر الدول فرأت حكومة بريطانيا أن تخبر الدول بما وقفت عليه قياماً بخدمة الصدق وإنما يعارضها من سواها جهلا بواقع الأمر. لا. لا...

ليس شيء من ذلك. من ساح فى المستعمرات الانجـليزية كـالبلاد الهـندية ونحوها تبين له أن الأهالى فى تلك الممالك حملوا من أثقال الضرائب وأوقار الرسوم الدائمة والمؤقتة ما لا يعرف له غاية ولا يؤخذ فيه بقياس حتى سقطوا فى مهواة من

الفقر لا يجدون منها خلاصاً. ويوجد ملايين من أهل الهند يقتاتون بالأعشاب البرية لفقدان أقوات البشر مع خصوبة أراضيهم وجودة منابتهم، فهل يصح لعاقل أن يظن بعد هذا أن الانجليز ضنوا برحمتهم على رعاياهم الهنديين وأفاضوا فيضها على المصريين. أي رابطة بين المصريين والجنس البريطاني تدعو إلى هذا الاختصاص، هل يصح أن يقال أن الأمة الفرنسية مع مالها من سابق الآثار فى مصر تعادى المصريين وتقسوا عليهم وتطلب تنكيلهم حقداً وانتقاماً وهذا هو ما يحملها على المعارضة فى تخفيف الفوائد وتوقيف الاستهلاك قصد الإضرار بالمصريين ووافقتها على ذلك الدول الباقية. هذا مما لا يعقل فإن فى مصر ما يستميل الدول إليها لا ما يبعثها على الانتقام منها كما لا يعقل أو ان وكلاء السياسة فى مصر ومديرى خزينة الدين من رجال الدول العظام قد خفى عليهم حال المصرين وشئون ماليتهم وتفرد الانجليز بعلمها من بين سائر الأمم على أن من يزعم أن أرض مصر فقيرة فى ثروتها قاصرة عن أداء ملاوجبه عليها عهد الدول، فقد أفترى كذباً، فإن مصر قد قامت بوفاء ما طلب منها أيام وزارة رياض باشا أحسن قيام مع غاية السعة وارتياح الأهالى إلى تأدية الضرائب أنواعها ومسرتهم التامة من تقسيم المطلوبات على حسب المواسم الزراعية وهكذا استمر الحال بعد رياض باشا على الأساس الذى وضع فى عهده إلى أن زحفت انجلترا بجيش من دسائسها على تلك النفوس المطمئنة فأقلقتها، وتلك الأرواح الساكنة فأثارتها، فما تبتغى انجلترا الآن من الإلحاح على تنقيح قانون التصفية وتنقيص الفوائد وماذا بعث الدول على معارضتها؟!

تريد حكومة بريطانيا أن تسود على مصر وتستعبد أهلها وترى أن بقاء الحالة المالية على أصولها السابقة يرجع بالمنفعة على الدائنين من الأمم المختلفة فلا يكون حظ الخزينة الانجليزية الخاصة من ثورة مصر وافر، ولهذا بادرت قبل إعلان الحماية أو السيادة أو الاستملاك بالسعى فى تخفيض فائدة الدين لتستأثر فيما بعد بما

تزعم التفضل به الآن على المصريين، فهى تسعى لفائدتها الخاصة ليس إلا، هذا قصدها لم يخف على الدول فقامت بمعارضتها وأصرت حرصاً على مصالحها لا تهدر فداء لحظوظ الانجليز وقضاء لشهواتهم. يهم الدول جلاء الانجليز عن مصر عاجلا أو آجلا لهذا تهتم بسد أبواب الحيل عليهم وإقامة العقبات الصعبة فى كل خطوة يخطونها إلى مآربهم.

وظهرت مقاصد الانجليز وانكشفت مضمراتهم لعموم اوروبا ولم يبق فيها ريبة عند دولة من الدول الأوروبية وإن كان بعض الغفل فى تلك البلاد المنكودة الحظ (لا نريد نوبار باشا فإنه ضارب فى طريقه ذاهب إلى مقصده يتزلف للانجليز بكل ما يمكنه لينال بوساطتهم ما أشرنا إليه مراراً)، تسول لهم أنفسهم، إما جهلا وإما طمعاً أن يميلوا مع ريح الحكومة الانجليزية ويظنوا أنها لاتقصد بالبلاد المصرية إلا خيراً فإذا فاض الخير فى البلاد وشملت الراحة جميع أنحائها انجلت العساكر الانجليزية عنها كما جاءت إليها ورجعوا إلى بلادهم فرحين بأنهم أدوا فرائض الذمة وحقوق الإنسانية!!

والعجب من هؤلاء المغرورين كيف لم يعتبروا بحركات اللورد نورث بروك، يتجول فى البلاد المصرية ويستدعى إليه العمد والمشائخ ويذاكرهم فيما يريد، طوراً سرا وطوراً آخر علانية، ويجاذبهم أطراف الأحاديث فيما يمكن أن يتخذ وسيلة لتمكين حكومته من الولاية على تلك البلاد. أما كان يكفى هذا السير لإدراك الحقيقة، فبم يعلل الغافلون أنفسهم وأى أوهام تخيل لهم ما يظنون، ألم يكشف الغطاء عن نية السوء بسؤال اللورد نورث بروك للشيخ العباسى المهدى شيخ الجامع الأزهر ومفتى القاهرة حيث افتتح الكلام معه بقوله: (ماذا تعلم من أفكار الأهالى لو أردنا نحن الإنجليز أن نديم الإقامة فى البلاد)، فلو لم يكن لدولة الانجليز عزم على تملك وادى النيل فكيف كان هذا السياسى الداهية يبتدر شيخاً من أجل المشائخ وأعلاهم مقاما فى القطر المصرى بهذا السؤال مع أن أقل ما فيه إثارة الظنون

وإحداث الريب إجابة حضرة الشيخ بما يفيد نفرة القلوب من بقاء الانجليز فى احتلال مصر، فاستدرك اللورد ما فرط منه بقوله إنا لا نريد البقاء ولكن كان استدراكه مناقضا لما دل عليه أول سؤاله وما الإنكار إلا خديعة لا تخفى على الصبيان فضلا عن الراشدين، يريد اللورد بهذه المحاولات أن يستكن مضمرات القلوب ليتبين له ضروب السير إلى ما يقصد من التسلط على أرض مصر حتى إذا سد فى وجهه باب حاول قرع باب آخر.

أما آن لهؤلاء المخدوعين أن يرجعوا لأنفسهم ويمدوا نظر الانتقاد لحركات هذا اللورد، أى إصلاح يقصده اللورد من طرد العساكر المصرية وإلغاء كل ما يسمى جنداً مصرياً ومحو هذا الإسم من دفاتر الحكومة المصرية. إن اللورد يلح بكل اهتمام على استبدال الجند المصري بأعوان الشرطة والخفر المسمى بالضابطه. ماهذا الاهتمام؟ إن لم يكن من قصده تمهيد الطرق للتسلط التام على مصر. هذا سبيل سلكه الانجليزى فى جميع فتوحاته كما نبهنا مراراً وأن هذا الداهية الانجليزى لا يحيد عنه بعدما سلكه أسلافه من قبله وقفاهم عليه عندما كان حكمدار الهند وجنوا ثماره. يجتهد بما فى وسعه لطرد العساكر المصرية وإبدالهم بالضابطة ليقترح بعد أيام تبديل رجال الضابطة المصريين بأقوام من الجيوش الانجليزية أو الهندية تعللا بفساد اخلاق المصريين وعدم أهليتهم للخدم الظامية وعجزهم عن القيام بوظائف الضبط وصيانة الراحة وبذلك يجرد الحكومة من جميع قواها وتكون السلطة الانجليزية سائدة فى جميع الجهات بلا معارض لها من طرف الحكومة المحلية كل هذا يجريه قبل إعلان السيادة والاستملاك كما فعل سابقوه فى الهند مع كل نواب وراجا ولا يزال يفعل خلفهم من بعدهم.

يزعم الانجليز أن تدخلهم فى مصر إنما كان لتسكين الاضطراب وإزالة العصيان وتقرير الراحة. ارتفع العصيان وسجن عرابى ورؤساء حزبه وتبددت جموعهم ولم يبق أثر لما سموه عصياناً وألزمت دولة بريطانيا حكومة مصر بالتنازل

عن السودان من مدة طويلة. فماذا تريد من إرسال الجيوش إلى مصر الآن، ألمجرد إرسال جوردون كما يدعى رجال الانجليز؟ إنهم يقولون أن جوردون يسوق مراكبه فى كل وقت لمحاربة الثائرين وتشهد الجرائد الانجليزية نفسها بأنه يستطيع الخلاص بأى وجه متى شاء فليس هناك حاجة إلى تجريد الجيوش وسوقها إلى الأراضى المصرية تحت هذه التعلة. هل تريد حكومة بريطانيا بتوقية[1] جيوشها أن ترفع الخلل الداخلي وتكف أيدى الناهبين وقطاع الطريق. هذا خلل ما حدث إلا بوجود الجيوش لأجنبية والنفرة من السلطة الغريبة فكيف يمكن محو الشيء بتوقية علل وجوده، هذا الخلل يرتفع ويمحى أثره إذا انجلى جيش العدو عن الديار ولم يبق لها فيها رؤوس ولا أذناب، نعم هذه كلها تعلات يزعمها الانجليز حجابا لما يسعون إليه من الاستعلاء على عرش السيادة فى مصر وحط الرجال فى سهولها وحزونها.[2]

فلم يبق بعد هذا سوى أن ينتبه الغافل، ويلتفت صاحب الأمر إلى ما يحف به ليحترس من هذا الكيد العظيم، ولا يعين الانجليز على مقاصدهم جهلا منه أو اغتراراً بما يخيلون له من نفع يعود على شخصه أو بلاده، سبحان الله هل كان مثل هذا الأمر يحتاج إلى تنبيه. هذا محل العجب من غفلة أمراء الشرق، لا تفيدهم التجارب، ولا تريبهم المحن ولا تعلمهم الحوادث، ولا تدربهم النوازل، وتناوب الرزايا والمصائب. من له أدنى خبرة بسير الانجليز فى ماضيهم أو حاضرهم يعلم أنهم يملكون البلاد بأيدى سكانها ويقتلون أمراءها بسيوف أنفسهم. يرى هذا الأمير الشرقى فى أرض جاره فيظن النازلة خاصة بموقعها فيلهوا عنها ولا يخشى السقوط فيما سقط فيه غيره فيقع فى نفس الشرك الذى صيد به جاره. مثلهم مثل الأغنام يسوق القصاب منها واحداً بعد واحد إلى المذبحة وسائر القطيع فى غفلة عما

---

١ ـ يقصد الأفغاني بكلمة توقية: وقاية أو حراسة...

٢ ـ حزونها: المناطق الوعرة...

يجرى على أحاده يرعى ويرتع آمنا مطمئنا حتى يفنى. لا عار على أمة قليلة العدد ضعيفة القوة إذا تغلبت عليها أمة أشد منها قوة وأكثر سواداً وقهرتها بقوة السلاح. وإنما العار الذى لا يمحوه كر الدهور ولا ينسيه تطاول الأزمان، هو أن تسعى الأمة أو أحد رجالها أو طائفة منهم لتمكين أيدى العدو من نواصيهم، إما غفلة عن شئونهم، أو رغبة فى نفع وقتى وجزاء نقدى على خيانتهم، فيكونون باحثين عن حتفهم بظلفهم.

علينا أن نرفع أعلام المحبة الوطنية، ونحمل عوامل الشهامة الاسلامية. ونوقد نيران الغيرة الوطنية، لتخيب آمال الانجليز ونرد كيدهم فى نحورهم ونقذف بأولئك المغفلين الذي يميلون إليهم خارج تخوم هذه الديار ليلحقوا بالخائنين ممن سبقهم ويذوقوا عذاب الهوان بما كانوا يكسبون. هذا إذا حصل اليأس من تيقظهم ورجوعهم إلى الحق والصدق فى محبة الأوطان ورعاية مصالحها. فإن تابوا وأصلحوا وأنابوا كان الحق ظهيرهم، وكان اللّه وليهم ونصيرهم، وهو نعم المولى ونعم النصير.

اخفاق سعى الانجليز

بينا العلة فى اهتمام الانجليز بتحوير قانون المالية المصرية ومعارضة الدول لهم فيما يرغبون. ولما لم يجدهم إلحاحهم نفعاً وثبتت الدول فى امتناعها نكبوا عن طريقهم واستكانوا لرأى الدول وأعلن ترجمان سرهم ولسان حالهم (نوبار باشا) لجميع قناصل الدول فى مصر أن الحكومة المصرية (الانجليزية) رجعت عما عزمت عليه وكانت نفذته من توقيف الاستهلاك. كان قصد الانجليز بهذا التصرف إثبات سلطة وتقوية شوكتهم على المصالح العامة فى مصر وهو نفوذ عاجل وكانوا يؤملون فيه فائدة آجلة كما أشرنا إليه. ولما راوا أن طول الزمن على معارضة الدول لهم ربما يحول بينهم وبين غايات أخر يبتغون الوصول إليها انقلبوا عن وجههم ونقضوا عزيمتهم بلا خجل ولا نظن أن يخفى على المصريين سر العزيمة الأولى وسر النقض الثانى وأن هذا التنازل إنما دعت إليه الضرورة الحاضرة ووجود العقبة السياسية أما سائر مطامعهم وبقية مقاصدهم فإنهم يغذون إليها السير ولا يدعون منها نقيراً إلا أن تصادمهم جيوش الهمم وتقوم فى وجوههم عقبات العزائم. هنالك يرجعون بالخيبة ويخسرون خسراناً مبيناً.

الحق

اعتدى على الحق جاهل فنال نكاله.
ينتصر الحق ويخذل الباطل وإن طاوله
الكرم وأمهله العفو ومده الغرور.
جمال الدين الافغانى (*) محمد عبده

تمت كلمات «العروة الوثق» بفضل اللّٰه.

الآيات

الأماكن

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(ن)

(هـ)

الأعلام

(ت)

(ث)

(ج)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(غ)

(ف)

(ن)

ملحق

العروة الوثقىٰ
ثمانية عشر عدداً تعود بعد مئة عام

لم يأت اهتمام العلاّمة السيد هادي خسروشاهي بـ(العروة الوثقىٰ) و اعادة اصدار اعدادها بطبعة مزيدة ـبمقدمة غنيّه و فهارس: الآيات القرآنية و الأماكن و الرجال ـ و كذا بقية آثار السيد جمالالدين الحسيني لكونه يشترک معه في الجنسية (الايرانية) أو الملاع (فأحدهما يقرب من شبهالآخر)! كلا. فالسيد خسروشاهي يرفض ان يكون السيد الحسيني ايرانياً او افغانيا او مصرياً او عراقياً او... او... بل يعتقد انّه كان: عالماً مجاهداً، اسدآبادياً و كابولياً و اسلامبولياً و.. ـكما جاء في تواقيعه المتعددة ـ وقف ضدالطغاة في كلّ مكان و طالب بإقامة الحكم الاسلامي و الوحدة الاسلاميه و نصرة المسلمين.

كانت الطواغيت تطرده من كل بلد، و كان مع الشيعة في ايران و العراق، و مع السنة في افغانستان و الهند و مصر و... الخ، و ان كانت وفاته قبل تحقيق آماله التي استطاع الامام الخميني﴿ تحقيقها، إلا انه الرجل الذين يدين له كل الاسلاميين اليوم من «ارخبيل الملايو» إلىٰ «وادي الذهب» بأنه حامل بذرة البداية و حاضنها و ناثرها في كل البلاد.

... بدأ نهضته في اسد آباد حيث مسقط رأسه فيها، ثم الهند و النجف و كربلاء و عاد الىٰ اسد آباد ثم طهران و خراسان حتىٰ افغانستان.. ثم عاد الىٰ الهند، فطرد منها إلىٰ مصر ثم طرد إلىٰ تركيا و بالتحديد.. الاستانة عاصمةالدوله العثمانية، و لم تستقر له الظروف فيها حيث تنقل مرة أُخرىٰ بين هذهالمناطق كصقر محلق، حتىٰ قادته هومه النهضوية إلىٰ باريس، التي اتخذها مركزاً لنشاطاته السياسية في مواجهة المدّ الغربي ضد بلاد المسليمن، و هناک ولدت (العروة الوثقىٰ) التي مثلّت فجر الصحافة الاسلامية.

لقد كانت (العروة الوثقىٰ) أولى صحيفة اسلامية سياسيه ناضجة تتحدىٰ المخطط الاستكباري و توزع في جميع أنحاء الشرق من مصر و الشام و العراق و الجزيرة العربية و ايران و الىٰ افغانستان و الهند، و تركزت أهدافها في ثلاث نقاط: (النقطة الاولىٰ)، المقاومة ضدالاستعمار الأوروبي و خاصة البريطاني

و (الثانية): الدعوة إلىٰ الوحدة الاسلامية و ترک‌التعصبات الطائفية

و (الثالثة): مناقشة اسباب تخلف المسلمين.

و لدورها في اضعاف المدّ الاستعماري ـالذي كان في ذروة كبريائه و مدّه ـو فضح سياساته و توعية المسلمين و استنهاضهم سعىٰ الانكليز المهددون بهذا الخطر إلىٰ دفعه، فأصدرت الحكومة الهندية البريطانية قانوناً يعاقب بموجبه من يحوز عدداً من العروة الوثقىٰ بالحبس لمدّة سنتين و بغرامة مقدارها ۱۰۰ جنيه، و كذلک ألزم الانكليز مجلس‌الوزراء المصري بإصدار قرار يمنع من دخولها في البلاد المصرية كما ان حيازة الجريدة حسبت جريمة، و نجح الانكليز في معركتهم ضدالعروة الوثقىٰ.

و بعد ان مُنعت من الدخول إلىٰ الهند و مصر، لم تستطع (العروة الوثقىٰ) ان تصل إلىٰ قرّائها المشتاقين و تبلّغ رسالتها، و فرضت هذه الظروف عليها التوقف، فتوقفت نهائياً بعد صدور العدد الثامن عشر في ۱۶/۱۰/ ۱۸۸۴ م.

إلا ان رسالة الأفغاني لم تقتصر عند هذاالحد، حيث قال: «لا يعجزنا، بث أفكارنا في البلاد الشرقية سواء كان بهذه الجريدة أو بأيّة وسيله أُخرىٰ اذا دعا الحال فإن أنصار الحق كثيرون».

و بقت (العروة الوثقىٰ) تاريخاً ناصعاً و وثائق دالة علىٰ النهضة و الثورة و الوحدة تذكر قارئها بالصراع الممتد بين أهل الحق و الباطل و حتمية انتصار الحق علىٰ الباطل.

فبعد جهودالسيدالحسيني التي لم يظفر بنتائجها في حياته، جاءت خيبة الاستعمار في مطلع القران الخامس عشرالهجري حيث خذلهم الله علىٰ يد العبد الصالح و الفقيه المجاهد الإمام روح الله الموسوي الخميني*.

---

* مجلة : «مرآة الكتب» الشهرية الصادرة من «قم» ـ ايران العدد ۴۰، السنة الرابعة صفر ۱۴۱۸ هـ

الآثار الكاملة

للسيد جمال‌الدين الحسيني ـ الأفغاني ـ

دراسة و تحقيق، إعداد و تقديم:

سيدهادي خسروشاهي

۱ ـ العروة الوثقى ـ بالإشتراک مع الشيخ محمد عبده. (منتشر گرديد)

۲ ـ رسائل في الفلسفة و العرفان ـ " " " (منتشر گرديد)

۳ ـ التعليقات على شرح العقائد العضدية ـ " " "

۴ ـ ضياءالخافقين ـ بالإشتراک مع الآخرين ـ

۵ ـ تاريخ مختصر ايران و تتمة البيان في تاريخ الافغان.

۶ ـ رسائل و مقالات ـ باللغة العربية ـ

۷ ـ مجموعة مقالات ـ بزبان فارسی ـ

۸ ـ نامه‌ها و اسناد سياسی سيد.

۹ ـ اسلام و علم ـ به ضميمهٔ رسالهٔ قضا و قدر، و چند بحث ديگر.

۱۰ ـ مقالات و مكتوبات لم تنشر حتى اليوم.

آثاری درباره سيد

۱ ـ زندگی و آثار سيدجمال‌الدين اسدآبادی.

بقلم: لطف الله جمالی، صفات الله جمالی، سيد حسن تقی‌زاده.

۲ ـ ترجمهٔ گزيده اسناد وزارتخارجه انگليس درباره سيد ـ بضميمهٔ متن كامل اسناد ـ

۳ ـ کتابشناسی توصيفی سيد ـ معرفی يک هزار کتاب و مقاله درباره سيد ـ

۴ ـ ۵ ـ يادواره سيد، مجموعه ۲۵ مقاله درباره سيد (منتشر گرديد)

۶ ـ ۷ ـ مجموعهٔ ۵۰ مقاله تاريخی ـ تحقيقی درباره سيد.

۸ ـ اسناد وزارتخارجه ايران درباره سيد.

۹ ـ اسناد و مقالاتی از تركيه

۱۰ ـ يقظة الشرق، مجموعهٔ ۳۰ مقاله بعربی درباره سيد.

* * *

تمامی كتابهای فوق بكوشش استاد سيدهادی خسروشاهی آماده چاپ و نشر است.

دو نوع «العروة الوثقی»

«... این است که می‌گویم: عالمان دین و طلاب راستین، باید بدانند که غیر از عروة الوثقای مرجع اسبق مرحوم سید محمد کاظم یزدی، عروة الوثقای دیگر نیز هست و برای مسلمانان و اجتماعات اسلامی با توجه به سیاست‌های جهانی و استعمارها و تکالیف مسلمانان در این مسائل، فروع و مسائل این عروه نیز مطرح است و توجه به این فروع و مسائل نیز واجب تکلیفی است و بر عالم، نظر در آنها «واجب» است زیرا که به حکم تجربه و مشاهده با هوشیاری نسبت به مسائل این عروهٔ (سیاسی ـ دینی) و عمل به آنها و مقاومت بر سر آنهاست که می‌توان مسائل آن عروه را نیز داشت و عمل کرد و فرزندان را بر طبق آنها تربیت نمود و گرنه استعمار و عوامل آن، آن مسائل را یکی یکی هدم می‌کنند!

این دو کتاب، یکی شامل احکام فقهی و عبادی فردی و معاملات است، از عالم و فقیهی بزرگ در اسلام، و دیگری شامل احکام اجتماعی و معاملات سیاسی دینی است از عالم اجتماعی و فیلسوفی سیاسی و بزرگ در اسلام. و این دو مقوله در صدر اسلام ــ یعنی در متن اسلام ــ یکی بوده است، سپس در روزگاران بعد از هم جدا شده است و همین جدا شدن، باعث بزرگ‌ترین زیانها و انحطاطها برای مسلمانان گشته است.

پس اکنون چرا باید عالمان عروهٔ فقهی تا این اندازه از عروهٔ اجتماعی جدا و دور و بی‌خبر باشند؟ و راستی، آیا چگونه تواند بود آنهمه توجه و تدریس و تحشیه و تزاحم بر سر آن «عروه» و اینهمه بی‌خبری و ناآگاهی از این «عروه»؟!

و این است که می‌گویم: این کتاب ــ عروهٔ اجتماعی و امثال آن ــ باید جزو کتب درسی حوزه‌ها قرار گیرد و همینگونه روحانیت اسلام و بویژه طلاب جوان باید درباره سید جمال‌الدین و امثال او، مطالعات بسیار داشته باشند. چرا باید افکار اجتماعی ـ اسلامی سیدجمال‌الدین در حوزه‌های علمیه، درسی نباشد و مورد رسیدگی و تأسی قرار نگیرد؟...»

محمدرضا حکیمی



مرکز پخش: کلبهٔ شروق. تهران. خیابان انقلاب. مقابل دانشگاه. شمارهٔ ۱۳۷۸.
چاپ دوم (با اضافات) قیمت: ۲۵۰۰ تومان